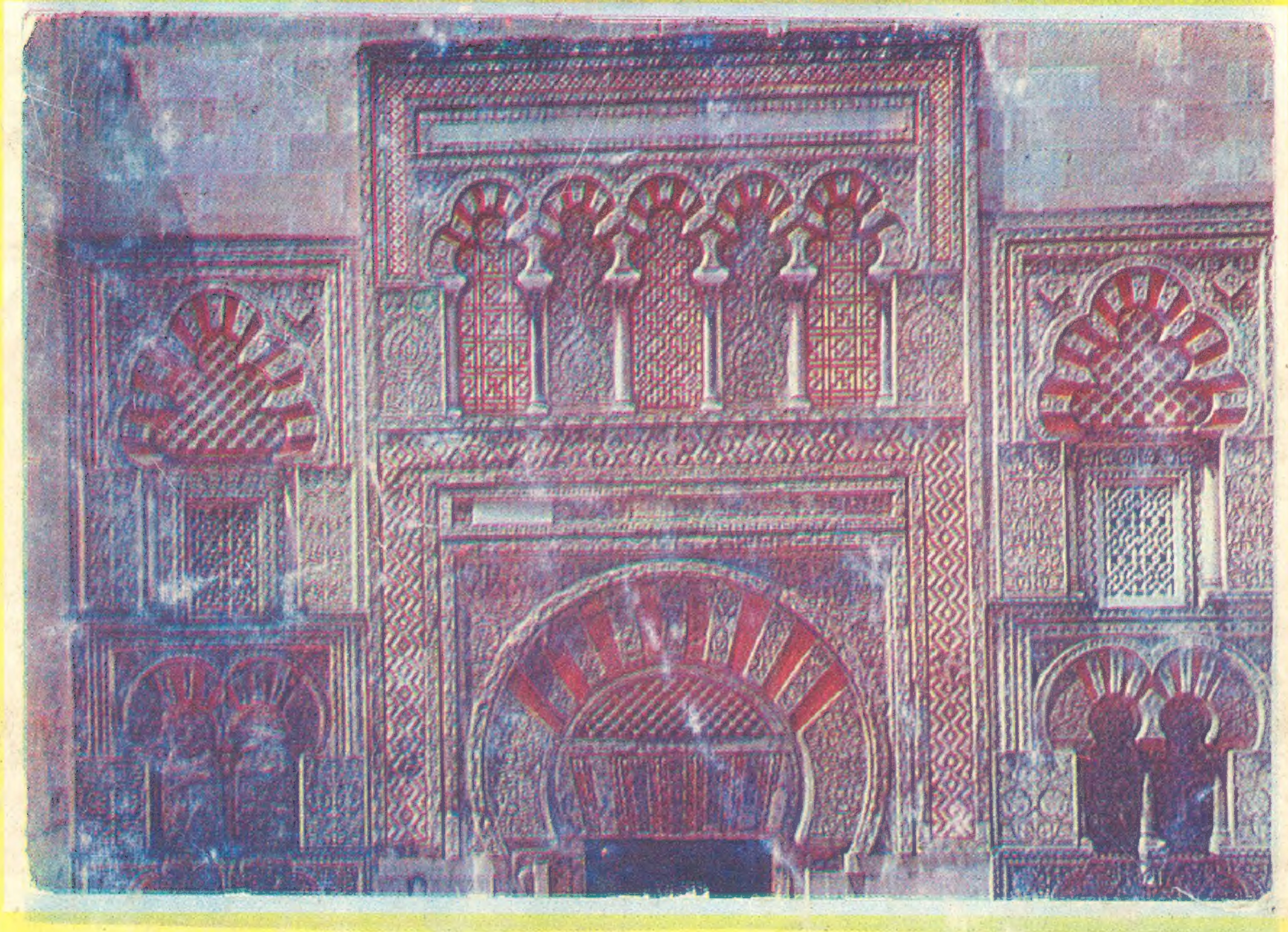


دراسات في تاريخ وفضارة الأندلس



تأليف

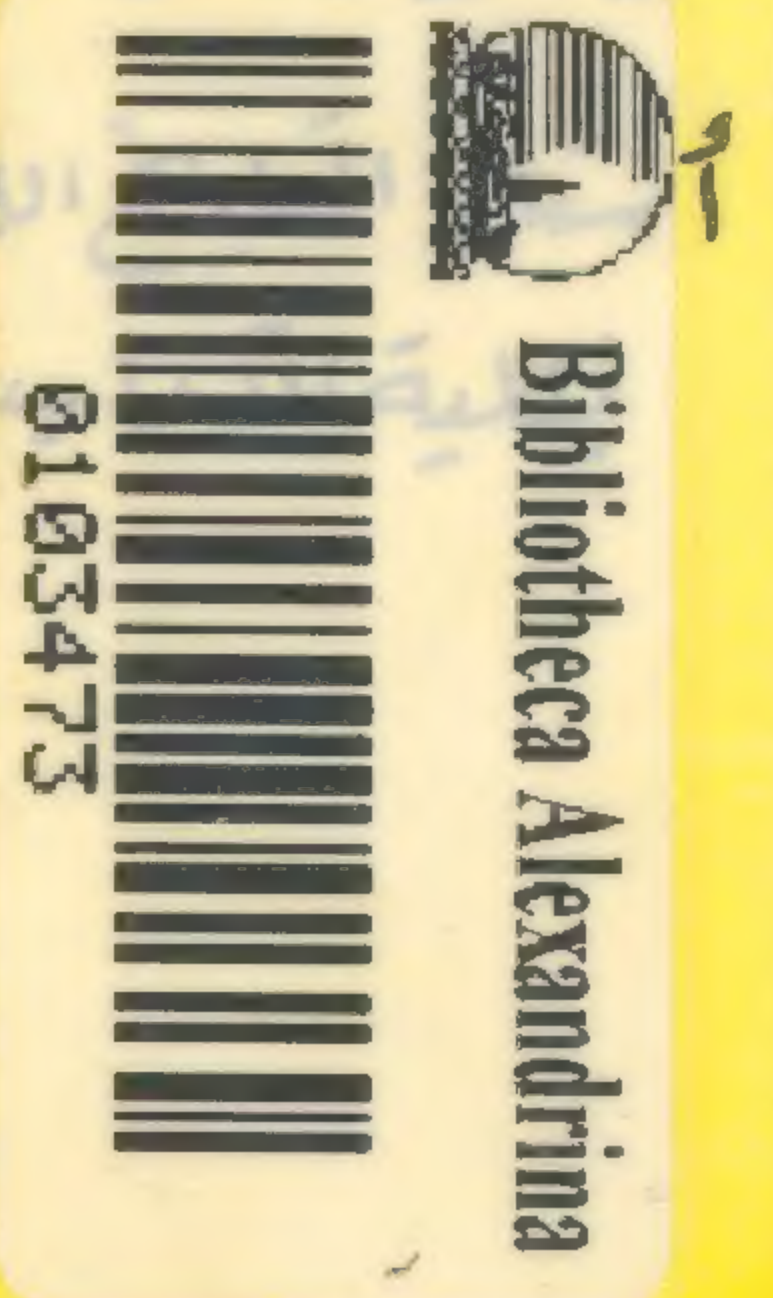
دكتور محمد أحمد أبو الفضل

إسلامي وفضارة الإسلام

جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية
٤. ش. سويتير - الإسكندرية
٤٨٣.١٦٣ ت



دراسات في تاريخ ومضارة الأندلس

تأليف

دكتور محمد أحمد أبو الفضل

أستاذ التاريخ الإسلامى - المضارة الإسلامية
بكلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية
٤. ش. سويتير - الإسكندرية
٤٨٣.١٦٣ ت

حقوق الطبع محفوظة

دار المعرفة الجامعية
للطباعة والنشر والتوزيع

✻ الإدارة : ٤٠ شارع سوتيسر
الازاريطة - الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

✻ الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبي - الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

يسرني أن أقدم كتابي المعنون «دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس» ضمن سلسلة «المكتبة الأندلسية»، ويتضمن هذا الكتاب أحد عشر بحثاً في مجال الدراسات الأندلسية، وهي أبحاث تنوعت موضوعاتها بين الوقائع التاريخية والعلاقات السياسية ونظم الحكم والإدارة والحضارة، وقد سبق لي نشرها في الدوريات والمجلات العلمية المتخصصة داخل مصر وخارجها ما بين عامي ١٩٨١-١٩٩٥.

وهو يشتمل على قسمين، كل منهما يغطي جانباً هاماً من جوانب التاريخ والحضارة الأندلسية. الأول يتناول التاريخ السياسي للأندلس والتاريخ الوسيط الإسلامي والأوروبي، ويشتمل على ستة بحوث:

أولها: مغيث الرومي وبنوه: دورهم السياسي والحضاري في المغرب والأندلس. وفي هذه الدراسة نجد تركيزاً على مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك مؤسس الأسرة، وأفراد أسرته ودورهم في التاريخ الأندلسي، الذي ساعد إلى حد كبير في استقرار ملك الأمويين في الأندلس بحكم مشاركتهم في جميع مناحي الحياة في الأندلس أدبية ومادية.

وثانيهما: حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا ١٣٨ - ٣٦٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٧٦ م وقد بدأت هذه الدراسة بمقدمة سجل فيها كيف تحولت إسبانيا بعد الفتح الإسلامي إلى إقليم إسلامي تابع للخلافة الأموية، وأبرز التيارات الشرقية التي أثرت في البناء الحضاري الأندلسي وكان لها الفضل فيما وصلت إليه قرطبة من تفوق حضاري جعلها في مصاف المدن العالمية العظمى بحيث نافست بغداد ورومة والقسطنطينية في التخطيط والعمران وفي مجال العلوم والآداب، ومن هذا المنطلق ينتقل إلى الإشارة بأن هذا التفوق الحضاري أهلها لأن تكون محط أنظار دول العالم الوسيط يبعثون إليها سفاراتهم طلباً للسلم والمواصلة. ثم يتحدث عن السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، إلى بلاد الفرنجة وإلى ألمانيا وإلى الدولة البيزنطية، ويختتم هذه الدراسة بسفارة أندلسية إلى بلاد النورمان، وما أثير حول هذه السفارة من آراء واتجاهات مختلفة.

وثالثهما: قضاء ثوار في الأندلس، وتتضمن هذه الدراسة التعريف بخطة القضاء في الأندلس، واعتماد القضاة في أحكامهم على مذهب الإمام الأوزاعي

الشامى الى أن انتشر المذهب المالكي فى عهد هشام الرضا بحيث أصبح المذهب
الرسمى للبلاد، ومدى النفوذ الذى أصابه فقهاء هذا المذهب فى عهد هذا الامير،
لاسيما فى عهد الامير عبد الرحمن الاوسط، ثم يتحدث عن أهمية منصب
قاضى الجماعة فى قرطبة، ثم يعرض لثورات ثلاث قام بها ثلاثة من القضاة فى
الاندلس، أولها، ثورة القاضى ابن جحاف فى بلنسية، وثانيها ثورة القاضى محمد
ابن عباد فى اشبيلية، وثالثها ثورة القاضى حمدين بن محمد بن حمدين فى
قرطبة. وتخلص الدراسة الى أن هناك سمات مشتركة بين الثورات الثلاث أهمها
الشعور بالهوية والانتماء الى الاندلس الذى جمع بين من شاركوا فيها على الرغم
من تفرق أماكنها.

ورابعهما، أضواء على العلاقات الحفصية الأروغونية ٦٢٨ - ٦٨٤ هـ /
١٢٣٠ - ١٢٨٥ م، استهل هذا البحث بدراسة تمهيدية عن أصل بنى حفص
فى افريقية، ثم عرض لتطور العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ومملكة أروغون
فى فترة تعقدت فيها الحوادث السياسية وتشابكت فى المغرب والاندلس مع حوادث
وقعت فى صقلية وجزر البليار وقطالونية. فعرض أولا لتطور العلاقات السياسية بين
الدولة الحفصية ومملكة أروغون فيما بين عامى ٦٢٨ - ٦٤٨ هـ / ١٢٣٠ -
١٢٥٠ م، ثم للعلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتى ٦٤٨ - ٦٧٥ هـ /
١٢٥٠ - ١٢٧٦ م، ثم ختم هذه الدراسة بالعلاقات السياسية بين الدولتين فيما
بين سنتى ٦٧٥ - ٦٨٤ هـ / ١٢٧٦ - ١٢٨٥ م.

وخامسهما : غزوة البيازة والقطلان لجزيرتى يابسة وميورقة الاسلاميتين
٥٠٨ - ٥٠٩ هـ / ١١١٤ - ١١١٦ م. خصص هذا البحث لدراسة تفاصيل
الحملة الصليبية البيزية القطلانية الفاشلة لغزو جزيرتى يابسة وميورقة كبرى جزر
البليار فى سنة ٥٠٨ هـ / ٥٠٩ هـ، فعرض للأوضاع السياسية فى الجزائر الشرقية
قبيل وصول الحملة، ووصول الحملة وصمود المسلمين فى جزيرتى يابسة
وميورقة، ثم حصار النصارى لمدينة بلمة الذى استمر نحو أربعة أشهر عانى خلالها
أهل ميورقة من نقص المؤن والأقوات وانتهى بسقوط المدينة الذى اقترن بمذابح
شنيعة سفك فيها النصارى دماء أهل ميورقة رجالا ونساء وأطفالا، ولم يصل
أسطول المراتبين لانقاذ ميورقة إلا بعد مغادرة الحملة المشتركة الجزيرة فى ذى
العقدة سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م.

وسادسهما، الحملة النصرانية على مدينة المرية الاسلامية وسيادة القشتاليين عليها ٥٤٢-٥٥٢هـ / ١١٤٧ - ١١٥٧م. اختص هذا البحث بدراسة الغزوة النصرانية المشتركة التي شاركت فيها جنوة وقطالونية وقشتالة وتعرضت لها المرية في سنة ٥٤٢هـ وانتهت باستيلاء القوات القشتالية عليها واحتلالهم لها نحو عشر سنوات، إلى أن استردها الموحدون سنة ٥٥٢هـ، وهو حدث هام تعرضت له المرية في فترة حاسمة في تاريخ الاندلس شهدت نهاية عصر دولة المرابطين وبداية خضوع الاندلس لدولة الموحدين.

أما القسم الثاني من هذه الدراسات، فيشتمل على خمسة بحوث عن الحضارة الاندلسية، أولاهما، التأثيرات الشامية في حضارة الاندلس على عهد الامير عبد الرحمن الداخل ١٣٨ - ١٧٢هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨م. خصص هذا البحث لابرار التأثيرات الشامية التي تدفقت على الاندلس في عهده وأثرت تأثيرا مباشرا في بناء الاندلس الحضاري. وأول مظهر من هذه التأثيرات في فن العمارة يتمثل في تخطيط المسجد الجامع بقرطبة ببلاطاته العمودية على جدار القبلة وتناوب اللونين الأحمر والأصفر في سنجات العقود وهو تقليد شامي ظهر في جامع حماه وفي قصير الحلابات، وكذلك يتمثل التقليد الشامي في قصر الرصافة الذي أنشأه الامير عبد الرحمن الداخل شمالي قرطبة على غرار رصافة جدة هشام في أرض الشام الأثيرة لدية، وكذلك قصر الدمشق الذي سمي باسم حاضرة بلاد الشام. ومن مظاهر التأثيرات الشامية أيضا في مجال الزراعة غرس بعض النوى الشامية كالنخل وشجر الرمان. وفي مجال الآداب كان الشعر الاندلسي لاسيما الشعر الوصفي للطبيعة يحاكي ما نظمه شعراء الشام بحيث شبه عدد من شعراء الاندلس المشهورين في وصف الطبيعة بشعراء الشام. أما في مجال الحياة الدينية، فيذكر أن أهل الاندلس في عهد عبد الرحمن الداخل كانوا يأخذون بأحكام الامام الازاعي الشامي.

وثانيهما، قضاء الجماعة في عصر الامارة الاموية في الاندلس ١٣٨ - ٣٠٠هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨م، والبحث دراسة عن منصب قضائي هام من المناصب العليا في الاندلس وهو قضاء الجماعة بقرطبة في عصر الامارة الاموية في الاندلس، وينقسم قسمين : الاول ثبت بأسماء من تولى قضاء الجماعة بقرطبة من فقهاء الأندلس تم توزيعهم وفقا لعهود الأمراء مع مراعاة الترتيب الزمني لكل قاض، وزود كل اسم باللقب والكنية وتاريخ الولاية وتاريخ العزل أو الوفاة ان تيسر ذلك مع ذكر

المصادر التي استند عليها في دراسة حياة كل منهم مما ساعد على تقصى أسماء القضاة الذين تكررت ولايتهم لقضاء الجماعة بقرطبة وسنى ولايتهم لهذه الخطة، والتوصل الى معرفة مدى القرابة التي تربط في بعض الاحيان بينهم. أما القسم الثانى، فقد اهتم باختصاصات قضاء الجماعة فى قرطبة، والشروط اللازم توفرها فيمن يتولى هذا المنصب، ومدى استقلال القضاة فى أحكامهم، ومجلس الحكم، والمذهب الذى يفصل بمقتضى أحكامه فى مختلف القضايا، وحياة القاضى الاجتماعية من زى وطعام ومظهر عام، واختتمت الدراسة بذكر الاسباب التى تؤدى الى انتهاء خدماتهم وعزلهم عن ولاية قضاء الجماعة.

وثالثهما: أبو عبيد البكرى والبكريون فى ولبة وشلطيش، فى هذا البحث نجد تركيزا على سيرة هذا العالم الجغرافى ابو عبيد البكرى، فلقد تتبع البحث الاصول التى ينتمى اليها البكرى، ويعرض لشخصية البكرى الجغرافى والأديب، والدور العلمى الرائد الذى لعبه فى مجال العلوم الأدبية وفى علم الجغرافية على وجه الخصوص ويربطه بشخصيات بكرية جليلة أسهمت مساهمة فعالة فى صنع حضارة الاندلس فى أواخر عصر الخلافة الاموية حتى بداية عصر ملوك الطوائف.

ورابعهما: أضواء على النشاط العلمى فى الاندلس، اختص البحث بالقاء أضواء على النشاط العلمى فى الاندلس، وقصر دراسته على بعض فروع العلم، الطب والصيدلة والفلك، وذلك باستعراض تاريخ بعض العلماء الاندلسيين الذين نبغوا منذ عصر الازدهار وحتى نهاية العصر الاسلامى فى الاندلس، وأظهرت الدراسة إلى أن التأثير المشرقى فى الاندلس فى مجال الطب والصيدلة وبعض العلوم لا ينكره أحد حتى ان ازدهار علم الطب عند الاندلسيين إنما يرجع الى ما نقله الاطباء النصارى الى الاندلس من المشرق من كتب سواء بلغتها الاصلية أو بترجمات هذه الكتب أو رحلات الاندلسيين الى المشرق فى طلب العلم، وأن جميع الاطباء الذى برعوا فى الاندلس كانوا أيضا صيادلة كتبوا فى الاعشاب والادوية. أما علم الفلك فقد انتقل الى الاندلس أيضا فى عصر الخلافة الاموية أى منذ القرن الرابع الهجرى فانشئت مدارس لدراسة الفلك والرياضة وكتبت الشروح على كتب الفلك، ولما تكالبت المحن على الاندلس انتقل بعض علماء هذا العلم الى شرق الاندلس وطليلة وغرناطة، فازدهر هذا العلم ليواكب مظاهر الحضارة الاندلسية فى ذلك الوقت، وذاعت شهرة علماء الفلك هناك فى كافة الانحاء.

وخامسهما: ملاحظات حول ألبسة المدجنين في أسبانيا. استهل البحث بالتعريف بالمدجنين، وعرض لأهم البحوث التي صدرت عن الزي الاسلامى فى المغرب والاندلس فى العصور المختلفة وأهمية دراسة الزي فى المجتمع الاسلامى، وتطوره فى الاندلس منذ القرن الثالث الهجرى والتأثيرات المشرقية التى تعرض لها، ثم يعرض لتقدم صناعة النسيج فى عصر بنى نصر، ثم يلقي الضوء على ملابس المدجنين التى لم يطرأ عليها تغيير جوهري فى القرن السابع الهجرى، مع وصف عدد من الألبسة المدجنة كما وردت فى بعض المنمنمات بمخطوطة كتاب الشطرنج El Libro de Ajedrez ومنها الجبة البيضاء والبرتقالية والعباءة الخضراء والطيبالس البيضاء، ويعرض للمبوسات عامة المدجنين ومن بينها الجباب الصوفية القصيرة فى القرى، والثياب المتأثرة بالأزياء المسيحية ومنها الملوطة التى تشبه الصدرية بدون أكمام، والجوارب الزاهية الألوان والنعال الجلدية المبطنة باللباد والامداس والاقراق من خلال الصور الواردة فى مخطوطة كتاب الشطرنج أو من خلال كتابات الرحالة الاجانب، ثم ينتقل الى وصف ملابس النساء من جيب ومعاطف وأقمصة وسراويل وردية وخمر رقيقة ومقنعات على الرأس، وتختتم الدراسة بالحديث عن الحلى وأدوات الزينة عند نساء المدجنين كالعقود والدمالج والخواتم واستخدام الاصباغ فى الزينة.

والله أسأل السداد والتوفيق، انه نعم الموفق، ونعم النصير،

الاسكندرية فى مايو ١٩٩٥ محمد أحمد أبو الفضل

القسم الأول
دراسات في التاريخ السياسي للاندلس

البحث الأول

مغيث الرومي وبنوه :

دورهم السياسي والحضاري في المغرب والأندلس

مغيث الرومي وبنوه : دورهم السياسي والحضاري في المغرب والأندلس

تتميز الفترة الأولى من تاريخ الأندلس بوجود عدد من البيوتات من موالى بني أمية ، التي أخلص بعضها للأمويين إخلاصاً عميقاً ، وشاركوا الأمويين جانباً كبيراً من المسئولية .. ومن أكبر هذه البيوتات بنو عبيدة وبنو حدير وبنو شهيد وبنو عبد الروث وبنو فطيس وبنو مغيث .

١ - مغيث الرومي مؤسس الأسرة :

أما بنو مغيث - موضوع بحثنا - فهم أبناء مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الإيهم الغساني ، مولى الوليد بن عبد الملك وهو المعروف بمغيث الرومي وأن كان غير رومي الأصل في الحقيقة (١) ، فهو عربي من بني الحارث الأكبر بطن من بطون الازد القحطانية (٢) .. ومنهم كان ملوك الشام قبل الاسلام وظل الملك فيهم حتى آخر ملوكهم جبلة ابن الإيهم الذي أسلم في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم

(١) المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢ .
(٢) أنظر : ابن حزم (محمد علي بن أحمد بن سعيد) : جبهة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٣٧٢ ، القلقشندي (أبي العباس أحمد) : نهاية الأرب ، تحقيق ابراهيم الاياري ، الطبعة الثانية دار الكتب الاسلامية ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، ص ٤٦ .

ويمصل البلاذرى سبب هذا الارتداد . فيروى أن هرقل امبراطور
بزنطة حشد قوات كبيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية
قارب عددها مائتا ألف جندي وولى عليهم رجلا من خاصته . وبعث على
مقدمته جبلة بن الايهم الغساني في مستعربة الشام من لحم وجذام وغيرهم ،
وعزم على محاربة المسلمين . ولما بدأ الاشتباك يوم اليرموك انحاز جبلة
ابن الايهم إلى الأنصار وقال لهم «انتم أخوتنا وبنو أئبنا وأظهر الاسلام» (٤)
غير أنه ما لبث أن وقعت حادثة غيرت من نفس جبلة وأدت إلى ارتداده إذ
يذكر البلاذرى أنه . لما تدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشام سنة ١٧ هـ
لمح جبلة رجلا من مزينة فلطم عينه ، فأمر عمر الرجل بالاقتصاص من جبلة
فقال جبلة «أو عينه مثل عيني والله لا أقيم ببلد على به سلطان فدخل بلاد
الروم مرتدًا» (٥) ، يؤيد ذلك ما رواه المسعودي أن جبلة بن الايهم «أسلم
وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة» (٦) وفي رواية أخرى
للبلادري أن جبلة بن الايهم أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته «فعرض
عليه الإسلام وأداء الصدقة ، فأبى ذلك ، وقال : أقيم على ديني وأؤدي
الصدقة ، فقال عمر : ان أقمت على دينك فأد الجزية ، فأنف منها فقال
عمر : ما عندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام ، واما أداء الجزية
واما الذهاب إلى حيث شئت ، فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً ، فلما بلغ
ذلك عمر ندم : وعاتبه عبادة بن الصامت ، فقال : لو قبلت منه الصدقة

(٣) القلقشندي : المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، وأنظر أيضاً ، ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله
ابن مسلم) : كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ص ٢١٧ .

(٤) البلاذري (أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان تحقيق دي غوية ،
بريل ، ١٨٦٦ ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٣٦ .

(٦) المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني
القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٩ .

ثم تألفته لأسلم» (٧) .

على أية حال ، رحل جبلة بن الأيهم وقومه إلى بلاد الروم وأقاموا بها وانحازوا إليهم في صراعهم الطويل مع الدولة العربية وعلى الأخص في العصر الأموي الذي جرت العادة فيه بتوجيه حملتين على بلاد الروم كل عام حملة كبرى في الصيف (صائفة) وحملة ثانية على نطاق أصغر في غضون الشتاء (شائية) واستمرت حملات الصوائف التي وجهها الأمويون إلى منطقة الثغور طوال العصر الأموي ، ولا نستبعد أن يكون مغيث بن الحارث بن الحويرث ابن جبلة ابن الأيهم وهو أحد أحفاد جبلة قد سبي في إحدى هذه المعارك ربما في معركة سباسبول سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) بالذات التي انتصر فيها الأمويون بقيادة محمد بن مروان على البيزنطيين (٨) ، يؤيد ذلك ما أورده المقرئ من أن مغيثاً «سبي من الروم بالمشرق وهو صغير» (٩) ، فأدبه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد في دمشق (١٠) ، ولذلك عرف فيما بعد بمغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك .

ولا شك أن مغيثاً كان لديه الملم بالغة اللاتينية بحكم مولده وتربيته في الأراضي البيزنطية ، كما أتقن العربية أيضاً بحكم إقامته في الشام ، ويذكر الحجاري أنه «تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية

(٧) البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٨) أنظر ،

Finally (G) : History of Greece, I, Oxford, 1877, P. 389,

وأيضاً : وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٥٠ ، ص

١٠١ .

(٩) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٢ .

(١٠) نفس المصدر والمجلد والصفحة .

وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتبه ، وتدريب علي الركوب ، وأخذ نفسه بالأقدام في مضايق الحروب ، حتى تخرج في ذلك تخرجاً أهله للتقدم على الجيش الذي فتح قرطبة ، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيد « (١١) فلا عجب أن يتمسك به موسى بن نصير والى المغرب ، ويضمه إلى قواده في المغرب ، بل ان الحملة التي أعدها موسى بن نصير لفتح الاندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) تحت قيادة طارق بن زياد تألفت من سبعة آلاف بربري منهم ما يقرب من ثلاثمائة من العرب وموالي الروانين مثل عبد الملك ابن أبي عامر المعافري وعلقمة اللخمي ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك (١٢) وهذا يوضح أن مغيثاً اشترك في الحملة الأولى لافتتاح الاندلس وليس كما يذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن طالعة موسى بن نصير عندما دخل الاندلس لاستكمال الفتح عام ٩٣ هـ (٧١٢) (١٣) .

وهكذا شارك مغيث الرومي في حملة طارق بن زياد الذي حقق نصراً

(١١) في ، المقرئ : نفس المصدر والمجلد ، ص ١٢ ، ص ١٣ ، ينص المقرئ على أن مغيثاً كان لديه المام باللغة اللاتينية ، على الرغم مما هو معروف أن اللغة اليونانية أصبحت منذ عهد الامبراطور هرقل ٦١٠ م هي اللغة الرسمية للامبراطورية البيزنطية .

(١٢) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم اليباري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١٧ ، النص (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) : بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧ ، ص ٤٧٥ ، ترجمة رقم ١٣٨٨ ، والذي يذكر أن مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك حضر فتح الأندلس مع طارق وكان على خياله ، وأنظر أيضاً : الحميدي (أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي) : جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ٨٣٤ ، ص ٣٥٥ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦) ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٦٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٧٢ .

(١٣) أنظر ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ١ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥٠ وما بعدها .

كبيراً على القوط في معركة كورة شدونة (٢٨ رمضان - ٥ شوال سنة ٩٢ هـ - ١٩ - ٢٦ يونيو ١١١١ م) (١٤). ورأى طارق بن زياد ان يواصل رحفه نحو طليطلة عاصمة القوط الغربيين للاستيلاء عليها قبل أن تتجمع فلول القوط مرة أخرى ويستفحل أمرهم مخالفاً بذلك أوامر قائده الأعلى موسى بن نصير الذي أمره - بعد أن علم بأخبار الفتح وما حازه المسلمون من الغنائم - أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به (١٥)، فزحف طارق إلى مدينة شدونة وحاصرها حصاراً شديداً ثم فتحها عنوة، وغنم منها غنائم هائلة، ومضى بعد ذلك إلى حصن المدور (Almodovar) ثم عطف إلى قرمونة (Carmona)، فربع بنسبت إليه بعد ذلك فاشبيلية (Sevilla) فصالحه أهلها على الجزية، ثم رجع بقواته إلى استجة (Ecija) وأخذها عنوة (١٦).

ويبدو أن جيش طارق قد أخذ يزداد عدة بمن كان ينضم إليه من أهل العدو المغربية، الأمر الذي جعل يليان صاحب سبته ينصح طارقاً بأن يفرق بعض قواته في بعوث جانبية، «فقال له: قد فتحت الأندلس، فخذ من أصحابي أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة» (١٧).

(١٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٢ وما بعدها.

(١٥) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، المجلد الرابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٥٤.

(١٦) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٩، المقرئ: المصدر السابق، المجلد الأول ص ٢٦٠، وأنظر أيضاً، سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٨٢، Simonet (Francisco Javier): Historia de los mozarabes de España, Madrid, 1904, P.27; Saavedra (Eduardo): Estudio sobre la invasion de los Arabes en España, Madrid, 1892, P. 81.

(١٧) ابن عذارى المراكشي: كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢ تحقيق كولان وليني بروفنسال، دار الثقافة، بيروت لبنان، ص ٩، وأنظر أيضاً: Saavedra: Ibid, P. 77.

ففعل طارق بنصيحة يليان ففرق جيوشه من استجه . فبعث مغيثا الرومي
مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة في سبعماية فارس ، وبعث جيشاً آخر
إلى مالقه (Malaga) وأمر عليه قائداً وجعل معه دليلاً من رجال يليان ،
كما بعث جيشاً ثالثاً إلى البيرة (Elvira) ، وسار طارق بمعظم جيشه إلى
كورة جيان (١٨) في طريقه إلى طليطلة .

سار مغيث الرومي على رأس فرقة من الفرسان تنفيذاً لتعليمات طارق
ابن زياد لا يزيد عددها عن سبعماية فارس من استجه متجهاً نحو قرطبة
وهي «من مدنها العظام» (١٩) ، ويبدو أن الغرض من انفاذ هذه الحملة
علاوة على فتح قرطبة كان تأمين طريق الجيش الاسلامي الرئيسي المتجه
إلى العاصمة طليطلة بقيادة طارق بن زياد خوفاً من مفاجأة العدو له أثناء
زحفه شمالاً .

على أية حال وصل مغيث بقواته حتى اقرب من الضفة اليسرى لنهر
الوادي الكبير المقابلة لقرطبة وكن بقواته في غيضة أرز شائعة تقع بين
قريتي شقنده (Secunda) ، وتعرف اليوم (Campo de la verdad)

(١٨) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ ، ابن عذارى :
نفس المصدر والجزء ، صفحات ٩ ، ١٠ ، ١١ وأنظر أيضاً :

A Guado Beleye (Pedro): Manual de Historia de Espana, tomo
I, Sexta edición, Espasa calpe, 1947, P. 398.

(١٩) المقرئ : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ ، وقارن ماورد في المقرئ
أيضاً (نفس المجلد ، ص ٢٦١) من أن طارق هو الذي سار لقرطبة بنفسه لا مغيث ، لكن هذه
الرواية لا تستند على أي أساس من الصحة لأن كتب الفتح الموثوق فيها تنص على أن مغيثا الرومي
هو فاتح قرطبة ، راجع على سبيل المثال ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٠ ، أخبار مجموعة
هو فاتح قرطبة ، راجع على سبيل المثال ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٠ ، أخبار مجموعة
في فتح الأندلس ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن بلاط قرطبة الروماني القديم عرف بعد الفتح باسم
بلاط مغيث نسبة إليه وهو ما يؤكد قيام مغيث بمهمة فتحها ، راجع أيضاً ، السيد عبد العزيز
سالم : قرطبة حاضره الخلافة في الأندلس ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١
ص ٢٢ ، ١٨ .

وطرسيل (Tercios) (٢٠) . وظل مغيث متربصاً بها فترة متجنباً
فرصة العبور إلى الضفة الأخرى لاسيما وأن القنطرة التي تصل الشاطئين
كانت مهدامة في ذلك الحين (٢١) .

و كانت قرطبة في ذلك الوقت مدينة حصينة يدور حولها سور من الحجر
الضخم وتقوم على حراسها حامية قرطية . وكانت المدينة تتألف من قسمين
يفصل بينهما سور حاجز أقامة الرومان قديماً يبدأ جنوباً من La Cruz del Rastro
ليصل شمالاً حتى La puerta del Rincon ، وكان الغرض من إقامة
السور الحاجز هو فصل الأهالي الذين يسكنون القسم الشرقي من المدينة عن
القسم الغربي الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية مثل قصر الحاكم وثكنات
الجند ، واستمر الوضع على ما هو عليه أيام القوط ، وهذا القسم الغربي
هو ما عرف في العصر الاسلامي بالمدينة (٢٢) .

و كان على مغيث الرومي أن يواجه هذا الموقف وأن يتغلب على حصانة
قرطبة لاسيما وقد أشارت المصادر العربية إلى القنطرة الواقعة على نهر الوادي
الكبير وكيف خربها القوط لزيادة حصانة المدينة ، فيذكر ابن عذارى
أن المسلمين ، « إذ فتحوا قرطبة ، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها ، على
حنايا وطاق الاركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مدود النهر على
مر الأزمان » (٢٣) ، كما يذكر صاحب أخبار مجموعة « وكان لها جسر
ينحدر عليه نهرها ، ووصفه بنحمله وامتناعه عن الخوض الشتاء عامة » (٢٤) ،

(٢٠) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩ ، المقرئ :
نفس المصدر والجزء ، ص ٢٦١ ،
(٢١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦ .
(٢٢) أنظر :

Saavedra : OP. Cit., P. 81.

السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٨ ، ص ١٦٣ .

(٢٣) البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ٣٦ .

(٢٤) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ .

أما ابن حيان فيذكر «وقيل: لأنه قد كانت في هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة أثرت فيها الأزمان بمكايدة المدود حتى سقطت حناياها ، ومحييت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها» (٢٥) ويستفاد من النصوص السابقة أنه كانت هناك بالفعل قنطرة تصل ضفتي نهر الوادي الكبير ، وأن حالتها كانت سيئة عند الفتح الاسلامي ، ولا نستبعد أن القوط قد قاموا بهدم القنطرة عندما علموا بزحف المسلمين إلى استجه ، ليزيدوا موقعهم حصانة ومنعة .

وازاء حصانة قرطبة وتخریب قنطرتها ووجود حاميتها القوطية ، أثر مغيث الرومي التريث متربصاً في غيضة أرز — كما سبق القول — وأرسل من فوره نفرأ من ادلائه للاستطلاع ، فتمكنوا من أسر راعي غنم من أهل قرطبة فأمسكوا به واقتادوه هو وغنمه إلى مغيث ، فسأله عن قرطبة وحاميتها فأجابته بأنه قد رحل عنها عظماء أهلها ، ثم سأله مغيث عن حصانة سورها فأخبره الراعي انه حصين الا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة ، وهو الباب المعروف بباب القنطرة ، ووصف له الثغرة (٢٦) .

أقام مغيث الرومي في مكانه طوال اليوم إلى أن غابت الشمس ، فتحرك بقواته ليعبر نهر الوادي الكبير ، وقد شاركت الظواهر الطبيعية في نجاح عبورهم دون أن تفتن اليهم حامية المدينة ، إذ هيأت لهم العناية الالهية أسباب الفتح بأن أرسلت السماء برذاذ أخفى حوافر الخيل ، فوصلوا إلى الضفة اليمنى

(٢٥) في ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٨٠ .

(٢٦) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، وسمى بباب الصورة بسبب تمثال قديم يمثل العذراء صاحبة قرطبة ، وكان قائماً على هذا الباب ، وقد ظلت الصورة التي على باب القنطرة قائمة في موضعها إلى أن غرّبها ابن حفصون برشحة في عهد الأمير عبد الله بن محمد ، أنظر أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ١٣٣ ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٠ ، ص ٦٧٢

من النهر سالمين ، وتجمعوا هناك في الفضاء الواقع بين النهر والسور بالقرب من باب القنطرة الذي كان اتساعه لا يزيد عن ثلاثين ذراعاً (٢٧) . وقد صادف ان حراس باب القنطرة أغفلوا الحراسة تلك الليلة لشدة البرد مع تساقط الرذاذ (٢٨) ، فتحرك مغيث وقواته بحرية بحثاً عن الثغرة التي وصفها لهم راعي الغنم ، ولما لم يعثروا عليها ، استدعوه ليدلهم على مكانها ، فدلهم عليها ، فاذا بها غير سهلة الارتقاء (٢٩) ، فعزموا على أن يجعلوا منها منفذاً لهجومهم — خصوصاً وأن في أسفلها شجرة تين — وتسلق رجل منهم شجرة تين إذ كان أكثرهم نشاطاً وأشدهم حمية ، ثم وثب منها إلى السور ، حتى إذا استقر به ، خلع عمامته وأرسل بطرفها إلى بعض رفاقه ، ثم جذبهم إليه واحداً واحداً والحامية في غفلة عما يجري وراء السور طمعاً في طلب الدفء ، وركب مغيث وبقية قواته ووقفوا ازاء باب القنطرة وتأهب لدخول المدينة بعد أن نزل رجاله من السور إلى داخل المدينة وداهموا حراس الباب المذكور وقتلوا نفرًا منهم ، وكسروا الاقفال وفتحوا الباب فدخل مغيث بمن معه واستولوا على المدينة عنوة (٣٠) .

(٢٧) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ١٣٣ : المقرئ ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ .
(٢٨) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ ، المقرئ : نفس المصدر والمجلد والصفحة :
(٢٩) المقرئ : نفس المصدر والمجلد ، ص ٣٦٠ ، وراجع أيضاً ، أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

(٣٠) مجموعة ، ص ٢٠ ، ص ٢١ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ص ١٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، وأنظر أيضاً : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨٠ وما بعدها ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٢ ، ص ٢٢ وما بعدها ، ولنفس المؤلف : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٨٤ وما بعدها ، وهناك من المؤرخين من يرى بأن مغيث الرومي وأصحابه اقتحموا المدينة من سورها الغربي الذي كان مهدماً ، في ذلك الحين ، أنظر :

Ocaná Jimenez : La basílica de San Vicente Y la gran mezquita de Córdoba, Al-Andalus, 1942, PP. 347 — 363.

وعلى أثر دخول مغيث وقواته المدينة حدثت بها خسجة أفاقت على أثرها الحامية القوطية التي لم يكن عدها يزيد على أربعمائة فارس في قول (٣١) والخمسمائة في قول آخر (٣٢) ، والتي كانت مقيمة مع الحاكم في القسم الغربي من المدينة ، وكان الحاكم مقبلاً في قصره المقام في الضاحية التي عرفت أيام المسلمين بربض الوراقين بغرب المدينة ، فما كاد يبلغه نبأ دخول المسلمين قرطبة حتى أسرع إلى حاميته ، ولكن لم يمهل العرب إذ فاجأوه ففر بجنده «من باب المدينة الغربي الذي يقال له باب اشبيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة وهي شنت أجليح فدخلها» (٣٣)

وهكذا استطاع مغيث أن يستولى على مدينة قرطبة عنوة بعد أن فر عنها حاكمها وحاميتها وتحصنوا داخل كنيسة سانت أجليح الواقعة خارج باب اشبيلية المعروف أيام العرب باسم باب العطارين (٣٤) ، فتبعهم مغيث بقواته محاصراً لهم ، وكتب من فوره إلى طارق بن زياد يبشره بالفتح (٣٥) وأقام مغيث على محاصرتهم في الكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون

= وأنظر أيضاً المناقشة الرائعة التي عقدها الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم في هذا الموضوع والتي خرج منها برأى يقول «فأشك في دخول المسلمين مدينة قرطبة من جهة السور الغربي ، ولا استبعد دخولهم من الباب الجنوبي المواجه لربض شقته» ، (راجع : قرطبة ١ ص ١٠ صفحات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) .

(٣١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، وراجع أيضاً : ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ص ٢٦١ .

(٣٢) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٣٣) أخبار مجموعة ص ٢١ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ ، وكنيسة شنت أجليح هي (San Acisclo) وأنظر أيضاً : حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨١ ، سالم : قرطبة ، ص ١٠ ص ٢٤ Saavedra : Op. Cit., P. 83;

(٣٤) أنظر :

Saavedra : Ibid, P. 83.

(٣٥) أخبار مجموعة ، ص ٢١ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ص ١٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ .

قطع الماء عنهم ذلك الماء الذي كان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ولم يفتن اليه المسلمون حتى اكتشفه عبد أسود «ذو بأس ونجدة» يدعى رباح ممن كانوا ضمن قوة مغيث (٣٦) ، وفي خلال فترة الحصار حدث أن خرج حاكم المدينة القوطي هارباً وحده ، وهو ينوي التحصن في جبل قرطبة ليلحق به أصحابه (٣٧) ، أو «رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك» (٣٨) فتسمى خبر فراره إلى مغيث ، فانطلق مغيث في أثره ، وكان الحاكم قد جد في سره حتى وصل إلى ضاحية قطلبره (Cutelobera) ، وكاد ينجو لولا أن عثر به جواده فأدركه مغيث وأسره وحبسه عنده ليقدم به على الخليفة الوليد بن عبد الملك « ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره لأن منهم من عقد لنفسه اماناً ، ومنهم من هرب إلى أقاصي البلاد مثل خليأقية وغيرها » (٣٩) ورجع به مغيث إلى الكنيسة في الوقت الذي صمد فيه المحاصرون ولم يستسلموا فدعاهم مغيث إلى الاسلام أو الجزية الا أنهم رفضوا ، ويذكر المقرئ نقلاً عن الرازي أن مغيثاً أشعل النار في المحاصرين حتى احرقهم فسميت كنيسة الحرقى « والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء » (٤٠) ، بينما يذكر ابن عذارى أن مغيثاً استرلهم أسراً ، وضرب أعناقهم صبراً ، وسميت كنيسة الأسرى (٤١) . وبعد أن تخلص مغيث من الحامية القوطية ، رجع إلى المدينة وأقام بقصر قرطبة أو البلاط الذي اختطه مغيث الرومي لنفسه ونسب اليه (٤٢) ، وأقام جنده في المدينة

(٣٦) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ .

(٣٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ١٠ ، ٨٤ ، ٨٥ : Saavedra: Op.Cit., PP.

(٣٨) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٣ .

(٣٩) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ١٠ ، وأنظر أيضاً :

حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٨٢ ، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة ، ص ١٠ ، ص ٢٨ .

(٤٠) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٦٣ .

(٤١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١٠ .

ثم عمد إلى يهود المدينة فجعلهم بعض حرسها «استنامة اليهم» . دون النصارى للعداوة بينهم» (٤٣)

والمعروف أن موسى بن نصير نزل إلى الأندلس في جيش كبير وانتقى بطارق بن زياد وأساء معاملته ، ويذكر ابن عبد الحكم أن موسى بن نصير أخذ طارقاً «فشده وثاقاً وحبسه وهم بقتله» (٤٤) . وكان مغيث الروم غلاماً للوليد بن عبد الملك فبعث إليه طارق وقال له : «ان رفعت أمرى إلى الوليد ، وأن فتح الأندلس كان على يدي ، وأن موسى حبسنى يريد قتلى أعطيتك مائة عبد ، وعاهده على ذلك» (٤٥) . ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن طارقاً استدعى مغيث الروم من قرطبة ، فسار إليه بطليطلة بعد أن عاهد طارقاً على ما أراد ، والتقى مغيث بموسى بن نصير وحدثه في أمر طارق وحثه على ألا يسىء إلى طارق قائلاً له : «لا تعجل على طارق ولك أعداء ، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره وأخاف عليك وجده» (٤٦)

وكان مغيث الروم أحد رجلين أرسلهما موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يعلماه أنباء فتح الأندلس ، وكان الرسول الثانى هو على بن رباح التابعى (٤٧) . وصل الرسولان إلى دمشق وأبلغا أخبار الفتح العظيم للخليفة ، وذكر أنه لما دخل وفد موسى إلى الوليد في دمشق ، قال على بن رباح للخليفة ، «تركت موسى بن نصير في الأندلس ، وقد أظهره

(٤٣) المقرئ : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٤٤) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح أفريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٨٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٨١ ، ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم) : الإمامة والسياسة .

الجزء الثانى ، تحقيق طه محمد الزينى ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٦٢ .

الله ، ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى
إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه فدفع إليه الكتاب
من عند موسى ، فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خر ساجداً» (٤٨) .

ويبدو أن مغيث الرومي كان ناقماً على موسى بن نصير ، فلم يأل جهداً
في نقده وتشويه سمعته ، أما لأنه استاء ان ينسب موسى فضل الفتح كله
كله إلى نفسه مغفلاً جهود طارق بن زياد ومغيث الرومي نفسه في ذلك الفتح
وأما للمعاملة السيئة التي عامل بها طارقاً بن زياد قرب طلبيره ، فضلاً عما
حدث من طلب طارق من مغيث الرومي ابلاغ الخليفة بما حدث له على
يد موسى بن نصير حسب رواية ابن عبد الحكم .

ويبدو كذلك أن الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يقر موسى بن نصير
على المعاملة التي عامل بها طارقاً بن زياد بل بادر بارسال مغيث الرومي
بكتاب إلى الأندلس وحين قرأه موسى بن نصير سارع بإطلاق سراح
طارق ، فوفى طارق لمغيث بما وعده به من قبل ومنحه المائة عبد .

وكان مغيث الرومي قد وصل إلى الأندلس في الوقت الذي كان فيه موسى
ابن نصير يعد العدة للدخول في بلاد جليقية فدفع إليه رسالة الخليفة الذي يأمره
فيها بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد وعدم التوغل فيها ،
والرجوع إلى دمشق «فساءه ذلك وقطع به عن ارادته ، إذ لم يكن في الأندلس
بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية ، فكان شديد الحرص على
اقتحامها» (٤٩) . فلم يكن امام موسى الا أن يلاطف مغيثاً ويسترضيه

(٤٨) ابن قتيبة : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٢ ، وأنظر أيضاً :

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٠٠ .

(٤٩) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٦ .

ويمنيه بمضى في استكمال فتح بلاد الأندلس فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي يقوم بفتحها و« أن يكون شريكه في الأجر والغنيمة » (٥٠) فضلاً عن منحه الموضع الذي نسب إليه بعدئذ ، وهو بلاط مغيث بجميع أرضه من أرض الخمس (٥١) ، بدلا من القصر الذي كان قد اختطه لنفسه بمدينة قرطبة بحجة أن هذا القصر لا يصلح لمغيث وإنما يصلح للعامل الذي يتولى قرطبة ، وعوضه عنه بدار شرقية ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة (Lucena) كانت من أملاك الحاكم القوطي ، فتنحى مغيث عن القصر المذكور ونزل الدار التي عينها له موسى غربي مدينة قرطبة والتي عرفت فيما بعد ببلاط مغيث (٥٢) ، فلما اطعن موسى إلى ذلك بادر بالسير وبصحبه مغيث لاستكمال فتح مدن شمال الأندلس حتى وصل المسلمون في فتوحهم إلى البحر المحيط ، وأراد موسى أن يفتح جليقية ويبدو أنه استولى على مدينة لك بجليقية ، وهي من أهم مدن هذا الإقليم (٥٣) وفيها أتاه رسول آخر من الخليفة الوليد بن عبد الملك يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى عندما استبطأه في العودة ، وكتب إليه يوبخه ويأمره بالخروج (٥٤) فيبادر موسى وطارق وبصحبتهما الرسولان مغيث وأبو نصر بالعودة إلى

(٥٠) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

(٥١) أنظر ، نذره من أخبار فتح الأندلس مأخوذة من الرسالة الشريفة إلى الأقطار الأندلسية في ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٢٠٩ .

(٥٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : كتاب أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشرة ليث بروفسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٠٣ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٦٥ .

(٥٣) أنظر Gonzalez Palencia : Historia de la Espana

musulmana, C. Labor, Madr8d, 1945, P. 11;

وأنظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٥٤) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

جنوب الاندلس ، وفوصلوا إلى طليطلة ومنها اتجهوا إلى قرطبة فاشييلة
التي استخلف موسى فيها ابنه عبد العزيز في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ بعد أن
اختارها له حاضرة للاندلس (٥٥) . ويروي المقرئ نقلا عن الحجارى
أن طارق بن زياد طمع في أن يأخذ الأمير القوطى حاكم قرطبة أسير مغيث
منه فلما رفض «أغرى به سيده موسى بن نصير ، وقال له : يرجع إلى
دمشق وفي يده عظيم من عطاء الاندلس ، وليس في أيدينا مثله ، فأى فضل
يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه» (٥٦) ويضيف ابن حيان
قائلا : «فهمج موسى على العليج وانتزعه من مغيث ، فقبل له : ان سرت
به معك حيا ادعاه مغيث والعلج لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل
فاضطغنها عليه مغيث وبالح في أذيته عند سليمان» (٥٧)

على أية حال عاد مغيث الرومى في صحبة موسى بن نصير وطارق بن زياد
إلى المشرق ، وعبر موسى بما غنمه من أموال وذهب وفضة وجواهر
في المراكب إلى طنجة (٥٨) ، ويصف المؤرخون موكب النصر الذى
سار فيه موسى خلال رحلته في المغرب وصفا يفوق الخيال فالذهب والجواهر
والأموال حملت من طنجة على العجلات ، فكانت وسق مائة عجلة وأربعة
عشرة عجلة ، أما السبايا فلم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير في
الاسلام » (٥٩) .

ويذكر المؤرخون أن مغيثا الرومى حرص بعد عودته على تشويه صورة

(٥٥) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ .

(٥٦) فى المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ ، وأنظر أيضاً .

نفس المصدر ، المجلد الأول ، ص ٢٧٩ .

(٥٧) فى ، المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ ، أخبار مجموعة ، ص ٢٧ .

(٥٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٥٩) نفس المصدر والجزء والصفحة .

كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد والاساءة اليهما عند الخليفة سليمان ابن عبد الملك ، على حين يروى صاحب أخبار مجموعة ان مغيثا وطارقا ابن زياد هما اللذان رميا موسى بن نصير بأقبح الصفات ونقلوا للخليفة أخبار اساءاته لهما في الأندلس ، ولم ينس مغيث أن يخبر الخليفة بقصة أسيره حاكم قرطبة ، وبالأغافل أصابه موسى هناك من كنوز ونفائس وجواهر ، فأوغرا صدر سليمان فبادر بعزل موسى واعفائه من كل أعماله بل أمر بسجنه في النهاية (٦٠) .

أما موقف مغيث من طارق بن زياد - حسب رواية الحجازى خاصة عندما أراد سليمان بن عبد الملك أن يصرف ولاية الأندلس إلى طارق ، استشار مغيثا في هذا الأمر «فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أى قبلة شاءوا لتبعوه ولم يرو أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان» (٦١) .

وكيفما كان الأمر فان مغيثا بتصرفه هذا أساء اساءة كبرى إلى التابعى الجليل موسى بن نصير وإلى قائده طارق بن زياد ، وربما كان يدفعه إلى ذلك مصلحة شخصية وهى طمعه فى ولاية الأندلس أو العودة إليها أو أنهما لم يوفياه حقه وليس أبلغ على ذلك من قول مغيث نفسه :

أغثتكم ولكن ماوفيتم فسوف أعيث فى غرب وشرق (٦٢)

ولهذا فقد عاد مغيث الروم فعلا إلى الأندلس وعاش فى بلاطه وأملاكه وأنجب بنينا سيكون لهم ولاحفادهم شأن كبير فى تاريخ الأندلس ، إلى أن استدعاه الخليفة هشام بن عبد الملك للاشتراك فى الحملة التى يعدها للثأر من هزيمة العرب فى غزوة الأشراف .

(٦٠) أنظر : أخبار مجموعة ص ٣٥ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٨٠ .

(٦١) المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٣ .

(٦٢) فى ، المقرئ : نفس المصدر ، المجلد الثالث ، ص ١٤ .

ولعب مغيث الرومي بعد ذلك دوراً هاماً في الأحداث التي جرت في المغرب ، فقد كان أحد رجلين اختارهما الخليفة هشام لمعرفتهما بالمغرب والأندلس ليكونا مستشارين لقائده كلثوم بن عياض القشيري على الجيش الذي جهزه الخليفة وسيره إلى المغرب ، ومع أن جيش كلثوم قد بلغت عدته نحو سبعين ألف على قول بعض المؤرخين بما انضاف اليه من قوات افريقية ، إلا أن الانشقاق والانقسام دب بين صفوفه بشكل أصبح من المستحيل سيطرة كلثوم عليه ، ويرجح سبب ذلك في رأى «أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم ، وبما أباح لهم الخليفة من الأبحاث ، على المناكيد من أهل أفريقية والمغرب اللذين حطمهم البربر في أكثر من موقعة ، ولم يكن أهل أفريقية ليرضوا من أهل الشام بتلك المعاملة الغريبة بعد جهادهم وحسن بلائهم » (٦٣) ، فتجنب كلثوم النزول في القيروان وسار إلى سببيه على مسيرة يوم منها (٦٤) ، كما أن ابن أخيه بلج بن بشر طلب من أهل أفريقية ألا يغلّقوا أبوابهم حتى يعرف أهل الشام منازلهم ، «ومع ذلك كالأُم كثير يغيظهم به» (٦٥) . أثارت هذه التصرفات عرب افريقية وأغضبت حبيب بن ابن عبيده الذي كان معسكراً على وادى شالف فكتب إلى كلثوم يندد بما فعله ابن أخيه بلج بن بشر بل يطلب منه الرحيل

-
- (٦٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي - ص ١ ، ٢٩٤ ، وأنظر أيضاً : ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٦ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، أخبار مجموعة ، ص ٣٦ ، ص ٣٧ ، وأنظر أيضاً : Isidoro de las Cagigas : Los Mozarabes, T.I, Madrid, 1947, P. 53; السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ١٥٦ ، ونفس المؤلف ، المغرب الكبير ، ص ٢٠ (العصر الاسلامي) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠٨ .
- (٦٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ص ٥٤ .
- (٦٥) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

بمسكروه من افريقية. «والا حولنا أعنة الخيل اليك» (٦٦) ، ورغم اعتذار كلثوم لابن أبي عبيدة فقد كانت تلك التصرفات بداية للتصاعد بين قوات الخلافة الشامية وعرب افريقية .

على أية حال نخرج كلثوم على رأس قواته ، وجعل على رجاله افريقية مغيث الرومي وعلى فرسانها هارون القرني وذلك لمعرفتهما باحوال افريقية وخبرتهما في معارك البربر ، صوب أرض طنجة لتأديب الثوار الذين خرجوا بقيادة خالد بن حميد الزناتي في جموع هائلة واعداد غفيرة ، وتم اللقاء على الضفة الشمالية لاسافل وادي سبو في موضع يقال له بقدورة ، ويذكر صاحب اخبار مجموعة أن مغيثا الرومي وهارونا القرني نصحا كلثوم عندما استشارهما بحفر خندق حول عسكر المسلمين وقالوا له : «خندق أيها الأمير وتلوم بالكراديس ، وأعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم وذرايهم» (٦٧) لكنه عاد واستمع إلى نصيحة ابن أخيه بلج ، وكان كلثوم لا يعصيه ، إذ قال له : «لا تفعل ، ولا يركك كثرة هؤلاء ، فان أكثرهم عربان وأعزل لا سلاح لهم» (٦٨) فناوشهم كلثوم القتال ، وجعل بلج ابن أخيه على قيادة الخيل الشاميين ليدوسهم بها ، وكانت الخيل أوثق في نفس كلثوم من الرجاله (٦٩) . وفاجأ بلج بن بشر البربر صباحاً ، فاستقبلوه بالصياح والحجارة فكانت الخيل تنفر منهم ، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا في أذنابها القرب والانطاع اليابسة ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم فنفرت الخيل (٧٠) واضطر كلثوم إلى المنادة بالنزول عن الخيل ، وكان ذلك حاجة البربر

(٦٦) ابن عذاري : المصدر والجزء والصفحة ١ ، ص ٥٤ .

(٦٧) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ .

(٦٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(٦٩) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ .

لكثرتهم ، وانهم لم تكن لهم خيل تكافئ خيل المسلمين» (٧١) ، مما ترتب عليه اضطراب صفوف جيش كلثوم ، فالتحم البربر بصفوف أهل الشام ، رغم محاولات بلج المتكررة لوقفهم . ونجح البربر في عزل بلج عن قوات كلثوم ، وأحاطوا به وبقوات عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ، بينما وجه خالد بن حميد الزناتي قواته الرئيسية نحو كلثوم فهزموه ، وقتل حبيب ابن أبي عبيدة ، ومغيث الرومي ، وهارون القرني وسليمان بن أبي المهاجر ، وكثير من وجوه العرب ، والزمّت قوات إفريقية من الحياالة والرجالة ، وثبت كلثوم ولكنه قتل وهزمت الشامية هزيمة نكراء (٧٢) .

وهكذا لقي القائد مغيث الرومي مصرعه في موقعة بقليورة بعد أن أدى خدمات جليلة لدولة الاسلام ، فقد اشترك مع طارق بن زياد في موقعة كورة شدونة ، تلك الموقعة التي كانت بداية انهيار السيادة القوطية على اسبانيا وخضوعها لدولة الاسلام في الأندلس التي استمرت ما يقرب من ثمانية قرون ، كما يسجل لمغيث الرومي فتح مدينة قرطبة التي أصبحت حاضرة الاسلام في الأندلس فيما بعد ، وكان أحد شخصين أرسلهما أمير المغرب موسى بن نصير إلى دمشق حاضرة الدولة الأموية لابلاغ الخليفة الوليد بن عبد الملك بانتصارات المسلمين في اسبانيا ، ورغم ما ينسبه المؤرخون العرب من دور غير كريم قام به مغيث في الوقعة بين الخليفة سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير من جهة وطارق بن زياد من جهة أخرى معلين ذلك بطمعه في ولاية الأندلس ، فان مغيثا الرومي كان تابعيا جليلا أدى للإسلام ولدولته خدمات مجيدة سجلها له التاريخ ولاسرتة التي لعبت من بعده دوراً بالغ الأهمية في الامارة الأموية بالأندلس .

(٧١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨ .

(٧٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٩ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ١٠ ، ص ٥٥ ،

ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٩٩ ، وأنظر أيضاً .

Chejne (Anwar) : Historia de Espana musulmana, ediciones catédra, Madrid, 1980, P. 23.

فقد كان ابنه عبد الواحد بن مغيث من أكابر رجال الدولة المروانية في الأندلس ، تولى الحجابة للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) (٧٣) ، ولابنه الأمير هشام الأول (١٧٢ - ١٨٠ هـ) (٧٤) ، وكانت وفاته في أيام الحكم الأول عام ١٩٨ هـ (٧٥) .

كما لمع أبناء عبد الواحد بن مغيث الثلاثة عبد الكريم وعبد الملك وعبد الحميد الذين كانوا من كبار رجال الدولة الاموية سياسة وقيادة وكياسة وعلماء ، فقد كان عبد الكريم وعبد الملك من أعظم القادة العسكريين في عهدي الأمير هشام الأول والحكم الأول ، وبدأ نجم عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث يلعب منذ اماره هشام الأول إذ عهد اليه بولاية كورة جيان ، ثم كلفه بقيادة جيوشه في غزواته للممالك النضرانية في شمال اسبانيا وفرنجه ، ثم استحجبه (٧٦) . وفي عهد الحكم الأول تولى الحجابة له طوال عهده «وكان من العقل وحسن الرأي بمكان كبير» (٧٧) ، إلى أن توفي الحكم ، فتولى الحجابة والوزارة والكتابة والقيادة لابنه عبد الرحمن

(٧٣) ابن عذاري : المصدر السابق ، ٢٨ ، ص ٤٨ ، وأنظر أيضاً :

النهاي المالتى : كتاب المرقبة العليا ، ص ١٢ .

(٧٤) ابن الأبار (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعى) : كتاب الحلة السراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٥ .

(٧٥) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلل المغرب ، ١٨ ، ص ٤٤ .

(٧٦) ابن عذاري : المصدر السابق ، ٢٨ ، ص ٦١ ، ابن الأبار : المصدر السابق ، ١٨ ، ص ١٣٥ .

(٧٧) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥ .

الأوسط حيث توفي في صدر امارته عام ٢٠٩ هـ (٧٨) ، يذكر ابن الخطيب ان عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث تولى بجانب الحجابة ، القيادة والكتابة (٧٩) ، وفي رواية لابن القوطيه أنه «لم يختلف مختلف من شيوخ الاندلس أنه يخدم بنى أمية بالاندلس أكرم منه عناية وأكثر طاعة لا أنه كان يقبل الهدية والمكافأة على قضاء الحاجة (٨٠) . ويصفه ابن حيان بأنه «أكمل من خل الاسم وأجمعهم لكل حسنه» (٨١) . ويسميه ليني بروفنسال بحق أعظم رجال دولة الحكم على الإطلاق (٨٢) ، فقد كان يجمع خصالا لم تكن تتوفر للكثيرين من رجال الدولة في عصره ، فقد كان سياسيا محنكا وعسكريا ممتازاً ، وكاتباً أدبياً عالماً ، وكان على حد قول الرازي أكمل من ولي الحجابة ليني مروان (٨٣) .

وحظي أخوه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بمكانة رفيعة في عصر الأمير هشام الأول فولاه الوزارة والقيادة (٨٤) ، فاشترك في قيادة الجيوش الإسلامية إلى همال اسبانيا وبلاد الفرنجة وفي عصر الحكم الأول تولى القيادة وعهد اليه بولاية سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى الاندلسي (٨٥) .

(٧٨) ابن حيان : المصدر السابق ، صفحات ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، ص ٨٢ .

(٧٩) ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله صنان ، المجلد الأول ، دار المعارف ، مصر ، ص ٤٨٨ .

(٨٠) ابن القوطيه : المصدر السابق ، ص ٩٤ ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٨١) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ٢٥ ، ص ٢٨ .

(٨٢) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit, T.I, P. 102.

(٨٣) في ، ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، وأنظر أيضاً ، نفس المصدر ، حاشية

رقم ٨٢ ، ص ٤٤٤ ، ص ٤٤٥ .

(٨٤) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، ص ٢٢٨ .

(٨٥) ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ١٥ ، ص ١٣٥ .

أما عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث فقد برز نجمه وعلا شأنه في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) فعهد إليه بولاية غرب الأندلس (٨٦) .

كما برز من هذه الأسرة أيضا عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث الذي تولى قيادة الأسطول الأندلسي في حملة بحرية على سناحل جليقية شمالا سنة ٢٢٦ هـ (٨٧) .

وتفضل الروايات العربية الدور الهام الذي لعبه أفراد هذه الأسرة في الجهاد ضد الممالك النصرانية شمالى اسبانيا ثم بلاد الفرنجة ، وفي اخراج بعض الثورات التي قامت ضد الدولة الأموية في الأندلس ، ففي سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بعث الأمير هشام الأول قائده ووزيره عبد الملك ابن عبد الواحد ابن مغيث لغزاة العدو ، فبلغ ألبه والقلاع فأثخن في نواحيها (٨٨) ، بعد وقت قليل من ارتقاء ألفونسو العفيف Alfonso II El Casto (٧٩١ - ٨٤٢ م) خليفة برمود الأول الذي نقل عاصمته إلى أبيت (Oviedo) (٨٩) .

وفي العام التالي ١٧٧ هـ (٧٩٣ م) بعث به الأمير هشام الأول بالصائفة في جيش كثيف إلى أرض الروم في أربونه (Narbonna) وجرنده (Gerona) (٩٠) ، وكانت جرندة قد سقطت في أيدي الفرنجة سنة

(٨٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٣٩٨ ، ص ٣٩٩ .

(٨٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٦٣ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٣ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٢٧ .

(٨٩) أنظر :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٠) ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٢٧ ، الخشني (أبي عبد الله محمد بن جابر) : قضاة قرطبة ، تحقيق ابراهيم الإبياري ، مطبع الكتيب الإسلامية ، ١٩٨٢ ، ص ٩١ .

١٦٩ هـ (٧٨٥ م) (٩١) قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بقليل. فلما توفي عبد الرحمن الداخل ١٧٢ هـ (٧٩١ م) ، وخلفه ابنه هشام الأول ، فانتهاز الفرنجة فرصة نشوب الحرب بين هشام الأول وأخوته واستولوا على المنطقة الساحلية في جنوب سبتهانيا وعلى أرجل (Urgel) سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ م) (٩٢) ، فكان ان وجّه الأمير هشام هذه الصائفة لمحاربة الفرنج وعدم السماح لهم بالتدخل في شرن امارته ، فبدأ القائد عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بمحاصرة بحرندة شمال شرق برشلونه وثلم أسوارها بالمجانيق (٩٣) ، ولما لم يفلح في افتتاحها مضى إلى « بانيا فعات » في نواحيها وبقي شهوراً يحرق قراها ويحرب حصونها ، حتى وصل إلى حاضرتها أربوته في الوقت الذي كان فيه شارلمان ملك الفرنجة مشغولاً بمحاربة الأفار ، وعدم استطاعته ارسال نجدات فورية إلى الحدود الأندلسية (٩٤) ، وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن عبد الملك قد افتتح مدينة أربوته في هذه الغزوة (٩٥) ، ولكن يبدو ان عبد الملك اكتفى بإحراق ضواحيها وذهب إلى قرشونه لمواجهة الجيش الذي بعثه لويس ملك اكويتين بقيادة جيوم دوق طولوشه المعروف بلدى الأنف القصيرة ، فالتقى الجيشان على ضفاف نهر ابنيو (Onbeu) بين

(٩١) أنظر :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

Jackson : The making of medieval Spain, California, 1976, P. 18. (٩٢)

(٩٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٦٤ ، وأنظر أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102.

(٩٤) أنظر :

Oman (Sir Charles) : The dark Ages, (476 — 918)

London, 1962, P. 356;

وأنظر أيضاً :

محمد محمد مرسى الشيخ : دولة القرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٨١ ، ص ١٦١ .

(٩٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٦٤ ، ابن الأثير المصدر السابق ، ص ٢٠ .

المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٣٢٧ ، ص ٣٣٨ . محمد الشيخ : نفس المراجع

ص ١٦١ .

أربونه وقرقشونه ، جرت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون ومي فيها الفرنجة بنحسائر فادحة ، بالرغم مما أبداه جيوم دوق طولوشة من شجاعة فائقة (٩٦) ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعدداً وافراً من السبي ، فقد بلغ فيه «خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين» (٩٧) . وأرغم عبد الملك أسراه من الفرنج على جر أحمال من الأحجار ومواد البناء من ستور أربونه إلى باب قصر الامارة بقرطبة ، ومنها بنى المسجد الذي يقع تجاه باب الجنان من أبواب قصر الامارة (٩٨) .

وأما صائفة ١٧٨ هـ (٧٩٤م) فقد كانت أقل توفيقاً ، إذ بعث الأمير هشام جيشين في وقت واحد ، أحدهما بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث ووجهته بلاد اشتوريش ، والآخر بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ووجهته ألبه والقلاع فغنم وسلب (٩٩) ، وقد نجح عبد الكريم في التغلب على الجلالة و انتهى إلى استرقه (Astorga) ، أما عبد الملك فوصل إلى مدينة أبيض ونهبها وأثنخ فيها ، وفي أثناء عودته فوجيء بهجوم قام به نصارى اشتوريش في بطيخة ثار فيها النصارى من المسلمين وقتل منهم عدد كبير (١٠٠) .

(٩٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، وأنظر أيضاً
Lévi-Provençal : OP. Cit., IT., P.102.
(٩٧) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٩٨) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٧ ، بينما ينسب ابن القوطية فتح أربونه إلى عبد الحميد بن مغيث فيقول : «وافتح عبد الواحد بن مغيث أربونه في أيامه ، وفي الحسب الحاصل منها بنى القنطرة والجامع ، راجع : (تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٥) .
(٩٩) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ١١٤ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ .

(١٠٠) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة ، وراجع أيضاً : المقرئ : نفس المصدر والجزء والصفحة ،

Barrau Dihigo : Royaume Asturien, P. 123, N.2;

Lévi-Provençal : OP Cit., T.I, P. 102;

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٣١٧ .

وكان من الطبيعي أن تحدث الهزيمة رد فعل كبير عند المسلمين ، فبادر الأمير هشام الأول بتجهيز جيش أسند قيادته لقائده عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث للانتقام من الاشتوريين ، فسار في صيف ١٧٩ هـ متوجهاً إلى استرقه فلما انتهى استولى عليها (١٠١) ، أما ألفونسو الثاني عندما بلغته أخبار سقوط إحدى حواضره ومسير الجيش الاسلامي اليه ، أخذ من فوره في جمع حنوده واستمد عون البشكنس وأهل البلاد المجاورة ، فانهى اليه جمع كبير ، فحشد جيوشه «ما بين خيز جليقية و الصخرة» وأفرغ المناطق السهابة من سكانها ونقلهم إلى المناطق الجبلية الساحلية تمهيداً للاشتباك مع جيوش المسلمين (١٠٢) ، عندئذ قدم عبد الكريم احد كبار قواده هو القاضي فرج بن كنانة (١٠٣) على رأس أربعة آلاف من الفرسان من جند شلونه لمواجهة جيش اشتوريش ، ورحل باقى الجيش الاسلامي بقيادة عبد الكريم فى أثره ، فقضى على كل مقاومة فى طريقه ، وأحدث الخراب والدمار فى بلادهم ومزارعهم (١٠٤) ، والتحم جيش فرج بن كنانة مع فرقة مسيحية عدتها ثلاثة آلاف فارس بقيادة غند مارة فى واد يقال له وادى كوئيه ، ونجح القائد العربى ابن كنانة فى إلحاق الهزيمة بها «وأسر غند مارة وقتل من أصحابه عدد كبير» ، وغنم المسلمون جميع ما فى تلك

(١٠١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ص ٦٤ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ ، وراجع أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 102;

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(١٠٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلس ص ١٢ .

(١٠٣) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، وعن ترجمة القاضي فرج بن كنانة راجع ، النباهى المالتى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) : كتاب المرقبة العليا فيمن يشحق القضاء والفتيا ، بيروت ، ص ٥٤ ، الحشنى : قضاة قرطبة ، ص ٩٥ .

(١٠٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ص ٦٤ .

الناحية (١٠٥) . ثم واصل فرج بن كنانة تقدمه لتنفيذ مهمته الأصلية وهي ملاقاتة ألفونسو الثاني ، الذي تحصن في حصن له على ضفاف وادي نلون (Nalon) ، فحرب الحصار عليه ووافته هناك جيوش عبد الكريم واشتركت معاً في حصاره ، غير أن ألفونسو الثاني استطاع الفرار من الحصن متوجهاً إلى حاضرة ملكه ، فاحتل عبد الكريم الحصن وغنم المسلمون ما وجدوه فيه من الأطعمة وضروب الزخرف ، وفي اليوم التالي بعث عبد الكريم قائده فرج بن كنانة على رأس عشرة آلاف فارس للملاحقة ألفونسو ، ونجح في مهمته فأوقع بالملك الاشتوري وجيشه الهزيمة «وقتل فيهم قتلاً ذريعاً» ، واستولى على جميع معداته وذخائره (١٠٦) .

وفي عهد الأمير الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) أسند إلى حاجبه عبد الكريم بن الواحد بن مغيث قيادة حملة عام ١٨٥ هـ موجهة إلى جليقية فأثنى عبد الكريم بقواته في أراضيها وتعقب أهلها بالقتل ، وظفر بهم وعاد إلى قرطبة ظافراً (١٠٧) .

وهناك رواية غريبة منسوبة إلى الرازي ، وقيل لابن حيان ، مفادها ان الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابني عبد الواحد بن مغيث كانا قد انضما سنة ١٨١ هـ في بداية عهد الحكم الأول إلى عمه عبد الله بن عبد الرحمن الا اخل

(١٠٥) ابن عذاري : المصدر السابق - ٢ ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

(١٠٦) ابن عذاري : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٥ ، وراجع أيضاً . النباهي المالو

المراقبة العليا ، ص ٥٤ .

Lévi-Provençal : Op. Cit, T.I, P. 102.

(١٠٧) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣٩

في ثورته ضد الأمير الحكم ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، لكن أبا صفوان عاملها من قبل الحكم استطاع أن يهزمهم ويأسر «زعيمهم» عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ويذكر ان الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنوا في أوائل عام ١٨٦ هـ ، فأمرهما الحكم ، ووفدا على قرطبة ، وقلبيها خضوعهما وإخلاصهما ، ويميل مؤرخ محاث إلى تأييد هذه الرواية بدليل أنه لم يرد له شيء يبين ذكر خلال الأعوام الخمسة من ١٨١ - ١٨٦ هـ مع خضوعهما وإخلاصهما ، ويميل مؤرخ حديث إلى تأييد هذه الرواية بدليل أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال الأعوام الخمسة من ١٨١ - ١٨٦ هـ مع «أنهما كانا دائما في الطليعة في قيادة مختلف الحملات والغزوات» (١٠٨)

على أن هذه الثورة المزعومة تبدو صعبة في تحقيقها ، ولو فرض أن الأخوين نجحا في تحقيقها ، فإنهما بذلك لن ينالا مجداً ونفوذاً أكبر مما في أيديهما فعلا ، فعبد الكريم ظل حاجبا طوال عصر الحكم الأول ، وقاد له حملة على جليقية سنة ١٨٥ هـ كما سبقت الإشارة ، أما عبد الملك فبرز نجمه أثناء قيادته للجيش الإسلامية في بلاد الفرنجة ثم في شمال اسبانيا .

وفي سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ - ٨١٦ م) سير الأمير الحكم وزيره عبد الكريم ابن عبد الواحد ابن مغيث لغزو اشتوريش (١٠٩) ، وكان سبب انقاذ هذه الصائفة أن أهل مدينة بنبلونه كانوا قد ثاروا على عاملها مطرف بن موسى بن قسي وقتلوه وأقاموا عليهم : احداً منهم يدعى فلاسكو (Velasco) وانضموا إلى الملك ألفونسو الثاني Alfonso II (١١٠) ، فسار اليهم

(١٠٨) أنظر : محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول - القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣١ ، وهاش (١) .

(١٠٩) ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٧٥ ، المقرئ : المصدر السابق ، ص ١٠

ص ٣٤٠ .

(١١٠) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit. T.I, P. 124.

عبد الكريم ودخل بقواته أراضي أشتوريش وتوسطها وأهلك معائشها ومرافقها ، وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى وادي أرون» (١١١) واشتبك مع قوات الفونسو الثاني على نهر أرون (Oron) وانتصر على الفونسو الثاني انتصاراً حاسماً مع قوات الفونسو الثاني ومرافقها ، وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى وادي أرون» (١١١) واشتبك مع قوات الفونسو الثاني على نهر أرون (Oron) وانتصر على الفونسو الثاني انتصاراً حاسماً وقتل من قواته عدداً عظيماً لا يحصى (١١٢) ، كما لقي عدد كبير من قواده مصرعهم من بينهم غرسيه بن لب نخال ألفونسو الثاني ، وشانجه أحد زعماء البشكنس ، وعاد عبد الكريم ظافراً في السابع من ذي القعدة سنة ٢٠٠ هـ (يونيه ٨١٦ م) (١١٣)

وكان للحاجب عبد الكريم دور فعال في القضاء على ثورة الربض الشهيرة بقرطبه عام ٢٠٢ هـ (٨١٧) ، تلك الثورة التي كانت تهدف إلى الإطاحة بدولة الحكم ، فعهد إلى حاجبه عبد الكريم ووزيره فطيس بن سليمان بالدفاع عن قصر الأمانة ، بينما خرج عبيد الله بن عبد الله البلمسي في قوة من الفرسان والمشاه وعبرت نهر الوادي الكبير إلى الربض النائر ، وأضرمت فيه النار ، فلما حاول أهل الربض الرجوع إلى بيوتهم لاطفاء النار وانقاذ أهاليهم ، تلقى سيوف جند الحكم من ورائهم ومن أمامهم واستمر القتل والنهب في أهالي الربض ثلاثة أيام حتى مزقوا شر ممزق ، عند ذلك أشار الحاجب عبد الكريم على الأمير الحكم بإيقاف تلك المذبحة ، ولعله أشار

(١١١) ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٧٥ ، المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٤٠ .

(١١٢) ابن عذاري : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١١٣) أنظر :

Lévi-Provençal : Op. Cit., T.I, P. 124.

عليه بتغريب أهل الربض خارج الأراضي الأندلسية (١١٤) .

وفي سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) كانت الغزوة المعروفة بغزوة ألبه والقلاع غزاها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، فاقتحم المسلمون ألبه من فج معروف لعبد الكريم تمام المعرفة له وهو فج جرنيق (١١٥) ، ويذكر ابن عذارى المراكشي أن وراء هذا الفج أرضاً مستوية للعلو يحتفظ فيه بخزائنه الحربية وذخائره ، فوقع جند عبد الكريم على هذه الأرض فهبوا ودمروا الأراضي والبقاع التي مروا عليها وأقفروها (١١٦) ، وهزموا النصارى في عدة مواقع ، واشترط عبد الكريم عليهم أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وعاد الحاجب عبد الكريم إلى قرطبة محملاً بالغنائم والسبي (١١٧) .

وتوفي الحاجب النابه والقائد المظفر عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث

(١١٤) عن ثورة الربض ، أنظر : أخبار مجموعة ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٧ وما بعدها ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، صفحات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسي ، ص ١٥ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ وما بعدها ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٣ وأنظر أيضاً :

Lévi-Provençal : OP. Cit., T.I, P. 188.

(١١٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسي ، ص ١٩ ، ص ٢٠ ، ويرى لينى بروفنسال أن فج جرنيق لعله المر المعروف اليوم باسم Guernics أو El Puerto de Hernechu-Guernu الواقع بين سيراى أنثيا Sierra de Encia وجبال اتوريeta في ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٣٩ .

(١١٦) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨١ ، ص ٨٢

(١١٧) المقرئ : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٤٤ ، ص ٣٤٥ ، محمد عبد الله

عنان : المرجع السابق ، ص ٢٥٦

في غزاته بالصائفة إلى أوريط سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) (١١٨) ، بعد أن أدى خدمات جليلة للإسلام وللدولة بالأندلس .

أما عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث فقد ولاه الأمير محمد بن عبد الرحمن ولاية غرب الأندلس ، وفي توليته يروي ابن حيان (١١٩) رواية طريفة ملخصها ، ان الأمير محمد أمر حاجبه عيسى بن الحسن (١٢٠) في حضور وزرائه باستدعاء عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث ، الذي كان الأمير عاتباً عليه ثم صفح عنه لما لأسرته من مكانة كبيرة في الدولة ، وأمر كذلك بكتابة سجل بتوليته ولاية غرب الأندلس كلها إلى قلمريه (Coimbra) (١٢١) .
ويذكر ابن حيان أن الحاجب عيسى بن الحسن نسي مكان ولاية عبد الحميد ،

(١١٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٨ ، ص ٨٢ .

(١١٩) المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، ص ١٥٤ .

(١٢٠) هو الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبده ، تولى الحجابة للأمير محمد عبد الرحمن بعد حجاب عيسى بن شهيد ، راجع ، (ابن حيان : نفس المصدر ، ص ١٥٢ ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ٢٨ ، صفحات ٩٣ ، ٩٦) ، وقد أشار المدري إلى أنه قاد الجيوش الأندلسية التي صدت غارات المجرس (النورمان) في هجومهم الثاني على موانئ غرب الأندلس في سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، راجع ، (نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١١٨) .

(١٢١) قلمريه (وتكتب أيضاً : قلمبريه) Coimbra ، مدينة تقع على مقربة من مصب نهر منديق Mondego في المحيط الأطلسي على الساحل الغربي لشبه جزيرة أيبيريا ، وهي تقع إلى الشمال منحرفة قليلاً إلى الشرق بالنسبة إلى الأشبونة على مساحة نحو ٢٢٠ كم وتقع إلى الجنوب من برتغال (بورتو Porto) على نحو ١٢٠ كم ، راجع ، الأدريسى (الشريف) : وصف المغرب والأندلس من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، نشرة دوزي ودي جوييه ، ليدن ، ١٨٦٦ ، ص ١٨٣ الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ، نشر ليبي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٤ من النص العربي ، ص ١٩٧ من الترجمة الفرنسية) .

فيقال عنها الوزير هاشم بن عبد العزيز (١٢٢) . فلم يصدقه القول وذكر له
 باغه (Priego) (١١٣) فصدقه فلما حضر عبد الحميد بن عبد الواحد
 ابن مغيث . وأبلغه الحاجب عيسى بصقح الأمير عنه وبأمر تكليفه له
 على باغه «تثمر ابن مغيث وقال . ما هي علاقة رضى عني ، بل ار كاس
 بي والله ما أرضاها لغلامي ، وأنه ليرتفع عنها .. فقال له عيسى اكتب عن
 نفسك ، فانه أصلح ، وفعل » (١٢٤) . ومن الواضح ان حنق حفيد مغيث
 وغضبه لم يكن الا لأن باغه لم تكن سوى بليدة صغيرة قليلة الخطر ضئيلة
 الشأن بالنسبة لفرد من أسرة بني مغيث ، ومن هنا نرى عبث الوزير هاشم
 ابن عبد العزيز بالحاجب عيسى بن الحسن وتعمية أمر الأمير عليه ، فلما
 بلغ الأمير محمد كتاب ابن مغيث صحتك وعلم بما فعله وزيره المقرب اليه ،
 فأغضى عن عبثه ، وأوضح للحاجب عيسى بن الحسن مكان ولاية حفيد
 مغيث على غرب الأندلس كله ، فرضى حفيد مغيث عن ولايته وشكر
 الأمير (١٢٥)

(١٢٢) الورير أبو خالده هاشم بن عبد العزيز كان من أشهر وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن
 وأحظاهم عنده ، وأكبر رجالات الدولة في عهده ، وأقربهم إلى قلبه ، راجع في ترجمته ،
 ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، والحاوية رقم ٣٣٠ ص ٥٣٣ والمراجع التي وردت بها .
 (١١٣) يمتد الأستاذ الدكتور محمود علي مكي أن الأمير محمد أشار بتولية ابن مغيث على
 باجه (Beja) وأعمالها ، فقد كانت باجه مركزاً غرب الأندلس ، فعند هاشم إلى تعمية الأمر
 مستغلاً ذلك الشبه اللفظي بين باجه وباجة ، راجع (ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٥٢٩ ،
 حاشية رقم ٣٢١) ، وباجة بضم الفين وسكون الهاء ، وتكتب أيضاً باغو وبيغو (Priego) ، وقد
 كان اسمها اللاتيني القديم (Ipu-grum) بلدة كانت من أعمال غرناطة وتقع الآن على بعد نحو مائة
 كيلو متر إلى شمال غرب غرناطة ، وعلى مسافة نحو ١١٠ كم إلى الجنوب الشرق من قرطبة ،
 وتتبع حالياً مديرية قرطبة ، راجع ، الأدرسي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ابن سعيد :
 المغرب . ٢٠ . ص ٥٤ . حميرى : المصدر السابق ، ص ٦٠ ، ص ٦١ من النص العربي ،
 وص ٧٦ - ٧٧ من الترجمة الفرنسية

(١٢٤) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ١٥٤ .

(١٢٥) نفس المصدر ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥

برز أيضاً من أسرة مغيث الرومي عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الواحد ابن مغيث عامل الأمير محمد بن عبد الرحمن على الثغر . فقد شارك في القضاء على ثورة عمرو بن عمرو بن عمرو بن يوسف الذي ثار على موسى ابن غلند عامل وشقه (Huesca) وانتزعها منه وقتله سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠م) ، وعمروس هو حفيد عمرو بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة زمن الأمير الحكم الأول ، وقد كان بنو عمرو بن مولدين من أصل بصراني ، لا يشعرون بأي ولاء حقيقي للحكومة قرطبة ، فأخرج الأمير محمد إليه أحمد بن شاهد العريف المعروف بالتدميري في جيش كثيف ، فوصل إلى مدينة لارده وأقام بها ، وفي نفس الوقت حشد عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث حشوده وقدم عليهم عبد الأعلى العريف الذي انضم إلى جيش أحمد بن شاهد ، وتقدما في طريقها إلى مدينة وشقة فلما بلغ بن عمرو المنتزى بوشقه قريهما ، خرج عنها هارباً إلى شرطانية فدخلت قوات الأمير محمد وشقه ، وأسرت بها حفيده لب بن زكريا ابن عمرو (١٢٦) . وقتل وعلق رأسه على سور المدينة .

كما شارك عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث بقواته في سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١م) والقوات التي أرسلها الأمير محمد بقيادة عبد الغافر ابن عبد العزيز في مطاردة فلول عمرو بن ، فسار إلى مدينة تطيلة (Tudela) وأسرت بها والده زكريا وابناءه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل عبد الغافر بن عبد العزيز إلى قرطبة ورؤسهم بين يديه (١٢٧)

(١٢٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ ، العذري المصدر السابق ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ابن عذاري المصدر السابق ، ص ٢٠٠ ، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص ٣٠١ .

(١٢٧) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ، العذري : المصدر السابق ، ص ٦٢ ، ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ص ١٠١

وحدث في نفس العام أن ثار لب بن موسى بأرثيط (١٢٨) وظهر عرسية بن وثقه Gancia Iniguez ملك نيره أخوه لأمه (١١٩) .
وتغلب في العام التالي ٢٥٨ هـ (٨٧٢ م) على الثغر الأعلى كله (١٣٠) ، فاستولى على مدينة تطيلة في الرابع من شهر ربيع الأول من نفس العام وأسر عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الواحد بن مغيث المعروف بوهيب عامل الأمير محمد على الثغر الأعلى الذي كان متواجداً بالمدينة . وقدم لب بن موسى أخاه فرتون عليها (١٣١) ، ثم قدم أخاه إسماعيل بن موسى على مدينة سرقسطة في ٧ ربيع الأول من العام المذكور ، ويبدو أنه وجد مقاومة عنيفة من عاملها . محمد بن عبد الوهاب وعرب سرقسطة ، يذكر العذري أن لب بن موسى انضم إلى قوات أخيه بعد ثلاثة أيام أي يوم ١٠ ربيع الأول وتمكن من أسر عاملها محمد بن عبد الوهاب وأخوته وسجنهم مع أبيهم وقتل عرب سرقسطة (١٣٢) . وبعد أن استولى على تطيلة وسرقسطة سار إلى مدينة وشقه وانتزعها من عاملها عباس بن عبد البر وقدم عليها أخاه مطرف (١٣٣) ، وللأسف .

(١٢٨) هو لييب بن موسى بن موسى القسوي ، كان رهيناً عند الأمير عبد الرحمن الأوسط بقرطبة حتى خرج المحروس في عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، فأخرجه الأمير محمد من محبسه ووجهه إليهم ، فأبلى في قتالهم ، فأطلق الأمير سراحه وأهدى إليه جارية تسمى عجياً البلاطية أنجبت له ولده محمد بن لب ، وأمر الأمير محمد لب بن موسى بالتوجه إلى الثغر فقدم وبني حصن بقره Viguerao ودارت بينه وبين أخوته إسماعيل ومطرق وفرتون حروب حتى اضطروه إلى تسليم أرنيطوا والخروج من بقره ، راجع (العذري : نفس المصدر ، ص ٣١)

(١٢٩) ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(١٣٠) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٤٦ ، وراجع أيضاً :

Lévi-Provençal : *OP. Cit.*, T.I, P. 388.

(١٣١) العذري : المصدر السابق ، ص ٣١ .

(١٣٢) العذري : نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ . ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٤٦ ، ابن عذري : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، ص ١٠١ .

(١٣٣) العذري : المصدر السابق ، ص ٣١ . ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٤٦ ، وأنظر أيضاً :

Afif Turk: *El Reino de Zaragoza. en el siglo XI de Cristo (V de la Hégira)* Madrid, 1978, PP. 14—15.

لم نمدنا المصادر الإسلامية بشيء عن مصبر عامل الشجر عبد الوهاب بن أحمد ابن عبد الواحد بن مغيث ، وإن كان من غير المستبعد أن يكون قد أطلق سراحه بعد ذلك

وإذا كان بنو مغيث قد برزوا في الحروب البرية في شمال إسبانيا وفي أراضي الفرنجة ، فقد ظهر منهم من برز في ميدان البحر أيضاً ، فيستفاد مما رواه المؤرخ ابن حيان القرطبي في حوادث ٢٦٦ هـ (٨٧٩ م) أن الأمير محمد قد علم من بعض أمراء أسطوله أن جليقية من ناحية البحر المحيط بمره لا معقل لها ولا حصن ، وإن ساحلها نزهة لمن قصده ، فطمح الأمير في غزوها ، وأصدر أوامره في الحال بإنشاء المراكب وجمع لها البحارة فلما تم إعدادها وتجهيزها أمر عليها ابن مغيث المعروف بالدك وهو عبد الله ابن محمد بن عبد الحميد بن مغيث ، وعقد لواءه في المسجد الجامع بقرطبة ويضيف ابن حيان أن أمير البحر عبد الملك «خرج في أفخم خروج خرج به قائد من قرطبة» ، وما كاد الأسطول الأموي يدخل في مياه المحيط حتى تعرض لعاصفة عاتية فرقت قطعه ولم يجتمع بعضها إلى بعض ، وغرق معظمها ، ولم يعد منها إلا اليسير ونجا قائد الأسطول مع قليل من جنده (١٣٤) مما يرجح أن بناء هذا الأسطول كان سيئاً ، وأن بحارته لم يكن لديهم دراية بالملاحة حتى أنه غرق فنجرد بلوغة لمياه المحيط ، وهذا يعني أن البحرية

(١٣٤) راجع في أخبار هذه الحملة البحرية ، المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، ص ٢٩٨ ، ص ٣٩٩ ، وأنظر أيضاً : ابن عذاري : المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ ، أورد ابن حيان لقب قائد الأسطول الأموي ابن مغيث المعروف بالدك في حين رسمه ابن عذاري الرعيطي المعروف بابن مغيث ، راجع ، (البيان المغرب ، ص ١٠٤) ، غير أن ابن حيان أورد اسمه كاملاً وهو عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد ابن مغيث ، راجع ، لابن حيان ، نفس المصدر ، ص ٣٩٨ والحاشية رقم ٦٣٠ ، وراجع أيضاً في أخبار هذه الحملة ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٣٢ ، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي) : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ١٦٦ .

الاموية لم تبلغ مرحلة النضج بعد ، وان كانت قد بلغت في عهد الناصر
في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي .

* * *

من هذا العرض يتبين لنا الدور الهام الذي لعبه أبناء مغيث الرومي
في الاندلس ، فقد تولوا مناصب رفيعة وأسندت اليهم أعمال خطيرة في
الاندلس كالحجابه والوزارة والكتابة والقيادة البرية والبحرية وولادة بعض
الكور ، وكانوا أوفياء للدولة بني أمية ، وظلوا مواليين لأمراء هذه الدولة
ولا غرو فقد كان مؤسس هذه الأسرة مولى للوليد بن عبد الملك ، فرابطة
الولاء هذه للامويين دفعتهم للمشاركة بكل إخلاص - وليس كما يذكر
البعض أنهم تأمروا عليهم - في قمع الثورات الداخلية ، كما قادوا الجيوش
بغرض الجهاد ضد الممالك النصرانية في الشمال الاسباني وبلاد الفرنجة
وأحرزوا فيها انتصارات رائعة .

ويمكننا أن نؤكد القول أن أسرة مغيث الرومي ساعدت إلى حد كبير
في استقرار ملك الامويين ببلاد الاندلس فقد شاركت هذه الأسرة في جميع
مظاهر الحياة الاندلسية أدبية ومادية .. ومن الجدير بالذكر أن بروز بني
مغيث لم يقتصر على نبوغهم في المجالات السياسية والحربية ، وإنما تجاوز
ذلك إلى المجال العلمي والأدبي ، فقد ظهر منهم شعراء عظام مثل الحاجب
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذي نظم شعراً حماسياً فيقول :

طسارت بنا الخيل ومن فوقها شهب يزاة لحمام الحمام
كأنما الأيدي قسى لها والطيء أهداف ومن السهام (١٣٥).

(١٣٥) في ، المرقى : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢ .

وكذلك أخوه أحمد بن عبد الواحد بن مغيث الذي قال في الغزل والأنس
بالمحجوب :

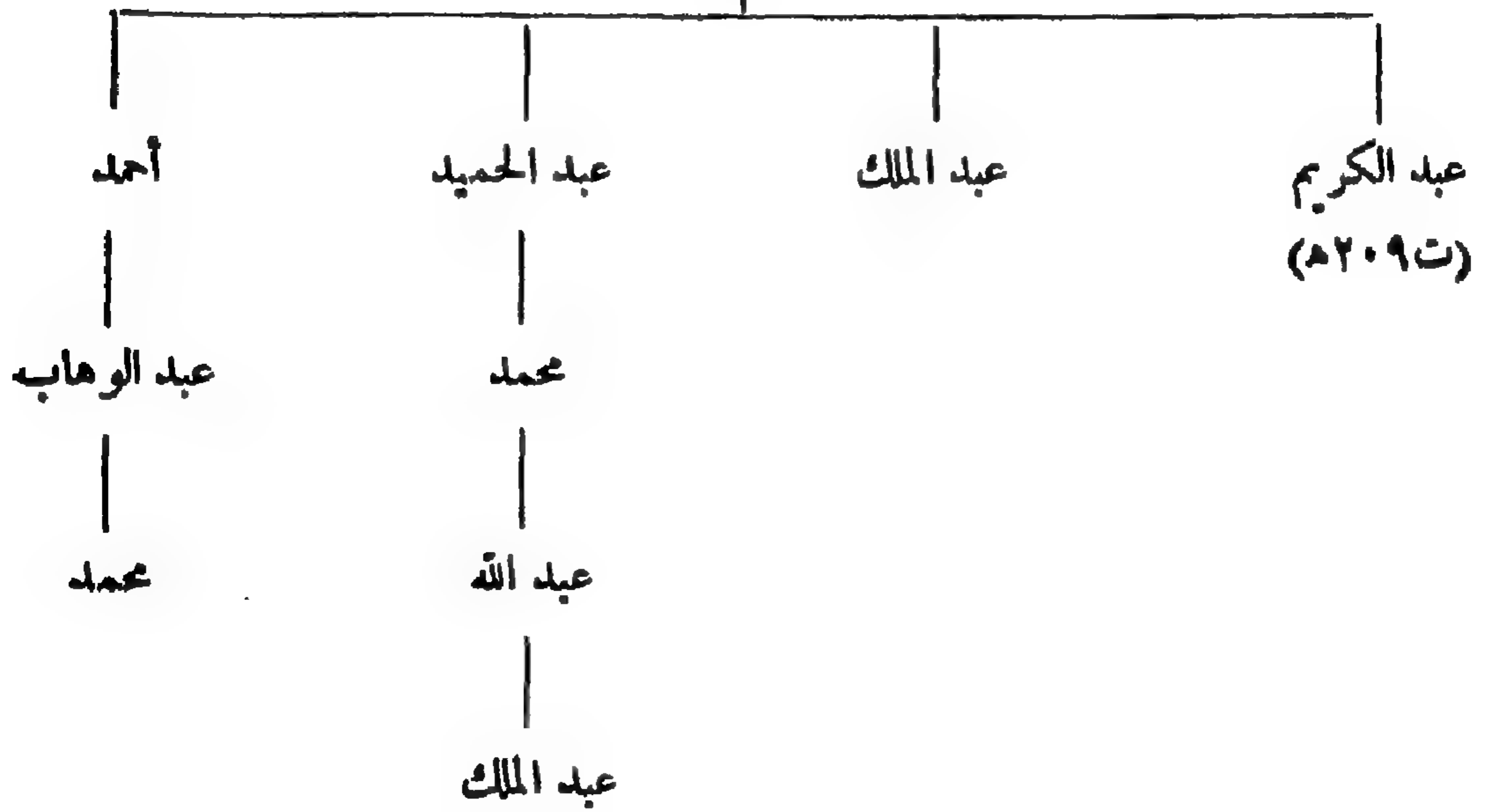
أشرب على البستان من كف من يسقيك من فيه وأحداقه
وأنظر إلى الأيكة في برده ولا حظ البدر ببا طواقه
وقد بدا السرو على نهـره كخائض شمر عين سـاقه (١٣٦)

(١٣٦) في ، المرقى : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٤٢ .

قائمة نسب بني مغيث

مغيث الرومي

عبد الواحد



مصادر ومراجع البحث

(أولاً) مصادر عربية قديمة :

ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :
الحلة الشراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ،
الشركة العربية للطباعة والنشر (القاهرة ١٩٦٣) .

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) :
الكامل في التاريخ ، الجزء السادس (بيروت ١٩٦٥) .

الأكويسي : أبو عبد الله محمد الشريف النسبي (ت حوالي ٥٤٨ هـ /
١١٥٤ م) : وصف المغرب والاندلس ، من ترجمة المشتاق ، في اختراق
الافاق ، نشره دؤزي ودي خوية ، (ليدن ١٨٦٦) .

البلاذوي : أبي الغلب أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
فتوح البلدان ، تحقيق دى اغوية ، (بريل ١٨٦٦) .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)
جمرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة
دار المعارف (القاهرة ١٩٧٧) .

الحميري : أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي -
جدوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (القاهرة ١٩٦٦) .

الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت في أواخر القرن التاسع
الهجري) : الروض المعطار في خبر الأقطار ، نشر وترجمة ليفي
بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .

ابن حيان : أبو مروان (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م)
المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، دار الكتاب
العربي ، (بيروت ١٩٧٣) .

الحشني : أبي عبد الله محمد بن حارث
قضاة قرطبة ، تحقيق ابراهيم الايباري ، دار الكتب الاسلامية ،
(القاهرة ١٩٨٢) .

ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ /
١٣٧٤ م) أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام
وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره ليفي بروفتسال ، (بيروت ١٩٥٦)
الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول
دار المعارف (مصر) .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥٦ م)
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المجلد الرابع ، القسم الأول ،
منشورات الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٦٨) .

ابن سعيد المغربي : المغرب في حلل المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقي
ضييف (القاهرة ١٩٥٣) .

الضيبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م)
بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب العربي
(القاهرة ١٩٦٧) .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
فتوح افريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار الكتاب
اللبناني ، (بيروت ١٩٦٤) .

بن عذارى المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثاني ، تحقيق
كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة (بيروت بدون تاريخ)

العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى (ت ٤٧٨ هـ /
٩٨٨ م) .

ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك
إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الالهوانى ، مطبعة معهد الدراسات
الاسلامية (مدريد ١٩٦٥) .

ابن قتيبة : أبى محمد عبد الله بن مسلم

الامامة والسياسة ، الجزء الثاني ، تحقيق طه محمد الزينى ، مؤسسة
الحلبى (القاهرة ١٩٦٧)

القلقشندي : أبى العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
نهاية الارب ، تحقيق ابراهيم الاييارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب
الكتب الاسلامية (القاهرة ١٩٨٠) .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ،
دار النشر للجامعيين ، (بيروت ١٩٥٧) .

المسعودى : أبى الحسن على بن الحسين

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، (القاهرة ١٩٢٨) .

المقرئ : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ٨٤٥ هـ /
١٤٤١ م) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المجلدان الأول
والثالث ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر (بيروت ١٩٦٨) .

مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الاندلس ، تحقيق ابراهيم الاياري
دار الكتاب المصري ، (القاهرة ١٩٨١) .

النباهي المالقي : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت في أواخر القرن
الثامن) .

تاريخ قضاة الاندلس (كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)
(بيروت: بدون تاريخ) .

(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربة :

أحمد فكري «دكتور» :

قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة
(الاسكندرية ١٩٨٣) .

أحمد مختار العبادي (دكتور) :

دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الطبعة الأولى ، (الاسكندرية
١٩٦٨) .

ارشيالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة
أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية .

حسين مؤنس (دكتور) :

فجر الاندلس ، دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح إلى قيام الدولة
الأموية (٧١١ - ٧٥٦م) الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر
(القاهرة ١٩٥٩) .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :

تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، منشأة المعارف ، (الاسكندرية
١٩٧٩) .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (من الفتح العربي حتى سقوط
الخلافة قرطبة) ، مؤسسة شباب الجامعة ، (الاسكندرية ١٩٨٢) .
قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية
(بيروت ١٩٧١) .

المغرب الكبير ، الجزء الثاني (العصر الاسلامي) ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، (الاسكندرية ١٩٦٦) .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي (دكتور)
تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، مؤسسة شباب الجامعة
(الاسكندرية ١٩٨١) .

محمد عبد الله عنان :

دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الأول ، القسم الأول ، الطبعة الرابعة
(القاهرة ١٩٦٩) .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين في الاندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية
(الاسكندرية ١٩٨١) .

محمود مكي (دكتور) :

تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالاندلس ، نشر محمود
مكي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ، العدد الخامس (مدريد
١٩٥٧) .

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) .

علاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف
القرن الثامن الهجري ، الهيئة العامة للكتاب ، (الاسكندرية ١٩٨١)

ثالثاً : مراجع أوروبية :

Aguado Beleye (Pedro) :

- Manual de Historia de Espana, tomo I, sexta edicion ; Espasa Calpe, (Madrid 1947).

Afif Turk :

- El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de la Hegira), (Madrid, (1978).

Chejne (Anwar) :

- Historia de Espana musulmane, ediciones Catétdra, (Madrid, 1980).

Finaly, (G) :

- History of Greece, T.I, (Oxford, 1877).

Isldoro de laes cagigas :

- Las Mozarabes, T.I, (Madrid, 1947).

Jackson :

- The making of medieval Spain, (California, 1976).

Lévi-Provençal (E) :

- Historia de l'Espagne musulmane tome premier, L'institut Français, (Cairo, 1944).

Ocana Jimenez:

- La basilica de San Vicente Y la gran mezquita de Cordoba, Al-Andalus, (Madrid 1942).

Oman (sir charles) :

- The dark Ages, (476—918), (London, 1962).

Palencia (Gonzalez) :

- Historia de la Espana musulmana, C. Labor, (Madrid, 1945).

Saavedra (Eduardo) :

- La invasion de los Arabes en Espana, (Madrid, 1892).

Simonet (Fracisco Javier) :

- Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid, 1904).

البحث الثاني

حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا
١٣٨ - ٣٦٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٧٦ م

تمهيد :

كان الفتح الإسلامي لاسبانيا حدثاً سياسياً وحضارياً هاماً ، إذ أصبحت أاسبانيا إقليماً إسلامياً تابعاً للخلافة الأموية ، فانسلخت عن أوروبا المسيحية ، وطبعها الإسلام بطابع مميز زاده ما اكتسبته من إمتزاج حضارتها السابقة بحضارة الإسلام ، فنتج عن هذا الإمتزاج فيما بعد حضارة أندلسية إسلامية .

فالمعروف أن الأندلس أصبحت منذ الفتح الإسلامي حتى ١٣٢ هـ / ٧٥١ م ولاية إسلامية تابعة للخلافة الأموية ، ولهذا فقد تأثرت بالحضارة الشامية وسارت على نهجها ، غير أنه بقيام الإمارة الأموية بالأندلس أخذ طابع الاستقلال السياسي عن الشرق يقوى فيها وإن استمرت الإمارة تتلقى التأثيرات الحضارية من المشرق .

فمنذ إعتلاء عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ - ٧٥٦ - ٧٨٨ م) كرسي الإمارة في الأندلس عمل أولاً على توحيد أقاليمها وإحلال الأمن والاستقرار بها ، فاستطاع أن يقضي على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من نواحي الأندلس التي تطلّعت إلى الاستقلال بها ، فأخذهم الداخل بالشدة والحزم فدخلوا في طاعته ، وأعاد الداخل بذلك هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، ولكنه لم يتلقب بلقب الخليفة بل اكتفى بأن أضاف إلى اسمه لقب ابن الخلفاء وهو اللقب الذي استمر في خلفائه من بعده حتى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م عندما تلقب عبد الرحمن بن محمد بلقب الخلافة . واستمرت الأندلس على عهد عبد الرحمن تتلقى مؤثرات الحضارة الشامية في شتى المجالات العمرانية والأدبية والفنية والدينية .

ثم اهتم الأمير هشام الأول الملقب بالرضا (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩-٧٩٦ م) بالقضاء على المؤامرات التي حيكت ضده، وعلى أطماع نصارى الشمال، وتلقت الأندلس في عهده تأثيراً حجازياً تمثل في انتشار المذهب المالكي بالأندلس. وخلفه ابنه الحكم الأول الملقب بالربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) الذي استطاع بفضل حزمه وثباته القضاء على ثورة أهل الربض، وأعاد إلى الأندلس الاستقرار والنظام مرة أخرى، وسمح بدخول بعض مظاهر الحضارة الاجتماعية والثقافية التي كانت مزدهرة آنذاك في الحجاز.

وحينما توفي الحكم الربضي في ذي الحجة ٢٠٦ هـ / ٨٢٠ م، تسلم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م) قطراً هادئاً وادعاً يسوده الأمن والسلام، فتعمت الأندلس بالاستقرار لسياسته الحكيمة فقد كان شاباً ذكياً ورث قدراً من خصال جده وأبيه، فلم يهمل دينه، ولم ينس دنياه، فأنصرف إلى اللهو المعتدل، وانعكس ذلك على الأندلسيين الذين انصرفوا إلى أعمالهم من ناحية واستمتعوا بمباهج الحياة من ناحية أخرى ونتيجة لهذا كثرت ورود العلماء والتجار والفنانين المشاركة وخاصة من بغداد إلى الأندلس، فتأثرت بحضارتهم البغدادية، وتمثل ذلك التأثير في جميع مظاهر الحضارة من فنية واقتصادية وإدارية واجتماعية، فامتزجت التيارات الحضارية الشرقية الثلاثة مع حضارات أسبانيا القديمة، ونتج عن هذا الامتزاج ظهور الروافد الأولى للحضارة الأندلسية الإسلامية، وانعكس ذلك بطبيعة الحال على ما وصلت إليه قرطبة حاضرة الامارة الأندلسية من مكانة هامة، فأضحت محط أنظار ملوك وأباطرة هذا العصر، ولا شك أن الذي ساعد على تبوئها هذه المكانة الرفيعة ما نعمت به الأندلس من استقرار وما حفل به بلاط عبد الرحمن الأوسط من رجال مميزين في شتى المعارف فعبد الرحمن «هو الذي استكمل فخامة الملك، وترتيب الخدمة بالأندلس وكسا الامارة أبهة الخلافة، وظهر في أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور، وشيد القصور، وجلب المياه من الجبل،

«و بنى الرصيف على الوادي الكبير» (١).

على أن قرطبة ما لبشت أن أضحت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) في مقدمة حواضر العالم آنذاك لما بلغته من مستوى علمي وسياسي رفيع تمتعت به حكومتها ومجتمعها آنذاك (٢) فقد أحاط الناصر نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، وأسهم في قيام حركة معمارية في الأندلس، وخاصة في قرطبة حاضرة الخلافة لم تشهد لها الأندلس نظيراً من قبل، فأنشئت مدينة الزهراء ومنية الناعورة وأضيف إلى قصر الخلافة بفقرطبة مجالس وقاعات، ويرجع ذلك إلى شغف الناصر بالبنيان، فخصص له ثلث جبايته، وبهذه الأموال «أسس الأسوس، وغرس الغروس، وأخذ المصانع والقصور» (٣) فنعمت الأندلس بفضل جهود الناصر برخاء وازدهار وانعكس ذلك بطبيعة الحال على عهد ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) من سلم واستقرار بلغت الحضارة الأندلسية فيه ذروتها، ووصلت قرطبة حاضرة الخلافة إلى قمة البهاء والعظمة، وأصبحت تنافس مدن العالم الكبرى: بغداد وروما والقسطنطينية في الاتساع والتخطيط وفي الحضارة (٤).

ولهذا لم يكن غريباً أن تفد سفارات دول أوربا إلى بلاط الأمويين في قرطبة طلباً للسلم والمودة والمواصلة، وخروج سفارات أندلسية إلى هذه الدول لاجراء مباحثات لصالح الطرفين، ويهمننا هنا السفارات الأندلسية إلى دول أوربا.

(١) ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي): الحلة السيرة، الجزء الأول، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١١٣ -

(٢) Jakson : The Making of Medieval Spain, California, 1976, P 30.

(٣) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، تحقيق كولان وليبي بروفنسال، دار الشروق، بيروت، لبنان (بدون تاريخ)، ص ٢٢٣.

(٤) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٦١.

١ - السفارات الأندلسية إلى بلاد الفرنجة :

اتسمت العلاقات بين دولة الفرنجة والأندلس في أوقات كثيرة بالعداء وبخاصة في صدر إمارة بني أمية في الأندلس ، عندما أقدم الفرنجة على تكرار هجماتهم على الأندلس ، ولم يلبث أن أدركوا بعد ذلك أنه من الأفضل تغيير سياستهم عندما تحققوا من قوة الأندلس واستحالة هزيمة الأندلسيين بالسهولة التي كانوا يتصورونها (٥) .

وينبغي أن نقرر هنا أن السياسة الأندلسية في عصر الإمارة الأندلسية في الأندلس كانت بوجه عام تتعجل الاستجابة إلى أي طلب للصدقة ، فلم تكن الأندلس أبداً في حالة تسمح للداخل ، على سبيل المثال ، أن يأخذ زمام المبادرة في أي هجوم على الفرنجة لذلك فقد اتبع الداخل سياسة دفاعية يمكنه بمقتضاها تقوية إمارته واخضاع المتمردين ضد الحكومة المركزية في قرطبة .

ولكن ليس معنى ذلك أن عبد الرحمن الداخل هادن تماماً دولة الفرنجة لكنه تقصى أخبارها وأحوالها الداخلية ، واستطاع بمقدرته ودهائه السياسي أن يرغمهم على سلمه بطريقة دبلوماسية فائقة ، ونفهم مما ورد في المصادر الإسلامية أن شارلمان ملك الفرنجة مال بعد هزيمة جيشه في ممررونسفالة (Roncesvalles) في جبال البرتات بعد حملته الفاشلة على الأندلس (١٦١ - ١٦٢ هـ / ٧٧٨ - ٧٧٩ م) إلى تغيير سياسته العدائية نحو الأندلس بسياسة تتسم بالسلام والوثام ، فتبدلت السفارات بين الجانبين وحلت العلاقات السلمية محل العلاقات العدائية في الأيام الأخيرة لحكم عبد الرحمن الداخل (٦) ، يقول المقرئ : « وخاطب عبد الرحمن قارله (شارلمان) ملك الفرنج وكان من طغاة الأفرنج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ،

El-Hajji (A.A.) : Diplomatic relations between Andalusia and the Franks during the umayyad period, in the Islamic Quarterly, V. Xii, No. 2-April-June, P. 115.

Reinaud Muslim colonies in France, Northern Italy and (٦) switzerland English Translation by Sherwani, Lahore, 1964, P. 4.

تام الرجولية فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه إلى السلم ولم تتم المصاهرة» (٧) ويستفاد من هذا النص أن سفارة أندلسية خرجت إلى بلاد الفرنجة برسالة من الأمير عبد الرحمن الداخل يطلب فيها مسالة ومصاهرة امبراطور الفرنجة شارلمان، وبالرغم من اختلاف الباحثين في أي من العاهلين هو الذي بادر بعرض اقتراحه للسلم والمصاهرة وأي منهما كان البادئ بالكتابة إلى الآخر، فالمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال يرى أنه من المحتمل أن يكون قد حدث تحريف أثناء نقل المقرئ لهذا النص عن ابن حبان القرطبي، ولهذا فهو يستبعد أي شك في أصالتها أو صدقها في ضوء أحداث العصر (٨) ويستند في ذلك إلى أن شارلمان لم يقم بأية حملات عسكرية على الأندلس بعد حملته الفاشلة سنة ١٦١ هـ (٧٧٨ م) حتى نهاية حكم عبد الرحمن الداخل (١٧٢ هـ - ٧٧٨ م) (٩) ولعل سوء الأوضاع الداخلية التي قمر بها الامبراطورية الكارولنجية في عهد شارلمان والاضطرابات التي سببها السكسون والتي استنفذت جهداً عظيماً منه وجعلته ينصرف إلى إخضاعهم؛ كانت دليلاً على رغبة شارلمان في مواءمة حكومة قرطبة (١٠). وإذا أضفنا إلى ذلك رغبة عاهل الأندلس في تحقيق السلم مع الفرنجة خشية أن تزداد علاقة هؤلاء بالعباسيين توثقاً وتتطور إلى قيام مشروعات مشتركة عدائية ضد الأندلس (١١). لكل ذلك جرى الاتفاق بين الجانبين ونجحت السفارة

(٧) المقرئ (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٨) Levi-Provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, t. I, Paris, 1950, P. 127.

(٩) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 179.

(١٠) Einhard : "Life of charlemagne", in the Medieval world, by Cantor, Newyork, 1968, P. 141.

محمد محمد مرسى الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ٢٢٤.

(١١) Deanesly : A history of Early Medieval Europe, London, 1956, P. 394.

الأندلسية إلى شارلمان في تحقيق غرضها بإحلال السلم بين الطرفين ، بينما لم تتم المصاهرة السياسية بزواج ابنة شارلمان من عبد الرحمن الداخل لتعلل الأخير بسوء صحته وكبر سنه^(١٢) وتوج هذا الاتفاق بين الطرفين بمعاهدة سلمية ربما في سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م .

وفي سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) أرسل الحكم الربضي سفارة أندلسية إلى أكس لاشابل Axi-La-Chapelle^(١٣) عاصمة دولة الفرنجة للتفاوض مع شارلمان^(١٤) ، ويرجع السبب في ارسال هذه السفارة إلى أن شارلمان أعتقد أنه بوفاة عبد الرحمن الداخل ١٧٢ هـ زالت العقبة الكؤود أمامه لتحقيق مشروعه الكبير في أسبانيا فأخذ في تحريض نصارى شمال اسبانيا ضد حكومة الأندلس ، ثم قام في سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م بارسال جيش كبير للاستيلاء على برشلونة تحت قيادة ابنه لويس أمير أكوئين (Aquitaine) (١٥) ونتيجة للحصار الشديد الذي فرضه الفرنجة على برشلونة ، وضعف مقاومة سعدون الرعيني والي المدينة عن الصمود للحصار من جهة ، وانشغال أمير قرطبة في قمع الثورات الداخلية ضده^(١٦) ، لم يجد والي المدينة بداً من الخروج بنفسه إلى قرطبة والتماس عون الحكم الربضي ، لكن لسوء حظه وقع اسيراً في قبضة الفرنج ولم يلبث الفرنجة أن دخلوا المدينة بعد حصار دام سبعة أشهر^(١٧) . وبذلك دخلت برشلونة في حوزة الفرنجة بعد أن بقيت في أيدي المسلمين نحو تسعين عاماً^(١٨) . و بسقوط

(١٢) El-Hajji : Op. Cit, P. 118.

(١٣) Ibid : P. 118, Nota, I.

(١٤) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, PP. 127-128.

(١٥) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 179.

(١٦) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزري) : الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٦٨ .

(١٧) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 180.

(١٨) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ، وانظر أيضاً : محمد الشيخ : دولة الفرنجة ص ١٧١

برشلونة في أيدي الفرنجة طمع شارلمان في مد نفوذه إلى أبعد من ذلك لا سيما تجاه ساحل شرق الأندلس ، فعاد في سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) إلى مهاجمة طرطوشة وحاصرها لكن قوات الحكم بقيادة ابنه الأمير عبد الرحمن اشتبكت مع قوات الفرنجة ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً على جيش الفرنجة (١٩) ، وجرت محاولات أخرى من قبل شارلمان للاستيلاء على بعض ثغور الأندلس غير أنها باءت بالفشل ، وعاقبت شارلمان عن تنفيذ مشروعه ، عند ذلك أحس الجانبان الفرنجي والأندلسي بعقم هذه الحروب ، فمالا إلى المهادنة والصلح ، وأثر الأمير الحكم بسبب مشاغله الداخلية الكثيرة ، لا سيما ثورات المولدين ، واستفحال أمر الإدارة بالمغرب ، وتوجسه من عواقب قيام دولتهم (٢٠) ، وتمشياً مع سياسة جده الداخل ارسال السفارة المشار إليها ، التي نجحت في عقد معاهدة سلام بين الجانبين مدتها ثلاث سنوات (٢١) .

وفي سنة ٢٠١ هـ - ٨١٦ م بعث الحكم الربضي سفارة أندلسية إلى العاهل الفرنجي لويس التقي الذي استقبلها في بلاطه بإكس لاشابل ، وجرت مفاوضات بين الجانبين ثم عقدت اتفاقية سلام بين الطرفين (٢٢) . ويبدو أن هدف هذه السفارة الأندلسية كان لتجديد الاتفاقية السابقة والتي أبرمت في عهد شارلمان ، الذي توفي في عام ٨١٤ م ، وخلفه ابنه لويس التقي

(١٩) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ٧٢ - ٧٣، المقرئ: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٤٠، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص ٢٢٦.

(٢٠) السلاوي: الاستعصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الأول، القاهرة، ١٣٠٦ هـ ص ٧١ وما بعدها.

(٢١) Levi-Provençal : Op. Cit, 128 Sanchez-Albornoz (Claudio) : El Islam de Espana yel Occidente, segunda edición, coleccion austrial, Espasa-Calpe, Madrid, 1981, P. 164.

Sanchez-Albornoz : Op. cit., P. 164. (٢٢)

فلا بد وأن العاهل الأندلسي رغب في تجديد الاتفاق معه لاستمرار السلام بين الجانبين .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط أرسلت سفارة أندلسية إلى دولة الفرنجة سنة ٢٢٤ هـ - ٨٣٨ م لاجراء محادثات مع لويس التقي ملك الفرنجة أيضاً (٢٣) ، غير أن المصادر الأجنبية صممت عن ذكر سبب ايفاد هذه وما أسفرت عنه ، ونعتقد أن هذه السفارة لم تحقق نتيجة تذكر لأن هذه الفترة شهدت تحولا في سياسة الفرنجة نحو الأندلس ، تمثل في محاولات الفرنجة التدخل في شئون الأندلس حرييا ، باخضاع جماعات البشكنس أولا والتمهيد للعبور إلى شمال اسبانيا ثم التحول لمهاجمة المسلمين (٢٤) ، غير أن محاولاتهم فشلت أمام تعاون البشكنس ومسلمي الأندلس فانزلوا الهزيمة بجيش الفرنجة (٢٥) . فضلا عن أن العاهل الفرنجي لويس التقي استطاع أن يحقق مآربه في ميدان آخر حين بسط حمايته على جزر البليار (ميورقة ومنورقة و يابسة) وسردينيا وقورسيقا ، وقبل حكام هذه الجزر الحماية الفرنجية (٢٦) . ولم يكن أمام عبد الرحمن الأوسط إذن غير محاولة التفاهم مع لويس التقي فأقدم على ارسال السفارة المذكورة سنة ٢٢٤ هـ - ٨٣٨ م . غير أن المفاوضات التي جرت بين الجانبين حيث لم تؤد إلى نتيجة ايجابية ، لذلك حشد عبد الرحمن الأوسط قواته البحرية على طول سواحل شرق الأندلس فيما بين طرطوشة وبلنسية ، وشن أسطوله هجمات مستمرة على شواطئ الفرنجة في جنوب فرنسا فيما بين سنتي ٢٢٥ هـ ، ٢٢٦ هـ / ٨٣٨ ، ٨٣٩ م حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وارل وما حولها ، واتخذت جزيرة كامارج Camargue عند مصب

(٢٣) Levi-Provençal : Op. Cit, t. I, P. 175.

(٢٤) Deanesly : Op. Cit, P. 354.

(٢٥) شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٩٢ . محمد الشيخ: الفرنجة ، ص ١٧٤ .

(٢٦) Deanesly : Op. Cit, P. 354.

نهر الرون قاعدة يشن منها مغامرو البحر الاندلسيون غاراتهم على الساحل الجنوبي الفرنسي بل والتغلغل في أراضيه عن طريق وادي الرون نفسه (٢٧)، واستطاع عبد الرحمن الأوسط أن يفرض حمايته على جزر البليار بعد أن شعر حكام هذه الجزر بعدم جدوى الارتباط بدولة الفرنجة (٢٨).

وفي سنة ٢٣٤ هـ - ٨٤٧ م أرسل عبد الرحمن الأوسط سفارة أندلسية إلى بلاد الفرنجة لعقد اتفاقية سلام، وصداقة مع العاهل الفرنسي شارل الأصغر Charles le chauve (٢٩). ويبدو أن السبب الأساسي لإرسال هذه السفارة إلى دولة الفرنجة، يرجع إلى أن العلاقات بين الجانبين تبدلت بعد وفاة لويس الثاني سنة ٨٤٠ م / ٢٢٦ هـ إذ اندلعت الحروب الأهلية بين أبناء لويس الثاني واستمرت ثلاث سنوات انتهت بتولي شارل الأصغر حكم الجهات الغربية من الامبراطورية والتي شملت الأراضي المتاخمة للاندلس، فسار شارل على سياسة سلفه العدائية ضد الأندلس وأخذ يحرض الثوار على القيام بثورات ضد مسلمي الأندلس، لكن الأمير عبد الرحمن الأوسط لم يكن بغافل عما يدبره شارل الأصغر فقام بدوره بتأييد الثائرين ضد الملك الفرنسي وتحريضهم على القيام بثورات ضده، يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ القرطبي ابن حيان في أحداث سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦ م من قدوم أحد الثوار الفرنجة ويدعى وليم والذي سماه ابن حيان «غليالم بن برنات بن غليالم» كونت تولوز، والذي أعلن العصيان على شارل الأصغر، وطلب المساعدة من عبد الرحمن الأوسط، فأجابه إليها (٣٠) و يضيف رينو أن «غاليالم» هذا كان أحد رجال يبين

(٢٧) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٢٩ - ٢٣٠، أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢٨) ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكّي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص ٢ - ٣.

(٢٩) Levi-Provençal : Op. Cit, t. 1, Ol, P. 148.

Sanchez-Albornoz : Op. cit., P. 165.

(٣٠) ابن حيان: المصدر السابق، ص ٣. Reinaud : Op. Cit, PP. 199-120.

الصغير ابن أخي شارل الأصلع الذي ثار في اكويتين ضد عمه شارل الأصلع، وأنه هو الذي أرسل غليالم إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط في قرطبة لطلب المساعدة (٣١)، وقد أشار إلى هذا الاتفاق أيضاً المؤرخ المستعرب القرطبي سان ايولونخيو بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط وعد «غليالم» هذا بأن يعينه ويمده لو أنه ثار على شارل الأصلع ملك الفرنجة (٣٢). وقد ترتب على ذلك بلا شك أن اتسمت العلاقات بين الجانبين الفرنجي والأندلسي بالعداء، وتوقف على أثر ذلك الحوار والمفاوضة بينهما لفترة، ولم يتجدد إلا في السنوات الأخيرة لحكم عبد الرحمن الأوسط، وهو ما يشير إليه ليفي بروفنسال والذي جعله في سنة ٢٣٤ هـ - ٨٤٧ م (٣٣)، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره ابن القوطية في أخبار تلك السفارة بقوله: «وذلك أن رجلاً يعرف بالقصبي كانت له وجهة، وكان يوفده عبد الرحمن بن الحكم إلى قارله (شارل) ملك الفرنجة وإلى ملك الروم» (٣٤) وعلى الرغم من عدم معرفتنا باسم هذا السفير الأندلسي والفرنجة، فقد توجت جهوده بعقد صلح واتفاق سلام بين العاهلين قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بسنوات قليلة (٣٥).

وقد احتفظ الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) بعلاقات الود والصدقة مع شارل الأصلع الذي تبادل معه الهدايا لاستمرار المواصلات والمهادنة، فقد ذكر أحمد بن محمد الرازي أن «حال الأمير محمد كانت لدى المجاورين له من ملوك الطواغيت بأرض الأندلس نهاية في التعظيم له والهيبة، والتماس السلم منه في أغلب أحوالهم بالالطاف والمهادنة

(٣١) محمد محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة ص ٢٤٢.

(٣٢) San Eulogio : Memoriale sanctorm en Levi-Provençal Histoire, t. I, P. 212, N. 1.

(٣٣) Levi-Provençal : Ibid, P. 148.

(٣٤) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٢.

(٣٥) El-Hajji : Op. Cit, P. 120.

وكان أكلفهم بذلك طاغوتهم الأعظم قرلش بن لدويق (شارل الأصلع) صاحب الفرنجة الجبار المستبصر في دين الملكانية، وكان أعظم ملوك الفرنجة ملكاً وأفخمهم أمراً وأبعدهم صيتاً^(٣٦). ويقول ابن عذارى المراكشي: «وكان قرولش (شارل الأصلع) ملك الفرنجة يسترجع عقله فيهاديه ويتحفه»^(٣٧). ويؤكد ذلك ما ذكره ليفي بروفنسال نقلاً عن الحوليات المسيحية التي أرخت لحكم قرولش أوقارل بن لدويق (شارل الأصلع) والتي تذكر خبر الصداقة بين الأمير محمد وبينه وما تبودل من سفارات بينهما^(٣٨)، إذ استقبل شارل الأصلع سفارة أندلسية في Campiegne سنة ٢٤٩٠هـ - ٨٦٣م وأخرى في Senlis سنس عام ٢٥٠هـ - ٨٦٤م^(٣٩). وتسلم منها رسالتين من العاهل الأندلسي من انشاء المستعرب Samson مترجم البلاط القرطبي وهدايا ثمينة^(٤٠). ويمكننا أن نؤكد أن السفارتين قد نجحتا في مهمتهما لتجديد المواصلات واحلال السلام بين الطرفين، بدليل استقبال الأمير محمد سفارة فرنجية في سنة ٢٥٢هـ - ٨٦٦م وقبول هداياهم وفيها تم عقد معاهدة صلح وسلام^(٤١).

٢ - السفارات الأندلسية إلى المانيا:

وجه الخليفة عبد الرحمن الناصر سفارة أندلسية إلى أوتوال أول Otto 1 امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ٣٣٩هـ - ٩٥٠م، وعلى رأسها أسقف

(٣٦) ابن حيان : القتبس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، ص ١٣٠.

(٣٧) ابن عذارى : البيان المغرب، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣٨) Levi-Provençal : Op. Cit, t. 1, P. 283, N. 3.

(٣٩) Ibid, PP. 198-200.

(٤٠) Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1903, P. 494.

(٤١) El-Hajji : Op. Cit, P. 120.

وانظر أيضاً : محمد محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة، ص ٢٤٥.

مستعرب^(٤٢)، فرد عليه أوتوال أول بسفارة المانية وصلت إلى قرطبة برئاسة جان Juan رئيس دير جورز Gorz في Lorena، والراهب جرامانو Garamanno في سنة ٣٤٣هـ — ٩٥٤م^(٤٣). ومما لا شك فيه أن بلاط قرطبة بلغ مكانة كبيرة، وأصبح مقصداً لجميع سفراء الملوك والأباطرة ذلك الوقت، فاتسم بنشاط دبلوماسي مع سفراء الدول الأجنبية وتعاون فيه الناصر مع عدد من الشخصيات المستعربة، والتي كانت بمثابة حلقة وصل بينه وبين سفراء الدول الأجنبية، ويبدو أن غرض السفارة التي أرسلها أوتوال أول إلى الأندلس كان لوضع حد لاغارات مجاهدي البحر الأندلسيين الذين اتخذوا قاعدة فراكستيم Fraxinetum على قمة جبل سانت ترو بيز Saint tropez والتي تشرف على سهول بروفانس وحدود إيطاليا مركزاً لشن غاراتهم على المدن الساحلية الفرنسية والإيطالية فشككت بذلك مصدر خطر لحركة المواصلات والتجارة التي تربط بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا عبر جبال الألب^(٤٤). على أية حال وصل الراهب جان ومن معه إلى قرطبة واستقبل بما يليق بمكانته كسفير لدولة كبرى، وأنزل بأحد قصور قرطبة بالقرب من إحدى كنائسها حتى يستطيع اداء شعائره الدينية، وطبقاً للتقاليد الدبلوماسية أحيط الخليفة علماً بمضمون الرسالة التي يحملها السفير جان قبل تسليمها إليها رسمياً، ويبدو أن الرسالة التي حملها باسم الامبراطور كانت من انشاء برونو Bruno أسقف كولونيا Colonia وأخي الامبراطور أوتو، كانت تتضمن قذفاً في الدين الإسلامي مما سببت ازعاجاً كبيراً للخليفة الناصر، لهذا رفض تسليمها وطلب مقابلة السفير

(٤٢) Isidoro de les cagigas — Los Mozarabes, t. II, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1948, P. 331.

(٤٣) Ibid, P. 331.

(٤٤) Paz y. Mella : Embajada del Emperador de Alamania oto I. al califa de Cordoba Abderrahman III, Boletin de la Academia de Ciencias, Bellas latras Y Nobles Artes de Coraoba, X, 1931, N. 33. Levi-provençal Op. Cit, t. II, P. 154.

بالهدية فقط التي بعث بها الامبراطور دون الرسالة ، لكن السفير جان أصر على تقديمها كتعليمات الامبراطور أوتو الأول (٤٥) .

لكن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يحل هذه القضية الشائكة بحذق ومهارة ، فاختار الأسقف المستعرب ريسموند Recemundo القرطبي أسقف البيرة Iliberis المعروف بين الأندلسيين باسم ربيع بن زيد الأسقف القرطبي والذي حظي بمكانة ممتازة في القصر الخلافي ، وكان موضع تقدير الناصر لمعارفه الفلكية الواسعة ، فضلاً عما وقف عليه هذا الأسقف المستعرب من تسامح مسلمي الأندلس تجاه المستعربين ، ليكون أقدر من يلعب دور الوساطة بينه وبين الامبراطور الألماني أوتو الأول لكونه مسيحياً من ناحية ، ولما توسمه فيه من مقدرة على شرح وجهة نظر الخليفة بطريقة ممتازة من ناحية أخرى لوضع حل للموقف الصعب الذي خلقه القاصد الرسولي العنيد السفير جان (٤٦) . و هكذا وقع اختيار الناصر على الأسقف ريسموند ليكون سفيره إلى المانيا ، وزوده بما يلزم من توجيهات فضلاً عن أن السفير الألماني جان زوده أيضاً برسائل لمقدم دير جورز لتسهيل مهمته (٤٧) .

خرجت السفارة من الأندلس في طريقها إلى المانيا ، فوصلت أولاً إلى دير جورز وفيه سلم الأسقف ريسموند رسالة السفير الألماني جان ومكث فترة من الوقت في ضيافة الدير إلى أن تم اعداد مقابله مع الامبراطور الألماني (٤٨) أوتو الأول في فرانكفورت الذي استقبل السفارة الأندلسية بحفاوة وأكرم وفادتهم وأطلع على رسالة الخليفة الناصر وتفهم ما جاء بها واستجاب لما طلبه العاهل

Isidoro de las Cagigas : Op. Cit, t. II, P. 331. (٤٥)

Ibid, t. II, PP. 330-332 (٤٦)

El-Hajji (A.A.) : Andalusian diplomatic relations with western Europe during the Umayyad Period, Beirut, 1970, P. 219, (٤٧)

محمد الشيخ : دولة الفرنجة ، ص ٢٦٦ .

Isidoro de las Cagigas : Op. Cit, t. II, PP. 332-333. (٤٨)

الأندلسي، وأرسل الامبراطور الألماني دوق فردان Verdun في سفارة بعدئذ
للأندلس، فاستقبله الخليفة الناصر متناسياً ما جاء في الرسالة السابقة (٤٩).

وهكذا كللت سفارة الأسقف المستعرب ريسموند بالنجاح وقفلت عائدة
إلى قرطبة في سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م.

٣ - سفارة أندلسية إلى روما :

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وجه سفارة أندلسية إلى روما، وكانت
مهمة هذه السفارة شراء بعض الأعمدة الرومانية المتخلفة من معابدها الرومانية
القديمة من أجل الاستفادة بها في تشييد مدينة الزهراء التي أنشأها الناصر
شمال غرب قرطبة لتكون مقراً لخلافته، والتي حرص على تزيينها وتجميلها
حتى تليق به وتصبح مقراً لخلافته، وعهد بالاشراف على بنائها إلى ابنه وولي
عهده الحكم، ويبدو أن السفارة الأندلسية حققت أغراضها، وأجيب الناصر
لطلبه، ويحتمل أن يكون تاريخها بعد سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م وقبل سنة ٣٥٠ هـ
- ٦٩١ م، أي في السنوات الأخيرة لخلافة الناصر (٥٠).

السفارات الأندلسية إلى القسطنطينية :

تميز القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بتغير العلاقات الدولية بين
الأندلس وبيزنطة، فحلت المصالح الدولية السياسية محل الاعتبارات الدينية
وبرز ذلك واضحاً في السفارة التي أرسلها الامبراطور البيزنطي ثيوفيل
Theophilus (٨٢٨ - ٨٤٢ م) إلى عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط سنة
٢٢٥ هـ - ٨٣٩ م.

فقد اتسمت العلاقات الدولية في هذا القرن بتغيرات هامة، كانت فيه
المصالح السياسية والقومية والاقتصادية تلي على أباطرة وملوك وحكام الدول
البحث عن عقد التحالفات والمعاهدات للتمكن من مجابهة المواقف والأوضاع

(٤٩) Isidoro de las Cagigas : Op. Cit, t. II, P. 333.

(٥٠) Ibid, P. 333. El-Hajji : Andalusian, P. 287.

الدولية والداخلية على السواء .

وقد حفظت لنا المراجع الأجنبية أخبار سفارات تبودلت بين شارلمان امبراطور الفرنجة وبين هارون الرشيد الخليفة العباسي ، بغية تحقيق مصالح مشتركة على حساب الدولتين البيزنطية والأموية في الأندلس ، وعلى الرغم من أنها لم تحقق شيئاً من أهدافها إلا أنها عمرت بعبارات التبجيل وتبادل الهدايا القيمة .

وتمشياً مع مبدأ المصالح السياسية ، أدرك الامبراطور البيزنطي ثيوفيل أنه من الحكمة إقامة علاقات ودية مع مسلمي الأندلس بغرض تخفيف الضغط العسكري الذي تواجهه امبراطوريته سواء من جانب البحرين الأندلسيين في كريت والأغالبة في افريقية وصقلية الذين يدورون في فلك الدولة العباسية أو من جانب الخلافة العباسية في المشرق ، فلقد نجح البحريون الأندلسيون في انتزاع جزيرة كريت التابعة لبيزنطة واتخذوها قاعدة لهم شنوا منها الغارات على جزر بحر إيجه وساحل تراقيا وجبل آنوس ومدينتي ميليتي وسالونيك وغيرها ، كما نجح الأغالبة بعد غزواتهم البحرية المتكررة على سواحل البحر الادرياتي وجنوب إيطاليا من الاستيلاء على جزيرة صقلية . أما في المشرق فقد تمكن الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ - ٢٢٣ هـ - ٨٣٣ - ٨٤٢ م) من دحر قوات البيزنطيين بانتصاره عليهم في عمورية ٢٢٣ هـ - ٨٣٨ م .

وقبل الحديث عن السفارات الأندلسية إلى القسطنطينية ، ينبغي لنا أن نلقي الضوء على القوى الإسلامية التي لعبت دوراً أساسياً في مواجهة بيزنطة والتي حملت الامبراطور البيزنطي ثيوفيل على طلب المساعدة من أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط .

فلقد استطاع البحريون الأندلسيون أن يستغلوا حالة الفوضى التي عاشتها مصر في ظل الخلاف الذي نشب بين الأمين والمأمون وما ترتب على ذلك من فوضى في مصر فدخلوا طبرفاً في النزاع الدائر على أرض مصر وتمكنتوا من الاستيلاء على مدينة الاسكندرية بمعاونة عرب البحيرة وأسسوا فيها إمارة

أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت أكثر من عشر سنوات وعندما دانت الخلافة للمأمون، واستقرت الأوضاع في العاصمة، رأى المأمون أن يضع حداً للاضطرابات الداخلية في مصر، فأرسل قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين على رأس جيش إلى مصر لهذا الغرض سنة ٢١٢ هـ - ٨٢٨ م^(٥١) فحاصر الاسكندرية لمدة اسبوعين ولم يجد الأندلسيون بداً من مصالحتهم، فصالحهم على أن يخلوا الاسكندرية إلى حيث أرادوا بشرط ألا يأخذوا في مراكبهم أحداً من الأهالي ولا عبداً ولا آبقاً، فإذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم^(٥٢). بينما يذكر ابن الأبار أن عبدالله بن طاهر صالح الأندلسيين على التخلي عنها مقابل مال بذله لهم وخيرهم في النزول حيث شاءوا من جزائر البحر، فاختاروا جزيرة اقريطش التي غزوها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمرو بن شعيب البلوطي^(٥٤). وكان اختيار البحريين الأندلسيين لجزيرة اقريطش مقراً لهم اختياراً موفقاً لما تتمتع به الجزيرة من موقع استراتيجي ممتاز في شرقي البحر الأبيض المتوسط، فضلاً عن خصوبة أرضها^(٥٥). والواقع أن هذا الاختيار لم

(٥١) Levi-Provençal : Histoire, t. I, P. 127.

وانظر أيضاً عن البحريين الأندلسيين واستيلائهم على الاسكندرية من المراجع العربية الحديثة: سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٩، ص ٢٢٨ وما بعدها، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي): تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ج ٢٢، مؤسسة شباب الجامعة (بدون تاريخ)، ص ٦٧ وما بعدها، أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٨، ص ٢٥٣ وما بعدها، اسمت غنيم: الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٥٢ وما بعدها.

(٥٢) الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، المطبعة الحسينية المصرية القاهرة ١٣٢٦ هـ، ص ٢٧٥، ٢٧٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٢١٢.

(٥٣) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ١، ص ٤٥.

(٥٤) الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد: بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي ١٩٦٧، ص ٤٠٥ (ترجمة ١١٦٥).

(٥٥) ابراهيم احمد العدوي: اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي، المجلة التاريخية المصرية، أكتوبر ١٩٥٠، المجلد الثالث، العدد الثاني، ص ٥٥.

يأت بمحض الصدفة ، فيذكر المؤرخ فازلييف اعتماداً على ما رواه جنزيوس أن البحريين الأندلسيين أغاروا مرات على كريت وعلى جزر يونانية أخرى قبل أن يخرجوا من الاسكندرية في سنة ٢١٢هـ - ٨٢٧م فقد أغار البحريون الأندلسيون على جزيرة كريت في سنة ٢١١هـ - ٨٢٦م وعلى جزر أخرى يونانية وعادوا محملين بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن خبروا المكان وعرفوه معرفة دقيقة^(٥٦) .

وربما كان للظروف الداخلية العvisية التي كانت تمر بها بيزنطة من جراء ثورة توماس الصقلي أثري في عدم مبادرتها بالدفاع عن الجزيرة ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن امكانات الجزيرة العسكرية لم تكن تسمح لها بمقاومة البحريين الأندلسيين أدركنا بلا شك كيف نجح البحريون الأندلسيون في فتح الجزيرة وفي استكمال فتح بقية أجزائها ، وتمكنوا في وقت قصير من الاستيلاء على تسع وعشرين مدينة لم تحفظ اسمائها^(٥٧) . ثم لم تلبث باقي نواحي الجزيرة أن دانت لهم بالطاعة وخضعت الجزيرة تماماً للفاحين . وكان من الطبيعي أن يلتسموا الأمان بالانتماء إلى الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى الإسلامي كله بما في ذلك مصر وأفريقية^(٥٨) . وما لبثت اقريطش أن أصبحت في التقسيم الإداري للدولة العباسية إقليماً تابعاً لمصر^(٥٩) .

أما عن موقف بيزنطة من هذا الفتح ، فيستفاد مما أورده المصادر البيزنطية في هذا الشأن أن الامبراطور ميخائيل الثاني (٧٢٠هـ - ٨٢٩م) قام بمحاولات يائسة لاسترداد الجزيرة غير أن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل الذريع ، وتأكدت السيطرة الإسلامية على الجزيرة بل وشجعت مسلمي كريت

(٥٦) فازلييف : العرب والروم ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، مراجعة الدكتور فؤاد حسنين علي ، الفكر العربي ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ٥٥ .

(٥٧) فازلييف : نفس المرجع ، ص ٥٨ وما بعدها وانظر أيضاً .

Bury : History of the Eastern Roman Empire, London 1912, P. 289.

(٥٨) السيد عبد العزيز سالم : البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٥٩) العبدوي : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ، ص ٥٩ .

على اتخاذها مركزاً لشحن هجماتهم على السواحل والجزر البيزنطية المجاورة فكانوا مصدر انزعاج وقلق مستمر لخليفة ثيوفيل الذي أغار البحريون الأندلسيون في أوائل عهده على شواطئ أيونيا Ionia وكايرا Caira على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في نحو خمسين سفينة، كما هاجموا أديرة الرهبان في جبل آتوس Atus (٦٠). غير أن ثيوفيل ما لبث أن أدرك عدم جدوى مواصلة سياسة والده في محاولة استرداد الجزيرة فأثر تغيير خطته ولعله رأى من الأصوب أن يقضي على الأصل فيسقط الفرع، لذلك نجده يستغل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة العباسية وقتذاك وانشغالها بفتنة بابك الخرمي، واندلاع بعض الثورات في نواحيها، فدخل في حروب معها إلا أنه مع ذلك لم ينجح في محاولته الجديدة.

أما عن دولة الأغالبة، فمن المعروف أنها قامت في أفريقية سنة ١٨١ هـ — ٧٩٨ م بموافقة الخلافة العباسية التي آملت أن تكون هذه الدولة بمثابة حاجز بين أملاك الخلافة العباسية في المشرق وبلاد الادارسة في المغرب الأقصى الذين تطلعوا إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي (٦١)، واتخذ الأغالبة مدينة القيروان حاضرة لهم في عهد أميرهم ابراهيم بن الأغلب (١٨١ — ١٩٦ هـ — ٧١٨ — ٨١١ م)، وعملوا على تكوين قوة بحرية تمكنهم من غزو جزيرة صقلية وتم ذلك فعلاً على عهد زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣ هـ — ٨١٦ — ٨٣٧ م)، الذي أعد جيشاً يتكون من سبعمائة فارس وعشرة آلاف راجل من اشراف افريقية من العرب والبربر والجنند والأندلسيين وأهل العلم

(٦٠) Ostrogorsky : A history of the Byzantine state, English translation by Hussy, Oxford, P. 253,

أسمت غنيم : المرجع السابق، ص ١٠٩ .

(٦١) ابن الخطيب (لسان الدين): أعمال الإعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب، ص ١٧ هـ ٢، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الثاني، الدار القومية للطباعة الاسكندرية، ١٩٦٦، ٣٧٤.

والبصائر^(٦٢) تحملهم سبعون سفينة^(٦٣) بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات، فاحتلوا مدينة مازره Mazara^(٦٤)، وغيرها من المواضع المواجهة للساحل الأفريقي جنوباً. ثم استشهد القاضي والقائد أسد بن الفرات تحت أسوار سرقوسة Syrcuse شرقي الجزيرة سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م ودفن تحت أسوارها^(٦٥)، بعد أن وطد الحكم الإسلامي في بعض نواحيها^(٦٦)، و«قاتل الروم قتالاً شديداً، فقتلهم وهزمهم واستأصلهم، وسكنها المسلمون واستوطنوها»^(٦٧) ولم يلبث الأغلبة بعد سنوات قليلة أن استكملوا فتح الجزيرة كلها، ثم أخذوا في تكثيف نشاطهم على النواحي التابعة لبيزنطة، فأغاروا على قلورية (كلايريا) في جنوب إيطاليا وهزموا الأسطول البيزنطي وأجبروه على العودة إلى القسطنطينية^(٦٨) كما عبرت أساطيلهم مضيق مسيني في الفترة من ٢٢٢ - ٢٢٧ هـ واجتاحت ولاية ماجنا جراتسيا القديمة وشملت غاراتهم البحرين التيراني والادرياتي فتغلبوا على ولايتي أبوليا وقلورية وخرّبوا دوقية سبوليتو وباغتوا إنكونا الواقعة على البحر الادرياتي واستولوا عليها^(٦٩).

(٦٢) ابن عذارى المراكشي : البيان في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الشروق، بيروت، ص ١٠٢، المالكي (أبو بكر بن أبي عبدالله): رياض النفوس، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الجزء الأول، الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٨٧.

(٦٣) المالكي: نفس المصدر والجزء، ص ١٨٧، سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٦٤) ميشيل أماري: المكتبة الصقلية، لبيسك ١٨٧٥، ص ١٦٥.

(٦٥) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(٦٦) المالكي: المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٦٧) نفس المصدر والصفحة.

(٦٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٤٩٤، المكتبة الصقلية، ص ٢٢٨، ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. الجزء الرابع، منشورات الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٩٧١، ص ٢٠٠.

(٦٩) سالم: البحرية في الغرب والأندلس، ج ٢، ص ١٣٢.

وينبغي الإشارة إلى أن مجاهدي البحر الأندلسيين قد لعبوا دوراً هاماً في استقرار الفتوح الإسلامية في صقلية بمشاركتهم قوات الأغالبة في مواجهة القوات البيزنطية فيذكر ابن عذاري في أحداث سنة ٢١٤هـ - ٨٢٩م «وصل من الأندلس إلى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها أصبغ بن وكييل الهواري المعروف بفرغلوش» (٧٠). ويؤكد ذلك النويري فيشير إلى أن السفن القادمة إلى صقلية كانت من الأندلس قدمت في مجموعتين برسم الغزو أولها بقيادة أصبغ بن وكييل الهواري وثانيها بقيادة سليمان بن عافية الطرطوش (٧١). بينما يذكر الحميري أنه وصل من الأندلس مراكب كثيرة، وأمير الأندلس إذ ذاك عبد الرحمن بن الحكم، «وكانوا فصلوا من طرطوشة يريدون بلاد الروم، فأخرجتهم الرياح إلى صقلية، فنزلوا جزيرة طرابنش من صقلية» (٧٢).

ومما لا شك فيه أن المساعدة البحرية الأندلسية كانت ذات أثر فعال في استقرار نفوذ الأغالبة في صقلية مما مكن هؤلاء من التحول بعد ذلك لمهاجمة الأراضي البيزنطية.

أما عن موقف ثيوفيل من أحداث صقلية فلم يختلف عن موقفه من سقوط جزيرة كريت، ففي عهده استسلمت للأغالبة كثير من الحصون والمواقع وذلك في عام ٢٢٥هـ - ٨٣٩م (٧٣)، خضعت لهم دون قتال.

وعن علاقة الدولة العباسية ببيزنطة على عهد ثيوفيل، فقد كانت في مجموعها علاقة عدائية تركزت في المقام الأول في محاولة العباسيين تأمين حدودهم المطلّة على الأراضي البيزنطية مع الاهتمام بتنظيم منطقة الثغور الإسلامية. ولقد نشب النزاع بين الدولتين البيزنطية والعباسية خاصة بعد قيام

(٧٠) ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢.

(٧١) النويري (شهاب الدين أحمد): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، نسخة مصورة عن

المخطوط المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٩ معارف عامة، ورقة ٢٢٨.

(٧٢) الحميري (عبد النعم): الروض المطار في أخبار الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة،

١٩٣٧، ص ١٦٨.

(٧٣) فازلييف: العرب والروم، ص ١٦٦.

الامبراطور ثيوفيل بالهجوم على منطقة الثغور الجزرية وتخطيطه مدينة زبطرة الإسلامية ورد الخليفة المعتصم على ذلك بحملة شهيرة في التاريخ تلك التي اقتحم فيها مدينة عمورية وأذل الامبراطور في مسقط رأسه وأنزل به هزائم متتالية وألجأه إلى طلب العون والمساعدة من قوى أخرى كما ألجأه إلى طلب التحالف مع الأندلس. عول ثيوفيل على التماس المساعدة أولاً من القوى الأوربية المسيحية، فبعث سفارة بيزنطية على رأسها ثيودور أسقف خلقدونية إلى لويس الثاني امبراطور الفرنجة يحملون رسالة ثيوفيل وهداياها الثمينة ويطلب فيها أن يعينه بجيش كبير ويحثه على القيام بعمل عسكري ضد المسلمين في افريقية ليشغل الخلافة العباسية عن بيزنطة ويضعف قوة المعتصم ويشتها وعلى الرغم من أن هذه السفارة لقيت ترحيباً من عاهل الفرنجة، إلا أنها لم تنجح في مهمتها، ذلك أن مملكة الفرنجة كانت تعاني أزمات داخلية مستمرة وتشهد حرباً أهلية طاحنة، فضلاً عن انهماك الفرنجة في حروب مع مسلمي الأندلس، ثم وكانت وفاة ثيودور رئيس الوفد البيزنطي وموت لويس الثاني عاهل الفرنجة^(٧٤)، نهاية تعسة لهذه الجهود الدبلوماسية الفاشلة. وفي نفس الوقت بعث ثيوفيل بسفارة أخرى إلى دوق البندقية بيير ترانديكو يطلب منه العون لحرب الأغالبة^(٧٥) الذين هددوا الممتلكات البيزنطية بإيطاليا ونزلوا على سواحل كالابريا وأبوليا واستولوا على تارانت مستغلين الاضطرابات التي كانت سائدة آنذاك في مدينة بنفان Bénévent^(٧٦).

ولعل ما يعيننا من ذلك كله ما حدث من اتصال دبلوماسي بين بيزنطة على عهد ثيوفيل والأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط إذ أرسل ثيوفيل سفارة ثالثة في سنة ٢٢٥ هـ — ٨٣٩ م برئاسة قراطيوس Kartiyas إلى عاهل الأندلس

(٧٤) فازلييف: المرجع السابق، ص ١٦٣ — ١٦٤ Bury. Op. Cit. P 273

(٧٥) فازلييف نفس المرجع، ص ١٥٧

(٧٦) لبقي سروفسال الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الديس حلمي ومراجعة الدكتور لطفي عبد البديع، مجموعة الألف كتاب رقم (٨٩)، ص ٩٩.

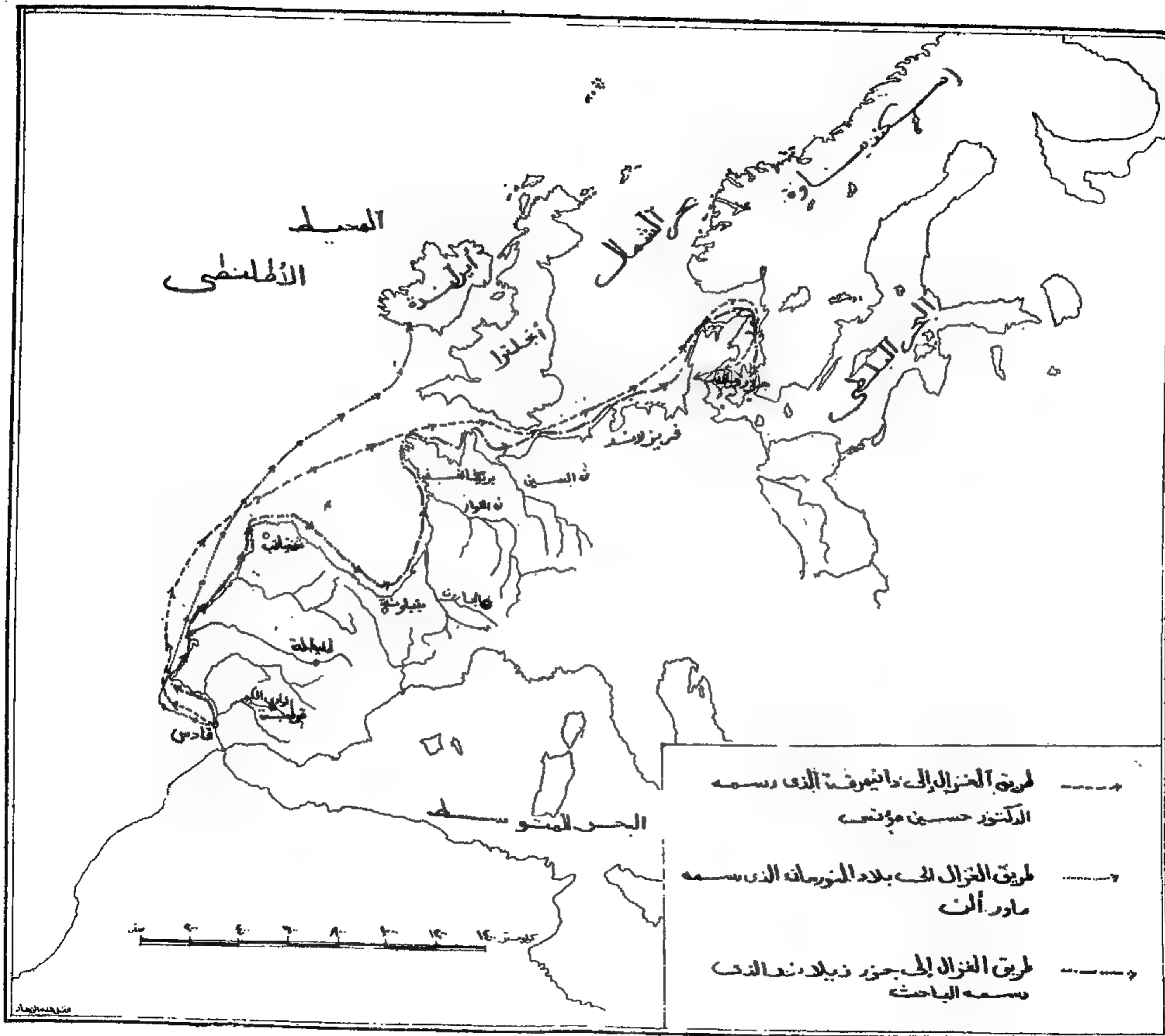
عبد الرحمن الأوسط الذي استقبل رسل ثيوفيل بحفاوة بالغة وقبل هداياه وتسلم رسالته (٧٧) مما يؤكد اتجاه بيزنطة إلى محاولة إقامة محور سياسي وتقارب مع الأمويين بالأندلس موجهاً ضد العباسيين وحلفائهم الفرنجة إذ يذكر المؤرخون أن سفارة ثيوفيل هذه طلبت عقد معاهدة صداقة مع الأمويين في الأندلس فضلاً عن أن ثيوفيل حرص في رسالته إلى عبد الرحمن الأوسط على أن يحثه على محاربة العباسيين لاسترجاع ملك أجداده في المشرق ولا يخفى علينا أن ذلك يستهدف شغل العباسيين وفتح جبهة جديدة أمامهم .

ولما وقف الأمير عبد الرحمن الأوسط على مضمون هذه الرسالة لم يبد اهتماماً كبيراً بها لعلمه بالأسباب التي دعت ثيوفيل إلى ذلك . ولكنه كان مضطراً إلى اجابة الامبراطور على رسالته بما يليق بمكانته ، لذلك قرر ارسال سفارة إلى القسطنطينية تحمل رده ، فانتدب لذلك شاعره الحكيم يحيى بن حكم الغزال — الذي يرتفع نسبه إلى قبيلة بكر بن وائل — والذي يملك من السجاياء والصفات ما يؤهله لهذه المهمة ، فقد كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها ، حصيفاً لبقاً ، ذكياً حاضر البديهة لطيف المدخل ، و يكفيه فخراً أنه رئيس أول بعثة دبلوماسية تمثل أميراً مسلماً لدى ملك أوربي (٧٨) ، كما اختار الأمير عبد الرحمن الأوسط رجلاً يسمى يحيى صاحب المنقلة ليرافق الغزال في سفارته (٧٩) وعهد إليهما بالرد على العاهل البيزنطي ، وهو على حد قول ليفي

(٧٧) ابن خلدون : العبر، ج ٤ ، ص ١٣٠ ، المقرئ : النفع، ج ١ ، ص ٣٤٦ ، وانظر ابن حيان في ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٩٧ — ٩٨ — ١٠٠ .

(٧٨) انظر في ترجمة يحيى بن حكم الغزال : الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٧٤ ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ١٤٩ ، الضبي : بغية الملتبس ، ص ٥٠٠ ، ابن دحية : المطرب ، ص ١٣٣ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٩٢ ، بروكلمان : الأدب العربي ج ٢ ، ص ١٠٤ ، ابواهيم أحمد العدوي : السفارات الإسلامية إلى دول أوربا في العصور الوسطى ، ص ١١٣ ، محمد صالح البنداق : يحيى بن حكم الغزال ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ وما بعدها ، سعد اسماعيل شليبي : الأصول الفنية للشعر الأندلسي ، عصر الادارة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٧٥٨ .

(٧٩) ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٠٠ .



بروفنسال أمر لم يكن منتظراً بل يعد نادراً في تاريخ المغرب الإسلامي (٨٠).

سافر الوفد الأندلسي بصحبة الوفد البيزنطي إلى القسطنطينية فوصلها بعد رحلة بحرية شاقة، حيث استقبل العاهل البيزنطي ثيوفيل وفد الأندلس بترحيب بالغ، فقدم له يحيى الغزال رسالة أميره الجوابية، وقام الغزال بأداء مهمته خير قيام وعمل على توثيق العلاقات بين الدولتين «فأحكم فيهما الوصلة» (٨١).

ولحسن الحظ حفظ لنا ابن حيان نص هذه الرسالة الجوابية (٨٢) والتي تضمنت رد عاهل الأندلس، الذي اتسم بالحكمة وبعد النظر والدبلوماسية فقد شارك ثيوفيل رغبته في تجديد صلات المودة والصداقة بين البلدين كما شاطر العاهل البيزنطي سخطه على العباسيين ورجا من الله أن يقطع دابرهم إلا أن أمير الأندلس لم يأخذ على نفسه أي تعهد بالقيام بأي عمل حربي ضدهم ولم يتعهد لعاهل بيزنطة بموقف محدد من الخلافة العباسية، ودلل بذلك على حصافة وحكمة وبعد نظر.

أما عن تحديد موقفه من الربضيين في كريت، فقد تبرأ الأمير منهم لأنهم خرجوا عن طاعته، وترك لعاهل بيزنطة حرية معاقبتهم وطردهم من كريت (٨٤)، وبذلك تخلص الأمير عبد الرحمن الأوسط من شرك ثيوفيل، إذ كان ثيوفيل يريد اتخاذ عبد الرحمن الأوسط أداة لتخليصه من الربضيين فإذا بعبد الرحمن الأوسط يتملص من ذلك و يلقي بهذه التبعة على ثيوفيل نفسه.

(٨٠) نفس المرجع والمضفة.

(٨١) المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٢٤.

(٨٢) Lévi-Provençal : Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe, Siècle, en Byzantion, tome, XII, Bruxelles, 1937, PP. 17-20.

وانظر أيضاً:

ليفى بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، الملحق ص، ١١٥ — ١١٨.

(٨٣) ليفى بروفنسال: نفس المرجع السابق، ص ١١٧.

(٨٤) نفس المرجع، ص ١١٨.

أما بالنسبة للأغالبية ، فلم يرد في رسالة الأمير عبد الرحمن الأوسط ذكر لهم ، على الرغم من أن بيزنطة كانت تضيق بسياستهم ، كما سبقت الإشارة وطلبت عوناً من دولتي الفرنجة والبندقية لحربهم ، ومع ذلك نجد الأمير الأندلسي لا يذكر شيئاً عنهم في رسالته ، ويبدو أنه أثر التحفظ فيما يختص بالأغالبية ربما لأنه كما يؤيد جهودهم في صقلية ويعتبر ذلك نوعاً من الجهاد في سبيل الله وفي سبيل توسيع رقعة الأراضي الخاضعة للمسلمين . وربما أثر الأمير الأندلسي أن يترك الرد على ذلك لسفيره قراطيوس ، فيذكر ابن حيان أنه كشف لرسوله أسراراً أخرى لم تتضمنها الرسالة ، ويقول : « وقد أدخلنا رسولك قراطيوس علينا وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه »^(٨٥) . ولكن يبدو أن عاهل الأندلس استجاب لبعض مطالب ثيوفيل تجاه الأغالبية لأن المساعدات الأندلسية للأغالبية بجزيرة صقلية لم تستمر بعد ذلك طويلاً وإن لم يقيم الأمير الأندلسي بعمل حربي مضاد لنشاط الأغالبية في صقلية لأنه كان يعتبرهم مجاهدين في سبيل الله كما أسلفنا .

ويمكن القول أن سفارة الغزال إلى القسطنطينية قد حققت نجاحاً طيباً فهي من جهة تعتبر أول اتصال رسمي بين بيزنطة والأندلس ، ومن جهة أخرى ترتب عليها إبرام اتفاقية ودية بين العاهلين البيزنطي والأندلسي في حوالي سنة ٢٢٦هـ - ٨٤٠م .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وفدت سفارة بيزنطية من قبل الامبراطور قسطنطين السابع ، فاستقبلها في قرطبة في صفر سنة ٣٣٨هـ - ٩٤٩م لتجديد المودة والصداقة بين البلدين^(٨٦) ، وقد رد الخليفة الناصر بسفارة

(٨٥) ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١١٨ .

(٨٦) ابن خلدون العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ، المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٦ وبجمل ابن خلدون تاريخ السفارة في سنة ٣٦٦هـ (نفس المصدر والجزء والصفحة) ، غير أننا أخذنا التاريخ الذي أورده المقرئ نقلاً عن ابن حيان (النفح ، ج ١ ، ص ٣٦٦) لأن حكم الناصر لم يمتد حتى هذا التاريخ .

أندلسية برئاسة هشام بن هذيل ومعه هدايا قيمة، بغرض تجديد المودة وتأكيـد الصداقة بين العاهلين واستمرت مهمته نحو سنتين (٨٧).

وفي عهد الناصر خرجت سفارة أندلسية على رأسها الأسقف ربيع بن زيد القرطبي إلى القسطنطينية، وكان غرض هذه السفارة جلب بعض السواري والتحف الرومانية القديمة، يذكر ابن عذاري أن ملك الروم أهدي الناصر مائة وأربعين سارية، وحوض غريب منقوش مذهب بالتماثيل لا يقدر بثمن، وضعه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس بمدينة الزهراء (٨٨).

وفي عهد الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ - ٩٦١ - ٩٧٦ م تجددت العلاقات الودية بين الأندلس وبيزنطة، فيذكر ابن عذاري أن الحكم أوفد سفارة أندلسية إلى بلاط الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس Phocas Nicephore، لاحتضار صانع بيزنطي مختص في تنزيل الفسيفساء في زيادة الحكم بالمسجد الجامع بقرطبة، فاستجاب الامبراطور لطلب الحكم وبعث بالصانع وزوده بهدية من الفسيفساء تقدر بثلاثمائة وعشرين قنطاراً (٨٩).

٥ - سفارة أندلسية إلى بلاد النورمان :

يعتبر ابن دحية الأشبيلي أول من أورد أخبار سفارة أندلسية قام بها يحيى بن حكيم الفزالي إلى بلاد النورمان بتوجيه من الأمير الأندلسي عبد الرحمن

(٨٧) ابن خلدون، المعبر، ج ٤، ص ١٤٣، غير أنه يرسم رئيس الوفد الأندلسي هكذا (هشاب

ابن كليب الجليلي)، القري: ج ١، ص ٣٦٥.

(٨٨) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣١.

(٨٩) البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣٧، وانظر أيضاً:

Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xe siècle, P. 217.

الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢ - ٩٣، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ج ١، ص

الأوسط سنة ٢٣٠ هـ — ٨٤٤ م في رواية طويلة (٩٠).

وقبل أن نغصّي في دراسة تفاصيل رحلة الغزال إلى بلاد النورمان ينبغي أن نتوقف قليلاً لعرض ما أثير حول هذه السفارة ومدى صحتها وحقيقة قيامها. فقد اختلف الباحثون حول ذلك كله، فمنهم من ينفي بشدة قيام هذه السفارة ويتشكك في صحتها، ومنهم من يرى امكانية قيامها ويؤكد صحتها ويرى أنها حقيقة تاريخية، وبطبيعة الحال كل له رأيه وجهة نظره.

ويمثل الاتجاه الأول، المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، الذي ذهب إلى القول أن ما أثير حول هذه السفارة واتجاهها إلى اسكنديناوه إنما جرى اختراعه خلال القرن السابع الهجري (١٣ م) وأنها ليست «إلا سفارة مزعومة مشكوك في صحتها وحقيقة قيامها، واستند في رأيه هذا على أن المؤرخ القرطبي، الكبير ابن حبان وغيره من ثقة مؤرخي الأندلس لم يذكروا شيئاً بشأنها وإنما ورد الحديث عنها في روايات ابن دحية المتوفى ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م، فضلاً عن أن معظم فقرات روايته عن هذه السفارة مستعار من رحلة الغزال إلى القسطنطينية، ويبرر ذلك بأن مسلك الامبرطور البيزنطي حيال قرطبة ثم ما حدث من غارة النورمان على الأندلس كل ذلك كان سبباً في ذبوع تفاصيل اتسمت بالخيال وبعدت كثيراً عن الحقيقة وأدى إلى اختلاط الحادتين وامتزاجهما في أذهان الشعب الأندلسي حيث انتهى الأمر إلى تشويه الحقيقة التاريخية شيئاً فشيئاً كما يحدث عادة (٩١)، وقد تابعه في هذا الرأي المستشرق الأسباني أويشي ميراندا (٩٢).

(٩٠) ابن دحية (ذو النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد، والدكتور أحمد بدوي، راجعه الدكتور طه حسين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٢ — ١٤٧.

(٩١) Lévi-Provençal : Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX, Siècle, dans Byzantion, XII, 1937, P. 16 Histore, t. I, P. 177-178.

وله أيضاً: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١١٣ — ١١٤.

(٩٢) Encyclopdie de L'Islam, par Huici Miranda, t. II, P. 1062

أما الاتجاه الثاني فيمثله المستشرق الهولندي رينهارت دوزي الذي وثق كثيراً في رواية ابن دحية وقام بترجمتها كاملة^(٩٣)، والمؤرخ الانجليزي ماور ألن في مقاله عن الفايكنج^(٩٤). وكلاهما تبني رواية ابن دحية وأخذ بها واعتقد في صحة قيام هذه السفارة ووجهتها ولم يتشكك في أي جانب من جوانبها. أما من الباحثين العرب فإن الدكتور حسين مؤنس يعد أول من أكد قيام هذه السفارة إلى بلاد النورمان ووثق من صحتها ووجهتها وذلك في بحث نشره منذ سنوات أرخ فيه تاريخاً كاملاً لعلاقات النورمان بالأندلس وتناول غزواتهم لسواحلها وأعاد فيه أيضاً بحث أمر هذه السفارة وقام هذا المؤرخ العظيم بتفنيد آراء ليفي بروفنسال، وأثبت أن رواية ابن دحية صحيحة لا شك فيها وأن هذه السفارة التي أرسلها عبد الرحمن الأوسط برئاسة الغزال إلى بلاد النورمان حقيقة تاريخية لا مرأ فيها، فيقول: «لا نستطيع إذن أن نحكم على سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين بأنها مجرد أسطورة، بل لا مناص لنا من قبولها كحقيقة تاريخية وهذا لا يمنع من الظن بأن بعض تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاط بيزنطة قد اختلطت بها، وذلك أمر لا يقلل من أهميتها على أي حال»^(٩٥).

ونحن نميل إلى تأييد هذا الاتجاه ونؤيد أن سفارة الغزال إلى بلاد النورمان حقيقة تاريخية، فبالإضافة إلى ما ذكره الدكتور حسين مؤنس فإننا لا نستطيع أن نتشكك في روايات ابن دحية خاصة وأنه كان عالماً وراوياً للأحداث النبوية ومدققاً وثقة في أخباره ورواياته. حقيقة كان ابن دحية الأشبيلي من

(٩٣) Dozy (R.) : Recherches sur l'histoire et la litterature de L'Espagne pendant le Moyen-âge, t. II, P. 269-278.

(٩٤) Mawer Allen : The vikings, in cambridge Medieval History t. III, Cambridge, at the University press, 1963, P. 317.

(٩٥) انظر: حسين مؤنس: غارات النورمان على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ - ٨٤٤ و ٨٥٩ م وسفارة يحيى الغزال إلى ملك النورمان في سنة ٢٣٠ هـ - ٨٤٥ م، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني - العدد الأول، مايو، ص ٤٤ - ٤٥.

علماء القرن السابع الهجري (١٣ ميلادي) وكان محدثاً وأديباً أكثر من كونه مؤرخاً إلا أن ذلك يزيد اطمئناناً إلى رواياته بحكم دقته في رواية الأحاديث وتثبته مما يكتب لأنه كان من أهل السنة ضليعاً في اللغة عالماً بالتاريخ ثقة في رواية الحديث، ولا شك أن رجلاً بهذه الصفات كان لا بد وأن يتثبت مما ينقل، ولا يسمح لنفسه أن ينسج قصصاً خيالية أو يذكر أخباراً واهية خاصة وأنها تتعلق بعلاقات الأندلس الخارجية^(١٦). وإذا سلمنا بكون ابن دحية أديباً، فإن مصدر روايته الذي استقى منه أخبار سفارة الغزال إلى بلاد النورمان هو المؤرخ تمام بن عامر بن علقمة الذي استوزره ثلاثة من أمراء بني أمية وهم الأمير محمد بن عبد الرحمن والمنذر وعبد الله، وكان تمام صديقاً للغزال، وكثيراً ما روى عنه، وقد نظم تمام بن عامر بن علقمة «الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولايتها والخلفاء فيها، ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام عبد الرحمن بن الحكم»، وكان بجانب ذلك عالماً وأديباً، وتوفي في سنة ٢٨٣ هـ - ٨٩٦ م^(١٧)، وهذا يعني أن ابن علقمة كان معاصراً لهذه السفارة وسمع أخبارها من صديقه الغزال ثم سجلها ثم أخذها عنه ابن دحية.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاد النورمان هي التي اختلطت بالفعل بتفاصيل سفارته إلى بلاط بيزنطة وليس العكس، يمكن ملاحظة ذلك الخلط في مقارنة الروایتين، وما جاء بهما من أخبار ما تعرض له الغزال في رحلته البحرية من شرق الأندلس إلى القسطنطينية وما تعرض له في رحلته من غرب الأندلس إلى بلاد النورمان، والباحث المدقق يمكنه أن يستنتج من دراسة النصين أن رحلة الغزال الثانية وما لاقاه من هياج البحر والعواصف لا يمكن حدوثها إلا في منطقة خليج بسكاي التي تتعرض لرياح شديدة وعواصف يعرفها جيداً الجغرافيون وعلماء الطبيعة وقد ذكرها الغزال وصور

(١٦) جونشالط بالنشيا: تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٥، ١٩٨٣، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(١٧) نفس المرجع: ص ٥٦ - ٥٧.

قوتها حيث كاد يرى ملك الموت غيماً^(٩٨) ثم نضيف ملاحظة أخرى تتعلق بالأميرة تود التي يعرفها ليفي بروفنسال بالأميرة تيودورا البيزنطية وعلاقتها بالغزال مثل قولها له « ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غيره، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن تقيم المرأة معه ما أحببت وتفارقه إذا كرهت»^(٩٩)، وهذا القول بطبيعة الحال لا يصدر من أميرة بيزنطية مسيحية لها تقاليد حضارية راسخة، فهذه العبارة أيضاً اختلطت ودست في تقرير رحلة الغزال إلى القسطنطينية، والرأي عندنا أنه يمكن أن تصدر هذه العبارة عن أميرة نورماندية ذات حضارة أقل، وحديثة عهد بالمسيحية وهذا ينطبق على ما قاله الغزال فيها من شعور ورضيت به، ولعل ما يؤكد ذلك قول الغزال فيها:

اني تعلقت بمج.....وسية تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله لي حيث لا يلقي إليها ذاهب مذهباً^(١٠٠).

هذا وقد سبق الإشارة إلى مرافق الغزال في رحلته إلى القسطنطينية والذي رسمه ابن حيان «يحیی صاحب المنيقة»، بينما رسمه ابن دحية يحيى بن حبيب، فهل هما شخص واحد أم شخصان، واعتقد أنهما شخص واحد ذلك لأن رحلة الغزال إلى بلاد النورمان كانت بلا شك تحتاج إلى مرافق ملم بالعلوم الفلكية والطبيعية وهذه المواصفات كانت تتوفر بالفعل فيه.

بقيت نقطة أخيرة، تتعلق بأهمية السفارتين وهي: هل كانت الأندلس أحوج إلى سفارة القسطنطينية منها إلى سفارة إلى بلاد النورمان. الثابت تاريخياً أن الأندلس لم تكن لها علاقة مباشرة مع بيزنطة ولا مصلحة مشتركة قبل سفارة الغزال للقسطنطينية وإنما بيزنطة هي التي طلبت الود والمصادقة فلبى الأمير عبد الرحمن الأوسط طلب عاهل بيزنطة ثيوفيل وأجابه في بعض ما أراد كما سبق أن أشرنا، وحقيقة الأمر أن الأندلس كانت أحوج بالفعل إلى سفارة

(٩٨) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٩.

(٩٩) نفس المصدر، ص ١٤٣.

(١٠٠) نفس المصدر، ص ١٤٤.

إلى بلاد النورمان منها إلى بيزنطة نظراً لأن النورمان هم الذين شنوا غاراتهم على غرب الأندلس ودمروا وخرّبوا فيه في سنتي ٢٢٩ - ٢٣٠ هـ - ٨٤٣ - ٨٤٤ م، فلما واتت عاهل الأندلس الفرصة حين طلب ملك النورمان الصلح والمهادنة لبى عبد الرحمن على الفور، وهذا أدعى بالفعل إلى إرسال سفارة إلى بلاد النورمان تحقيقاً للأمن والأمان للأندلس .

مما سبق يمكننا القول أن سفارة الغزال إلى بلاد النورمان حقيقة تاريخية وليست أسطورة نسجها خيال الأندلسيين . وقبل أن نمضي في استعراض تفاصيل سفارة الغزال هذه، ينبغي أن نقف على بعض أحوال النورمانين وعلى اسمائهم التي عرفوا بها في ذلك الوقت إذ تذكرهم المصادر العربية باسم «الأردمانين» أو «المجوس» وللاسمين دلالة واحدة تعني أهل الشمال Northmen (١٠١) . وأما عن اسم المجوس فهم لم يكونوا مجوساً، بل كانوا وثنيين، فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة وآلهة ترمز لها مثل آله الخصب وآلهة الحروب وغيرها (١٠٢) . ويعمل الدكتور حسين مؤنس إطلاق هذه التسمية عليهم لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يمرون به، فإذا نزلوا بمكان وخيموا أشعلوا ناراً عظيمة في معسكرهم، وإذا فاجأوا بلداً أشعلوا النار في مبانيه ونهبوا ما فيه، وربما حسبهم المسلمون من عبدة النار فأطلقوا عليهم هذه التسمية (١٠٣) . بينما يرى الدكتور سعيد عاشور أن المسلمين أطلقوا عليهم هذه التسمية نتيجة للحرائق التي كانوا يشعلونها في البلاد التي يستولون عليها أولاً اعتادوه من إشعال النار ليلاً للاستئناس والتدفئة، الأمر الذي جعل المسلمين يعتقدون أنهم من عبدة النار أي المجوس (١٠٤) . ويعرف النورمانيون

(١٠١) حسين مؤنس : غارات النورمان، ص ٢٤ .

(١٠٢) فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زياره ود. السيد الباز

العريني ود. ابراهيم العلوي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٣ .

(١٠٣) حسين مؤنس : غارات النورمان، ص ٢٤ .

(١٠٤) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى الجزء الأول (التاريخ السياسي)، الطبعة الرابعة

١٩٦٦، ص ٢٤٤ هـ ٤٢ .

في المصادر الأوروبية باسم الفايكنج Vikings ، وهي كلمة مشتقة من لفظ vik أي الخليج أو الفيورد وهم قراصنة البحر الذين يأوون إلى الخلجان أو يستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها (١٠٥).

وينقسم الشعب النورماني (١٠٦) إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والدانيون (الدانماركيون) ، فالسويديون القاطنون بشرق اسكنديناوه اتجهوا إلى شرق أوروبا وبلاد الصقالبة وسهول أوروبا الشرقية والبحر الأسود، بينما اتجه النرويجيون الذين قطنوا الجانب الغربي من اسكنديناوه إلى غرب أوروبا والجزر الغربية ووصلوا إلى إنجلترا وإيرلندا (١٠٧)، واتجه الدانيون إلى هولندا وبعض سواحل شرق إنجلترا وإيرلندا وسواحل

Mawer Allen : Op. Cit, P. 306.

(١٠٥)

(١٠٦) ينتمي النورمانيون من الناحية العنصرية إلى الأصل التيتوني أو الجرمانى المعروف ، الذي سكن شبه جزيرة اسكنديناوه وشبه جزيرة الدانمارك وحوض البحر البلطي، ومنذ أوائل القرن التاسع الميلادي أخذت أعداد النورمانيين النازلين في هذه المناطق تتزايد تزايداً كبيراً، واضطرتهم الحاجة الماسة إلى البحث عن مناطق جديدة، وإلى الإغارة على الممالك المتناحرة بغرب أوروبا، وإذا أضفنا إلى ذلك أن شارلمان حينما حارب السكسون أوغل كثيراً فيما وراء الرين ، فأدرك الدانيون مدى الخطر الذي يهددهم من هذه الجهة ، فلم يعد لهم سوى السهول الساحلية، التي لا تعدو في معظم الأحيان أشربة ساحلية ضيقة كثيرة التعاريج ، فضلاً عن طبيعة بلادهم القاسية ذات الغابات والمستنقعات والأخراش، فاتجهوا إلى البحر وبرعوا في أمور الملاحة وصيد الأسماك، وصيغتهم حياتهم الجديدة بالصراة والقسوة، فوجهوا نشاطهم إلى أعمال القرصنة التي كانت تستلزم بناء السفن التي تفوقوا فيها وتميزوا ببناء سفن صغيرة مكشوفة اتصفت بالطول وقلة العرض ومديبة في نهايتها ودعمت كل حافيتها بصف من الدروع ونسير بالجذاف أو الشراع، وقاموا بنهب السواحل وتخريبها والعيش في وديان الأنهار، فنهبوا كما كان يخلوا لهم ولم يكن هناك من يستطيع أن يطردهم أو يتصدى لهم، فثبتت قوتهم البحرية وأصبحت حكراً عليهم، وأصبحوا سادة البحار،

انظر: Haskins (Ch. H.) : The Northmen in the European history New York, 1959, PP. 30-31.

Keen : A history of Medieval Europe, London, 1967, P. 29. (١٠٧)

محمد محمد مرسي الشيخ : الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى، دار الكتب

الجامعية، ١٩٧٥ ص ٢٦٢.

الامبراطورية الفرنجية (١٠٨).

ويهمنا هنا المجموعة الأخيرة (الدانيون) الذين اتخذوا في مملكة واحدة أواخر القرن الثامن الميلادي وتكونت بلادهم من ثلاثة أقسام رئيسية وهي شبه جزيرة جوتلاند Jutland إلى الأيدر، وثانيها: جزر زيلاند Zeeland حيث يوجد بها المقر الملكي لير Leire وثالثها: سكانيا Scania مع هالاند Halland وبلكنج Bleking (١٠٩).

وكان ملك الدانيون في أوائل القرن التاسع الميلادي جوتفريد أو جوتريك Cottfried Gotrik حتى قبل سنة ٨١٠ م — ١٩٤ هـ وتولى بعده هارولد Harald الذي دخل في صراع مع أبناء الملك المقتول وفي ظل هذا الانقسام دخلت بعثات تبشيرية مسيحية فمهدت بذلك لانتشار المسيحية انتشاراً محدوداً، ولم يلبث أبناء جوتفريد أن ثاروا على الملك الجديد هارولد فهرب إلى المانيا واعتنق المسيحية في سنة ٨٢٦ م — ٢١٠ هـ ليحظى بمساعدة عاهل الفرنجة لويس الثاني، الذي ساعده في استعادة عرشه مرة أخرى (١١٠).

غير أن هارولد لم يحفظ لعاهل الفرنجة معروفه، فانتهر الملك الداني وفاة لويس الثاني سنة ٨٤٠ م — ٢٢٥ هـ والصراع الذي اندلع بين أبنائه حول العرش في فونتيناى Fontenay وأغار على بلاد الفرنجة، ووصلت أساطيله إلى جنوب أسبانيا إلى نهر الوادي الكبير (١١١). ولم يلبث هارولد أن أقصى عن عرشه مرة أخرى إذ ثار عليه زعيم آخر من أقاربه يسمى «هاريك»، واستطاع

Mawer Allen : Op, Cit, P. 310. (١٠٨)

Schjoth, Hans : Denmark and its sister states, Great days of the Northmen, in the Book of History, A History of all nations from the earliest times to the present, Vol. VII, P. 3557. (١٠٩)

Ibid, P. 3557. (١١٠)

Haskins : Op. Cit, P. 33. (١١١)

هذا الأخير أن يعتلي عرش الدانيين سنة ٨٤٤ م / ٢٣٠ هـ (١١٢).

أما الذين أغاروا على الأندلس فهم الدانيون أو مجموع القبائل الدانية الذين أغاروا على سواحل شبه جزيرة ايبيريا سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م كما هو ثابت في المصادر ولا بد وأن هذه الاغارات قد حدثت على عهد الملك الداني هارولد الذي أقصى عن عرشه سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م ، ولعل سفارة يحيى بن حكم الغزال كانت موجهة إلى خليفته هوريك أو اريك .

ويستفاد مما أورده ماورأين أن النورمان قاموا بغارة على سواحل أشتوريس Asturias الشمالية ، ونزلوا بالساحل عند بلدة خيخون ونهبوا اقليمها (١١٣) . وتضيف المصادر الأسبانية أنهم ساروا بسفنهم بحذاء الساحل حتى جليقية Galicia وأغاروا عليها (١١٤) . فتصدى لهم ردمير الأول Ramiro I ملك أشتوريس وأجبرهم على العودة إلى مراكزهم ثم ألتمح الأسطول الأشتوري معهم في معركة بحرية ، وتمكن في هذه المعركة من احراق سفينة من سفن النورمان (١١٥) فاضطروا إلى السير جنوباً بحذاء الساحل الغربي الأندلسي فظهروا أمام لشبونة Lisboa يوم الاربعاء أول ذي الحجة ٢٢٩ هـ - ٢٠ أغسطس ٨٤٤ م ونزلوها واستولوا عليها وعاثوا فيها فساداً ثلاثة عشر يوماً ، وفي هذه الاثناء أرسل وهب الله بن حزم عامل أشبونة على الفور يبلغ الأمير عبد الرحمن الأوسط بنزول المجوس بلده ويطلب المدد منه ، يقول العذري في أحداث سنة ٢٢٩ هـ «ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل أشبونة ، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون قارباً

(١١٢) Mawer Allen : Op. Cit, P. 313-315.

(١١٣) Ibid, P. 316.

(١١٤) Espana Sagrada, t. XIX, P. 13.

حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٢٨ .

(١١٥) Dozy : Recherches, t. I, P. 250.

فخرجت الكتب إلى العمال بالاحتباس» (١١٦)، ثم ألتحم المسلمون معهم في معارك شديدة تمكنوا في نهايتها من هزمتهم وارغامهم على العودة إلى سفنهم يؤكد ذلك ما ذكره العذري «أنه وقعت بينهم وبين المسلمين ملاحم» (١١٧)، فساروا يبحثون عن ناحية يحطون فيها، وتوزعت سفنهم إلى وحدات صغيرة طرق بعضها قادس وشذونه، لكن أغلب سفنهم تجمعت أمام نهر الوادي الكبير وقامت بغارة شاملة على اشبيلية وتمكنوا من الاستيلاء عليها وضواحيها عدة أيام عاثوا خلالها قتلا ونهباً وحرقاً وتخريباً سنة ٢٣٠ هـ - ٨٤٤ م، يقول ابن عذاري «فخرج المجوس في ثمانين مركبا كأنما ملأت البحر طيراً جونا، كما ملأت القلوب شجوا وشجوناً فحلوا بأشبونة ثم إلى قادس وإلى شذونه ثم قدموا على اشبيلية، ونازلوها نزالاً إلى أن دخلوها قسراً، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسرّاً فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام» (١١٨)، ولم يلبث الأمير عبد الرحمن الأوسط أن أرسل المدد والمساعدة التي بفضلها استطاع أن يقضي على المجوس في موقعه فاصلة عند بلدة طلياطه Tejada بين لبله واشبيلية يوم الثلاثاء ٢٥ صفر سنة ٢٣٠ هـ - ١١ نوفمبر ٨٤٤ م «قتل فيها منهم خلق كثير، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً» (١١٩)، ومن بين قتلهم أميرهم وقائد أسطولهم (١٢٠) ثم ركب النورمان مراكبهم «وساروا إلى لبله، ثم توجهوا منها إلى أشبونة، فانقطع خبرهم» (١٢١).

وفي هذه السنة ٢٣٠ هـ - ٨٤٤ م أرسل ملك الدانين هوريك ن على

(١١٦) العذري (أحمد بن عمر بن أنس): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ص ٩٨، ابن عذاري البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٧.

(١١٧) العذري: نفس المصدر، ص ٩٨.

(١١٨) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٧.

(١١٩) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٨.

(١٢٠) ابن دحية: المطرب، ص ١٣٨.

(١٢١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٨.

الأرجح — الذي تولى العرش الداني في هذا العام ، سفارة إلى الأندلس بغرض عرض الصلح على عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط ، يقول ابن دحية في المطرب « ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجرس يطلب الصلح ، بعد خروجهم من اشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ثم هزمت بها وقتل قائد الاسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك ، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته إلى رسل ملكهم » (١١٢) .

والغريب هنا هو اتصال ملك الدانيين بمسلمي الأندلس بعد غارتهم عليها ، ويبدو أن الملك الداني هوريك أو أريك كان بعكس سلفه هارولد الذي وقعت الغارات في عهده يميل إلى السلم فقد طلب الصلح ، ربما رغبة في إقامة علاقات تجارية بين الجانبين الداني والاسلامي (١٢٣) ، لأن الأندلس كانت في ظل الأمير عبد الرحمن الأوسط من أغنى دول أوربا الغربية وأكثرها تحضرًا ، فربما رغب الدانيون في الحصول على منتجات الأندلس من الثياب والأواني وغيرها . ويبدو أن الأمير عبد الرحمن الأوسط هو الآخر مال إلى السلم وحاول أن يجنب بلاده خطر الدانيين ، ورغب أيضاً في الحصول على بعض منتجات الشمال الأوربي سيما الفراء والرقيق ، إذ كان النورمان بصفة عامة يشتغلون بتجارة الفراء كما عرفوا بأنهم نخاسون قساة (١٢٤) وإذا أضفنا إلى ذلك عاملاً آخر رغب الأمير عبد الرحمن الأوسط في الاستجابة لطلب الصلح ، وهو الموقف السياسي في غرب أوربا بصفة عامة ، فربما تنبه الأمير بحكمته وبعد نظره إلى العداء الناشب بين الدانيين والفرنجة وسمع أخبار الحروب المستعرة بين الجانبين ، فأراد أن يجتذب الدانيين إلى جانبه لا سيما وأن الفرنجة على عهد شارل الأصغر حاولوا التوغل في الأندلس وأحياء الثغر

(١٢٢) ابن دحية : المطرب ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

Keen : Op. Cit; P. 25.

(١٢٣)

محمد محمد مرسي الشيخ : المالك الجرمانية ، ص ١٦١

Schjoth : Op. Cit; PP. 3539.

(١٢٤)

الاسباني في ناحية برشلونة (١٢٥) وفي ظل هذا ليس من المستغرب أن يحدث التقارب بين البجائين الداني والاسلامي تحقيقاً للمصالح المشتركة وكان الغزال كما سبق القول قد اضطلع قبل ذلك بسنوات قليلة في سنة ٢٢٦ هـ - ٨٤٠ م بسفارته إلى بيزنطة وعاد منها بتجربة دبلوماسية طيبة ولهذا لم يكن من الغريب أن يعهد اليه الأمير الأندلسي بسفارة أخرى إلى بلاد النورمان في الشمال .

بقيت مسألة ما زالت موضع خلاف بين الباحثين حول تحديد المكان الذي توجهت اليه سفارة الغزال ، فبعضهم يرجح أنه يتمثل في بلاط الملك النورماني في ناحية من نواحي جوتلاند (الدانمرك) ، ويقول بهذا الرأي جورج باكوب (١٢٦) . أما المستشرق الهولندي دوزي فإنه لم يحدد لهذا اللقاء مكاناً ، ولكنه يقرر أن النورمانيين الذين أغاروا على الأندلس كانوا دانيين ، وأنهم أقبلوا من دانيمرقة إلى بلاد الفرنج واشتوريس والأندلس ويرجح أن يكون لقاء الغزال بملكهم قد تم في دانيمرقة نفسها (١٢٧) ، ويؤخذ بهذا الرأي الدكتور حسين مؤنس (١٢٨) ، بينما يقول آخرون أن المكان بلاط «تورجسيوس Turgesuis التروجي فاتح ايرلندا ، ويقول بهذا الرأي ماورالن من أن سفارة الغزال إنما أتت إلى موضع في جزيرة ايرلندا في جنوب غربها وليس في دانيمرقة ، وقابلت هذا الزعيم ، معتمداً في رأيه هذا على أن دولة الدانيين كانت تشمل فيما تشمل جزءاً كبيراً من جنوب النرويج في ذلك الوقت ، وأن النورمان الذين أغاروا على سواحل أوربا وأسبانيا كانوا من النرويج ويستند في ذلك على أن كتاب هذا العصر كانوا يسمون هؤلاء الغزاة

(١٢٥) حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٤٦ .

Georg Jacob : Arabische Berichte. (١٢٦)

في حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٢٨ .

Dozy : Recherches, t. 1, PP. 250-251. (١٢٧)

(١٢٨) حسين مؤنس : غارات النورمان ، ص ٦٢ - ٦٣ .

في بعض الأحيان باسم الفستفالدنجي Westfaldingi أي الفستفالدين نسبة إلى فستفد مقاطعة في غرب النرويج كانت خاضعة للدانيمرقة في ذلك الحين ، و يضيف ماورألن بأنه كانت لتورجسيوس هذا زوجة تسمى أوتا Ota أو Tota يرجح أنها طود أوتود الملكة النورمانية التي تحدث عنها الغزال ، وقال فيها شعراً (١٢٩) .

وباستعراض الآراء السابقة حول تحديد المكان الذي توجهت اليه سفارة الغزال ، فإننا نستبعد رأي ماورألن من أن مكان اللقاء كان في موضع في جزيرة أيرلندا، حقيقة أن الدانين قاموا بغزوات في جزيرة أيرلندا قرب منتصف القرن التاسع الميلادي لكنهم قبلوا بمقاومة شديدة من جانب النرويجيين من أجل السيطرة على الجزيرة في الوقت الذي هب فيه الأيرلنديون لتحرير بلادهم ، فحدثت فوضى شاملة عمت البلاد لم تنته إلا بوصول أولاف . Olaf ابن ملك النرويج سنة ٨٥٣ م - ٢٣٩ هـ ليضع حداً لهذا الصراع (١٣٠) . فليس ممكناً إذن أن يكون اللقاء في موضع في جزيرة أيرلندا وهي في حالة من الفوضى والصراع من أجل السيطرة عليها من الطرفين المتنازعين وأهل البلاد ، كما أن تورجسيوس الذي يشير إليه ماورألن لم يكن ملكاً للدانين ولكنه على ما يبدو أحد الزعماء الدانين إذا سلمنا بقوله ، ولذلك فإننا نؤيد الرأي الذي يقول أن مكان اللقاء كان في دانيمرقة ذاتها ولكننا نميل إلى تحديد المكان بدقة أكثر ونرى أن اللقاء تم في المقر الملكي في ليربجزرزيلاند حيث بلاط الملك الداني هوريك .

خرج يحيى بن حكم الغزال ويحيى بن حبيب في سفارة أندلسية إلى بلاط

(١٢٩) وله أيضاً : . Mawer Allen : Op. Cit, P. 317.

The poet and the spae-wife, an attempt to reconstruct Al-Ghazal
Embassy to the vikings. Dublin, 1960, P. 39.

Mawer Allen : the vikings, P. 317. (١٣٠)

محمد محمد مرسي الشيخ : الممالك الجرمانية ، ص ٢٦٩ .

الملك الداني هوريك واستقلا مركبا أنشئ لهما لهذا الغرض ، وأبحر هذا المركب من مدينة شلب Silves مع مركب سفير الدانيين ، وتعرض المركبان لعاصفة عاتية عند « الطرف الأعظم الداخلى فى البحر الذى هو حد الأندلس فى آخر الغرب وهو الجبل المعروف بألوية » (١٣١) وربما هو رأس فينيستر Finisterre (جليقية الآن وهى أقصى نقطة فى الشمال الغربى لشبه جزيرة ايسيريا) الذى يؤدى إلى خليج بسكاي فتعرضوا لعاصفة شديدة كادت تحطم سفينة الغزال ولكنها نجت بأعجوبة ، ومن ثم توقف ملاحوها لاصلاحها فى موضع يحدده بعض الباحثين باسم San vicente de Barquera (١٣٢) فأقام فيها الغزال وصاحبه أياماً أصلاحاً فيها المركب ، ثم تابعا رجليتهما شمالاً حتى وصلا إلى أول بلاد الدانيين إلى جزيرة من جزائرها « وهى جزيرة عظيمة فى البحر المحيط » (١٣٣) وينطبق هذا الوصف على جزيرة جوتلاند بينما يرى ماورالن أن هذا الوصف ينطبق على شبه جزيرة كيرى Kerry فى جنوب غرب ايرلندا ثم إلى الجزيرة العظيمة فى البحر المحيط التى يقول عنها جزيرة ايرلندا مقر الملك تورجسيوس وزوجه أوتا التى يسميها نود أو تود (١٣٤) .

على أية حال وصلت سفارة الغزال إلى جزيرة جوتلاند ومنها إلى المقر الملكى للملك هوريك فى لير فى جزر زيلاند ، « واستقبل الملك سفير الأندلس استقبالا حافلا وأعد له وأحفل فى السلاح والزينة الكاملة » (١٣٥) ، ثم قدم الغزال للملك رسالة أميره ، ففضت وترجمت له ، فاستحسن ما جاء بها ثم تسلمها ، وأمر بهدية الأمير الأندلسى ففتحت أمامه وسر على ما اشتملت عليه من الثياب والأواني (١٣٦) .

(١٣١) ابن دحية : المطرب ، ص ١٣٩ .

(١٣٢) محمد صالح البنداق : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(١٣٣) ابن دحية : المطرب ، ص ١٤٠ .

(١٣٤)

Mawer Allen : The poet and the spae-wife, PP. 37.

(١٣٥) ابن دحية : المطرب ، ص ١٤١ .

(١٣٦) ابن دحية : المطرب ، ص ١٤١ .

و يبدو أن الغزال نجح في مهمته بدليل ما لقيه من ترحيب ومعاملة طيبة ولقاء مع زوج الملك: الأميرة نود التي أظهرت استحسانها له فبالغ الغزال في وصف جمالها وذكر أنها مثال الحسن والجمال وذلك في قصيدة نسجها لهذا الغرض، ولما علمت الأميرة أن هذه القصيدة سوف تروى في الأندلس سرت كثيراً وأخذها الزهو بذلك، فأمرت له بصلة إلا أن الغزال أمتنع عن أخذها، وكان هذا التصرف من الغزال غير مفهوم للأميرة التي سألت الغزال على حد قول ابن دحية «ألأنه حقرها (الهدية) أم لأنه حقرني (الأميرة)» فزادها الغزال من حديثه العذب ومن لباقة المعروفة أن أعظم ما أهدته الملكة هو مجرد السماح له بالوصول إليها وعندئذ أمرت الملكة بأن تحمل هديتها إلى مقره فشكرها الغزال وأثنى على هديتها، وعلق ماورأى على هذا الحدث تعليقاً طريفاً بقوله: أن هذا الكلام يعنى أنه نجح في مهمته السياسية نجاحاً باهراً لأنه أظهر ذكاء ودهاء بمدح أميرة بربرية من أميرات تلك البلدان «فوق ما أراد» ونجح في تطوير العلاقات التجارية بين قرطبة والدانين وهو أمر أكدته النصوص التاريخية (١٣٨).

و يلاحظ الدكتور حسين مؤنس أن الدعابات المتواترة بين الغزال وملكة النورمان «ظاهرة التكلف، ولا يبعد أن يكون الغزال نفسه صنعها ليزوق بها وصف رحلته و يضيف عليها طرافة» و يضيف قائلاً: وإذا كان صحيحاً أن الغزال لقي امرأة تسمى «نود» في دانيمرقة وأعجب بها وأعجبت به وقال فيها هذا الشعر كله، فالغالب أنها كانت من سيدات البلاط أو الظاهرات من نساء النورمانيين (١٣٩).

والواقع أن تقرير ابن دحية عن سفارة الغزال وما جاء فيه من معلومات جغرافية واجتماعية ينطبق على أوضاع بلاد الشمال في العصور الوسطى. فقد

(١٣٧) ابن دحية: المطرب، ص ١٤٢.

(١٣٨) Mawer Allen: The poet and the spae-wife, P. 53.

محمد صالح البنداق: المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(١٣٩) حسين مؤنس: غارات النورمان، ص ٦٢ - ٦٣.

أشير فيه إلى عبادة النار، والافتتان بألعاب القوى وعلاقة المرأة بالرجل والزواج والطلاق والزواج من الأم ومن الأخت وكلها معلومات تضيف إلى معرفتنا بهذه البلاد وذلك المجتمع في حقبة هامة وخطيرة في العصور الوسطى، ولهذا جاءت سفارة الغزال إلى تلك البلاد على جانب كبير من الأهمية العلمية والعملية، ويقول فابريستوس أن ملاحظات الغزال عن بلدان الشمال هي الوحيدة المتوفرة والمستندة إلى مشاهدة ورحلة قام بها فعلاً رجل عربي إلى تلك الأصقاع تؤكد لها وقائع تاريخ الشمال الثابتة (١٤٠).

وبعد أن قضى الغزال مهمته عاد إلى بلاده عن طريق البحر، فوصل إلى شمال اسبانيا على مقربة من شنت ياقب Santiago de compostela « بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم » (١٤١)، إذ كانت هذه المدينة محجاً يحج إليه المسيحيون، أقام مكرماً عند صاحبها روميرو الأول (Ramiro I ٨٤٢ — ٨٥٠ م — ٢٢٨ — ٢٣٦ هـ، ويدل ذلك دلالة قاطعة على أن ثمة علاقة طيبة ربطت ما بين هوريك ملك النورمان وروميرو الأول ملك اشتوريس من جهة وعلاقة سلام بين روميرو الأول وعبد الرحمن الأوسط من جهة أخرى (١٤٢). قضى الغزال شهرين في ضيافة ملك أشتوريس عاد بعدها إلى قرطبة عبر منطقة قشتالة Castilla وطليطلة Toledo وقدم تقريره لعاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط حوالي سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦ م.

تلك هي سفارة يحيى بن حكم الغزال إلى هوريك ملك الدانيين والتي تمثل أول لقاء بين مسلمي الأندلس والدانيين وترتب عليه فيما يبدو علاقات تجارية بين البلدين، فضلاً عن نتائج سياسية غير مباشرة تتمثل في عدم تعرض الأندلس خلال عصر عبد الرحمن الأوسط على الأقل لأي غزو نورماني وهذا يمثل في حد ذاته نتيجة ايجابية لسفارة الغزال ونجاحاً ملموساً لرحلته وسفارته إلى ملك النورمان.

(١٤٠) انظر: محمد صالح البنداق، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(١٤١) ابن دحية: المطرب، ص ١٤٦.

(١٤٢) حسين مؤنس: غارات النورمان، ص ٦٣.

مصادر ومراجع البحث

(أولاً) مصادر عربية قديمة :

- ابن الآبار : . أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) - الحلة السراء ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن الجزري (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) - الكامل في التاريخ ، الجزء السادس ، بيروت ١٩٦٥ .
- الحميري : أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم - الروض المعطار في أخبار الأقطار ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .
- ابن حيان : أبو مروان (ت ٤٦٩ هـ - ١٠٧٩ م) - المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ١٩٧٣ .
- ابن الخطيب : لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م) - أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب ، نشر الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، سنة ١٩٦٤ .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م) - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، الجزء الرابع ، منشورات الأعلمي بيروت ، لبنان ١٩٧١ .
- ابن دحية : ذو النسيبين أبي الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) - المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأستاذ

ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد
أحمد بدوي، راجعه الدكتور طه حسين، المطبعة الأميرية،
القاهرة، ١٩٥٤ .

السلامي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥ هـ -
١٨٩٧ م) - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء
الأول، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

الضبي : أحمد بن يحيى أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ - ١٢٠٣ م) -
بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس، دار الكاتب العربي،
القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م) - تاريخ الأمم
والملوك، الجزء العاشر، المطبعة الحسنية المصرية، القاهرة،
١٣٢٦ هـ.

ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً عام ٧١٢ هـ - ١٣١٢ م)
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، ٢،
تحقيق كولان وليفي بروفنسال، دار الشروق، بيروت -
لبنان (بدون تاريخ).

العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت ٤٧٨ هـ -
٩٨٨ م) - نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار
وتنويح الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع
الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الالهواني، مطبعة معهد
الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥ .

المالكي : أبو بكر بن أبي غبدا الله (ق الخامس الهجري) - رياض
النفوس، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الجزء الأول الطبعة
الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١ .

ابن القوطية : أبو محمد بكر محمد - تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق دون
خوليان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦ .

- المقري : شهاب الدين أبو العباس التلمساني (١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م)
— نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الأول ،
تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- النويري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢ م) — نهاية الأرب
في فنون الأدب ، ج ٢٢ ، نسخة مصورة عن المخطوط المحفوظة
بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٩ معارف عامة مودعة بمكتبة
آداب الاسكندرية رقم ٢٢ م .

(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربة :

- أرسلان (شبيب) : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر
المتوسط ، بيروت ١٩٦٦ .
- أماري (ميشيل) : المكتبة الصقلية ، ليسك ، ١٨٧٥ .
- بالنثيا (جونثالث) : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ،
الطبعة الأولى — القاهرة ١٩٥٥ .
- بروفنسال (ليفي) : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد
عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي
ومراجعة الدكتور لطفي عبد البديع ، مجموعة الألف
كتاب رقم (٨٩) .
- بروكلمان (كارل) : الأدب العربي ، الجزء الثاني ، نقله إلى العربية
الدكتور عبد الحليم النجار ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف
بمصر ، ١٩٧٤ .
- البنداق (محمد صالح) : يحيى بن حكم الغزال ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،
١٩٧٩ .
- سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :
قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، الجزء الأول ،

- مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ١٩٨٤ .
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب
الجامعة الاسكندرية .
- المغرب الكبير، الجزء الثاني ، الدار القومية للطباعة
والنشر الاسكندرية ١٩٦٦ .
- (بالاشتراك مع الدكتور أحمد مختار العبادي) : تاريخ
البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ج ٢ ، مؤسسة
شباب الجامعة (بدون تاريخ) ..
- شلبي (دكتور سعد اسماعيل) :
الأصول الفنية للشعر الأندلسي ، عصر الامارة ، دار
نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- الشيخ (دكتور محمد محمد مرسى) :
دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس ، مؤسسة
الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .
- الممالك الجرمانية في أوروبا الوسطى ، دار الكتب
الجامعية ١٩٧٥ .
- عاشور (دكتور سعيد) :
أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ
السياسي) الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ .
- العبادي (دكتور أحمد مختار) :
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ،
الاسكندرية سنة ١٩٦٨ .
- عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) :
تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، منشأة المعارف ،
الاسكندرية ، سنة ١٩٧٩ .

العدوي* (دكتور ابراهيم أحمد)

اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع
الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ١٩٥٠ ،
المجلد الثالث ، العدد الثاني .

غنيم (دكتورة اسمت) :

الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية دار المعارف ،
سنة ١٩٨٣ .

فازلييف

: العرب والروم ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي
شعيرة ، مراجعة الدكتور فؤاد حسنين علي ، دار الفكر
العربي ، القاهرة (بدون تاريخ) .

فشر

: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور محمد
مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني والدكتور
ابراهيم العدوي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،
ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

مؤنس (الدكتور حسين) : غارات النورمان على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ —

٢٤٥ هـ — ٨٤٤ — ٨٥٩ م) وسفارة يحيى الغزال إلى

ملك النورمانند في سنة ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م) المجلة

التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، مايو

. ١٩٤٩

(ثالثاً) مراجع أوروبية :

- Bury : A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.
- Deanesly : A History of Early Medieval Europe, London, 1956.
- Dozy (R.) : Recherches sur L'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge, t. II, Amsterdam 1905.
- El-Hajji (A.A.) : Diplomatic relations between Andalusia and the franks during the Umayyad period, in the Islamic Quarterly V, XIII, No. 2 April-June, 1969.
- Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the umayyad period, Beirut, 1970
- Einhard : Life of Charlemagne, in the medieval world by Cantor, New-york. 1968.
- Encyclopédie de L'Islam.
- Haskins (Ch. H) : The Northmen in the European history, New-york, 1959.
- Isidoro de las Cagigas : Los Mozarabes, t. II, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1948.
- Jakson : The making of Medieval Spain; California, 1976.
- Keen : A History of medieval Europe, London, 1967.
- Levi-provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, t. I, Paris, 1950.
- Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe Siècle, en Byzantion, tome XII, Bruxelles, 1937.
- Mawer Allen : The vikings, in Cambridge Medieval history, t. III, Cambridge, at, the univ. press, 1936.
- The poet and the spae-wife, an attempt to reconstruct Al-Ghazal's Embassy to the vikings, Dublin, 1960.
- Ostrogorsky : A History of the Byzantine state, English translation by Hussy, Oxford.
- Pazy Mella : Embajada del Emperador de Alemania Oto I al Califa de Cordoba Abderrahman III, Boletín de la Academia de ciencias, Bellas letras Y Nobles Artes de Cordoba, X, 1931.

- Reinaud : Muslim colonies in France Northen Italy and Swizer-land, English Translation by sherwani, Lahore, 1964.
- Sanchez- Albornoz (Claudio) : El islam de Espana yel Occidente, segunda edicion, coleccion austrial, Espasa calpe; Madriad, 1981.
- Schjoth, Hans : Denmark and its sister states, Great days of the northmen, in the Book of history, A History of all nations from the earliest times to the present, Vol. VII.
- Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1903.

البحث الثالث

قضاة ثوار في الاندلس

قضاة ثوار في الاندلس

لفظ القضاء يأتي في اللغة بمعنى انقطاع الشيء وتمامه، يقال «قضى الحاكم»، إذا فصل في الحكم، «وقضى دينه»، أي قطع ما لغريمه قبله بالأداء، «وقضيت الشيء» أحكمت عمله^(١)، ومنه قول الله تعالى «سورة مريم، آية ٣٥»: «إذا قضى أمرا»، أي أحكمه وأنفذه. ويعرف العلامة ابن خلدون القضاء بقوله: «منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة»^(٢)

ونخطة القضاء من أسنى الخطط، فإن الله تعالى قد رفع درجة الحكام وجعل اليهم تصريف أمور المسلمين، يحكمون في الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام، وتلك خطة الانبياء ومن بعدهم من الخلفاء، فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء، لذلك اشترط العلماء في متولى القضاء شروطا للصحة والكمال، وهي عشرة: الاسلام والعقل، والذكورة والحرية والبلوغ والعدالة والعلم وسلامة حاسة السمع والبصر من العمى والصمم، وسلامة حاسة اللسان من البكم^(٣). ومن ثم فإن خطة القضاء تعتبر من أعظم الخطط قدراً، وأجلها خطراً، «لا سيما إذا اجتمعت اليها الصلاة، وعلى القاضي مدار الاحكام، واليه النظر في جميع وجوه القضاء»^(٤).

ولما كانت الاندلس إحدى الولايات التابعة للدولة العربية، يجرى عليها ما يجرى على ولايات المشرق الاسلامي، فإن خطة القضاء فيها كانت ذات أهمية خاصة، يدل على ذلك ما بلغه القضاء بها من علو المكانة ووفرة للسلطان وعظم الجاه، فقد كان القضاء في الأندلس قبل قيام دولة بني أمية يسمون قضاة الجند، فلما تولى عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل إمارة الاندلس في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٥ مايو سنة ٧٥٦ م) أصبح القاضي يسمى «بقاضي

(١) النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن): كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،

بشر ليفي بروفنسال، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٢

(٢) ابن خلدون (عبد الرحمن). المقدمة المجلد الأول، المطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت

١٩٧٩، ص ٣٩٠

(٣) النباهي المصدر السابق، ص ٤

(٤) كتاب الاعلام بنوازل الاحكام في، المراقبة العليا، ص ٦

الجماعة وهو اسم محدث لم يكن في القديم»^(٥).

ومنذ عهد الداخل اعتمد القضاة في أحكامهم على مذهب عبد الرحمن ابن عمرو الوزاعي امام الشام (٨٨-١٥٧هـ/٧٠٧-٧٧٤م)^(٦)، بحكم الرابطة المتينة بين الأندلس وبلاد الشام ولتجدد الدولة الاموية في الأندلس، ولتوافق ما ذهب اليه هذا الفقيه وخاصة في التشريعات الحربية، وأحكام الحرب والجهاد^(٧)، مع ما كان يسود الأندلس في هذه الفترة من عدم استقرار. ويذكر ابن الفرضي أن أول من نقل هذا المذهب الى الأندلس هو القاضي الالبيري أسد بن عبد الرحمن السبئي (كان حيا سنة ١٥٠هـ/٧٦٩م)^(٨)، وانتشر على يد صعبه بن سلام الشامي (ت: ١٩٢هـ/٨٠٧م)^(٩). وهكذا سيطر المذهب الوزاعي على الأندلس خلال القرن الثاني الهجري وكانت الاحكام تصدر وفقا لما تنص عليه.

غير أنه، بدءا من عصر الامير هشام الأول ابن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالرضا (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٩-٧٩٦م)، نعت بلاد الأندلس بقدر من

(٥) الخشنى (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني) : قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦، ص ١٤، وأنظر أيضا : النباهي : المصدر السابق، ص ٢١،

Lévi-provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, Tome III, Paris, 1953, pp.118-119.

(٦) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الوزاعي، ولد بمدينة بعلبك بالشام سنة ٨٨هـ/٧٠٧م، وأصله من عرب اليمن، أخذ عن عطاء بن رباح مفتي مكة المتوفى في سنة ١١٥هـ/٧٣٣م، والزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م وغيرهما، كما أخذ عنه سفيان الثوري ومالك بن أنس عالم دار الهجرة، وبعد أن جال في البلاد في طلب العلم عاد الى وطنه وأقام في بيروت ومات فيها سنة ١٥٧هـ/٧٧٤م، ومن مصنفاته كتاب السير الذي يتناول فيه أحكام الجهاد والقتال، أنظر في ترجمته : كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث، نقله الى العربية الدكتور عبد الحلیم النجار، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص ٣٠٧-٣٠٨، والمصادر التي وردت به.

(7) Mahmud Makki : Ensayo sobre Los aportaciones orientales en La Espana Musulmana, en, Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid. V.IX-X, Madrid, 1961, pp.129,154.

(٨) ابن الفرضي (أبو الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي) : تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٧٤.

(9) Mahmud Makki : op. cit, 130

الاستقرار والنضوج، لا سيما بعد أن قضى الأمير هشام الاول على معارضيه أهمهم أخوه سليمان الذى ساندته الحزب الشامى الاندلسى، فأسفر ذلك عن التخلص تدريجيا من التأثير الشامى، فضلا عن أن التراث الشامى لم يعد ملائما لامداد الاندلس بمقومات حياته الفكرية وعلى الأخص فى مجال الحياة الدينية، فبدأ الاندلسيون يتطلعون الى حضارة جديدة وتراث جديد، فالتجته أنظارهم الى الحجاز يستمدون منه قوام حياتهم الروحية، وكانت المدينة المنورة حاضرة دينية ممتازة فى العلوم الدينية آنذاك، يقيم فيها الامام مالك بن أنس^(١٠)، صاحب المذهب المعروف باسمه ومقدم مدرسة أهل الحديث فى الفقه. وكان يعاصره بالعراق الامام أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ/٧٦٩م) صاحب المذهب المنسوب اليه، الذى انتشر فى العراق لمواءمته للبيئة العراقية وعقلية أهل العراق وهو مقدم مدرسة أهل الرأى والقياس فى الفقه. وكان من الطبيعى أن يتجه الاندلسيون الى مذهب امام دار الهجرة لا سيما أن الفكر الدينى للامام مالك بدت فيه سمات خاصة وبوادر معينة جعلته أقرب الى تأييد بنى أمية ومعارضة العباسيين من أى فكر آخر.

ولكن كيف تسنى للمذهب المالكى أن يحتل مكان الصدارة فى الاندلس

(١٠) أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو الاصبهى، ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٧هـ/٧١٥م وقيل فى سنة ٩٣هـ/٧١١م، وينسب أهله الى ذى أصبح الحميرى الذى كان ملكا من ملوك حمير، أخذ مالك عن الزهرى المحدث، ونافع القارئ وغيرهما، ومن مصنفاته كتاب الموطأ أى السهل الواضح، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث معا، تذكر فيه الاحاديث فى الموضوع الفقهي الذى سجنه فيه ثم عمل أهل المدينة المجمع عليه، ثم رأى من التقى بهم من التابعين وآراء الصحابة والتابعين الذين لم يلتق بهم كسعيد بن المسيب، وفيه الآراء المشهورة بالمدينة، وقد روى بعده روايات، وأشهر الروايات له روايتان: أحدهما رواية يحيى بن يحيى الليثى الاندلسى المتوفى عام ٢٣٤هـ، والاخرى رواية محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة. وتوفى الامام مالك بالمدينة المنورة فى سنة ١٧٩هـ/٧٨٦م.

أنظر: ابن فرحون (ابراهيم بن على): الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، تحقيق الدكتور محمد الاحمدى أبو النور، الجزء الاول، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٨١ وما بعدها.

الامام محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الاسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربى «بدون تاريخ»، ص ١٣٠.

كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، الجزء الثالث، ص ٢٧٤، والمراجع التى وردت به.

Mahmud Makki : op. cit., p. 154

بمثل هذه السرعة؟ وما أهم العوامل التي مكنته من ذلك؟ وللإجابة على ذلك ينبغي أن نسرّع إلى القول بأن المذهب المالكي انتشر في الأندلس وحل محل المذهب الأوزاعي بسرعة كبيرة، ربما لقوة المذهب ذاته وملاءمته لأفكار واتجاهات كثير من الناس من ناحية، ولسبب آخر لا يخلو من ناحية سياسية فقد كانت إمارة الأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية خارجة عن طوعها ولما كان المذهب الحنفي بمثابة المذهب الرسمي للعباسيين، كان من الطبيعي أن يتجه الأندلسيون إلى مذهب مالك ابن أنس، الذي أبدى إعجابه بالأمير هشام ومدحه في مجلس من مجالسه في حضور عدد من طلاب العلم الأندلسيين بقوله: «نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم»^(١١)، ولعل ذلك يؤيد ما ذهب إليه عالم محدث من أن مذهب مالك انتشر في الأندلس بسلطان الدولة^(١٢).

فضلا عن أن المجتمع الأندلسي كان يضم فيما يضم عناصر عربية من أصول حجازية دون العراقيين الذين لم يشاركوا في جيوش الفتح والطوابع التي وفدت إلى الأندلس مما أدى إلى أن يفكر عدد كبير من العرب الحجازيين في العودة إلى بلادهم لزيارة أهلهم ولتأدية فريضة الحج، فلما عادوا كانوا أكثر تأثرا بمذهب مالك ونشروه في الأندلس ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده، فرجع أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته^(١٣). وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على اتصال الأندلسيين بالامام مالك والامام بمذهبه.

على أن ابن خلدون يضيف عاملا آخر لانتشار المذهب المالكي بالأندلس فيقول: «فالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم، ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب»^(١٤). غير أننا نخالف العلامة ابن خلدون فيما ذهب إليه، ذلك أن حواضر الحجاز لم يعد سكانها من البدو لا سيما في العصر الأموي الذي كان

(١١) ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد): تاريخ افتتاح الأندلس نشر دون غوليان ريبيرا، مدريد

١٩٢٦، ص ٤٣

(١٢) الامام محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص ٣٩.

(١٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٨٠٥.

(١٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٠٥-٨٠٦.

يغدق فيه الخلفاء على تلك الحواضر مما تفيض به خيرات الأمصار المفتوحة، ولذلك ظهر فيهم الترف وكثر التنعم ونبغ شعراء الغزل وظهر الغناء الحضري، بل أمدوا به بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأن سلمنا بما ذكره ابن خلدون من أن حواضر الحجاز يسكنها البدو فلا يجوز أن نسلم له قط بذلك في الاندلس، فأهل الاندلس كانوا أصحاب حضارة دون شك وتأثروا بالحضارة التي كانت قائمة قبل الفتح الاسلامي ثم بعده، وهي حضارة استقت أصولها الاولى من الحضارة الفينيقية بخاصة ثم من الحضارة الرومانية، يشهد على هذا تلك النظم الرومانية التي كانت سائدة قبل الفتح وبعده وكذا الآثار الرومانية الضخمة التي مازالت قائمة حتى اليوم^(١٥).

وهكذا انتشر المذهب المالكي في الاندلس وحل محل المذهب الازاعي، غير أن الأندلسيين احتفظوا بمسألة استجازه غرس الشجر في صحون المساجد^(١٦) متبعين فيها مذهب الازاعي، ومذهب مالك يكره ذلك، وهذه المسألة ميزت المالكية الاندلسية عن غيرها حتى انتهاء دولة الاسلام في الاندلس.

وتجمع المصادر الاندلسية على أن دخول المالكية وانتشارها في الاندلس تم على أيدي الأندلسيين أنفسهم، الذين درسوا على الامام مالك بن أنس في المدينة المنورة، ثم عادوا الى بلادهم ونقلوا فقهه اليها. وأول من نقل هذا المذهب من تلاميذه هو زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبظون (ت: ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م)^(١٧)، يذكر المقرئ أنه : « كان فقيه الاندلس على مذهب

(١٥) انظر : Aguado Bleye : Manuel de la historia de Espana. Tomo I, Madrid, 1947. pp. 15 : Antonio de Vega (L.) : Amilcar Barca Fundador de Espana. Madrid. 1961.

(١٦) النباهي : المرقبة العليا، ص ٥١.

(١٧) عن زياد بن عبد الرحمن، أنظر : الخشي : قضية الاندلس، ص ٣، ص ٤، ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس، ص ١٥٤ (ترجمة : ٤٥٨)، الحميدى (أبو عبد الله محمد ابن أبي نصر فتوح بن عبد) : جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٦، ص ٢١٨، ابن القوطية : المصدر السابق، ٤٢، ٤٣، ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب، تحقيق دكتور شوقي ضيف، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ٣٩، ٤٤، النباهي : المرقبة العليا، صفحات ١٢، ١٧، ١٠، ابن فرحون الدياج، الجزء الأول، ص ٢٧٠.

مالك، وهو أول من أدخل مذهبه الاندلس^(١٨)، ويضيف قائلا : «هو أول من أدخل موطأ مالك الى الاندلس مكملًا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى» الليثي (ت ٢٣٤هـ / ٨٤٨م) (١٩).

وانتشرت المالكية في الاندلس على يد الفقيه المحدث الواسع الشهرة يحيى الليثي، الذي سماه مالك «بعاقل الاندلس»^(٢٠)، وكان الشيخ يحيى عميد فقهاء الاندلس^(٢١)، قد بلغ مكانة سامية لدى الامير هشام الملقب بالرضا، وجعل للفقهاء والقضاة منزلة كبيرة في عصره، فارتقوا أهم المناصب، واعتمد عليهم الامير هشام وقربهم اليه وهو بطبيعته كان تقيا ورعا^(٢٢)، فكان يستمع اليهم وينفذ مشورتهم فكثر تدخلهم في شئون الدولة.

وهكذا انتقلت الفتوى في الاندلس الى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه في حواضر الاندلس^(٢٣)، فيما عدا أربع مسائل خالف فيها

(١٨) المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المجلد الثاني، بيروت، ص ٤٥.

(١٩) المقرئ : نفس المصدر والجزء، ص ٤٦.

(٢٠) انظر في ترجمته، ابن القوطية : المصدر السابق، ص ٣٥، ٥١، ٥٨، الخشني : المصدر السابق، ص ٣٥-٣٦، ابن القرضي : المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١ (ترجمة ١٥٥٦)، الحميدي : المصدر السابق ص ٤٧ - ٥٠، ١٤٨ - ١٥٠، ١٦٣ - ١٦٥ ابن فرحون : المصدر السابق، ح ٢، ص ٣٥٢ - ٣٥٣، ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجز ذلك من شجون الكلام، نشره ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٥، النباهي، المرقبة العليا، ص ١٤-١٨، ٤٥، ٥٥-٥٦،

Mahmud Makki : op. cit p. 65.

(٢١) ابن حيان (أبو مروان) : المقتبس من أبناء أهل الاندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣، ص ٨٣.

(٢٢) ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الثاني، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، (بدون تاريخ)، ص ٦٥-٦٦.

(٢٣) انظر : المقرئ : نفح الطيب، المجلد الثالث، ص ٢٣٠، ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٣٤، اللذان يذهبان الى أن المذهب المالكي انتشر في عهد الحكم بن هشام، وهذا يخالف الاحداث التي وقعت في عهد ذات الامير، والاقرب الى الصحة ان هذا المذهب انتشر في عهد الامير هشام الاول.

مالكية الاندلس مالكية المشرق فأخذوا ثلاثا منها من مذهب الامام الليث بن سعد وأخذوا الرابعة من مذهب الامام الازاعي^(٢٤).

واذا كان الفقهاء والقضاة قد بلغوا منزلة سامية في عهد الامير هشام الرضا، فان خلف الامير الحكم بن هشام لم يكن على شاكلة أبيه في الورع والتقوى، بل على العكس من ذلك اتسمت شخصيته بحب اللهو وحضور مجالس الغناء والرقص، وكان يؤثر مجالس الشعراء والندماء على مجالس الفقهاء والعلماء، مولعا بالصيد والقنص، فلم يرع مكانة الفقهاء ولم يهتم بتقريبهم اليه، فنفروا منه عندما شعروا أنه يعمل على الحد من نفوذهم ومنعهم من التدخل في شئون الدولة، فأنقلبوا عليه شر منقلب وأخذوا من فوق المنابر يحرضون الناس عليه واتهموه بالفسق والمجون ولقبة بالخمر، ولقى تحريضهم هذا هوى وآذانا صاغية خاصة لدى طائفة المولدين في الاندلس، وهم الدين كانوا يتطلعون الى المساواة في المعاملة مع العرب، وتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية، ولهذا اغتتموا الفرصة، ودبروا ثورتين كبيرتين في مدينتي طليطلة وقرطبة غير أن الحكم الاول استطاع بمقدرة فائقة القضاء نهائيا على هاتين الثورتين^(٢٥)، وتعقب الفقهاء المحرضين على الفتنة، الذين فروا من قرطبة الى حواضر الاندلس أمثال الفقيه يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وطالوت بن عبد الجبار، لكنه لم يلبث أن أمن هؤلاء الفقهاء استجابة للمتمس

(٢٤) المسائل الأربعة هي : «ان لا يحكموا بالخلطة، ولا بالشاهد اليمين، وأجازوا كراء الارض بالجزء مما يخرج منها، وهو مذهب الليث ابن سعد، وأجازوا غرس الشجر في المساجد، وهو مذهب الازاعي»، من، المرقبة العليا، ص ٥١، وأنظر أيضا :

Mahmud Makki : op. cit pp. 227-231.

(٢٥) انظر عن هاتين الثورتين : مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الاندلس، تحقيق ابراهيم الابياري، دارالكاتب المصري، القاهرة، ١٩٨١، ص ١١٨-١١٩، ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٤٦، ٤٨، ابن عذارى : المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٧٥، ٧٦، ٧٧. ابن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الاندلسي، ص ١٥، محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس، العصر الاول، القسم الاول، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٤٣ وما بعدها، اليسد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين، ص ٢٢٢-٢٢٣، أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس، ص ١٢٨، ١٢٩ وما بعدها، وأنظر أيضا :

Levi Provençal : Histoire de L'Espagne musulmane. Tome II L'Institut Français, Cairo. 1944, p. 188.

تقدموا به، وعادوا للاقامة مرة أخرى في قرطبة حاضرة الامارة^(٢٦).

ولم تلبث منزلة الفقهاء والقضاة أن ارتفعت مرة أخرى في امارة عبد الرحمن الأوسط، فنعموا بما كانوا ينعمون به على عهد جده هشام الرضا من علو المكانة والقرب من الأمير، بل والتسلط عليه أحيانا بحيث كان لا يستطيع ابرام أى أمر دون استشارتهم، فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط لا يبت فى اختيار القضاة الا بعد استشارة « كبير الفقهاء المشاورين الاثير عنده يحيى بن يحيى »^(٢٧)، فكان لا يستقضى قاضيا ولا يعقد عقدا ولا يمضى فى أمور الدين إلا بعد مشورته^(٢٨). وهذا يدل على عظم المكانة السامية التى وصل اليها الفقيه يحيى بن يحيى فى دولة الأمير عبد الرحمن الأوسط، وبالتالي ما وصل اليه الفقهاء والقضاة من مكانة هامة استمرت طوال العصر الاموى فى الاندلس.

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة حاضرة الاندلس من المناصب الهامة، لمنزلة متولى الدينية ومكانته الاجتماعية، وكان اختصاصه يشمل النظر فى الموارث والوصايا والتحجير والاحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق، وقد تجمع له فوق ذلك أمانة الصلاة العامة، وهى صلاة الجمعة والعيدى وصلاة الاستسقاء، كما كان الاشراف على الحسبة داخلا فى اختصاصه^(٢٩)، لذلك فان امراء بنى أمية كانوا لا يسندون قضاء الجماعة الا الى كل من عرف بغزارة العلم والبراعة فى الفقه، ووصف بالفضل والورع ونزاهة الضمير^(٣٠)، وهذا ينطبق على قضاة حواضر الاندلس الأخرى.

وقد ترتب على ذلك أن عظمت خطة القضاء فى الأندلس، وارتفعت مكانة القضاة بين الناس، فوثقوا فيهم، والتقوا حولهم، وكان من أثر ذلك أن تدخل بعض القضاة فى الحياة السياسية، وأصبحوا أمل الناس فى تحقيق استقلالهم، فثاروا على الاوضاع القائمة فى الاندلس خلال فترات الضعف التى مر بها القطر، فنكب بعضهم، ونجح البعض الآخر، وهذا ما ستعالجه بعد، حين نستعرض ثورات القضاة

(٢٦) المقرئ : نفح الطيب، المجلد الثانى، ص ١١

(٢٧) ابن حيان : المقتبس، تحقيق محمود على مكى، ص ٤٠

(٢٨) نفس المصدر، ص ٤٢.

(٢٩) النباهى : المرقبة العليا، ص ٥.

(٣٠) نفس المصدر، ص ٤، ٥.

فى كل من شرق الأندلس وغربه ووسطة تسهيلا للدراسة.

أولا : ثورة القاضى ابن جحاف فى بلنسية

(٤٨٥-٤٨٧ هـ / ١٠٩٢/١٠٩٤ م) :

هو جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف، من أسرة عريقة تنتسب الى قبيلة معافر اليمانية، من أعرق البيوتات فى بلنسية (Valencia)، اشتهرت بالعلم والرياسة، وكان جعفر بن عبد الله بن جحاف من أبرز أعلام هذه الأسرة علما، فقد نبغ فى ميدان الفقه والحديث، وتولى بعض المناصب الهامة، ومنها منصب صاحب أحكام المدينة، ثم أسندت اليه خطة القضاء^(٣١).

وقد عايش جعفر بن جحاف الوضع السياسى المتردى فى مدينة بلنسية فى الربع الاخير من القرن الخامس الهجرى (١١ م)، إذ كانت تمر بمرحلة دقيقة فى تاريخها يشوبها القلق والاضطراب، وتتسم بالضعف فى الظاهر والغليان فى الباطن، تحت حكم أمير مسلم يدعى القادر بالله يحيى بن ذى النون^(٣٢)، الذى جعل الاستحواذ على السلطة هدفه والامرة نصب عينيه ومراده، وفى سبيل تحقيق هذه الغاية ودرءا لخطر مناوئيه من أمراء المسلمين الآخرين وملك قشتالة النصرانية الطامعين فى ملكه^(٣٣)، اضطر لشراء حماية السيد القمبيطور^(٣٤)

(٣١) أنظر فى ترجمته : ابن حزم : جمهرة انساب العرب، ص ٤١٩، الضبى : بغية الملتصق، ص ٢٥٧ (ترجمة ٦١٥)، ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاءى) : التكملة لكتاب الصلة، ج ١، نشر السيد عزت العطار، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٣٩-٢٤٠ (ترجمة ٦٢٣)، ابن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الاندلسى، ص ٢٠٢.

(٣٢) هو القادر بالله يحيى بن ذى النون حفيد المأمون ذى النون. وكان فتى حدثا، قليل الخبرة والتجارب، يميل الى اللهو والترف والملذات، راجع، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ج ٧، ص ٢٩٢.

(٣٣) من الأمراء المسلمين الطامعين فى ملك بلنسية، المستعين بن هود أمير سرقسطه والمنذر بن هود أمير لارده وطرطوشه، ومن ملوك النصرانية الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة.

(٣٤) هو الفارس القشتالى المشهور روديجو دياث ييبار Rodrigo Diaz Vivar الملقب بالسيد الكمبيادور أو القمبيطور.

Huici Miranda (A.) : Histoire musulmana de Valencia y su region. tomo II. p. 7 y nota I:

ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندرلس، ص ٢٧٠ ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، معهد الدراسات الاسلاميه، مدريد، ١٩٧١، ص ٩٩، هامش ٥.

ووافق على ما اشترطه عليه من التعهد بدفع جزية أسبوعية قدرها ألف دينار^(٣٥).

ووفقا لهذا الاتفاق دخل السيد القمبيطور (El cid Campeador) مدينة بلنسية ونشر قواته بها، وأقام بقصر الامارة، وأرغم الحصون والقلاع التابعة لبلنسية على اعادة دفع ضريبة الخراج التي سبق أن حبسوها عن القادر، كما استبد بشئون المدينة فأخذ «بمخنق بلنسية، وألقى زوره عليها، يجبي رعيته ويستغلها حاضرة وبادية، وقد استضعف حفيد برادى النون ملكها المشعوم»^(٣٦).

ثم انشغل السيد القمبيطور بعد ذلك بأمر اضطرته للخروج في بعض قواته تجاه مدينة سرقسطة (Zaragoza) فعهد الى ابن الفرج-الوزير السابق للقادر بن ذى النون-بإدارة شئون المدينة^(٣٧)، تعاونه قوات السيد المنتشرة في كل أرجائها.

وازاء هذا الموضع المتدهور الذى لا يشر بأمل في الخلاص القريب لبلنسية من استبداد قوات النصارى مع ضعف أميرها القادر، رأى مسلمو المدينة، الذين يمثلون قلبها النابض المتحرك لتخليص بلدهم من نير النصارى، ووضع نهاية لهذا الحال، الاتصال بقاضى المدينة جعفر بن جحاف، بعد أن استشعروا فيه روح الزعامة ولما كان يتمتع به من واسع الجاه والنفوذ فضلا عن أنه سليل بيت من البيوتات العربية العريقة في بلنسية.

Huici Miranda : op. cit. tomo II. p.2.

(٣٥) انظر :

في حين تذكر مدونة السيد أن مقدار الجزية الى تعهد القادر بدفعها للسيد هي أربع آلاف دينار أسبوعيا، وهذا مبالغ فيه، ولعله قد وقع تحريف في النسخ فكتبت : «أسبوعيا بدلا من شهريا» ، أنظر :

Chronicle of the Cid. from spanish by Robert Southey. London 1883. p. 126.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب، ح-٤، ص ٣١.

(٣٧) أنظر :

Alfonso El Sabio : primera Cronica general de Espana, tomo II. publicado por Ramon Menendez Pidal. Madrid, 1955, p. 562.

Menendez Pidal (R) : La Espana del cid, cuarta edición, tomo I. Madrid, 1947, p. 389.

كمال السيد محمد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الاسلامية حتى سقوطها في أيدي المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة وبإشراف الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ١٩٨١، ص ١١٧.

وكان القاضي جعفر بن جحاف بحكم منصبه مطلعاً على ما يجرى في المدينة، ومتفهماً لمشاعر أهلها، ومشاركاً لهم في النقمة على الأوضاع المتردية، حتى ضاقت نفسه بهذه التصرفات الجائرة من قوات السيد المنتشرة، هذه التصرفات المنافية لشريعة الاسلام، وسئم «إضافة عدو الله القمبيطور بلنسية، وسومه أهلها خطة الخسف، وسئم الذل وضاق صدره بحفيد ابن ذى النون»^(٣٨)، فلم يتردد في اجابتهم مشاركتهم في تغيير هذه الأوضاع، فحمل من ساعته لواء المعارضة ضد سيطرة النصارى، لا سيما وأنه كان مطلعاً على ما يجرى حوله في الاندلس، وعلى علم بتقدم المرابطين في شرق الاندلس، وضمهم لمدينتي مرسية Murcia ودانية Dania، وتطلعهم الى ضم بلنسية لحوزتهم، فاستفاد من كل ذلك، وعرض الأمر على أهل الحل والعقد بالمدينة وفي مقدمتهم أبو الحسن بن واجب، مشيراً عليهم باستدعاء قوات المرابطين لمعاونتهم في التخلص من القادر بن ذى النون وقوات السيد في مقابل حفظ المدينة للمرابطين، فوافقوا على ما ذهب اليه. عندئذ كاتب ابن حجاف القائد المرابطي ابن عائشة وأبلغه موافقة أهل المدينة على الاستنجاد به وتسليم المدينة له^(٣٩).

ولما كان القائد المرابطي ابن عائشة يتطلع الى ضم بلنسية حاضرة شرق الاندلس بعد استيلائه على مرسية ودانية، فانه لم يتردد في تلبية هذه الدعوة، وأرسل على الفور الى بلنسية فرقة من المرابطين بقيادة أبي ناصر وذلك في شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ م^(٤٠).

سارت الفرقة المرابطية تجاه بلنسية فدخلت المدينة من باب بيطاله Boatella الواقع في جنوبى غربى المدينة، ولما علم مسلمو المدينة بقدموها، قاموا بالثورة ضد النصارى فعم المدينة الاضطراب وسادها الهرج، وقاد القاضي جعفر بن حجاف

(٣٨) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الاندلسي، ص ١٠٣.

(٣٩) انظر، ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس، ص ١٠٣، ابن عذارى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١، ابن الخطيب : نفس المصدر، ص ٢٠٣.

(٤٠) ابن الكردبوس : نفس المصدر، ص ١٠٣، ابن عذارى : نفس المصدر، الجزء والصفحة، ابن الخطيب : نفس المصدر والصفحة.

جموع النافرين بجاء قصر الامارة، فاقتمة واستولى عليه، وقبض على الوزير ابن الفرع نائب السيد بالمدينة، وبحث عن القادر الذي كان قد اختفى فى حمامات القصر حتى عشر عليه، فقبض عليه، وصادر أمواله وكنوزه^(٤١). ولم يلبث ابن جحاف أن أمر بقتل القادر بالله يحيى بن ذى النون جزاء خيانتة للمسلمين وتحالفه مع النصارى وذلك فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان ٤٨٥هـ/ ٢٨ أكتوبر ١٠٩٢م، وتم ذلك على يد فتى من بنى الحديدى كان له ثأر قديم عند القادر^(٤٢).

وفى اليوم التالى الموافق ٢٤ رمضان اختير القاضى جعفر بن جحاف رئيسا للجماعة، فتولى زمام الأمور، وأخذ يحشد الجند، ويحصن أطراف المدينة، وينظم شئونها ويستعد للطوارئ^(٤٣). وهكذا تبوأ جعفر بن جحاف الرئاسة فى بلنسية، فأظهر أبهة الملك، وحاول التشبه بنظيره القاضى محمد بن عباد المعتمد (٤٦١-٤٨٤م/ ١٠٦٩-١٠٩١م) أمير إشبيلية، فكان يجلس «مكتنفا بالوزراء والفقهاء والزعماء والغلمة أمامه، ويركب فيتقدمه العبيد والطرود ويتأخر عنه الجند، وتسقبله المصانعة بالدعاء والثناء»^(٤٤).

لنا أن نتساءل هنا، هل أوفى ابن جحاف بعهد المرابطين بتسليم المدينة لهم وكيف تم ذلك والجماعة فى بلنسية اختارته رئيسا عليها، وهل تم ذلك بموافقة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين؟

والواقع اننا نجد اشارة مقتضبة لابن الخطيب فى معرض حديثه عن المرسلات

(٤١) ابن بسام (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨١، ص ٩٧، ابن عذارى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١، وأنظر أيضا : ابن ابى زرع الفاسى (أبو الحسن على بن عبد الله) : الانيس المطرب بروض القرطاس، تورنبرغ، أو بساله، ١٨٤٣، ص ١٠١.

Pidal, op. cit., p. 483

(٤٢) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء، ص ٩٦، ابن عذارى، ح ٤، ص ٣٢، ١٤٩، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٠٣.

(٤٣) ابن عذارى، ح ٤، ص ٣٢، ابن الخطيب : نفس المصدر، ص ٢٠٣.

(٤٤) ابن عذارى، ح ٤، ص ٣٢.

بين السيد القمبيطور وابن جحاف، تفيد رد ابن جحاف عليه بأن بلنسية لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين^(٤٥)، ويبدو أن المرابطين اكتفوا بوجود حامية مرابطة داخل المدينة رمزا لتملكهم لها وتبعيتها لهم، ومساندة لحليفهم ابن جحاف في التصدي لهجوم متوقع من جانب السيد القمبيطور، اذ تشير المصادر الى أن السيد القمبيطور عندما وصلت له أنباء التطورات المزعجة ببلنسية غضب لما أصاب حليفه القادر بالله على يدى ابن جحاف وأعوانه، واعتبرها ضربة موجهة لشخصه وتمردا على سلطانه، يترتب عليها فقد الجزية التي كان يؤديها له أهل بلنسية كل عام^(٤٦). فخرج في قواته صوب بلنسية مضمرا الانتقام، وفرض على الحصون الواقعة في طريقه المغارم والأقوات، حتى نزل في جباله (Juballa) وهناك اجتمع به أنصار القادر بالله بن النون، وانضموا اليه وأعلنوا ولاءهم له للأخذ بشأرا مولاهم^(٤٧).

وعندما وصل السيد القمبيطور الى أحواز بلنسية ضرب الحصار حولها، وأحرق ما يحيط بها من الضياع والمروج، واستولى على معظم الحصون والقلاع التابعة لها، ثم اقتحم روض الكدية (Alcudia) الواقع في شمالها وفرض عليه سلطانه وأقام به عسكره^(٤٨)، في الوقت الذي أخذ فيه ابن جحاف يحشد قواته، ويعلن حالة الطوارئ لمواجهة هذه الحملات المخربة التي كان يشنها السيد بقواته على أطراف المدينة.

ولما تم للسيد القمبيطور حصار المدينة، أثر أن يصطنع سياسة تقوم على الترغيب والترهيب مع ابن جحاف، فكتب له يهنئه على ما تهيأ له من تولى مقاليد الحكم، ثم يسخر منه فيها بأنه أنهى صومه بالحسنة «أننى اكسبتها فى رمضان بقتل سلطانه»^(٤٩)، ويطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسية. فرد عليه ابن جحاف بأن

(٤٥) اعمال الاعلام، القسم الاندلسى، ص ٢١٣

(٤٦) ابن الكردبوسى، ص ١٠٣

(47) Huici Miranda : op. cit., t. II. p. 57.

(48) Menendez Pidal : op. cit., p. 428.

(٤٩) ابن عذارى، ج ٤، ص ٣٢، وأنظر أيضا : حسين مؤنس : «السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الاول، مايو ١٩٥٠، ص ٥٩.

البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين «وتلك الاطعمة انتهبها رجاله» (٥٠).

عندئذ تحول السيد القمبيطور الى سياسة الترهيب، فأرسل لابن جحاف رسالة يهدده فيها ويقسم «بمغلظات الايمان ألا يرح بلنسية حتى يظفر به، ويأخذ ثأر ذي النون معه» (٥١).

وهكذا كشف السيد القمبيطور عن وجهه واشتد في حصار بلنسية، واستجلب أمدادا كثيرة من الحصون المجاورة «واتصل الضرب منها الى بلنسية، فأضربها، وقتل من ظفر به من أهلها، وكان معه جملة من رجال ابن ذي النون» (٥٢).

ولما تأكد ابن جحاف من سياسة السيد القمبيطور العدوانية والحاحه في الاستيلاء على المدينة أرسل يطلب مددا من القائد المرابطي ابن عائشة، فأمدده هذا بمدد جديد بلغ به عدد فرسانه ثلاثمائة، فزاد وثوقا من نفسه، وبدأت المناوشات بين السيد القمبيطور وبين أهل بلنسية (٥٣).

وينفرد ابن عذارى برواية تفيد أن ابن جحاف بدأ يضيق بوجود جند المرابطين في المدينة، فقد «استثقلهم،... واستشعروا ذلك منه» (٥٤)، ويضيف ان السيد القمبيطور لمس في ابن جحاف نيته في الانفراد بحكم المدينة دون المرابطين، فأكد له أنه معه فيه، وأيده في طرد المرابطين، يقول ابن عذارى : «وأمل القمبيطور ازعاج المرابطين من بلنسية ... وداخل ابن جحاف في اخراجهم، واستبداده بالملك لنفسه ليقيمه معه مقام ابن ذي النون، يحمي حوزته، ويقا تل عنه، فطمع في ذلك» (٥٥).

وقد سايرت المصادر الاسبانية ما ذهب اليه ابن عذارى في رغبة ابن جحاف في الاستبداد بالسلطة لنفسه والسعى الى السيطرة والسلطان (٥٦).

(٥٠) ابن عذارى، حـ ٤، ص ١٥٠، حسين مؤنس : نفس المرجع ص ٥٩.

(٥١) ابن عذارى، حـ ٤، ص ٣٢.

(٥٢) ابن عذارى، حـ ٤، ص ٣٢.

(٥٣) نفس المصدر، حـ ٤، ص ٣٢.

(٥٤) البيان المغرب، جـ ٤، ص ٣٢.

(٥٥) نفس المصدر، حـ ٤، ص ٣٢-٣٣.

(٥٦) أنظر : Chronicle of the cid, p. 141 : Menendez Pidal op. Cit., t. II. pp.

442-443.

غير أننا لا نميل الى ما ذهب اليه ابن عذارى والمصادر الاسبانية، ذلك لان ابن جحاف كان قد رفض هذا السلوك من جانب القادر بن ذى النون أمير بلنسية السابق وهو السلوك نفسه الذى كان السبب فى استجابة ابن جحاف لمسلمى بلنسية لزعامة الثورة ضد القادر وحلفائه النصارى، فكيف يرضى بذلك الآن، وقد أصبح أمل شعب بلنسية. ويبدو أن الظروف التى مرت بابن جحاف هى التى أجبرته على مصانعة السيد القمبيطور، لاسيما وقد انقسم أهل المدينة على أنفسهم، فظهر منهم فريق يميل الى السيد القمبيطور وهم بطبيعة الحال موالى الأمير القادر يتزعمهم ابن الفرج، وفريق ثان يتزعمة بنو واجب وكانوا يميلون للمرابطين، وفريق ثالث يتزعمه ابن جحاف وكان يسعى لتحرير بلنسية من أى تدخل خارجى خاصة وقد لمس ابن جحاف تراخى المرابطين عن نصرته واكتفاءهم بارسال فرقة صغيرة بلغ بها عدد القوات المرابطة بالمدينة ثلاثمائة فارس، وهذه القوة بطبيعة الحال عجزت عن التصدى لغارات السيد القمبيطور الملحة على أطراف بلنسية، فضلاً عن أن استمرار السيد على حصار المدينة أدى الى نقص فى الاقوات والمؤن، والى سوء الحالة الاقتصادية بها مما أدى الى عجز ابن جحاف عن الوفاء بالتزاماته نحو سداد رواتب جند المرابطين، فأخذ فى تقليلها. وهذا ما يدفعنا الى القول بأن ابن جحاف يئس من مناصرة المرابطين الايجابية، فمال الى اصطناع سياسة مرنة لصالح بلده أولاً وأخيراً تقضى بمهادنة السيد القمبيطور.

وفى هذه الاثناء أرسل السيد القمبيطور سرا الى ابن جحاف يطلب اليه طرد المرابطين، ويتعهد له بأن يتركه فى حكم بلنسية دون منازع، ويساندة فى مواجهة جميع خصومه وأعدائه، وأن يمدّه بالعون والحماية، فجنح ابن جحاف الى التفاهم، وأخذ يفكر فى الأمر، ويبدو أنه استطلع رأى أهل بلنسية الذين أثروا التفاهم والصلح، وتنفرد المصادر الاسبانية بذكر بنود الاتفاق وهى : أن تغادر القوة المرابطية بلنسية فى أمان، وأن يعرض ابن جحاف السيد عن ثمن مؤنه التى كانت بمخازن بلنسية وقت مقتل القادر، وأن يؤدى أهل بلنسية الجزية السابق تقريرها أمام القادر، ومقدارها ألف دينار أسبوعياً من وقت أن بدأت الثورة، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد القمبيطور، وأن يرتد الجيش القشتالى الى جباله ويقيم فيها ومعه السيد القمبيطور^(٥٧).

(٥٧) أنظر Primera cronica general. apud, Menendez Pidal La Espana del cid. p. 449.

ويبدو أن ابن جحاف قد اضطر تحت ضغط الظروف الخارجية والداخلية الى الموافقة بحذر على ما جاء في بنود هذا الاتفاق أملا في كسب الوقت حتى يتدبر أمره لاسيما وأن السيد القمبيطور كان قد أحكم الحصار حول مدينة بلنسية من جهة الشمال، فاستولى عنوة على ربض منية ابن عبد العزيز (Villa Nueva) شمال شرق بلنسية في ربيع ٤٧٦م (١٠٩٣م) وربض الكدية في شمالها.

وإذا سلمنا بما جاء بهذا الاتفاق، فأننا نرى أن ابن جحاف كان مضطرا الى الاذعان مؤقتا لطلبات السيد القمبيطور، فقد كانت الظروف الخارجية والداخلية في غير صالح بلده، فمن جهة نجد أن السيد القمبيطور استطاع أن يحكم الحصار على شمالي بلنسية، فضلا عن يأس ابن جحاف من إرسال المرابطين لمدد جديد وما ترتب على ذلك من انقسام أهل بلنسية واختلافهم وتسرب مشاعر اليأس والقنوط الى نفوسهم، وربما أثر ابن جحاف الموافقة على هذا الاتفاق أملا في إتاحة الفرصة له لإعادة السكينة والهدوء الى المدينة وطمعا في مساندة ايجابية من جانب المرابطين.

وبمقتضى هذا الاتفاق خرج المرابطون من المدينة بسلام، وانسحب السيد القمبيطور من ربض ابن عبد العزيز والكديه ورابط بقواته في جباله^(٥٨).

ولكى يوفى ابن جحاف بتعهداته المالية تجاه السيد القمبيطور فرض على القرى والقلاع التابعة لبلنسية ضريبة مقدارها عشر مواردهم المالية، كما أعاد تنظيم ضريبة خراج الأرض مع معاونيه الأوفياء : نائبه وجايب الخراج والكتاب والخراس (مفتشى الزراعة) لتقييم الفواكه والمحاصيل الزراعية، ولحسن الحظ كان ذلك في شهر يوليو ١٠٩٣م / ربيع الأول ٤٨٦هـ وهي فترة الحصاد^(٥٩).

ولقد عمل ابن جحاف على تنفيذ ما تعهدت به بلنسية من شروط قبل السيد القمبيطور لكن الاخير لم يوف بتعهداته، بل استغل فرصة خروج المرابطين

(58) Pidal : op, cit., pp. 449-450.

(59) Ibid, p. 450.

والخراس هم الذين يقدرّون المحصول المنتظر أثناء الزرع أو بعد الحصاد، انظر: ابن عبدون (محمد ابن أحمد التجيبي) رسالة في القضاء والحسبه، نشرها ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبه والمحتسب، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٥، ليفي بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها عامي ١٩٤٧/١٩٤٨، ترجمها الى العربية محمد عبد الهادي شعيره وراجعها عبد الحميد العبادي، المطبعة الأميرية، ١٩٥١، ٨٢٢-٨٩٣

من المدينة، ونقبض عهوده، كعادته، فأرهب أحواز المدينة بغاراته المتكررة، أملا في أن يعجز ابن جحاف عن سداد التراماته المالية قبله، وفي نفس الوقت اشتد على أهل بلنسية بمطالبه المالية التي لا تنتهى فضاخوا بكل ذلك «واستصرخوا أمير المسلمين يوسف وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم، فجد في أمرهم وأمر قواده وعماله على بلاد الاندلس بنصرهم» (٦٠).

وبالفعل تحركت قوات المرابطين بقيادة أبي بكر اللمتوني تجاه شرق الاندلس ووصلت الى مدينة شاطبه، وكان السيد القمبيطور على علم بهدف هذه الحملة، فأفصح عن أطماعه في فرض سيطرته على المدينة، وأرسل الى ابن جحاف يطلب النزول مع بعض أتباعه في قصر وحدائق ربض منية ابن عبد العزيز، فوافق ابن جحاف على طلبه مضطرا، ولم يلبث السيد القمبيطور أن استولى على الربض كله (٦١).

وقد استغل بنو واجب-أولياء المرابطين آنذاك- هذا التصرف من جانب ابن جحاف، وأخذوا يؤلبون عليه أهل بلنسية، ورغم محاولات ابن جحاف لتبرير موقفه والقول بأن اقامة السيد القمبيطور في ربض منية ابن عبد العزيز موقوته، فإن بنى واجب الذين كانوا على علم بمقدم المرابطين نجحوا في إثارة الناس ضده فتمردوا عليه وخلعوا رئاسته في سنة ٤٨٦هـ (نوفمبر ١٠٩٣م)، وأسندوا رئاسة الجماعة الى أبي الحسن بن واجب صاحب الاحكام ببلنسية (٦٢).

وفي الوقت الذي وصلت فيه الأنباء باقتراب قوات المرابطين من بلنسية واستبشر أهلها «بنصرهم والانتقام من عدوهم، واستنشقوا ريح الحياة» (٦٣)، انقلبوا على السيد القمبيطور وأخلوا بتعهداتهم معه مثلما فعل، فأقدموا على اغلاق أبواب بلنسية في وجهه، وأخذوا أهبتهم للدفاع عنها، فلم يستغرب القمبيطور هذا التصرف من أهل بلنسية، لاسيما وقد وصلته الأخبار بقدم قوات المرابطين لنجدة المدينة، فأعد عدته لمواجهةهم، وتقدم بقواته جنوبا، واستولى على ربض ريوسا

(٦٠) ابن عذارى : المصدر السابق، ح ٤، ص ٣٣

(61) Chronicle, pp. 148-149 : Pidal : op cit, pp. 456-458.

(٦٢) رواية ابن علقمة في، مؤنس : المرجع السابق، ص ٦٣، وأنظر أيضا :

Pidal : op.cit., p. 459.

(٦٣) ابن عذارى : المصدر السابق، ح ٤، ص ٣٣.

(Rayossa) بجنوب بلنسية، وأخذ فى قطع جسور المياه فأغرقت الاراضى السهلة المحيطة بها، وكان السيد القمبيطور يرمى بهذا الى إرغام المرابطين على اتخاذ طريق ضيق متعدد الشعب للوصول اليه^(٦٤) فضلا عن أنه قسم قواته الى فرقتين «وأمر كل فرقة فلزمت مصافها»^(٦٥).

غير أن القائد المرابطى أبا بكر ابراهيم اللمتونى لم يلبث أن ارتد بقواته وهو على مشارف بلنسية وعاد أدراجه نحو مرسية، معللا بعد ذلك تصرفه هذا بقلة الأزواد، وبهطول الامطار وتدافع السيول مما عاق جيشه عن التقدم^(٦٦). ولو أننا نرى أن ما أقدم عليه السيد القمبيطور من تعزيز المنطقة الجنوبية للمدينة، وأغراقها بالمياه بعد قطع الجسور كان سببا فى تصعيب مهمة المرابطين، وربما أدرك القائد المرابطى بخبرته العسكرية صعوبة التقدم ففضل العودة، وترك الوضع مؤقتا على ما هو عليه، خوفا من هزيمة قد تلحق بالمرابطين تطمس انتصارهم الساحق فى الزلاقة (Zagrajos) قبل ذلك بسبع سنوات (٤٧٩هـ/١٠٨٦م).

ولما وصل النبأ الى أهل بلنسية وتحقق انسحاب المرابطين وتخليهم عن نصره بلنسية، خيم اليأس على أهل المدينة، وتبددت آمالهم فى النجاة «فبهت أهل المدينة وسقط فى أيديهم، ويثسوا من الحياة»^(٦٧).

وكان من الطبيعى بعد أن تخلى المرابطون عن انقاذ مدينة بلنسية أن يزداد طمع السيد القمبيطور فى ملكها «فلزمها ملازمة الغريم، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم، ينتسف أقواتها، ويقتل حمايتها، ويسبق اليها كل أمنية، ويطلع عليها من كل ثنية»^(٦٨). ومنع الناس من الدخول الى المدينة أو الخروج منها، لا سيما سكان القرى التابعة لها، فاذا أظهر بعضهم مقاومة استبعد أهله وولده، ولهذا لم يقدم أحد

(٦٤) الطاهر أحمد مكى : ملحمة السيد، ترجمة وتقديم، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة،

١٩٧٠، ص ١٢٨، وأنظر أيضا :

Pidal : op. cit., p. 460 : Huici Miranda (A) : Las Luchas del Cid Campeador con Los Almoravides. Hesperis, vol. VI. Fasc unique 1965, p.81.

(٦٥) ابن عذارى، ج ٤، ص ٣٣.

(٦٦) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٦١.

(٦٧) ابن عذارى، ج ٤، ص ٣٣.

(٦٨) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص ٩٧.

على التحرك أو التجول^(٦٩)، وازداد شعور الناس باليأس وخارت عزائمهم، وأنحوا باللائمة على بنى واجب الموالين للمرابطين ونسبوا اليهم ما أصابهم من محن ونكبات، وأدركوا حكمة ابن جحاف رئيس الجماعة السابق في تدبير الأمور ومصانعة العدو المصاقب لهم، فتطلعوا الى زعامته مرة أخرى، وأيقنوا أنهم تسرعوا في سحب ثقتهم منه، فاشتراط عليهم الطاعة فتعهدوا له بذلك، ثم بايعوه برئاسة الجماعة مرة أخرى في سنة ٤٨٧ هـ (أوائل ١٠٩٤ م) (٧٠).

رأى ابن جحاف أن يعاود سياسة الإدارة مع السيد القمبيطور، فعرض على أعيان المدينة أمر تخليصها من الحصار القاسى المفروض عليها لقاء اناوة كبيرة يدفعونها للقمبيطور، فاعترض على ذلك نفر من أعيان المدينة ممن كانوا لا يزالون يؤملون في نجدة المرابطين، وفي مقدمتهم بنو واجب ورئيسهم أبو الحسن بن واجب صاحب الاحكام في بلنسية فعزله ابن جحاف عن الاحكام، وكان ابن جحاف يأمل في موافقة السيد القمبيطور على طلبه لاسيما وأنه لم يكن في مركز السلطة عندما أخل أهل بلنسية بالشروط السابقة، وسارت الرسل بينهما، غير أن القمبيطور اشترط هذه المرة اخراج بنى واجب من البلد قبل البدء في التفاوض، ويبدو أن هذا الشرط قدلقى ترحيبا من جانب ابن جحاف الذى رأى أن يجردهم من سلطانهم ونفوذهم ويتخلص من مناوئتهم له، فسير أحد قواده ويدعى التاكرنى على رأس قوة من الفرسان والمشاة ليلا الى دار بنى واجب فاعتقلهم، ثم سلمهم للقمبيطور ورجاله فقتلوه^(٧١).

وعندما علم السيد القمبيطور أن أهل بلنسية قد وافقوا على شروطه أيقن من ضعفهم فاشتد في مطالبه، وطلب الى ابن جحاف ان يسلم كل موارد المدينة، بل طلب منه أن يقدم له ابنه رهينة، عندئذ رفض ابن جحاف وأغلق أبواب المدينة دونه، وكتب يستصرخ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين «على بعد داره، وتراخى قراره، فتارة يسمعه ويحركه. وتارة ينقطع دونه ولا يدركه، وقد كان أمير المسلمين

(٦٩) ابن عذارى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٣،

(70) Pidal : op. cit., pp. 468-469

(71) Primera Cronica general, apud.

حسين مؤنس : المرجع السابق، ص ٦٤.

بموضع، ومن رأيه الجميل بمرأى ومسمع، ولكن أبطأ به عن نصره تنائي
الدار» (٧٢).

كما بعث ابن جحاف يستنجد بأحمد بن يوسف بن هود المستعين
(٤٧٨-٥٠٣هـ/١٠٨٥-١١١٠م) أمير سرقسطه، فأرسل اليه يعده خيرا،
وكتب ابن جحاف كذلك الى القونسو السادس ملك قشتاله فبعث اليه يعده العون،
وصمم ابن جحاف على المقاومة والصمود مؤثرا الموت على التسليم.

وفي نفس الوقت، ضرب السيد القمبيطور حصارا شديدا على المدينة، وعاث
كعاداته في الانحاء المجاورة، ولم يأل جهدا في منع الاقوات عن بلنسية خوفا من أن
تصمد له حتى يدهمه المرابطون، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهرا،
«فعدمت الاقوات بالجملة، وهلك الناس، ولم يبق من ذلك الجم الا نزر يسير،
وتولى اليبس واستحكم الوباء، وبينما الرجل يمشى سقط ميتا» (٧٣). حتى بلغ
الضيق بأهالي بلنسية منتهاه، وفتك بهم الجوع أيما وفتك «وبلغ الجهد بأهلها
والامتحان أن أحلوا محرم الحيوان» (٧٤).

ولما بلغ الأمر الى هذا الحد، ويئسوا من نجدة المرابطين، وتحققوا من مراوغة
المستعين بن هود لهم بالتسويق والمطل، اجتمع الناس بالفقيه أبي الوليد الوقشي
لينوب عنهم في مخاطبة ابن جحاف في تسليم المدينة وعقد الصلح مع السيد
القمبيطور، وعندئذ اجتمع أعيان المدينة، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة
القمبيطور في التسليم وعقد الصلح، فأذعن لرغبتهم وترك لهم المفاوضة، فذهب
وفد منهم لمفاوضة السيد القمبيطور، وتم الاتفاق على أن يبعث أهل بلنسية
رسلهم الى المستعين بن هود أمير سرقسطه وابن عائشة قائد المرابطين بمرسيه في
طلب النجدة، وذلك في مدة خمسة عشر يوما وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك
بالاشراف على المدينة، وأن تسلم الابواب ليحتلها الروم المحليون. فاذا لم يحضر أحد
للنجدة في خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية :

«أن يبقى ابن جحاف قاضيا للمدينة وحاكما لها، وأن يؤمن في نفسه وماله
وأهله، وأن يؤمن أهل بلنسية في أنفسهم وأموالهم، وأن يتولى مندوب السيد

(٧٢) ابن بسام : المصدر السابق، ص ٩٨.

(٧٣) ابن عذارى : المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٩.

(٧٤) ابن بسام : المصدر السابق، ص ٩٧.

القمبيطور الاشراف على تحصيل الضرائب، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين، وأن يربط السيد القمبيطور بجيشه في جباله وألا يغير شيئا من شرائع المدينة وأحكامها» (٧٥).

سافر رسل المدينة فعلا في طلب النجدة، ولكن مضت المهلة المتفق عليها دون أن يعود أحد منهم، وفي صباح اليوم التالي لانتهاء المهلة الموافق ٢٨ جمادى الاولى سنة ٤٨٧هـ (١٥ يونيو ١٠٩٤م) خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المدينة ووقعوا عهدا بتسليمها، والامان لسكانها في أنفسهم وأموالهم، وتعهد ابن جحاف ان يسلم السيد القمبيطور سائر أموال القادر (٧٦).

دخل السيد القمبيطور بالنسية مع جنده، وما لبث رجاله ان احتلوا أبواب وأبراج المدينة خلافا لشروط المعاهدة، ونزل السيد القمبيطور بالقصر، ثم جمع أعيان المدينة وألقى فيهم خطايا، وعد فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل، وأن يستمع لظلاماتهم مرتين أسبوعيا، وأن يحميهم، وأن يرد لكل ذى حق حقه الى غير ذلك من الوعود الإخلاقية، ثم عرج على ابن جحاف فاتهمه بالتعدى والظلم وسلب أموال رعيته دون وجه حق وعليه أن يرد الاموال التى اغتصبها من أصحابها، ثم ختم خطابه بقوله «ولا أريد دخول بلدكم ولا المقام فيها، وانما سأخذ لى عند القنطرة منزلا أقيم فيه اذا مست بى الضرورة الى المقام» (٧٧).

والواقع أن تصرفات السيد القمبيطور جاءت مخالفة لما ذكره في خطابه، فلم يستمع الى تدمير أو ظلامات أحد، واحتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها، وتسلم من ابن جحاف أموال القادر وذخائره وأبقاه فى منصبه قاضيا للمدينة، لكنه أخذ يضيق عليه السؤال عما اذا كان قد بقى لديه شئ من ذخائر القادر، بل طلب اليه حلف اليمين أمام أعيان الشهود من المسلمين والنصارى، فأقسم ابن جحاف بأنه لم يخف شيئا وليس لديه شئ منها، عندئذ أنذره القمبيطور بأنه أن وجد لديه شيئا من هذه الذخائر، فسوف يستبيح دمه، شهد هذا العهد أعيان الملتين

(٧٥) انظر، ابن عذارى : المصدر السابق، ج٤، ص٣٩، نفس المصدر، ح٣، ص٣٠٥-٣٠٦

Chronicle, p. 172; Pidal : op.cit., p.482;

محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص٢٤٤.

(٧٦) ابن عذارى : المصدر السابق، ح٣، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٧٧) حسين مؤنس : المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

(المسلمون والنصارى)، يقول ابن بسام : « كان رذريق لأول دخوله قد سأل عنها، واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها، فأقسم بالله جهد إيمانه، غافلا عما فى الغيب من بلائه وامتحانه، وجعل رذريق بينه وبين القاضى المذكور عهدا أحضره الطائفتين وأشهد عليه أعلام الملتين أن هو انتهى بعد اليها، وعثر عنده عليها، ليستحلن اخفار ذمه، وسفك دمه» (٧٨).

بيد أن السيد القمبيطور لم يلبث أن عثر بعد ذلك بقليل على مخبأ الحلى والذخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيرا بمحنة ابن جحاف، ولا شك أن الصلابة التى أبدأها الأخير وعناده أمام محاولات السيد القمبيطور المتكررة للاستيلاء على المدينة، ومعارضته الاستسلام مرارا له، كانت السبب المباشر لمحنة ابن جحاف إذ رأى السيد القمبيطور التخلص منه بمهاره، فأرغمه على القسم أولا وأشهد عليه أهل الملتين، ثم أنذره بنهاية مؤلة تمهيدا للخلاص منه، فدبر له هذه المكيدة، ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن بسام فى هذا الشأن بقوله : «لعلها كانت منه (أى من السيد القمبيطور) حيلة أدارها، وداهية من دواهيها سداها وأنارها» (٧٩).

وهكذا نجح السيد القمبيطور فى الايقاع بابن جحاف، فأمر على الفور بالقبض عليه وعلى أفراد أسرته، وعذبه عذابا شديدا، يقول ابن عذارى ان السيد القمبيطور سأل أهل بلنسية (ما جزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم فصمتوا، فقال : أما نحن فجزاؤه عندنا الاحراق» (٨٠)، ثم أمر باعدامه حرقا، ويصف ابن علقمه المؤرخ المعاصر ذلك فيقول : «فجمع له حطب كثير، وحفرت له حفرة وأقيم فيها، وأصير الحطب حوله، وأوقدت فيه النار، فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه» (٨١). ثم قام السيد القمبيطور يومئذ «بتحريق زوجته وبناته، فكلمه فيهن بعض ظغائنه، فبعد لأى ما لفته عن رأيه، ويتخليصهن من يدي نكرائه، وأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيرة نارا، وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا» (٨٢).

(٧٨) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الأول ص ٩٨.

(٧٩) نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ٩٨-٩٩.

(٨٠) ابن عذارى : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥١.

(٨١) من، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٦.

(٨٢) ابن بسام : المصدر السابق، ص ٩٩.

تلك هي شخصية القاضي جعفر بن جحاف الذي استطاع بعلمه وفقهه أن يؤثر في شعب بلنسية، فالتقوا حوله، لتحقيق آمالهم في الانتقام من أميرهم القادر بالله يحيى بن ذى النون الذي اشترى حماية النصارى وأذل شعبه ثم بايعوه رئيسا للجماعة، فتحمل مسئوليته كاملة، وواجه ظروفًا صعبة، ورغم ذلك تصدى لمقاومة النصارى بقيادة السيد القمبيطور الذي أربى شعب شرق الاندلس بغاراته المتكررة، واستطاع ابن جحاف أن يصمد أكثر من ثلاث سنوات، استعمل فيها كل أساليب الدهاء والمراوغة فأثبت حنكته وخبرته السياسية في إدارة دفة الأمور بلنسية، وليس كما يذكر ابن بسام أنه «دفع في أمور سلطانية لم يتقدم قبل في غوامض حقائقها، وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقتها، ولا بالدخول في ضنك مآزقها، ولم يعلم أن تدير الأقاليم غير تلقين الخصوم، وأن عقد ألوية البنود، غير الترجيح بين العقود، وانتحال الشهود»^(٨٣)، واضطر مرغما بعد أن تخلى المرابطون وأمير سرقسطه عن نصرته من جهة، وضغط أهل بلنسية عليه من جهة أخرى إلى تسليم المدينة للسيد للقمبيطور الذي لم ينس له موقفه العنيد، ففسخ مؤامرة دبرها بذكاء ومهارة ونكب ابن جحاف، الذي أصبح بعد موته رمز البطولة والفداء ليس لمسلمي بلنسية فقط بل لكل مسلمي الاندلس، وكان على حد قول مؤرخ السيد القمبيطور المستشرق الأسباني منندث بيدال أشد خطرا على القمبيطور مما كان في حياته، وجاء استشهاد حافزا على إثارة مشاعر المسلمين واستنهاض هممهم ضده^(٨٤).

ثانيا : ثورة القاضي محمد بن عباد في اشبيلية (٤١٤ - ٤٣٣ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٤٢ م)

هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم ابن عمرو بن عطاف بن نعيم^(٨٥). وجدهم عطاف ينتسب إلى قبيلة لخم العربية، وكان يقيم بحمص الشام^(٨٦) وهو الداخل إلى الاندلس في طالعة بلج بن بشر

(٨٣) نفس المصدر، ص ٩٦ - ٩٧.

(84) Pidal : op. cit., p. 518.

(٨٥) ابن بسام: الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ١٤، ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٣٤، ابن حزم: جمهرة انساب العرب، ص ٤٢٤، ابن عذاري البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩٤-١٩٥، ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ١٥٢.

(٨٦) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحة، ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٣٤، ابن عذاري: نفس المصدر والجزء، ص ١٩٥.

القشيري عام ١٢٤هـ/٧٤٣م، بعد هزيمة العرب من البربر في موقعة بقدورة بالمغرب، واضطرار عبد الملك بن قطن والي الاندلس آنذاك-الذي فشل في مواجهة ثورات بربر الاندلس التي اجتاحت البلاد الى السماح لبلج بن بشر وجنده بالعبور الى الاندلس، فتم له ذلك، وقضوا على ثورات بربر الاندلس، غير أن بلجا وجنده سرعان ما انقلبوا على والي الاندلس، وتحول الصراع الى صراع بين العصبتين العربيتين المضرية واليمنية وقتل كل من عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر، وتولى أبو الخطار بن ضرار الكلبي ولاية الاندلس، فعمل على تهدئة جذوة الصراع بين البلديين والشاميين، وقدم على أبعاد جند بلج بن بشر الشاميين عن قرطبة، ووزعهم على كور الاندلس ليقضي على عوامل الاضطراب والفتنة^(٨٧).

ويهمنا هنا ما كان من أمر انزال عطاف جد بني عباد، وهو من أهل حمص بالشام في كورة اشبيلية، فيستفاد من رواية ابن حيان أنه نزل بقرية يوحين من إقليم طشانه Tocina بكورة اشبيلية Sevilla، وأقام بها، ومن نسله جاء بنو عباد، الذين أقاما بها مدة من الزمان، ثم أقام بعضهم بمدينة أشبيلية^(٨٨).

ويبدو أن أسرة بني عباد قد نعمت في عهد أبي الوليد اسماعيل بن عباد بنفوذ كبير في كورة اشبيلية، فيذكر أنه مؤسس مجدهم، لما كان يمتلكه من الضياع والأراضي التي بلغت مساحتها ثلث كورة اشبيلية^(٨٩)، فضلا عن أن اسماعيل بن عباد كان حسن المعرفة بقطع الشعر، صالح النظر في الفقه عالما، كاتباً، حليماً، أدبياً، حسيباً^(٩٠)، مما أهله لكي يحظى بمكانة كبيرة في ظل الخلافة الاموية بالاندلس، فتقلد بعض الوظائف الهامة في اشبيلية، لاسيما في عصر الخليفة الحكم المستنصر بالله وابنه هشام المؤيد بالله، وقد حفظ له الحاجب

(٨٧) عن ثورات البربر في المغرب والاندلس، أنظر :

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس، ص ١٥-١٦، مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في فتح الاندلس، تحقيق ابراهيم الايباري، دار الكتب الاسلامية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٦-٤٠، ٤٢-٤٥، ابن عذارى : البيان المغرب : ط، ص ٥٤-٥٦، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس، ص ١٥٣-١٦٣.

(٨٨) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ١٤. ابن عذارى : البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٥، ابن الابار : الحالة السراء، ج ٢، ص ٩٥، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ١٥٢.

(٨٩) ابن عذارى : البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٥، النباهي : المرقبة العليا، ص ٩٤.

(٩٠) النباهي : المرقبة العليا، ص ٩٤.

المنصور محمد بن أبي عامر مكانته، فقربه اليه وجعله من جملة رجاله ووضع ثقته فيه، يدل على ذلك ما ذكره ابن حيان من أن اسماعيل بن عباد كان مشغولا لهم (أي للعامريين) بالأمور العظيمة^(٩١)، فولاه الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر خطة القضاء في اشبيلية، وظل في منصبه حتى تولى حجابة الاندلس المظفر عبد الملك بن عامر فصرفه عن القضاء بايعاز من ابن ذكوان قاضي القضاة وصاحب الصلاة بقرطبة، وعهد بها الى عمر بن الباجي الذي ظل يتولاها، ما يقرب من عام، غير أن هذا الأخير لم يوفق في خطة القضاء، مما اضطر الحاجب المظفر عبد الملك الى ردها الى اسماعيل بن عباد مرة أخرى^(٩٢).

ولما اضطرت الفتنة في الاندلس عقب مصرع عبد الرحمن شنجول بن المنصور بن أبي عامر في آخر جمادى الثانية عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، وما ترتب على ذلك من انهيار الخلافة الأموية، وتفكك الوحدة السياسية في الاندلس، وبروز البربر وتدخلهم في تعيين الخلفاء وعزلهم والتعصب لخليفة ضد آخر، وانتشار الفوضى، واحتدام الصراع بين الحموديين والمروانيين للمظفر بالخلافة، كل هذا شجع بعض رؤساء الاندلس وقادتها على اعلان انفصالهم عن السلطة المركزية بقرطبة التي فقدت هيبتها وتراخت قبضتها على كور الاندلس في ذلك الوقت^(٩٣).

في ظل هذه الأوضاع، استطاع القاضي اسماعيل بن عباد بما امتاز به من دهاء، وما عرف عنه من حزم ومضاء عزيمة أن يستغل ظروف الفتنة التي تمر بها الاندلس لصالحه على أكمل وجه، فقد عمل على الاستحواذ على السلطة في كورة اشبيلية شيئا فشيئا، مستندا على مكانة أسرته من ناحية وعلو منزلته هو شخصيا، وثرائه العريض من ناحية أخرى، ومكنه ذلك من استمالة كبار الشخصيات في اشبيلية الى جانبه، فضلا عن أنه أقدم على عمل جليل أسبغ عليه شكل الرئاسة بترحيبه بمختلف الجاليات العربية الفارة من قرطبة عند احتدام الفتنة فيها، وايوائهم في اشبيلية فأغدق عليهم من فيض ثرائه ومن ماله وغلاته، فأقام على خطة القضاء والأمانة باشبيلية^(٩٤)، حتى أن ابن حيان المؤرخ المعاصر وصفه بأنه

(٩١) نفس المصدر والصفحة

(٩٢) النباهي : المرقبة العليا، ص ٩٤.

(٩٣) محمد أحمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية الاندلسية في العصر الاسلامي، الهيئة العامة للكتاب،

الاسكندرية، ١٩٨١، ص ٨٣-٨٤.

(٩٤) ابن عذاري : البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩٤.

«رجل الغرب ٠ أي غرب الاندلس) قاطبة، المتصل الرئاسة في الجماعة والفتنة ...
أوى صفوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة»^(٩٥).

وهكذا مهد القاضي اسماعيل بن عباد لأسرته الاستحواذ على السلطة في
كورة اشبيلية بفضل علمه ودهائه وثرائه وبعد نظره، ولما أيقن من تحقيق هدفه،
وكانت قد أثقلت السنون، وكف بصره أو كاد، أسند القضاء إلى ابنه أبي القاسم
محمد، واقتصر هو على رئاسة اشبيلية وتولى رأى المشيخة^(٩٦)، إلى أن توفي عام
٤١٠ هـ / ١٠١٩ م^(٩٧).

وكانت اشبيلية تتبع بنى حمود وأميرهم حينئذ القاسم بن حمود^(٩٨)، وذلك
منذ بويغ بالخلافة على بن حمود في قرطبة في ٢٣ محرم عام
٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م، وتلقب بالناصر لدين الله^(٩٩)، غير أنه حالي خزيه البربري
وفضل البربر على أهل قرطبة فتحول هؤلاء عنه، ثم وثبوا عليه فقتلوه في غرة ذي
القعدة عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م^(١٠٠)، فخلفه أخوه القاسم بن حمود الذي تلقب
بالمأمون. وما لبث القاسم بن حمود هذا أن أسند للقاضي اسماعيل بن عباد رئاسة
اشبيلية التي ظل يتولاها إلى أن توفي عام ٤١٠ هـ كما سبق أن، بينا، فخلفه ابنه
أبو القاسم محمد بموافقة الخليفة القاسم بن حمود، يقول ابن حيان «وكان
القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه اسماعيل»^(١٠١).

غير أن القاضي ابا القاسم بن عباد هذا لم يتعم برئاسة اشبيلية، اذ ما لبثت
الامور أن اضطربت في قرطبة واضطر خليفته القاسم بن حمود إلى الفرار منها
على اثر خروج ابن أخيه يحيى بن على بن حمود عليه، فلبث إلى اشبيلية، بينما
صفت الامور في قرطبة لابن أخيه يحيى بن على فبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة

(٩٥) في، ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ١٤-١٥.

(٩٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ١٥٢.

(٩٧) ابن بشكول : الصلة، القسم الأول، ص ١٠٢، النباهي : المرقبة العليا، ص ٩٤.

(٩٨) المقرئ : نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٤٨٤.

(٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب، ح ٣، ص ١١٩-١٢٠.

(١٠٠) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء، ص ١٢٢، ١٨٨، ابن الخطيب : أعمال الاعلام،
ص ١٥١.

(١٠١) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ١٥.

فى أول جمادى الأول عام ٤١٢هـ/١٠٢١م، وتلقب بالمستعلى^(١٠٢). يقول ابن حزم (خليفة تسان تصالحا وهو أمر لم يسمع بأذل منه ولا أدل على ادبار الامور- يحيى بن على بن حمود بقرطبة والقاسم بن حمود باشبيلية)^(١٠٣). وفى زحمة هذه الاحداث ضاعت رئاسة اشبيلية من القاضى ابن عباد.

لكن رئاسة اشبيلية ما لبثت أن عادت الى القاضى أبى القاسم محمد بن عباد حين اضطربت الاحوال مرة ثانية فى قرطبة، وخلع البربر يحيى بن حمود فى ذى القعدة عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م، واستدعوا عمه القاسم من اشبيلية وجددوا له البيعة وفريحي الى مالقة. وعلى الرغم من أن القاسم بن حمود كان قد ترك ابنه محمدا على رئاسة اشبيلية فان القاضى أبا القاسم محمد بن عباد يادر بالتحرك لاستعادة الرئاسة فى المدينة وأزعجه كثيرا تعاقب الحموديين على ملك اشبيلية، فدبر أمره أهل الحل والعقد فى المدينة، واتفق الجميع على التخلص من سيطرة بنى حمود وحلفائهم البربر، واسناد الرئاسة الى القاضى أبى القاسم محمد بن عباد^(١٠٤).

ثم ما لبثت الظروف أن خدمت القاضى أبا القاسم محمد بن عباد فى تحقيق هدفه بالثورة فى اشبيلية وطرح طاعة القاسم بن حمود، ذلك أن أهل قرطبة سرعان ما ثاروا على القاسم بن حمود وخلعوه فى ٢١ جمادى الآخرة عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م، وحاصروه فى قصره أياما حتى أرغموه هو وحماته البربر على مغادرة رضى قرطبة الغربى، ثم أغلقوا دونه أبواب المدينة على مدى خمسين يوما، واضطروا فى النهاية الى فتح الأبواب ومقاتلة البربر قتال الموت حتى هزموهم هزيمة شنعاء^(١٠٥).

فلما يئس القاسم بن حمود من استعادة قرطبة فر هو وأصحابه تجاه اشبيلية وأرسل الى ابنه الذى كان يقيم بها يطلب إخلاء ألف وخمسمائة دار من دور اشبيلية لوجوه البربر. فلما بلغ ذلك أهل المدينة، عز عليهم، وأجمعوا على تفويض ثلاثة من أعيان المدينة هم : القاضى أبو القاسم محمد بن عباد وأبو عبد الملك

(١٠٢) ابن عذارى : البيان المغرب، ح-٣، ص ١٣١.

(١٠٣) فى، ابن عذارى : البيان المغرب، ح-٣، ص ١٣٢-١٣٣.

(١٠٤) العذرى : ترصيع الاخبار، ص ١٠٦، المقرئ : فيح الطيب، ح-١، ص ٤٣١-٤٣٢.

(١٠٥) ابن عذارى : البيان المغرب، ح-٣، ص ١٣٣-١٣٤، المقرئ : نفس المصدر والجزء، ص

محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، والوزير أبو محمد عبد الله بن يريم الإلهاني في حكم المدينة وضبط شئونها، فكانوا يحكمون في النهار في القصر، وتنفذ الكتب بأختامهم الثلاثة ومع ذلك فقد كان القاضي ابن عباد بمركزه ووفرة ثرائه، ووجاهته أقواهم سلطانا وأعلامهم يدا، فأجمعوا على إضعاف سلطة البربر في المدينة وخلع سلطان القاسم بن حمود، وإغلاق أبواب مدينتهم في وجهه هو وجنده البربر، ولما أدركوا عدم مقدرتهم على ذلك تصالحوا معه على مال معلوم يؤدونه إليه، شريطة أن ينصرف عنهم، وعلى أن تكون له الخطبة والدعوة، وأن يقدم عليهم قائدا من قواده يجمعهم ويفصل بينهم فقبل منهم، وقدم عليهم القاضي محمد بن عباد، وكتب له عليهم كتاب الامراء وذلك في شعبان عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م^(١٠٦). وبعد أن تم هذا الاتفاق سارعوا بإخراج ابن القاسم ابن حمود محمد والحسين من قصر اشبيلية ومن كان معهما من البربر^(١٠٧).

ثم تلاحقت الأحداث في صالح القاضي ابن عباد وواتته الفرصة للإنفراد بحكم اشبيلية ذلك أن القاسم بن حمود كان قد سار إلى شريش (Jerez) واستولى عليها، غير أن ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود لم يتركه يهناً بها فزحف إليه في شريش واستولى على المدينة، وقبض على عمه، وحمله معه مقيدا إلى مالقه، كانت هذه هي الفرصة المواتية لأبي القاسم محمد بن عباد لنقض الصلح والانفراد بحكم اشبيلية، فلم يتردد في انتهازها، فدانت له المدينة وانفرد بحكمها.

ومن الأهمية بمكان هنا أن نشير إلى أن الأندلس كان يتنازعها في ذلك الوقت حزبان أخذتا يتطلعان إلى بلوغ الزعامة السياسية فيها : الحزب القومي الأندلسي، وكان يتزعمه بنو عباد في اشبيلية، ويضم إلى جانب الأسرات العربية، البربر البلديين والمولدين والضغالب، وكان هدفه إقامة عصبية أندلسية خالصة. وأما الحزب الآخر فهو الحزب البربري الذي يتزعمه بنو حمود في مالقه^(١٠٨).

وقد اندرج تحت راية الحزب القومي الأندلسي بنو صمادح في المرية

(١٠٦) ابن عذاري : البيان المغرب، ج٣، ص٣١٤-٣١٥.

(١٠٧) ابن عذاري : البيان المغرب : ج٢، ص٣١٤-٣١٥، النباهي : المرقبة العليا، ص٩٤، ابن الأبار : الحلة ج٢ ص٣٧.

(108) Seco de Lucena (Luis) : Los Hammudies Senores de Malaga Y Algeciras. Malaga. 1955. p. 11.

(Almeria)، وسعيد بن رفييل صاحب شقوره (Segura)، وابن ابي قره صاحب رنده (Ronda)، وابن البرز الى صاحب قرمونه (Carmona)، وابن نوح صاحب مورو (Moron)، وابن خزرون صاحب أركش (Arcos)^(١٠٩).

وكان بنو عباد وعلى رأسهم ذو الوزارتين أبو القاسم محمد قد حملوا راية مقاومة الحزب البربري، وعملوا على توطيد سلطانهم في اشبيلية، بل تطلعوا الى التوسع لاسيما في ناحية غرب الاندلس، وفي سبيل تحقيق ذلك عمدوا الى شراء العبيد، وحشد الرجال، واقتناء السلاح، وإلى ممارسة سياسة تقوم على الإدارة والخديعة^(١١٠).

وقد أتت القاضي أبا القاسم محمد بن عباد الفرصة لتحقيق أطماعه ناحية غرب الاندلس، فانتهاز قيام ثورة محلية في قصبة باجه بين أهلها من العرب والمولدين تنافسا على السلطة فتطلع الى بسط نفوذه عليها، في الوقت الذي طمع فيها ايضا ابن مسلمة المعروف بابن الافطس صاحب بطليوس (Badajoz)، وأخذ كل واحد منهما يعد عدته للاستيلاء على باجه، فابن عباد استظهر بحليفه أبي عبد الله محمد بن عبد الله صاحب قرمونه فأمدّه بقوة من الجند انضافت الى قوات اشبيلية بقيادة اسماعيل بن محمد بن عباد وسارت الحملة الى باجه، بينما سارع عبد الله بن الافطس صاحب بطليموس بانفاذ حملة بقيادة ابنه المظفر، وكان أن نجحت هذه الحملة في أن تضع يدها على قصبة باجه، ولعل سر نجاح حملة ابن الافطس في ذلك انما يرجع الى قرب باجه من حاضرتة بطليوس ولأنها أكثر اتصالا بامارته من امارة ابن عباد، في الوقت الذي وصلت فيه قوات اشبيلية متأخرة بقيادة اسماعيل بن عباد فاضطر الى مهاجمة المدينة وحاصر بها قوات ابن الافطس، وعاشت خيله ناحية يابره (Evora)، والغرب فأحرقت الزروع وخربت الديار، وبالرغم من نجدة ابن طيفور صاحب ميرتله Mertola للمظفر بن الافطس فانه لقي هزيمة بشعة من قوات ابن عباد، التي مزقت جيشه شر ممزق، وأسرت معظم جنده، وأرسلهم الى اشبيلية، وكان في حملتهم أخ لابن طيفور صلب بها، كما أسر المظفر بن الافطس نفسه وسيق الى قرمونه حيث اعتقل لدى ابن

(١٠٩) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٩-٢٢٠.

(١١٠) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء، ص ١٩٦. وأنظر أيضا :

Seco de Lucena : op. cit., p. 12.

البرزالي^(١١١)، حتى أطلق سراحه في ربيع الأول عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م، «فنفذ إلى أبيه يومئذ يبطليوس وقد هذبتة محنته، وتمت أدواته وقويت حنكته، وكان رجلا معقلا أدبيا عالما، فرجع الى مقاومة ابن عباد»^(١١٢).

ويعزو ابن حيان المؤرخ المعاصر : سبب هذه الفتنة الى عبد الله البرزالي صاحب قرمونه، «فيصفه بقطب رحي الفتنة». وأنه كثيرا ما كان يحرض القاضي ابن عباد على الخروج الى امارة ابن الافطس وإلى قرطبة، بغرض «طمس رسم الخلافة من معانها بقرطبة وتصييرها أسوة اشبيلية في اسنادها الى رئيس من أهلها... ابطالا للامامة ورسوخا في الخارجية»^(١١٣).

ويبدو أن ابن لافطس كان قد عقد العزم على الانتقام من القاضي ابن عباد، والأخذ بثأره منه للهزيمة الشنعاء التي لقيها ولده المظفر على يد قوات ابن عباد واعتقال المظفر فترة لدى البرزالي بقرمونه، ويذكر ابن حيان أن القاضي ابن عباد كان قد عزم في عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م على ارسال حملة بقيادة ابنه اسماعيل للجهاد في أرض العدو بجليقية، وأنه اتفق مع ابن الافطس على السماح بمرور الحملة في أرضه «وابن الافطس مضمر الغدر به»، فأعد عدته وجمع رجال ثغره وكنن لقوات ابن عباد يترصدها في ممر ضيق على طريق عودتها، وهجم عليها ومزق جندها، فلم يجد اسماعيل مخرجا الا البادرة بالتسليم، «وكانت حادثة شنيعة بقيت بها عن عداوتها الى آخر وقتها»^(١١٤)، وتمكن اسماعيل في النهاية من الفرار في فل من جنده الى مدينة أشبونه (Lisbonne)، وتحصن بها فترة.

أما عن علاقة القاضي أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ببني حمود في مالقه فقد كان هؤلاء هم زعماء الحزب البربري المنافسين له وعلى رأسهم يحيى بن علي بن حمود الملقب بالمستعلي الذي أقام في مالقه بعد فراره من قرطبة، وجعلها مقر ملكه، وبسط سلطانه على معظم قواعد الاندلس الغربية الجنوبية، والذي رأى في القاضي ابن عباد منافسا خطيرا له، ولهذا رأى القاضي أبو القاسم محمد بن عباد ضرورة تعزيز مركزه لا سيما وهو على رأس الطائفة الاندلسية، واعطائه الصفة الشرعية، فسعى الى تنصيب خليفة الى جواره، يستمد

(١١١) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ١٩-٢٠.

(١١٢) نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ٢١.

(١١٣) في، ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد، ص ٢٠-٢١١.

(١١٤) ابن عذاري : البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٠٣.

منه السلطان، فجاء بشخص فقير يشبه هشاما المؤيد يسمى «خلف الحصري» كان يشتغل في الحلفاء باحدى قرى اشبيلية وبايعه بالخلافة في عام ٤٢٧هـ/١٠٣٥م^(١١٥)، حجه عن أعين الناس، وأرسل كتبه في مبايعة هذا الخليفة الى عدد كبير من ملوك الطوائف منهم بنو المنصورين ابن عامر أصحاب بلنسية، وابن جهور صاحب قرطبة، ومجاهد العامري صاحب دانية، ولبيب صاحب طرطوشة عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م. ولم يتخلف عن مبايعته من الصقالبة العامريين سوى زهير صاحب المرية الذي رفض أن يعترف به خليفة في اشبيلية^(١١٦)، كذلك شارك باديس بن حبوس صاحب غرناطة زهيرا في عدم مبايعة هشام المؤيد باشبيلية، وعندما علم الأخير-أى زهير-بعزم القاضي ابن عباد على محاربته واقدامه على ارسال جيش لمعاقبته أسرع بالالتجاء الى باديس بن حبوس وعقد تحالفا معه، وبفضل هذا التحالف اضطر القاضي ابن عباد الى العودة بعسكره الى اشبيلية «ولم يكن بين المعسكرين قتال»^(١١٧).

ولاشك أن هذا التصرف من جانب القاضي ابن عباد قد أغضب يحيى بن على بن حمود لاسيما بعد تحالف القاضي ابن عباد مع ابن البرزالي صاحب قرمونه، لذلك سار يحيى بن على بن حمود في قواته الى قرمونة وانتزعها من يد ابن البرزالي الذي استغاث بالقاضي ابن عباد، فبعث هذا بقوة عسكرية بقيادة ابنه اسماعيل، ودارت المعركة بين الطرفين ولقى فيها يحيى بن على مصرعه، واستردت قرمونه وأعيدت الى صاحبها ابن البرزالي في المحرم عام ٤٢٧هـ/١٠٣٦م^(١١٨).

ولم يلبث القاضي ابن عباد ان كشف عن اطماعه تجاه قرمونة حصن اشبيلية الأمنع، وأدرك أن وجودها بيد ابن البرزالي لا يحقق مآربه وخصوصا بعد أن ظهر طمع بني حمود في ضمها الى أملاكهم، ومن ثم تغير القاضي ابن عباد ضد

(١١٥) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ١٧-١٨، أن عذارى : البيان المغرب، ح ٣، ١٩٩-٢٠٠-، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ١٥٤.

(١١٦) ابن عذارى : البيان المغرب، ح ٣، ص ١٩٠، ابن الاثير : الكامل، ح ٧، ص ٢٩١.

(١١٧) ابن لاثير : الكامل، ح ٧، ص ٢٩١، وأنظر أيضا :

Dozy (R) : Historire des musulmans D'Espagne, t.10. Leyde, 1932, p. 17.

(١١٨) ابن عذارى : البيان المغرب، ح ٣، ص ١٤٤، وأنظر ايضا :

Seco de Lucena : op. cit., pp. 29-30.

حليفه القديم وكشف عن أطماعه، فلم يرع حلفاء أو جوارا في سبيل توسيع أملاكه. فسير ابنه اسماعيل في قوة من جنده فضلا عما أجابه من قبائل البربر الى قرمونة فحاصرها، ثم أرسل بعض سراياه فاستولت على أشونة (Osuna) واستجه (Ecija) من أملاك ابن البرزالي، عندئذ استغاث ابن البرزالي بالبربر فأسرع كل من أدريس بن علي بن حمود بمالقه وباديس بن حبوس صاحب غرناطة إلى نجدة، ودارت معارك شديدة انتهت بانتصار قوات ابن البرزالي وحليفه الذين استطاعوا أن يخرقوا أراضي اشبيلية حتى قلعة جابر (Alcala de Guadaire) حصنها من الشرق، وهزيمة قوات ابن عباد، ومقتل قائدهم اسماعيل بن محمد بن عباد واسترداد قرمونه وذلك في أوائل المحرم عام ٤٣١هـ/أواخر ١٠٣٩م (١١٩).

وكان لتلك الهزيمة أسوأ الأثر في نفس القاضي أبي القاسم محمد بن عباد، فأسند الى ولده الثاني عباد تدبير شئون دولته، وقيادة الجيش، فأبدى قوة وحزما، ولبث نحو عامين مضطلعا بمهمته، حتى توفي القاضي أبو القاسم محمد بن عباد في نهاية جمادى الأولى عام ٤٣٣هـ/يناير ١٠٤٢م (١٢٠).

تلك هي شخصية القاضي أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد الثائر باشبيلية ضد سلطان البربر المتمثل في شخصية القاسم بن حمود الذي بويع بالخلافة في قرطبة مرتين وتلقب بالمأمون، فخلفه القاضي أبو القاسم محمد بن عباد على اشبيلية ووطد سلطان بني عباد فيها، فعلا مركزهم وأصبحوا يمثلون الحزب القومي الاندلسي الذي كان يهدف الى انشاء دولة أندلسية خالصة ضد الوجود البربري الذي تركز بعد ذلك في امارة مالقة على يد الحموديين، ولقد سلك القاضي أبو القاسم محمد بن عباد مختلف الطرق لتحقيق أهدافه لا سيما وأنه أتى بشبيه لهشام المؤيد ونصبه خليفة في اشبيلية وبايعه وحذا حذوه مختلف امارات الأندلس ولم يبايعه الا امارات قليلة، ما صبغ وضع بني عباد بصبغة شرعية، ولعل هذا يذكرنا بصراع العصبية العربية المتمثلة في بني عباد، فنعمت امارة اشبيلية في ظل هذه الأسرة بمركز متميز بين امارات الأندلس، وكانت لهم الكلمة العليا في عصر الطوائف الى أن دخلت امارة اشبيلية في حوزة المرابطين عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م.

(١١٩) الحميدى : جذوة المقتبس، ص ٣٠-٣١.

(١٢٠) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٢٣، ابن الأبار : الحلة السيرة، ج ٢،

ثالثا : ثورة القاضي حمدين بن محمد فى قرطبة

(٥٣٩-٥٤٠هـ/١١٤٥-١١٤٦م)؟

هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى، من بيت من أقدم البيوتات العربية، دخل جدهم الاندلس فى طاعة بلج بن بشر عام ١٢٤هـ/٧٤١م ونزل مع جند دمشق فى كورة البيرة (غرناطة)، واستقر فى باغه (Pego) من عملها^(١٢١)، ثم تحولت أسرته بعد ذلك للإقامة فى الحاضرة قرطبة، وحظيت فيها بمكانة سامية، فاشتهرت بالعلم والنباهة والفضل والجلالة، وتداولت المناصب الهامة، يذكر ابن بشكوال أن جده عليا كان مشاورا فى الاحكام بقرطبة، ولأن له مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة يسمع الناس فيه^(١٢٢). وتولى والده أبو عبد الله محمد خطة القضاء بقرطبة، وكان من أهل الفن والعلم^(١٢٣)، وبلغ منزلة كبيرة فى عهد الأمير على بن يوسف بن تاشفين المرابطى، حتى أن الأمير كان لا يقطع فى أمر من الأمور الا برأيه، كما أن أخاه أبا القاسم أحمد كان متوليا لاحكام القضاء بقرطبة، وشارك فقهاء الاندلس فى ذلك الوقت فى انكار الكثير من المسائل التى وردت فى كتاب «الاحياء» للإمام الغزالى والتى زعموا أنها مخالفة للدين، بل أن أبا القاسم أحمد كان من أشدهم مبالغة فى ذلك حتى أنه قال «بتكفير» من قرأ كتاب «الاحياء» بل اشترك مع فقهاء قرطبة فى رفع الامر الى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب الاحياء واحرقه فأخذ على بن يوسف برأيهم^(١٢٤).

فى هذه البيئة العلمية نشأ وتربى أبو جعفر حمدين، فسمع عن أبيه وعلماء

(١٢١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٢، المقرئ : نفح الطيب، ج ١، ص ٢٣٧.

(١٢٢) ابن بشكوال : الصلة، القسم الثانى، ص ٤٢٠ (ترجمة ٩٠٠).

(١٢٣) نفس المصدر والقسم، ص ٥٧٠ (ترجمة ١٢٥٤).

(١٢٤) ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد الكتامى) : جزء من كتاب نظم الجمان، تحقيق

الدكتور محمود على مكى، المطبعة المهدية، تطوان ١٩٦٤، ص ١٤-١٥، ابن عذارى :

المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٩، السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصاء

لاخبار دول المغرب الاقصى، ج ١، القاهرة، ١٨٩٤، ص ١٢٩، ليفى يروفتسال : الاسلام

فى المغرب والاندلس، ص ٢٥٤-٢٥٣.

الاندلس في عصره العلوم الدينية، ونال اجازة، فأكسبته أسرته وبيئته العلمية الى جانب المعارف المختلفة، الحكمة والشهامة وحرية إبداء الرأي، وقد برزت هذه الخصال فيما بعد في سيرته. ففي شعبان عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م تولى أبو جعفر حمدين خطة القضاء في قرطبة عقب استشهاد القاضي أبي عبد الله محمد بن الحاج بخمسة أشهر^(١٢٥)، وظل يشغلها حتى صرف عنها عام ٥٣٢هـ، وتولى مكانه أبو القاسم أحمد بن رشد نحو عامين، ثم أعفاه أمير المسلمين علي بن يوسف من منصبه دون أن يعين خلفا له، ويرجع السبب في ذلك الى أن العامة في قرطبة ثاروا ضد المرابطين، واستطالت ايديهم عليهم لضعف قاضي قرطبة آنذاك أبي القاسم أحمد بن رشد مما اضطرا ابا جعفر حمدين الى الخروج إلى الثوار، وتمكن بوافر حكمته وشهامته من تسكين ثورتهم ضد المرابطين، غير أن الأمير علي بن يوسف لم يعين في قرطبة خلفا لقاضيها الذي أعفاه سخطا منه على أهلها، فكان من نتيجة ذلك أن تعطلت الأحكام بقرطبة لأكثر من عام^(١٢٦). ثم أذن الأمير علي ابن يوسف لأهلها أن يختاروا لهم قاضيا، فأجمعوا على اختيار أبي جعفر حمدين، فتولى القضاء للمرة الثانية في عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م، واستمر في منصبه حتى عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م^(١٢٧).

وهكذا تولى أبو جعفر حمدين القضاء في قرطبة باختيار أهلها، بينما كان على ولايتها من قبل المرابطين يحيى بن غانية منذ عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م مضافا اليه الاشراف على شئون الاندلس وقيادة جيوش المرابطين به^(١٢٨).

غير أن سلطان المرابطين في الاندلس لم يلبث أن يضعف، بسبب ظهور شأن الموحدين في المغرب وانتصاراتهم المتلاحقة على المرابطين مما أدى الى انهيار سلطانتهم في المغرب ولا سيما منذ عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، فشجع من جديد على بروز فكرة العصبية الاندلسية التي ساعدت على ظهور روح الثورة في الاندلس، تلك الروح التي كانت قد خمدت فترة نتيجة للانتصارات الكبرى التي حققها المرابطون في الاندلس على الجيوش النصرانية من موقعة إقليش (Ucles)

(١٢٥) ابن القطان : نظم الجمان، ص ٢١٧، النباهي : المرقبة، ص ١٠٣-١٠٤.

(١٢٦) ابن القطان : المصدر السابق، ص ٢٣٢، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٣.

(١٢٧) ابن الخطيب : نفس المصدر، ص ٢٥٣، النباهي : المرقبة، ص ١٠٣.

(128) Gaspar Remiro : Murcia musulmana. p. 160 : Huici Miranda (A) : Historia musulmana de valencia I. III. p. 102.

٥٠١هـ / ١١٠٧م حتى موقعة إفراغه (Fraga) ٥٢٨هـ / ١١٢٣م، لكن بريق هذه الانتصارات المرابطية في نظر أهل الأندلس لم يلبث أن خبا، وحل محله اقتناع أندلسي بأن هذه الانتصارات لم تسفر إلا عن سيطرة مرابطية على الأندلس، وجاء ذلك صدمة كبيرة لأهل الأندلس عبروا عنها بمقاومة المرابطين خلال فترات حكمهم وذلك بالثورة تلو الأخرى مثلما حدث في ثورتى قرطبة عام ٥١٥هـ / ١١٢١م، ٥٣٤هـ / ١١٣٩م، إلى أن لاحت الفرصة المناسبة للثورة على المرابطين في منطقة غرب الأندلس عندما قام أبو القاسم أحمد بن الحسن بن قسي بثورته في منطقة شلب (silves) والتي سرعان ما انتشرت في ميرتلة (Mertola) ولبله (Niebla) وشملت أعمال غرب الأندلس بأسره، وسمى موالى ابن قسي بطائفة المريدن في رمضان عام ٥٣٩هـ، وهو نفس العام الذي لاحت فيه بوادر نجاح الموحدين في القضاء على دولة المرابطين والذي تمثل في مصرع أميرهم تاشفين بن علي في وهران في عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م (١٢٩).

ولنا أن نساءل، هل امتدت حقا شرارة هذه الثورة إلى قرطبة، وهل كان لابن قسي موالون وأنصار في قرطبة فجروا ثورتها، أم أن قاضي قرطبة أبا جعفر حمدين كان يتوق لتخليص بلده من سلطان المرابطين، وتحقيق أمل كل أندلسي في الاستقلال؟

وواقع الأمر أنه كان لابن قسي بعض الموالين له في ربض قرطبة الشرقي أمثال أبي الحسن بن مؤمن وغيره (١٣٠)، ولعل أخبار ثورة ابن قسي في غرب الأندلس وانشغال القائد المرابطي يحيى بن غانية بالخروج إليه في قواته لاحتها، قد اتاحت الفرصة للقاضي أبي جعفر حمدين للتخلص من غيرهم، والأحداث تؤيد ذلك. فما كاذ ابن غانية يغادر قرطبة في قواته، حتى ثار أبو جعفر حمدين والعامّة في قرطبة على أبي عمر اللمتوني نائب ابن غانية على قرطبة فخلعوه، وطرحوا الولاء للمرابطين، وأقروا القاضي أبا جعفر حمدين رئيسا عليهم (١٣١).

(١٢٩) ابن الخطيب : أعمال الاغلام، ص ٢٤٨، ص ٢٥٠، وعن مصرع تاشفين ابن علي، انظر :

ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم

الثالث، تحقيق الأستاذ أويشي ميراندا وآخرون : تطوان، ١٩٦٠، ص ١٦٦-١٧.

(١٣٠) ابن الأبار : الحلة السيرة، ح ٢، ص ٢٠٦.

(١٣١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٣، وأنظر أيضا :

Huici Miranda : op. cit., t. III. P. 102.

أما تاريخ قيام أبي جعفر حمدين بثورته في قرطبة فمختلف فيه، فالمصادر العربية تحددته بيوم ٥ رمضان عام ٥٣٩هـ / مارس ١١٤٥م^(١٣٢). في حين تحددته الحوليات الطليطلية *Anales Toledanos* بتاريخين في شهر رجب عام ٥٣٩هـ ٢٨ ديسمبر ١١٤٢م إلى ٢٦ يناير ١١٤٥م، والخامس من رمضان عام ٥٣٩هـ مارس ١١٤٥م^(١٣٣)، وهذا يعني أن القاضي أبا جعفر حمدين قد بوع مرتين في قرطبة، المرة الأولى في شهر رجب ٥٣٩هـ وهو ما لم تذكره المصادر العربية، وفيها أقام أبو جعفر حمدين فترة إلى أن اتصل بعض اعيان قرطبة بأحمد بن عبد الملك ابن هود الملقب بسيف الدولة والمعروف في المدونات المسيحية بسفادولا Zafadola وتوسموا فيه خير ممثل للزعامة الاندلسية، فاستدعوه ليتولى إمارة قرطبة، فلبى سيف الدولة دعوتهم، وجاء إلى قرطبة، ودخلها بممالاتهم، فبادر القاضي أبو جعفر حمدين إلى الفرار من قرطبة ولجأ إلى حصن فرنجولش (Hornachuelos) أحد حصون قرطبة واحتوى فيه، غير أن سيف الدولة بن هود لم يلبث طويلا في قرطبة، فسرعان ما ثار شعبها المتقلب على رياسته واقتحموا قصر قرطبة وقتلوا وزيره ابن شماخ، فلما علم سيف الدولة ابن هود بما جرى فر عنها بعد اثني عشر يوما من دخولها^(١٣٤).

وفي نفس الوقت كان ابن قسي قد سمع بقيام أبي جعفر حمدين بثورته في قرطبة، فطمع في ضمها إليه، فأمر أبا الوليد محمد بن عمر بن المنذر ومحمد بن يحيى المعروف بابن القابلة كاتب ابن قسي وصاحبه بالمسير في قواته إلى قرطبة ليحاول دخولها وأرسل إلى نفر من أنصاره كأبي الحسن بن مؤمن وغيره ليعملوا على بث دعوته، وترغيب أهلها في قبول هذه الدعوة تمهيدا لدخول قواته، بيد أن أبا الوليد محمد بن عمر بن المنذر ومحمد بن يحيى ما كادا يقتربان من قرطبة حتى فوجئتا بوجود سيف الدولة بن هود بها وفرار أبي جعفر حمدين، فأيقنا

(١٣٢) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص ٢٥٣.

Los Anales Toledanos, apud. Codera (Francisco).

(133) Decadencia Y desaparicién Almoravides en Espana. 1899. pp. 56. 293-295.

(١٣٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٣، وأنظر أيضا : ابن البار : الحلة، القسم الثاني، ص ٢٥١.

Codera : Ibid, pp. 57, 295-297,

Gáspar Remiro : op. cit., pp. 169-170.

بفشل مهمتهما، وعادا أدراجهما الى غرب الاندلس^(١٣٥).

أما عن صدى ثورة القاضي أبي جعفر حمدين في قرطبة ضد ابن غانية والى المرابطين، فيذكر المؤرخون أن ابن غانية ما كاد يسمع بما حدث في قرطبة حتى عاد من لبله الى اشبيلية، ولكنه اضطر الى الخروج منها ازاء ثورة أهلها والالتجاء هو وقواته الى حصن مرجانه القريب^(١٣٦).

أما القاضي أبو جعفر حمدين فلم يكذ يعلم بثورة قرطبة ضد سيف الدولة بن هود وفرار هذا منها، حتى عمل مسرعا على العودة الى قرطبة مرة ثانية، فترك حصن فرنجولش ومنه الى قرطبة في الخامس من رمضان عام ٥٣٩هـ، فبايعه الخاصة والعامة، واستقر بقصر الخلافة وتسمى بأمر المسلمين وناصر الدين في قول^(١٣٧)، وأمير المسلمين المنصور بالله في قول آخر^(١٣٨). وعمل على إعادة الاستقرار الى قرطبة، فدون الدواوين، وجند الاجناد، كما بعث الى بعض زملائه القضاء الثوار في بعض قواعد الاندلس الاخرى يطلب منهم الاعتراف برياسته، فاستجاب لدعوته واعترف بها أبو جعفر عبد الرحمن بن جعفر بن ابراهيم المعروف بأبي محمد ابن الحاج اللورقي أياما من شهرى رمضان وشوال عام ٥٣٩هـ / ١١٤م^(١٣٩). وأبو الحسن على بن عمر بن عمر أضحى الهمداني في غرناطة^(١٤٠)، وأبو الغمر السائب بن عزون صاحب شريش وأركش^(١٤١).

وهكذا اعتلى القاضي أبو جعفر حمدين رئاسة قرطبة وظل بها أحد عشر شهرا، ينظم أمورها، ويعمل على توسيع منطقة نفوذه ليس في قرطبة فحسب بل

(١٣٥) ابن الأبار : الحلة، ج٢، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(١٣٦) نفس المصدر والجزء، ص ٢٠٦.

(١٣٧) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٣.

(١٣٨) الضبي : بنى الملتصق، ص ٢٧٦ (ترجمة ٦٨٥)، ص ٤٢، وهذا ما تؤكد قطع العملة التي عثر عليها ومنقوش عليها «المنصور بالله أمير المسلمين حمدين بن محمد»، راجع :

Antonio Vivesy Escudero : Monedas de las dinastias Arabigo-Espanoles, Madrid, 1893, N, 1906 y 1908.

Codera : op. cit., pp. 57-58, 389-390.

(١٣٩) ابن الأبار : الحلة، ج٢، ص ٢٢٧.

(١٤٠) نفس المصدر والجزء، صفحات ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.

(١٤١) نفس المصدر والجزء، ص ٢٤٢، ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٢٣٤.

فى بعض قواعد الاندلس الاخرى، فيستفاد من رواية ابن الابار أن أهل مرسية بايعوا أبا جعفر عبد الرحمن بن جعفر بن ابراهيم المعروف بأبى محمد بن الحاج اللورقى، الذى دعا لآبى جعفر حمدىن أياما من شهرى رمضان وشوال عام ٥٣٩هـ، ثم لم يلبث ان تبرم بالامارة ورغب فى التخلّى عن منصبه بسبب ما تعرض له من المتاعب^(١٤٢). عندئذ بعث ابن حمدىن كما يذكر ابن صاحب الصلاة الى مرسية عبد الله الثغرى ليلى أمورها من قبله، فقدم الفقيه أبا جعفر بن أبى جعفر قاضيا وذلك فى منتصف شوال عام ٥٣٩هـ فظهر من أبى جعفر حب الظهور والتعلق بالرياسة، وحشد الناس لقتال المرابطين فى أوريوله وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم، وضم أوريوله الى عمله ثم عرض على أهل مرسية ان يقدموه للامارة، وان يقدم للقضاء أبا العباس بن الخلال ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى، فوافقوه^(١٤٣). ولما عقدت له البيعة نبذ طاعة ابن حمدىن ودعا لنفسه، وتلقب بالأمير الناصر لدين الله^(١٤٤).

كما قام القاضى أبو جعفر حمدىن باغاثة أبى الحسن بن أضحى فى غرناطة ضد قوات المرابطين فأرسل اليه بعض قواته بقيادة ابن أخيه على بن أبى القاسم المعروف بابن أم العماد، ولما علم باستنجد أهل غناطة بسيف الدولة بن هود وتأييد ابن أضحى لهم، انصرف ابن أم العماد خائبا الى قرطبة^(١٤٥).

غير أن فريقا من أهل قرطبة الناقمين على رياسته كتبوا سرا لابن غانية يحرضونه على القدوم عليهم، واستعادة سلطانه على المدينة، فوجد طلبهم لديه استجابة خاصة بعد مقاومة أهل اشبيلية له، ورأى فى ذلك فرصة سانحة لمحاولة إعادة سلطان المرابطين على قرطبة، فخرج من اشبيلية فى قواته قاصدا قرطبة فى جمادى الآخرة ٥٤٠هـ / ١١٥٤م، ولما علم القاضى أبو جعفر حمدىن بذلك خرج فى قواته للقاءه، فالتقيا بأحواز استجه Ecija جنوبى غربى قرطبه فى معركة عنيفة، أسفرت عن هزيمة أبى جعفر حمدىن، وفراره الى بطليوس Badajoz

(١٤٢) ابن الابار : الحلة، ج٢، ص٢٧٧، ٢٨٨.

(١٤٣) نفس المصدر والجزء، ص٢٢٩.

(١٤٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١٤٥) نفس المصدر والجزء، ص٢١٢.

ملتجئا بها في حماية صاحبها عبد الله بن الصميل^(١٤٦). ودخول ابن غانية قرطبة منتصرا في ١٢ شعبان عام ٥٤٠هـ / فبراير ١١٤٦م^(١٤٧).

والغريب ان المصادر العربية تلتزم الصمت ازاء الاسباب التي دفعت أهل قرطبة للتحويل عن القاضي أبي جعفر حمدين، والاستنجا بـابن غانية لاسترداد قرطبة، ولعل ذلك يرجع الى طبيعتهم الثائرة المتقلبة، فقد كان أهل قرطبة معروفين منذ أيام الامارة الأموية بالتقلب والولوع بالفتن والقلاقل، فهم الذين ثاروا على الأمير الأموي الحكم بن هشام في عامي ١٨٠، ٢٠٢هـ، وهم الذين حركوا الفتنة التي انتهت بزوال رسم الخلافة نهائيا من الاندلس، وهم الذين انقلبوا على بنى جهور وأيدوا المعتمد بن عباد، ثم انقلبوا عليه بعد ذلك، ورحبوا بابن ذي النون ثم اعلنوا من جديد ولاءهم للمعتمد بن عباد، ثم رحبوا بالمرابطين ثم تغيروا، وهللوا برئاسة أبي جعفر حمدين ثم انقلبوا عليه، وكتبوا لابن غانية المرابطي لحكم قرطبة مرة أخرى^(١٤٨).

وأيا ما كان الأمر، فان القاضي أبا جعفر حمدين لم يلبث أن غادر بطليوس، وتوجه في جمع من انصاره الى حصن أندوجر (Andojar) الواقع شرقي قرطبة وتحصن به، وتمكن في فترة قصيرة من أن يعيد فرض سلطانه على بعض البلاد المجاورة، عندئذ تحرك ابن غانية في قواته معترضا قتاله، فحاصره في أندوجر لمدة شهر، وأيقن أبو جعفر حمدين بخطورة الموقف فلم يتردد في طلب حماية النصاري، فأرسل الى الفونسو السابع ملك قشتالة يطلب منه المساعدة، ويطمعه في قرطبة، فلم يتردد في اجابته، وبعث اليه بقوة قشتالية أسند رياستها الى الدوق فرناندو خوانس Fernando Juanes تمكنت من ارغام ابن غانية على رفع حصاره عن حصن اندوجر، بل والانسحاب صوب قرطبة، وفي اثره قوات قشتالة وبصحبته أبو جعفر حمدين في قواته، فوصلوا الى احواز قرطبة وفرضوا عليها الحصار، في الوقت الذي قام فيه ابن غانية بتنظيم قواته، ومدافعه القشتاليين في صبر وجلد، ويبدو أن القوات القشتالية استطاعت اختراق المدينة من شرقها في العاشر من ذي الحجة عام

(١٤٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٣.

(١٤٧) نفس المصدر والصفحة، وأنظر أيضا :

Codera : op. cit., p. 59.

(١٤٨) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حضاره الخلافة الأموية، ١٥، ص ١٤٦.

٥٤٠هـ / مايو ١١٤٥م^(١٤٩)، بينما تحصن ابن غانية في غرب المدينة، وقد أحدث دخول القوات القشتالية المدينة قدرا كبيرا من الفوضى، فضلا عما أقدم عليه النصاري من استباحة المسجد الجامع بها، يقول ابن غالب الأندلسي: «ودخلت النصاري هذا الجامع المكرم عند دخولها قرطبة سنة أربعين وخمسمائه عندما هاجت الفتنة الثانية، ثم من الله تعالى بخروجهم بعد تسعة أيام أو نحوها، وحملت التفافيح التي كانت في المنار من الذهب والفضة، وحمل من المنبر نحو نصفه وبقي الباقي، ونهبت أوصاله وثريات الفضة عند دخولهم»^(١٥٠)، يؤكد ذلك ما ذكره المراكشي عن عبثهم في المسجد الجامع، وربط خيولهم في أروقه، بل واقامتهم قداسا حافلا، وتناولهم بأيديهم المصحف العثماني^(١٥١).

وفي هذا الوقت كانت قوات الموحدين قد نجحت في العبور الى الاندلس، واستولت على مدينة اشبيلية، فرأى ألفونسو السابع ملك قشتالة أن يهادن ابن غانية المرابطي وأن يتركه بقرطبة «وينصبه سدا في وجه القوم»، فعقد معه هدنة، خرج بمقتضاها ابن غانية من القصبة، على أن يسدد له ابن غانية مبلغا سنويا ويتنازل له عن بعض الحصون^(١٥٢).

وبهمنا هنا أمر أبي جعفر حمدين الذي يبدو أنه يئس من مناصرة النصاري له، فرجع معهم لكنه خرج الى حصن فرنجولش، وأقام به مدة يراقب الامور في الاندلس وغزو الموحدين له، فلما أدرك أن سلطانهم سيشمل الاندلس، واثته الفكرة للعبور الى المغرب لمقابلة الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن علي أسوة بمن سار الى لقائه من زعماء الثورة في الاندلس، فلقبه وهو على حصار مراكش في أوائل عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، فأحسن الخليفة استقباله^(١٥٣)، ثم عاد القاضي أبو

(١٤٩) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٢٥٣-٢٥٤، وأنظر أيضا: Codera:op. cit., p.60.

(١٥٠) ابن غالب الأندلسي (محمد بن أيوب): نص أندلسي جديد: قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٣.

(١٥١) المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشره الاستاذ محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، القاهرة، ١٩٤٩.

(١٥٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٢٥٤، وأنظر أيضا: Codera: op, cit., p. 62.

(١٥٣) ابن عذارى: البيان المغرب، القسم الثالث، ص ٢٣-٢٥، الزركشي (أبي عبد الله محمد بن ابراهيم): تاريخ الولتين الموحدية الحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦، ص ٨-٩، ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٢٥٤.

جعفر حمدين الى الاندلس ونزل بمدينة مالقة في كنف زميله وحليفه القاضي الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين بن حسون الثائر بها، لعله يستطيع أن يجند انصارا حوله لاستعادة مركزه مرة أخرى في قرطبة بمعاونة الموحدين، ويذكر ابن الخطيب أن عبد المؤمن بن علي أعطاه وعدا، لكن القاضي حمدين أخفق في مسعاه، ربما لأن الموحدين لم يوفوا بما تعهدوا به من مناصرتهم ومساعدته^(١٥٤)، فعاد الى مالقة وحرص قاضيه ابن حسون على مخالفة الموحدين، وأقام بها الى أن توفي في التاسع عشر من شهر رجب عام ٥٤٦هـ / نوفمبر ١١٥١م، ودفن بمسجدها الجامع^(١٥٥).

ولم ينس الموحدون للقاضي حمدين ما أقدم عليه من مساعدة ابن حسون الثائر بمالقة ضدهم، فبعد أن استولوا عليها، نبشوا لحد القاضي حمدين وصلبوه مع اثني عشر رجلا من مؤيديه^(١٥٦).

وخلاصة القول أن القاضي حمدين بن محمد بن حمدين قد عبر بثورته في قرطبة عن شعور أهلها المتمثل في بعث العصبية الاندلسية المناهضة للبربر للتخلص من سلطان المرابطين من ناحية، وعن تطلع ابن حمدين شخصيا للسيطرة، ليس فقط على الحاضرة قرطبة، بل على بعض قواعد الاندلس الأخرى. ومع أن القاضي حمدين نجح في تحقيق أهدافه من الثورة وفرض سيطرته على بعض الجهات، إلا أن الظروف لم تمكنه من الاستمرار، ربما لوجود زعامة اندلسية أخرى متمثلة في سيف الدولة بن هود الذي اعتبره فريق من الاندلسيين قائدا وزعيما فضلا عن ظهور دولة لموحدين وهي قوة جديدة ناشئة في المغرب أخذت ترنو ببصرها الى السيطرة على الاندلس. لذلك نلمس في شخصية القاضي حمدين في هذه الفترة تغيرا يتسم بالتقلب وغلبة عنصر السيطرة والتفرد، يدلنا على ذلك استخدامه شتى الوسائل لتحقيق بغيته حتى ولو بالتحالف مع نصارى قشتالة أعداء مسلمي الاندلس، وعندما لمس منهم تحولا عنه اتصل بالموحدين في المغرب لعله يجد عندهم ما فقداه عند القشتاليين، لكنه في النهاية فشل في كلتا المحاولتين، وانتهت حياته بعيدا عن موطنه وبغيته قرطبة.

(١٥٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٤.

(١٥٥) نفس المصدر والصفحة، وأنظر أيضا : Codera : op. cit., pp. 62-63.

(١٥٦) النباهي : المرقبة، ص ١٠٤، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، ص ٢٥٤.

ولكن على الرغم من ذلك، كان من أصداء ثورة القاضي حمدين في قرطبة أن قامت في نفس الوقت ثورات مماثلة: ففي غرناطة ثار قاضيها أبو الحسن علي بن عمر ابن أضحى، وفي مالقه انقلب قاضيها الحسين بن الحسين بن عبد الله ابن الحسين الكلبي بن حسون الى تزعم الثورة بها ضد المرابطين، أما في غرناطة فقد ثار أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، كما ثار القاضي يوسف بن عبد الرحمن ابن جزى في جيان وفي رنده قام بالثورة فيها أخيل بن أدريس الرندي، وثار ابن عزون في شريش واركش، وثار في ثغر قادس علي بن عيسى بن ميمون، وفي بطليوس ثار محمد بن علي الحجام.

* * *

كانت هذه صفحات من تاريخ بعض القضاة الثوار في الاندلس وأمثلة لرجال حاولوا تغيير الأوضاع السياسية والعسكرية في بعض ربوعها رافعين راية الثورة، متخذين الكفاح المسلح طريقا لتغيير تلك الأوضاع، اقتناعا وإيمانا بأن ذلك هو الأسلوب الأمثل لتحقيق أهدافهم وتصحيح أوضاع بلادهم التي بدت في نظرهم سيئة في فترة عدت من أشد فترات تاريخ الاندلس حرجا وأعظمها تفتتا وانقسامًا بعد أن ران على تلك البلاد ضعف واضمحلال، وسيطرت على مقدراتها نزعات فردية انفصالية، وطمعت فيها القوى المختلفة من نصرانية وإسلامية خارجية، وضربت الفوضى والانحلال بأطنابها في البلاد.

ولعل أهم ما يتبينه الباحث في هذه النماذج من ثورات القضاة في الاندلس أن هؤلاء الثوار القضاة جمعتهم سمات واحدة بارزة وربطت بين ثوراتهم صفات مشتركة على الرغم من اندلاع هذه الثورات في أماكن مختلفة ما بين بلنسية في شرق الاندلس وإشبيلية في غرب الاندلس وقرطبة في وسط الاندلس، ذلك أن هذه الثورات جاءت تعبيرا عن شعور متدفق بالعصبية الاندلسية في مواجهة التيارات الأخرى، والاتجاهات المناصرة للقوى الخارجية، حتى تبدو لنا كأنها ومضات مضيئة في سماء الاندلس الحالكة الظلمة في ذلك الوقت، كما تبدو كمحاولات يائسة لعودة الروح الى العصبية الاندلسية في بعض جهات الاندلس على الرغم من أن القائمين على تلك الثورات اضطروا أحيانا الى أن يسلكوا طرقا لا تستقيم مع هذا المعنى حين استنجدوا بالقوى المختلفة ومن بينها أحيانا قوى النصارى والقوى الإسلامية في المغرب، وإن أملوا أن يكون موقوتا يستعيدون بعده الزمام، ويهيمنون بعده على اقدار بلادهم، فجاء ذلك نقطة الضعف في تلك الثورات، إذ لم تستطع

أن تصمد أمام مطامع تلك القوى فضلا عن آمال الأحزاب المناهضة في بلادهم ذاتها والتي كانت تطمع في التشبث بمواقعها وتحاول الحفاظ على مكانها من السلطة.

كما يستطيع الباحث أن يرى سمة أخرى مشتركة بين هذه الثورات وبين القضاة الثوار الذين فجروا هذه الثورات، ذلك أنهم جميعا اتخذوا العلم والفقه والورع مدخلا الى قلوب الرعايا وضمائنا لحسن نواياهم ورغبتهم في مستقبل أفضل لبلادهم فكانوا جميعا قضاة عدل وفقهاء مميزين وعلماء متفردين إلتف حولهم الناس وأملوا فيهم الخير وتطلعوا الى حسن قيادتهم، على الرغم من أن بعض هؤلاء القضاة لم يكن همه إلا الوصول الى السلطة والتفرد بها، وفي سبيلها ركب كل صعب ومن أجلها استنصر القاصي والداني ولجأ الى مختلف الأحزاب والقوى، ولهذا وقعت هذه الثورات في المحذور ولم تستطع تجنب ما قامت من أجل القضاء عليه، لأنه يبدو أن القضاء وبلوغ مراتب العلم والفقه والزهد لم تكن تكفى لصنع الحاكم الناجح فليست هذه هي كل ما يحتاج اليه الحاكم والقائد، فدون ذلك كثير من الصفات كالحرصافة والحكمة والخبرة السياسية الى غير ذلك.

وثمة سمة أخرى مشتركة بين هذه الثورات، ذلك أن عمرها جاء قصيرا في تاريخ تلك البلاد التي اندلعت فيها فلم تزد في بعض الاحيان على بضع سنين بما لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولعل السبب في ذلك هو عدم وضوح الرؤية أمام القائمين على تلك الثورات من القضاة، وعدم وضوح الهدف الذي يمكن ان يتجهوا إليه وسط الانواء والعواصف السياسية التي عصفت بالبلاد حينئذ، ولهذا جاء أمر قيامها غريبا من ناحية، موقوتا بسنوات قليلة من ناحية أخرى إذ تكالبت عليها القوى الأخرى أحيانا بل ناءت في أحيان تحت وطأة الأوضاع الداخلية في تلك البلاد ذاتها، ذلك أن بعض هؤلاء القضاة قفزوا الى السلطة دون هدف واضح وهيمنوا على مصائر بلادهم دون خبرة أو إعداد أو أهلية للحكم والقيادة وأن ظنوا حينئذ أن مجرد إعادة تصحيح الأوضاع في البلاد هو أهم الأهداف، وان كان تصحيحها من وجهة نظرهم هم، وبعض من ناصرهم وأيدوهم في تلك الثورات، ومع ذلك لم يستطيع كل هذا ان يحفظ عليهم وضوح الرؤية فأفلت الزمام من أيديهم وخرجت الأمور عن مشيئتهم.

ولكن على الرغم من ذلك فإن ثمة نتيجة هامة يمكن أن يستبينها الباحث في هذه الثورات التي تقدم ذكرها، فضلا عن ثورات أخرى لم يتسع المقام لذكرها

وهي أن بعض هؤلاء القضاة الثوار ترك أثرا عميقا في البلاد التي رفع فيها راية الثورة والجهاد، ربما لم يكن هذا الأثر محسوسا في حياة ذلك القاضي الثائر وربما لم يكن واضحا خلال ثورته ولكنه لم يلبث أن ظهر جليا عميقا بعد رحيله أو مقتله أو اغتياله أو غيابه عن مسرح الأحداث، فلا شك أن جهوده وأهدافه وما خرج من أجله ما لبثت أن وضحت أمام الرعايا والناس فتركت آثارها العميقة في نفوسهم وحفزت هممهم وأثارت حميتهم في مواجهة الأعداء فغير ذلك كثيرا في أوضاع البلاد التي شهدت هذه الثورات، ولعل أصدق ما قيل في ذلك هو قول المستشرق الأسباني بيدال عن القاضي ابن جحاف الذي أعدمه السيد القمبيطور النصراني إن هذا القاضي أصبح بعد إعدامه وانتهاء ثورته أشد خطرا على النصارى في بلنسية مما كان في حياته وأن استشهاد حفر المسلمين وأثار مشاعرهم واستنهض هممهم للخلاص من النصارى ومن هيمنتهم على اقدار بلنسية.

بقيت سمة أخرى من سمات هذه الثورات قبل أن نطوى الحديث عنها، وهي أن بعض هذه الثورات وإن لم يوفق في الصمود والبقاء ورفع لواء العصبية الاندلسية في مواجهة التيارات الأخرى الطارئة إلا أنها كانت سببا في بزوغ هذه النزعات العصبية في مكان آخر، كما حدث في ثورة القاضي ابن عباد الثائر باشبيلية، الذي كانت ثورته مقدمة لبروز إمارة مالقة على يد الحموديين ممثلة للحزب البربري الاندلسي، نائية عن كل تيارات الأحزاب المناوئة غير الاندلسية، فقد أضفنا إلى ذلك أن بني عباد منحوا إمارة اشبيلية مكانة ممتازة بين إمارات الاندلس في عصر الطوائف ادركنا في يسر وسهولة كيف كان ذلك انتصارا للعصبية البربرية وانتصارا لها على ما عداها ليس في اشبيلية ذاتها وإنما في غيرها من الجهات، فاحتذت الثورة حذو الثورة الأخرى، ونهج قضاة المدن الصغرى نهج قضاة بلنسية واشبيلية وقرطبة، واندلعت الثورات في بلاد الاندلس لتصبح سمة بازة من سمات النصف الأول من القرن السادس الهجري في تلك البلاد.

البحث الرابع

أضواء على العلاقات الحفصية الأرخونية

٦٢٨ - ٦٨٤ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٨٥ م

تمهيد :

تعتبر ولاية الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص^(١) على افريقية تمهيدا لقيام دولة جديدة في تونس، رغم أن الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص لم يكن راغبا في تلك الولاية لولا إلحاح الخليفة الناصر الموحدى^(٢) عليه حتى يقبلها، فقبلها بشروط: أولها، أن يقيم الشيخ عبد الواحد واليا على افريقية ثلاث سنين ريثما تترتب الاحوال وتنقطع اطماع يحيى بن غانية عنها، وثانيها، أن يحكمه الناصر فيمن يقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وثالثها، أن الشيخ عبد الواحد إن فعل فعلا كائنا ما كان لا يسأل عنه ولا يعاقب، ورابعهما، أن لا يتعقب امره في ولاية ولا عزل^(٣). ولا يستبعد أن يكون إلحاح الناصر الموحدى على الشيخ عبد الواحد حتى يقبل ولاية افريقية دون بقية رجال الخلافة الموحدية - إستجابة لشيوخ الموحدين - كان مقصودا به إبعاد اقوى شخصية موحدية - بعد الخليفة - عن حاشية البلاط الموحدى حتى يخلو لها الجو، يؤيد ذلك ما أورده التجاني بقوله: «كأنهم أرادوا بعده عن الخلافة ليجدوا السبيل إلى اغراضهم»^(٤).

شرع الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص منذ بداية ولايته على افريقية في ترتيب أمورها وتدبير شؤونها دون أن يظهر عليه ما يدل على رغبة في الاستقلال أو شق عصا الطاعة في وجه الخلافة الموحدية حتى وفاته في غرة المحرم ٦١٨ هـ (١٢١١ م)، وخلفه ابته عبد الرحمن ابا زيد الذى بايعه شيوخ الموحدين في تونس واقسموا له يمين الولاء^(٥). وبعث إلى المستنصر فى مراکش يعلمه بما تم بشأنه فما كان من المستنصر إلا أن بعث بعزله عن الولاية بعد ثلاثة أشهر من توليها^(٦)، وطلب منه القدوم إلى مراکش مع إخوانه، وعين بدلا منه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذى ظل على ولاية افريقية حتى وفاته فى شهر شعبان عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م)^(٧). فعين المستنصر بدلا منه ابا يحيى بن أبى عمران إلا أن المستنصر قتل قبل أن يصل الوالى الجديد إلى إفريقيا، فتولى الخلافة بعده عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن المشهور بلقب الخلويع فأبطل ولاية ابن أبى عمران على إفريقيا وأبقى ابا زيد عبد الرحمن بن أبى العلاء إدريس عليها، فأساء السيرة فى الرعية «وبسط يده فى الناس بمكروهه، وتنكرت له الوجوه، وانحرف عنه الناس»^(٨)، واشرفت افريقية على موجه من الاضطرابات زادها تفاقم الاوضاع الداخلية فى الخلافة الموحدية مما كان له ابلغ الاثر على اوضاع افريقية مستقبلا، من ثوة والى مرسية أبى عبد الله محمد وإعلان نفسه خليفة وتلقبه بالعاذل^(٩)،

واقترح جماعة من الموحدين بلاط الخليفة أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن وأرغموه على خلع نفسه عن الخلافة ومبايعة العادل في شهر شعبان عام ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م)^(١٠). ولم يكن الخليفة العادل بأحسن حظا من سلفه المخلوع إذ كانت نهايته على أبشع صورة، فقد خرج عليه أخوه أبو العلاء ادريس في الاندلس مثلما فعل هو من قبل، واقترح البلاد الموحدية وقتل الخليفة العادل وتلقب بلقب الخليفة المأمون في شوال عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م)^(١١).

انعكست هذه الاحداث على ولاية افريقية خاصة في تعيين الولاة بها، فقد أقر الخليفة العادل تعيين أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المشهور بعبد الله عبودون مشورة أهل الحل والعقد. وكان أول ما فعله الوالي الجديد ان بعث إلى ابن عمه موسى بن ابراهيم الحفصى بأن يتولى عنه تدبير شؤون افريقية ريثما يرتب هو شؤونه مع البلاط الموحدى ويقدم الى افريقية^(١٢) وفعلا قدمها بعد ثمانية اشهر في السابع والعشرين من ذى القعدة عام ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) وكان في استقباله أخوه أبو زكريا يحيى ورفقته مختلف طبقات الناس، وتم التقاؤهم به في مدينة سطيف^(١٣)، ومنها توجهوا إلى تونس، وفيها قام عبد الله عبو بتعيين أخيه أبي زكريا على قابس وما والاها، وتعيين أخيه الآخر اسحاق على الواحات الغربية من بلاد الجريد.

غير أن الاوضاع ما لبث أن تغيرت في جوف الخلافة الموحدية ذاتها وظهر ثائر جديد هو أبو العلاء ادريس بن يعقوب بن يوسف عبد المؤمن بن علي الذي شق عصا الطاعة على أخيه العادل وهو بالاندلس وتلقب بلقب المأمون عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) وارسل يطلب من ولاته في الامصار والاقاليم أن يبايعوه، ومنهم عبد الله عبو فامتنع هذا عن مبايعته لان الخليفة المقتول كان ولي نعمته، فبعث الخليفة المأمون إلى أبي زكريا وإلى قابس يطلب منه المبايعة مقابل توليته على افريقية كلها، فقبل أبو زكريا يحيى وبايع الخليفة الجديد وبالتالي ناصب اخاه عبد الله عبو العداء^(١٤). وكان من الطبيعي أن يحدث صدام بين الاخوين، إذ سار أبو زكريا يحيى إلى مدينة تونس والتف حوله عامة الناس وأعيانهم بينما انفضوا من حول أخيه عبد الله عبو في القيروان وعاتبوه على مجابهة أخيه وعزلوه من ولاية افريقية، وبعثوا إلى أبي زكريا يعلمونه بذلك، فوصل إلى القيروان ودخلها في الرابع والعشرين من رجب عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م)^(١٥)، وأصبح أبو زكريا يحيى صاحب افريقية كلها.

لكن أبا زكريا لم يكن يرضى بمنصب الوالى التابع للخلافة الموحدية فقد كانت له آمال ومطامح فى بناء دولة حفصية مستقلة، وساعدته الظروف فى تحقيق مآربه فانتحل الاسباب للانفصال عن الخلافة الموحدية فى مراکش، ويفهم مما أورده العلامة ابن خلدون ان ابا زكريا يحيى استاء مما قام به المأمون الموحدى من قتل الموحدين بمراكش وخاصة من هنتاته وتينملل ومن بينهم أخوا المأمون أبو محمد عبد الله المخلوع وابراهيم، ومن طعن لعصمة المهدي، وتغيير لرسوم الدعوة الموحدية^(١٦). واقتصر ابو زكريا يحيى على الدعاء للمهدي والخلفاء الراشدين «وكان ذلك أول درجة فى الاستبداد»^(١٧).

وهكذا أعلن أبو زكريا يحيى الحفصى انفصاله عن الخلافة الموحدية، وهم باسترجاع حدود افريقية إلى ما كانت عليه فى عهد الدولة الصنهاجية الموحدة، فحاصر قسنطينة مدة حتى استسلمت له وقبض على واليها الموحدى ابن أبى عبد الله بن يعقوب المنصور، ثم اتجه إلى بجاية وقبض على واليها الموحدى أبى عمران شقيق والى قسنطينة السابق^(١٨)، واصطحب حفيدى يعقوب المنصور معه إلى تونس واسكنهما دارين جليلين بها وجعل لكل واحد منهما راتبا بالف دينار ذهباً^(١٩). وهذا السلوك ليس بمستغرب من أبى زكريا يحيى فى بداية تأسيس دولته فقد كان يعمل على «استجلاب منحة الناس بالمعاملة المشكورة والاحسان»^(٢٠).

استقرت الأمور فى الدولة الحفصية على عهد الامير أبى زكريا يحيى الحفصى لاسيما بعد أن خمدت نهائيا حركة الثائر يحيى بن غانية بوفاته شريدا فى بلاد الزاب عام ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م)^(٢١)، وأصبح الامير ابو زكريا يحيى متوليا على افريقية دون منازع. وفى عهده امتدت دولته من مدينة الجزائر غربا إلى ما وراء طرابلس شرقا. كما أصبح محط الانظار وعقد الآمال من الرؤساء المتنافسين المتنازعين فى كل من المغرب والاندلس، فبعثوا اليه بالبيعة والتبعية^(٢٢)، وطلبوا منه المعونة والنجدة ضد أعداء من الداخل والخارج على السواء.

هذا الوضع المتميز الجديد الذى عاشته الدولة الحفصية فى تونس واحتلالها هذه المكانة السياسية جعلنا نفكر فى دراسة جانب هام من جوانب علاقاتها السياسية مع القوى الاخرى. واخترنا فى هذه الصفحات مملكة أراغون لنتبع مراحل العلاقات السياسية الحفصية مع هذه المملكة فى فترات زمنية مختلفة بغرض الوقوف على شكل هذه العلاقات السياسية وتقويمها سواء كانت علاقات سليمة أو حربية والدوافع التى حدت بالدولتين إلى إظهار التقارب حيناً والتباعد أحيانا أخرى.

* العلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين عامي ٦٢٨ - ٦٤٨ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٥٠ م.

كان لقيام الدولة الحفصية كقوة ناشئة في افريقية عقب اضمحلال دولة الموحدين بعد هزيمتهم في موقعة العقاب ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وانهيار نفوذهم في المغرب من جهة، ونشاط حركة الاسترداد المسيحي الاسباني (Reconquista) في الاندلس لا سيما الارغوني في شرق الاندلس والجزائر الشرقية (البليار) من جهة أخرى، عظيم الاثر في تحديد شكل العلاقات السياسية بين السلطنة الحفصية ومملكة أراغون في المجال السياسي.

فمنذ عام ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) اتسمت العلاقات السياسية بين الدولتين بسمة عدائية لتزايد حركة الاسترداد المسيحي الأرغوني ضد دولة الاسلام في الجزائر الشرقية وشرق الأندلس، ومحاولات السلطان الحفصي تقديم النجدة للمسلمين بها. ففي عام ٦٣١ هـ (١٢٣٢ م) أقدم السلطان الحفصي على الاستيلاء على بعض سفن جنويه وبيزيه في موانيه بغرض الخروج لنجدة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية من العدوان الارغوني عليها^(٢٣)، وكان خايمه الاول ملك اراغون قد نجح في فتح الجزيرة واستولى على حاضرتها «بالمه» في ١٣ صفر ٦٢٧ هـ (٣١ ديسمبر ١٢٢٩ م)^(٢٤)، غير أن جماعات من المسلمين بقيادة أبي حفص بن سيري لم يستسلموا للامر الواقع ومثلوا مقاومة شعبية اسلامية، وخرجوا مع قائدهم إلى الجبل يتحions الفرصة للهجوم على القوات الأرغونية وتبعتهم اعداد قدرت ستة عشر الف مقاتل تعاهدوا على المقاومة حتى النهاية، وواتهم الفرصة عندما غادر خايمه الاول الجزيرة في نهاية شهر ذى الحجة ٦٢٧ هـ / اكتوبر ١٢٢٣ م وترك نائباً عنه فيها يدعى الكونت برناردو، وعندئذ هبط أبو حفص بن سيري على رأس قواته الاسلامية من الجبل وحاصر حاضرة الجزيرة فتخرج مركز الحامية الارغونية فيها مما اضطر الكونت برناردو إلى الاستنجاد بمليكه^(٢٥) واستجاب خايمه الاول على الفور وأعد حملة بحرية جديدة لهذا الغرض خاصة وقد وصلته أنباء من التاجر القطلاني رامون دي بليجامانز بأن السلطان الحفصي يعد حملة كبيرة لاستعادة جزيرة ميورقة من أيدي الارغونيين^(٢٦). وعلى الرغم من أن المصادر الاسلامية صمتت عند ذكر هذه الحادثة إلا أننا لا نستبعد أن يكون أبو حفص بن سيري قائد المقاومة الاسلامية في جزيرة ميورقة قد طلب العون من السلطان الحفصي باعتباره أقوى شخصية إسلامية في الغرب الاسلامي، وأن السلطان هب

لنجده فأعد حملة بحرية لتخليص الجزيرة كان من بين سفنها سفن ييزيه وجنوبه، ويؤكد ذلك الأخبار التي تلقاها خايمة الأول من رامون بليجامانز عن استعداد السلطان الحفصي للخروج لنجدة مسلمي ميورقة، فأسرع خايمة الأول بالخروج على رأس حملة بحرية لفك الحصار عن قواته حاضرة الجزيرة في شهر صفر ٦٢٨ هـ (يناير ١٢٣١ م) رغم صعوبة الملاحة البحرية في هذا الوقت من السنة. ونجح خايمة الأول في فك الحصار والقضاء على المقاومة الإسلامية واستشهد عدد كبير من المسلمين من بينهم القائد أبو حفص بن سيري في العاشر من ربيع الآخر ٦٢٨ هـ (١٣ فبراير ١٢٣١ م)^(٢٧)، ولم يبق غير نحو ألفي رجل اعتصموا بذرى الجبال. وقضى هذا النجاح الارغوني في الاستيلاء على الجزيرة تماما على آمال الحفصيين في انجادهما واخراجها من محتتها، فقد قرر خايمة الأول العودة إلى مملكته في شهر صفر ٦٢٨ هـ (مايو ١٢٣١ م) بعد أن أطمأن إلى هدوء الاحوال في الجزيرة وبعد أن عين نائبا جديدا ينوب عنه في جزيرة ميورقة هو الأمير بدرو البرتغالي ابن عمه والده^(٢٨).

وعلى الرغم من أن المحاولات التي بذلها السلطان الحفصي لنجدة مسلمي جزيرة ميورقة لم يكتب لها النجاح إلا أنها أسفرت عن مواجهة عدائية بينه وبين العاهل الارغوني، الذي حاول تلافى هذا العداء حرصا على المصالح التجارية الارغونية في افريقية. ولهذا ففي عام ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) عهد خايمة الأول إلى أحد ضباطه المقربين ومثله في مدينة برشلونه - ماريمون بلجامانس Marimon de plegamans بالذهاب إلى تونس في مهمة لإزالة الجفوة بين الدولتين وإحلال السلام^(٢٩)، لا سيما وأن جمهوريات بيزة وجنوه والبندقية كانت قد استغلت توتر العلاقات الحفصية الارغونية وعقدت معاهدات مع السلطان الحفصي بين سنوات ٦٣٠ - ٦٣٤ هـ - ١٢٣٦ م^(٣٠). لذلك استهدف العاهل الارغوني الحفاظ على مكانة بلاده بالقرب من الايطاليين والبروفنسيين في افريقية حرصا على المصالح التجارية.

غير أن مهمة ماريمون بلجامانس لم تكن كافية لإزالة الجفوة وإحلال السلام بين الدولتين، إذ سرعان ما توترت العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية ومملكة أراغون عندما أقدم خايمة الأول على محاصرة بلنسية الإسلامية على اثر استجابة الأمير الحفصي أبو زكريا لاستغاثة واليها، ففي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) بعث الرئيس أبو جميل زيان والي بلنسية إلى الأمير الحفصي أبو زكريا سفارة برئاسة

وزيره وكاتبه الشاعر المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الله بن أبي بكر الأبار القضاعي يحمل إلى أميرها بيعته وبيعة أهل بلنسية، ويطلب منه مساندته ضد التحالف القطلاني الارغوني، ولما وصل ابن الأبار إلى تونس مثل بين يدي أميرها أبي زكريا الحفصي في حفل مشهود وألقى قصيدته السينية الرائعة^(٣١)، التي ذاعت شهرتها في التاريخ والتي يستصرخه فيها ويتوسل إليه أن ينصر الاندلس والمسلمين، فكان لها أبلغ الأثر في نفس الأمير الحفصي الذي بادر على الفور بتجهيز أسطول مكون من ثمانى عشرة سفينة من بينها اثني عشر جاليري شحنة بالسلاح والمؤن والاموال، بما تقدر قيمته بمائة ألف دينار، وعهد بقيادته إلى أبي يحيى بن الشهيد بن اسحق ابن أبي حص^(٣٢). غادر الاسطول وفريقية وظهر في مياه بلنسية ووصل إلى خليج جراو، لكن الارغونيين كانوا يحتلون المنطقة الممتدة ما بين الخليج والمدينة ولهذا لم يتيسر لرجال الاسطول الوصول إلى المدينة، كما أن أهل المدينة لم يتمكنوا من الاتصال بهم، فاضطر قائد الاسطول الحفصي إلى التوجه ناحية الشمال حتى ثغر بنشكله، لكن هذه المحاولة باءت ايضا بالفشل لظهور السفن الارغونية بقيادة فرنان بيرس دى بنيا Fernan Perez de Pina، ولهذا اتجه الاسطول التونسى جنوبا واضطر إلى إفراع شحنته في ثغر دانية بعيدا عن ثغر بلنسية المحاصر، ثم اقلع الاسطول عائدا إلى افريقية يحمل الأموال التي كان قد أرسلها الأمير الحفصي إلى أهل بلنسية لعدم حضور أحد من قبل الأمير زيان لتسلمها^(٣٣). وعندما تأكد الارغونيون من عجز الأسطول الحفصي عن مساعدة أهل بلنسية وتأكدوا ايضا من عودته من حيث أتى، أخذوا في التضييق على أهل المدينة حتى سلمت صلحا في صفر ٦٣٦ هـ (٢٨ سبتمبر ١٢٣٨ م)^(٣٤).

أدى فشل العاهل الحفصي في نجدة مدينة بلنسية إلى ظهوره أكثر تحفظاً وميلاً إلى السلام، مدركاً مصلحة بلاده الاقتصادية وتجارتها مع القطلان فاختر طريق السلام للابقاء على العلاقات التجارية بين البلدين، ولقى هذا الاتجاه الرضى من الجانب الأرغوني مما سهل إلى حد ما عودة الصلات السياسية بينهما، اذ قام رجل أعمال قطلاني يدعى Ferrer de Nina بنقل بعض الأموال إلى تونس عام ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)، وأصبح واحداً من صناع المفاوضات التي جرت بين البلدين فيما بين عامي ٦٣٨ - ٦٣٩ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤١ م^(٣٥). كما وصلت إلى تونس سفارة أرغونية برئاسة كونت امبورياس ليؤكد نية دولته في إحلال سلام حقيقى بين الدولتين، وقد مهد لذلك بأن طلب من البابا إنوسنت الرابع

باسم الملك الأرغونى - حين كان يجرى فى فرنسا تجهيز حملة صليبية ضد مصر - طلب عدم تهديد هذه الحملة للدولة الحفصية فى تونس^(٣٦).

وإن صحت هذه الرواية تكون مبادرة طيبة من العاهل الأرغونى، لاثبات حسن نيته فى احلال السلام مع الحفصيين، رغم ما يقال من أن البايانوسنت الرابع رفض الاستجابة لهذا الطلب الذى بدا غريبا من ملك مسيحي^(٣٧)، إلا أن الملك الارغونى ظهر حريصا على أمن إفريقية ضد مطامع الصليبيين الذين كانوا يحلمون بغزوها، ولهذا فقد فكر جديا فى تعزيز تأثيره الدبلوماسى فى تونس لاقرار السلام وتسهيل المعاملات التجارية.

* العلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتي ٦٤٨ - ٦٧٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٧٦ م:

تميزت هذه الفترة بجهود قطلانية متعددة تجاه إفريقية، كنتيجة لما ساد بين الدولتين الحفصية والأرغونية من وئام، من منطلق الحفاظ على الصداقة والسلام، فوجدت هبشات قطلانية فى إفريقية. ففي عام ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) أقيم فندق وقنصلية قطلانية فى تونس^(٣٨). كما وجدت فرقة عسكرية قطلانية فى إفريقية منذ عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) تحت قيادة نبيل قطلانى الفارس جيوم دى مونكادا بموافقة العاهل الارغونى خايمة الأول لخدمة العاهل الحفصى^(٣٩). أما عن الاسباب التى دفعت أبا عبد الله المستنصر لاستخدام هذه الفرقة المسيحية الأرغونية، فربما يرجع إلى تقليده لما كان يجرى فى بلاط الخلافة الموحدية فى مراكش^(٤٠)، أو لعل الاوضاع الداخلية المعقدة التى كان عليها مجتمع إمارته فور توليه الامارة: وجود شخصيات موحدية وأندلسية وافدة فضلا على العلوج النصارى الذين جلبهم والده وألحقهم بجيشه وبلاطه^(٤١)، لم يكن يجمع بينهما فى كثير من الاحيان هدف مشترك بل كانت اشتاتا متناثرة الاهواء والمطامع، فالموحدون كانوا يشعرون بضيق وضعف أمام أولئك الوافدين الاندلسيين، كما يشعر الوافدون الاندلسيون بضرورة زحزحة الموحدين عن مناصب القوة والسيطرة، وهكذا بدأت تظهر المتناقضات منذ الاشهر الاولى من تولية المستنصر بالله الامارة يؤيد ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون ان المستنصر الحفصى استوزر فى بداية إمارته أبا عبد الله بن محمد بن أبى مهدى الهنتائى الذى كان له طموح، وذلك أن الامير الشاب الذى لم يتجاوز عمره العشرين كان يخضع فى سياسته وإدارته لسيطرة شخصيات أندلسية وافدة وبعض العلوج النصارى الذين زاحموا الوافدين الموحدين فى مراكزهم فى

الدولة^(٤٢)، فعمل الوزير ابن أبي مهدي على إقصائهم بل عمل على زحزحة المستنصر نفسه عن إمارة إفريقية^(٤٣)، والاتفاق سرا مع أعمام المستنصر إبراهيم اسحاق وأبي عبد الله اللحياني لكن مساعيه انتهت بالفشل، ونرى أن ما ذكره ابن خلدون يتمشى مع سير الأحداث في بداية عهد المستنصر فقد واجه هذا الحاكم قلاقل ومؤامرات تنذر بزوال ملكه، لذلك أقدم على استغلال التقارب مع أرغونة وطلب من العاهل الأرغوني إمداده بفرقة مسيحية أرغونية كحرس خاص له ويتحمل نفقاتها، فاستجاب العاهل الأرغوني لطلبه وأمر الفارس جيوم دي مونكادا بتكوين الفرقة والاتحاق بخدمة السلطان الحفصي، ولا شك أن العاهل الأرغوني كان يرمى - عند استجابته لهذا الطلب - إلى تحقيق غرضين في وقت واحد: أولهما وجود نفوذ أرغوني غير رسمي في بلاط الأمير الحفصي، وثانيهما، الاستفادة المادية التي يجنيها بحصوله على نسبة مئوية من رواتب الفرقة المسيحية الأرغونية^(٤٤).

تجلت أيضا مظاهر المحافظة على السلم بين الدولتين عندما تعرض الساحل التونسي عام ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) لهجوم سفن قرصنة تركونية معكزة لصفو السلام^(٤٥)، إذ بادر العاهل الحفصي بإرسال رسول من قبله إلى برشلونه لهذا الغرض^(٤٦)، وكان رد فعل العاهل الأرغوني أن عهد إلى أحد معاونيه ويدعى برنجير دي فيش Berenguer de vich بمقابلة رئيس اساقفه تركونه وإبلاغه عتاب الملك، لأنه سمح بتسليح سفن القرصنة التي هاجمت الساحل التونسي مخالفا لشروط السلام بين الدولتين^(٤٧). ولم يكتف العاهل الأرغوني بذلك بل أرسل في العام التالي ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) أرنو ايمرتش Arnau Aymerich سفيرا من قبله للدولة الحفصية مرتين لمحاولة إزالة أثر هذا العدوان^(٤٨)، بل وبعث سكرتيره جيوم دي مونتجتش Jaume de Montjuch مبعوثاً شخصيا من قبله للعاهل الحفصي ومعه هدايا متنوعة: صقور وخيول وبغال وزينات للخوذات، وأغطية للدواب ومربي للصقور^(٤٩).

وبما لا شك فيه أن هذه السفارات المتبادلة سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م كانت تحاول تأكيد السلام والوصول إلى اتفاق يتعلق بالهيئات الأرغونية الموجودة في الدولة الحفصية، ومن الممكن استنتاج ما اتفق عليه بين الجانبين في ضوء وثيقة مؤرخة في أغسطس ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) تلقى الضوء على نوعية التقارير السياسية العامة، ويستنتج أن العاهل الأرغوني كان يملك سلطة كبيرة على رعاياه المقيمين

في الاراضى الحفصية بالنسبة لرعاياه القاطنين في ممالكه وكوتياتاه^(٥٠)، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه خلال هذه الفترة رحل أسقف كنيسة جيرونا ويدعى برنجير ايمرتش Beregeur Aymerich إلى تونس لإقامة الشعائر الدينية المسيحية في القنصلية القطلانية بتونس، فضلا عن وجود عشرات من الجند المرتزقة من رعايا مملكة ارغوان^(٥١)، فاننا نستنتج ايضا كفاءة مزوالة الشعائر الدينية للمسيحيين في سلطنة الحفصيين، فضلا عن أن الفرقة المسيحية القطلانية التي تخدم العاهل الحفصى كانت ضمن بنود هذا الاتفاق بين الدولة الحفصية والمملكة الارغونية.

ولقد ساعد على زيادة التقارب بين الدولتين، ما كان من أمر أخى المستنصر الحفصى ويدعى أبى اسحاق ابراهيم الذى كان كثيرا ما يشكو من سوء خلق أخيه المستنصر وسوء تصرفاته بصوت مسموع^(٥٢)، مما جعل المستنصر يخشى جانبه، لهذا أمر بمراقبته مراقبة شديدة وتسجيل تصرفاته وحركاته لمدة عامين^(٥٣). ولم يطق أبو اسحاق ابراهيم صبرا على ذلك، ففي عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م فر أبو اسحاق لينزل أول الأمر عند الذواودة من قبيله رياح وتمكن بمساعدتهم الاستيلاء على مدينتى بسكره وقابس واجتمعت اليه الاعراب من كل مكان، فما كان من السلطان المستنصر إلا ان قبض على ابناء اخيه في تونس وحبسهم فى سجن القصبه وشدد عليهم الحراسة^(٥٤). ثم لجأ المستنصر إلى المكيدة وإعمال الحيلة واستطاع أن يوقع بين أبى اسحاق ابراهيم وبعض مناصريه، مما أدى إلى ضعف مركز أبى اسحاق فلم يستطع الصمود بمفرده، فانسحب إلى المغرب الاقصى، ومنه عبر مضيق الزقاق إلى مملكة غرناطة بالاندلس سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٥م)، وأقام عند أميرها محمد بن الاحمر الذى اكرم وفادته «.... ورعى له عهد أبيه أبى زكريا وأسنى له الجراية»^(٥٥)، واشترك أبو اسحاق مع ابن الاحمر فى نضاله مع القوى النصرانية فى الشمال الاسبانى وأبلى بلاء حسنا^(٥٦).

إزاء هذا الوضع، خشى المستنصر الحفصى أن يتحالف أخوه مع ابن الاحمر فى غزو إفريقية، فاتبع المستنصر سياسة المسالمة والمهاداة مع ابن الاحمر، يقول صاحب الفارسية أنه «كان يوجه الهدايا الضخمة لابن الاحمر ويبعث الاموال الكثيرة ليمسك ابن الاحمر عنه أخاه، ويرسل المستنصر الارسال من كبار الموحدين وأعيان الطلبة فى السفارة عنه لابن الاحمر وفى طى ذلك الاطلاع على أحوال أخيه»^(٥٧). ولما لم يستطيع أبو اسحاق ابراهيم حمل ابن الاحمر على تحقيق مآربه فى افريقية رحل إلى أرغون وبدأ فى طلب العون من العاهل الأرغونى، وكان

رد الفعل عند المستنصر الحفصى أن أرسل إلى العاهل الارغونى هدايا قيمة من بينها نقودا عينية^(٥٨)، وتزايد النشاط الدبلوماسى بين الدولة الحفصية ومملكة اراغون بهدف تجميد نشاط أبى اسحق لاسيما وقد حضر إلى البلاط الارغونى وفد تونس بصحبة القطلانى بيرتران دى كاستيليت Bertran De Casteler لهذا الغرض، ولتابعة تحقيق اتفاقيات ٦٥٤ / ٦٥٥ هـ (١٢٥٦ / ١٢٥٧ م) مع تقديم هدايا للعاهل الأرغونى^(٥٩).

وفى إطار المحافظة على السلم بين الدولتين، وقف العاهل الأرغونى موقفا مناصراً للحفصيين ومعارضاً لأى عدوان خارجى عليهم يتمثل ذلك فى موقفه من ألفونسو العاشر ملك قشتاله الذى كان يزعم تجهيز حملة صليبية ضد المغرب، وطلب من خايمة الأول أن يعطى أمراً لسفنه بالاشتراك فى هذه الحملة غير أن خايمة اشترط عليه عدم التعرض للحفصيين^(٦٠). هذا الموقف من جانب خايمة الاول تجاه الدولة الحفصية؛ يبرهن بلا شك على حرص أرغوان على السلام مع الدولة الحفصية والمحافظة على بقائها ومن ثم تحقيق المزيد من النشاط التجارى الأرغونى معها. فضلا عن وجود رعايا كثيرين من المملكة الأرغونية. ومن هذا المنطلق أصدر خايمة أوامره إلى ضباط الكونتية القطلانية فى أمبورياس باتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لمنع استخدام موانئ الكونتية كقواعد لانطلاق القراصنة ضد الحفصيين فى افريقية ورعاياه الارغونيين بها^(٦١).

غير ان العلاقات الساسية بين الدولتين سرعان ما عتراها الفتور خلال عام ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م)، ذلك أن التراجونيين وسكان كونتية أمبورياس كانت تملكهم دائما شهوة القرصنة من أجل الرغبة فى تحقيق الثراء، لدرجة أنهم كانوا يرتكبون أعمال القرصنة بسهولة وضد أى شخص دون مراعاة للاتفاقات الدولية بين المملكة الارغونية والدولة الحفصية، ورغم المحاولات المتكررة التى بذلها العاهل الارغونى لردع هؤلاء القراصنة وتبنيهم إلى ضرورة احترام السلام مع الحفصيين^(٦٢).

إلى جانب ذلك، أقدم العاهل الارغونى خايمة الاول على مساعدة الفونسو العاشر ملك قشتالة فى إخضاع إمارة مرسية الإسلامية، فأسهم بحملة أرغونية قوية اتجهت جنوبا صوب مرسية، وتمكن من الاستيلاء على حصونها وقلاعها الأمامية: الش Elche ولقنت Alicante وأوريوله Orihuela، واتخذ من الأخيرة قاعدة لعملياته ضد مرسية^(٦٣).

ثم تقدم فى قواته وضرب الحصار حول مدينة مرسية وضيق عليها بمختلف السبل وقطع المعونات والامدادات التى قد تصلها من غرناطة، وطال الحصار بضعة اشهر قاسى المحاصرون فيها الكثير، مما اضطر اميرها الواصل ابا بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود - الذى رأى ألا مفر من التسليم بعد أن فقد الأمل فى مساعدة ابن الأحمر، إلى مفاوضة خايمه الأول فى التسليم، ودخلها خايمه الأول فى شهر فبراير ١٢٦٦م (٦٦٤هـ)^(٦٤)، وسلمها لألفونسو العاشر ملك قشتالة، هذه المساعدة التى قدمتها أراغون لقشتالة دون مراعاة لشعور الدولة الاسلامية الحفصية واستمرارا لدعم حركة الاسترداد المسيحى للاراضى الاسلامية فى الأندلس، أثر بالتالى على مشاعر المسلمين وعلى الاخص فى تونس ضد السياسة الارغونية ومصالحها فى افريقية.

لذا لجأ العاهل الحفصى الذى كان يدرك تماما حرص أراغون على استمرار العلاقات التجارية معه إلى الاقتصار على دفع رواتب الفرقة المسيحية الارغونية على المبلغ المخصص للفرسان والعند الذين كانوا يحتفظون به لأنفسهم دون سداد المبلغ المقرر من الخليفة للعاهل الارغونى، والعمل على ركود الحركة التجارية فى الفندق الارغونى، وبذلك ضرب المصالح التجارية الارغونية فى افريقية وأصابها بالشلل وهذا بدوره أثر بلا شك على الرأسمالية البرشلونىة، الذين اندفعوا إلى رأب الصدع ومحاولة الاصلاح، واثبتوا أن ازدهار التجارة متوقف على السياسة، وأن توتر العلاقات السياسية بين الدولتين سيؤثر بالتالى على الاقتصاد وعلى مصالحهم التجارية.

وعلى الرغم من القطيعة السياسية الشاملة بين الدولتين إثر ذلك، فإن بعض المصالح الاقتصادية لم تتوقف بل استمرت بينهما الاتصالات التجارية، ففي فبراير ١٢٦٨م (٦٦٧هـ) وصل إلى تونس السفير فيران دى كيرالت Ferran de Queralt بصحبة عدد من التجار الأرغونيين وبضائعهم فى مهمة ذات طبيعة اقتصادية^(٦٥). وفى ابريل من نفس العالم عين قنصل أرغونى جديد فى مدينة بجاية يدعى ريجيرس Reguers الذى استطاع أن يستعيد الحقوق المالية للمملكة الارغونية^(٦٦).

وفى العام التالى ١٢٦٩ (٦٦٨هـ) وبعد تجاوز هذه الأزمة القصيرة بفضل التماسك التجارى ارتسمت من جديد السياسة العليا فى افق العلاقات الحفصية الارغونية، ذلك أن بدرو الثالث ولى العهد الارغونى كان قد تزوج عام ١٢٦٢م

(٦٦١هـ) من الاميرة كنسطانس ابنه ما نفرد ملك صقلية ووريثته، وبذلك أصبح من حق بدور الثالث أن يطالب بإرث الهوهنشتاوفن في نابلي وصقلية من شارل دي آنجو، لكن ما علاقة ذلك بالعلاقات الارغونية؟ للإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نستعرض العلاقات الحفصية الصقلية على عهد كل من ابي زكريا الحفصي والامبرطور فردريك الثاني صاحب صقلية والامبراطورية الرومانية المقدسة، هذه العلاقة كانت بشكل عام طيبة رغم ان هذا الامبرطور قام بالحملة الصليبية السادسة والتي انتهت باسترجاع الصليبيين لبيب المقدس بعد ان تنازل السلطان الكامل الأيوبي عنها بموجب اتفاقية وقعت بينهما عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) ^(٦٧). فبعد عودة فردريك من حملته الصليبية هذه توطدت علاقته مع الحفصيين، وتوجت تلك العلاقات باتفاقية يدفع بموجبها ابو زكريا الحفصي جزية سنوية لفردريك الثاني تقدر بثلاثة آلاف قطعة ذهبية، على الأرجح في نظير حماية موانئ إفريقية التجارية من قراصنة جنوة وغيرها، فضلا عن ضمان حرية التعايش بين سكان صقلية والبقية من الجالية الاسلامية في مدينة بلرم ونواحيها ^(٦٨). لكن بعد وفاة فردريك الثاني - الذي كان متهما عند البابا بتعاطفه مع المسلمين لحبه للغة العربية والحضارة الاسلامية ولأنه من عائلة هوهنشتوفن الألمانية - خرجت البابوية منتصرة بعد نزاعها الطويل الذي استمر فترة طويلة مع أباطرة الدولة الرومانية المقدسة من هذه الاسرة. وبالتالي فقد اعتبرت البابوية نفسها وصية على أراضي هؤلاء الاباطرة في جنوب ايطاليا وصقلية ^(٦٩). ولما كان ما نفرد ملك صقلية أحد أعضاء البيت الامبراطوري المهزوم، فإنه رفض أن يعترف بمطالب البابوية، مما جعل البابا يعرض مملكة صقلية على أحد الأمراء الفرنسيين وهو شارل دي آنجو كونت بروفانس ليحكمها تابعا للبابا ^(٧٠) وقد ترتب على ذلك اندلاع الحرب بين ما نفريد وشارل دي آنجو.

أما المستنصر الحفصي فقد كان له دور بارز في مساعدة خصوم شارل آنجو الجيبلانيين سواء في قبوله لهم كلاجئين في بلاده أو اعانتهم عسكريا، وتشجيع المتطوعين النصاري على الذهاب الى صقلية ليحاربوا ضد شارل دي آنجو وكان من بينهم أخوان لألفونسو العاشر ملك قشتله اللذان هربا عنه فالتجأ إلى المستنصر وشاركاه في حروبه الداخلية ^(٧١). وهكذا ألم يكن شارل دي آنجو وأخيه لويس التاسع ملك فرنسا محقين في قلقهما من رؤية الدولة الحفصية تظهر كأرض ملاذ وكقاعدة لانطلاق أعدائهم؟ فمن تونس خرج اسطول به نحو خمسمائة رجل

بموافقة ومساعدة العاهل الحفصى فى أغسطس ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ حط فى صقلية ووضع تحت تصرف الجيبلانيين الثائرين ضد شارل دى آنجو، واستمر الصراع لمدة عام إلى أن استطاع شارل دى آنجو استعادة صقلية تماماً. وليس من شك أن العاهل الحفصى كان متعاطفاً تماماً مع خلفاء فردريك الثانى الذين برهنوا على حبهم للمسلمين وتحملهم الكثير خلال صراعهم ضد شارل دى آنجو، وكان المستنصر الحفصى قلقاً من طموحات شارل دى آنجو الذى احتج بدوره على قطع المستنصر للضريبة السنوية التى كان يدفعها سلفه ابو زكريا الحفصى لفردريك الثانى بموتهما^(٧٢).

وهكذا كان على شارل دى آنجو أن يدرك موقف الحفصيين منه، ويجعل أخاه لويس التاسع و الاساقفة يتفهمون دور الحفصيين فى مساعدة اعدائه، ذلك أن لويس التاسع كانت له احلام شرقية كبيرة قد تبعدة عن تونس، فلم يمكنه يستطيع الرحيل إلى الشرق قبل أن يؤمن مؤخرته فى افريقية بافضل ما يمكن، خصوصاً وأن الحفصيين كانوا يهددون سيادة اخيه فى صقلية، ولن يعدم شارل دى آنجو التبريرات التى يعبر بها عن وجهة نظره، وهو الواقف على أحوال افريقية ومدى استعدادها لمقاومة حملة صليبية منظمة، فزيادة على المجاعة الحاصلة فى افريقية وكثرة الموتان فيها - كما يقول ابن خلدون - فإن مهاجمة من أصبح يحمل لقب الخلافة وإمارة المؤمنين، فيها ما يكسب تلك الحملة معنى القداسة وخدمة الدين^(٧٣). وأن الانتصار على بنى حفص فى تونس يمهد السبيل للاستيلاء على مصر، هذا إلى جانب بعض التأويلات الأخرى منها: أن بعض التجار المرابطين الفرنسيين ادعوا أنهم أقرضوا ما لا يقل عن ثلاثمائة دينار إلى اللحياني، الموظف الكبير عند المستنصر الحفصى والذى انتهى أمره إلى القتل واستصفاء أمواله، فطالب أولئك المرابطين بالديون التى لهم عليه بدون أن تكون لديهم حجج فى ذلك، فألغى طلبهم ولم تقع استجابته مما دعاهم إلى رفع شكواهم إلى لويس التاسع حتى اضطر المستنصر الحفصى إلى إرسال سفارة حفصية إلى فرنسا للتفاوض فى الموضوع^(٧٤). وتشير بعض المصادر إلى أن الوفد الذى ارسله المستنصر الحفصى حضر حفلة تنصيب أحد اليهود^(٧٥).

ومهما يكن الأمر، فالأقرب إلى الصحة أن شارل دى آنجو تمكن من تحقيق غرضه ووجد الوسيلة التى تمكنه من مهاجمة عدوه الحفصى فى عقر داره بافريقية. ومن ثم تهيأت الدوافع والاسباب وتم الاستعداد للقيام بالحملة الصليبية لغزو تونس والتزول بقرطاجنة.

والواقع أنه ليس من رسمنا هنا دراسة هذه الحملة الصليبية، لكن فقط التعرف على موقف مملكة اراغون من العدوان الصليبي على تونس. فليس من المستغرب ان نلاحظ تقارباً من الجيبيلانيين والقطلان للجانب الحفصى عنهم من الجيش الصليبي الذي كان يبدو بالنسبة لهم جيشاً انجولياً أكثر من كونه جيشاً مسيحياً، ففى تونس كان يعيش فدرىكو لانشيا Federico Lancia ابن عم الملكة كونستانس دى هوهنشتاوفن زوجة بيدرو الثالث الأروغونى. وكذا الفرقة المسيحية الارغونية بجانب سلطان تونس والتي لم تعمل فقط على تدعيم الجيش الحفصى بل عمل قائدها الفارسى جونثاليو بيرس دى ألكوبا Gonzalvo Perez de Alcoba على اجتذاب جنود من أقاليم مملكة اراغون فى منتصف سبتمبر ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) بموافقة العاهل الأروغونى خايمة الأول وعميد ماتدرائية بلنسية^(٧٦). وإذا أضفنا إلى ذلك أن خايمة الأول إذا كان قد رفض الاشتراك فى مشروع لويس التاسع، أليس لأنه كان يعلم أن هذا الأخير سيتجه ضد تونس؟ ألم يكن قد سأل البابا عام ١٢٤٦م (٦٤٤هـ) أن لا تقترب الحملة الصليبية آنذاك من تونس؟ أليس هذا دليلاً على موقف العاهل الأروغونى ضد أى غزى على تونس؟ هذا يفسر موقف خايمة الأول وولى عهده وزوجه فى كل مكان ضد الاميرالية الانجولية^(٧٨).

ويلاحظ أيضاً أنه خلال تعرض تونس للحملة الصليبية فإن بعض التجار المسيحيين وعلى الاخص البيزيين تركوا إفريقيا^(٧٩)، غير أن التجار القطلان لم يتوقفوا عن التجارة، إذ استمر فندقهم وقنصليتهم فى تونس فى مزولة نشاطهم^(٨٠).

على أية حال فإن الحملة الصليبية تعرضت لخطر الطاعون الذى أفسدها وفشلت الحملة فى تحقيق اهدافها، ولم يتأخر شارل دى أنجو بعد وفاة أخيه لويس التاسع فى ٢٥ اغسطس ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) عن وقف الحرب مع عقد هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاماً ابتداء من نوفمبر ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) يدفع اثناءها المستنصر الحفصى غرامة مالية قدرها مائتان وعشرة آلاف اوقية ذهباً تدفع مقسطة وأن يؤدى المستنصر الحفصى إلى شارل دى أنجو ملك صقلية الغرامة التى كان يدفعها للامبراطور فردريك الثانى بما فى ذلك الخمس سنوات الماضية، واعتبار رهبان النصارى وقساوستهم الموجودين فى البلاد سكاناً فيها يعطيهم السلطان الحفصى أراضي للبناء وإقامة الكنائس والمقابر، وأن يسمح لهم باقامة شعائرهم الدينية جهراً، واحترام رعايا الطرفين، وضمان المصالح التجارية وعدم الاعتداء على الاراضى التابعة للمستنصر الحفصى حاضراً ومستقبلاً، كما نصت الاتفاقية أيضاً على منع المخزن الحفصى من استضافة اعداء الامراء الصليبيين بطرد كل المسيحيين

الذين ساعدوا على الفتنة أو التمرد الصقلي ضد الملك شارل دي أنجو من تونس^(٨١).

هذا البند الأخير من الاتفاقية أوضح باختصار المرقف ضد الجييلان الذي كان من نتائج الحملة الصليبية. ولقد فوجئ فلول الهوهنشتاوفن وأنصارهم الأرغونيين والقشاليين بالمعاهدة التي فرضها شارل دي أنجو على العاهل الحفصي المستنصر. هل سيكون التأثير الانجوفيني من الآن فصاعدا متزايدا داخل تونس التي أصبحت تؤدي الجزية إلى صقلية؟ هل سيطرد فديريكو لانشيا ابن عم الملكة كونستانس من تونس؟ هل سيفقد القطلان دورهم المؤثر في تونس؟ أو على العكس ستصمد الصداقة الحفصية الارغونية أمام التجربة؟ تلك التساؤلات التي فرضت نفسها في نهاية عام ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) عندما حان تنفيذ بنود الاتفاقية.

الواضح أن المستنصر الحفصي طلب السلام لكي يرى وفي اقرب وقت رحيل الجيش الصليبي عن بلاده، أما باقي بنود الاتفاقية فيبدو انها لم تشغله كما واجه المستنصر الحفصي الالتزامات المالية التي تعاقدها عليها مع الفرنسيين والصقليين والتي تحملها رعاياه « فأعطوه طواعية ما يقال أنه عشرة أحمال من المال »^(٨٢)، وأنه قام بسدادها بانتظام سواء تعويضات الحرب أو الضريبة خلال السنوات التالية:

اما عن علاقة المستنصر الحفصي بخايمه الأول الارغوني، فقد أوضح سلطان تونس موقفه، وكان يعلم أن الهوهنشتاوفن والجييلان يكونون جانبا واحدا من الممكن ان يكون بالنسبة له حليفا طبيعيا ضد الأنجوفيين، لو أنهم فكروا يوما في اتخاذ سياسة عدوانية، فأرسل المستنصر الحفصي سفيرا من قبله لبلاط خايمه الأول، كانت مهمته التمهيد لعقد معاهدة، وقعت في بلنسية في ١٤ فبراير ١٢٧١ م (٦٦٩ هـ) لمدة عشر سنوات بين الدولتين الحفصية والارغونية، وهي معاهدة تجارة وسلام تتعلق بالفنادق والقنصليات الارغونية في الدولة الحفصية، وكل العلاقات الاقتصادية بينهما وعلى الاخص الضمان الأمني للتجار في البر والبحر في البلدين^(٨٣).

وهذا يؤكد أن الاتفاقات الحفصية الأرغونية كانت بعيدة عن أن تتأثر بأحداث عام ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) وخرجت قوية. وهكذا كانت معاهدة فبراير ١٢٧١ (٦٦٩ هـ) ردا قويا وسريعا لمعاهدة اكتوبر/ نوفمبر ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ).

ومن جهة اخرى فإن المستنصر الحفصي لم يفته في هذا الوقت إرسال هدايا إلى العاهل الارغواني في شكل منح لا ترد^(٨٤).

* العلاقات السياسية بين الدولتين فيما بين سنتي ٦٧٥ - ٦٨٤ هـ / ١٢٧٦ م - ١٢٨٥ م:

كان للسياسة المتوازنة التي اتبعها المستنصر الحفصي مع خايمة الأول ملك ارغون من جهة وشارل دي آنجو ملك صقلية من جهة اخرى عظيم الاثر في استقرار الاوضاع في ظل الدولة الحفصية إلى حين. ففي ايامه التي يعتبرها ابن خلدون أعز أيام الدولة الحفصية «عظمت حضارة تونس وكثر ترف سكانها وتأفق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية فاستجادوها، وتناغوا في اتخاذها وافشائها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده ادراجها»^(٨٥). وتوفي المستنصر الحفصي يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة عام ٦٧٥ هـ (نوفمبر ١٢٧٦ م) على أثر مرض ألم به^(٨٦)، بعد حكم دام سبع وعشرين عاما.

وخلفه ابنه يحيى الذي بايعه الموحدون وسائر الناس على مختلف طبقاتهم في نفس الليلة التي توفي فيها أبوه، ثم بايعه بقية الناس صباح الغد وتلقب بالوائق^(٨٧). وكان المتولى لأخذ البيعة له عن الناس والقائم بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانته في الدولة، ولا يستبعد أن تكون أعمال سعيد هذا تستهدف اغراضا شخصية أكثر مما تستهدف مصلحة الدولة لما كان يعرفه عن يحيى الوائق من ضعف الشخصية وقلة التدبير وهن العزيمة^(٨٨)، حتى تكون له نفس المنزلة كان يتمتع بها في عهد سلفه المستنصر وهو العهد الذي تمكن فيه سعيد بن يوسف ابن أبي الحسين من نيل الخطوة الكبيرة واكتساب المال الكثير^(٨٩).

أما في الجانب الارغوني، فقد كان للجهود التي بذلها خايمة الأول ان أحسن خلفاؤه بنوع من الإطمئنان داخل المملكة الارغونية جعلهم يتفرغون لمشكلة صقلية وإيطاليا.

فلما توفي خايمة الاول ملك أرغون في عام ١٢٧٦ م (٦٧٥ هـ) خلفه على العرش ولده بيدرو الثالث، الذي تبدأ من عهده صفحة جديدة في تاريخ أرغون حيث يمتد سلطان ارغونه فيما وراء البحر إلى صقلية وجنوبي إيطاليا (مملكة نابولي)، وذلك أن بيدرو الثالث كان قد تزوج من الأميرة كونستانس ابنة مانفرد ملك صقلية ووريثه سليل بيت هوهنشتاوفن الامبراطوري، وكانت البابوية قد خرجت عندئذ ظافرة من نزاعها الطويل الذي استمر عدة قرون مع اباطرة الدولة الرومانية المقدسة من اسرة هوهنشتاوفن، وبالتالي فقد اعتبرت البابوية نفسها قيمة أو وصية على اراضي هؤلاء الاباطرة في صقلية وجنوب إيطاليا. ولما كان ما نفييد

ملك صقلية احد اعضاء البيت الامبراطورى المهزوم، فإنه رفض أن يعترف بمطالب البابوية مما جعل البابا يعرض مملكة صقلية على أحد الأمراء الفرنسيين وهو شارل دى آنجو ليحكمها تابعا للبابا، وقد قبل شارل هذا عرض البابوية وغزا صقلية ليقتل ما نفريد ويحكم الجزيرة حكما تعسفيا جائرا. وبذلك أصبح من حق الملك بيدرو الثالث زوج الاميرة كونستانس ابنة مانفريد أن الهوهنشتاوفن فى مملكة نابلى وصقلية^(٩٠)، لذا فكر جديا فى فتح صقلية لاعادة ما يسمى «شرعية الهوهنشتاوفن»، فهو بزواجه من كونستانس أصبح الحامى والوريث، وأصبح استعادة صقلية هدفا أساسيا لمملكة اراغون انعكس على سياستها تجاه افريقية، ومن ثم تحددت علاقته مع الحفصيين على ضوء ذلك نظرا لموقع إفريقية الجغرافى من جزيرة صقلية، ولأن اعداء الانجويين تعودوا على استخدامها كقاعدة للوثب منها إلى جزيرة صقلية وإيطاليا، وربما كان هذا مبرراً كافياً لكى يقرر بيدرو الثالث تقوية النفوذ القطلانى الارغونى فى الدولة الحفصية.

مهد بيدرو الثالث لسياسته الافريقية بمطالبة السلطان الحفصى يحيى الوائق فى سنتى ١٢٧٧ / ١٢٧٨ م (٦٧٦ - ٦٧٧ هـ) بدفع جزية بصفة منتظمة لمملكة اراغون، مدعياً أن هذه الجزية سبق أن اقرها وأكدها البلاط الحفصى زمن المستنصر، حقيقة أن العاهل الحفصى المستنصر كان يرسل هدايا فى مناسبات مختلفة للعاهل الارغونى خايمة الأول، فضلا عن تسهيلات معينة للعمليات التجارية القطلانية فى افريقية من أجل تدعيم اواصر الصداقة والسلم بين الدولتين، غير أن بيدرو الثالث كان يريد من يحيى الوائق خضوعا إجباريا لعادة زائلة. فى الوقت الذى التزم فيه يحيى الوائق بأقساط مالية منتظمة للأنجوفيين فى صقلية وليس للآرغونيين، وربما يفسر ذلك ايضا جذور الخلاف الدائم بين العاهلين الارغونى والحفصى.

ففى ابريل ١٢٧٨ م (٦٧٧ هـ) أرسل بيدرو الثالث سفيراً من قبله يدعى كونراد لانثيا Conrad Lancia^(٩١) إلى تونس وكانت سفارة لانثيا ترمى إلى تحقيق اهداف ثلاثة: أولها، إنماء مالية الحرب التى أخذ يستعد لها بيدرو الثالث لتحقيق طموحاته فى البحر المتوسط، وثانيها: إخضاع الدولة الحفصية وإرغامها على دفع الجزية لمملكة أرغوان، وثالثها: اتخاذ مسألة الجزية كذريعة للتدخل الأرغونى فى افريقية لاستخدامها كقاعدة للوثب منها على صقلية وكأرض ملاذ لأعداء الأنجوفيين^(٩٢).

غير أن سفارة لانثيا اخفقت في حمل يحيى الواصل على أن يصبح دافع جزية أو في الموافقة على تقديم تسهيلات حربية للقطلان، ورجع لانثيا أول صيف ١٢٧٨ م خاوي الوفاض.

وفي الوقت الذي فشلت فيه سفارة كونراد لانثيا على حمل يحيى الواصل على التسليم بسداد جزية سنوية لأراغن، كان يحيى الواصل على علاقات طيبة مع شارل دي أنجو ملك صقلية ودفع له الجزية الواجبة على تونس^(٩٣).

كما استقبل الحفصيون في يونيو عام ١٢٧٨ م (٦٧٧ هـ) سفيرا ما يورقيا يدعى الفارس برنات دي أولمس Bernat d'Olms والذي تجددت بواسطته المعاهدة السابق أبرامها عام ١٢٧١ م (٦٧٠ هـ) في بلنسية بين خايمة الفاخ والمستنصر لمدة خمس سنوات لتصبح بين العاهل الحفصي يحيى الواصل وملك ميورقة خايمة الثاني^(٩٤).

وإذا علمنا أن العلاقات بين الأخوين بيدرو الثالث ملك أراغون وخايمة الثاني ملك ميورقة كانت عدائية وكانا في حالة حرب، لأدركنا أن تجديد السلام بين السلطنة الحفصية ومملكة ميورقة سيكون له فعالية كبيرة، وقد إلتمز الميورقيون من جانبهم بأن يكونوا أصدقاء الحفصيين وأعداء لأعدائهم، فهو تحالف سياسي خطط له آنذاك وأراده الملك خايمة الثاني^(٩٥).

ولا شك أن الصداقة بين السلطنة الحفصية وكل من مملكتي ميورقة وصقلية كانت لها أثر واضح في فشل سفارة كونراد لانثيا الارغونية، لذلك قرر بيدرو الثالث قطع علاقاته السياسية مع الحفصيين في افريقية وتحريم التجارة معها^(٩٦)، وفي نفس الوقت اتخذ قرارا بمساعدة ابي اسحق الثائر منذ ايام المستنصر والموجود في اسبانيا للوثوب على السلطة في تونس ضد ابن اخيه يحيى الواصل^(٩٧).

ويبدو أن يحيى الواصل أدرك مخاطر قطع العلاقات السياسية الارغونية معه فعمل على إعادة هذه العلاقات عن طريق أحد الوسطاء البيزيين ويدعى ألبرتو رونشا Alberto Ronch في ربيع ١٢٧٨ م (٦٧٧ هـ)، إلا أن مهمة رونشا لم تؤد إلى نتائج إيجابية من جانب أراغون، وبرهنت على أن يحيى الواصل كان راغبا في اقرار السلم مع أراغون^(٩٨).

غير أن تردى الأحوال في السلطنة الحفصية نتيجة للصراع الشديد بين رجالها من الاندلسيين لا سيما بين سعيد بن ابي الحسين وبين يحيى بن عبد الملك

الغافقي المعروف بابن الحبير على منافسه وأصبح هو المسير الفعلي للدولة، وبلغ من تحكمه بالوائق والاستيلاء عليه ما لم يبلغه أحد قبله «وأذل الموحدين بوقوفهم على بابه والتوسل اليه بحجابه»^(٩٩). وبعث اخاه ابا علي ادريس للاشراف على الاشغال والأموال ببجاية، فأساء هو ايضا السيرة وأخذ الأموال وأذل الرجال وكان من نتيجة ذلك أن اختلف مع والي بجاية محمد بن أبي هلال عياد بن محمد الهنتاتي الذي دبر له مؤامرة انتهت بقتله وخاف والي بجاية من الانتقام فكتب إلى الأمير أبي اسحاق ابراهيم يستنجد به وبياعه، وكان ابو اسحاق منذ فراره من أخيه المستنصر مقيما في اسبانيا، وعندما بلغه وفاة المستنصر فكر في العودة إلى افريقية وانتزاع السلطة من يحيى الوائق، وقد شجعه على ذلك الحالة السياسية في الدولة الحفصية من تفكك داخلي، وضعف يحيى الوائق، وتحول الموحدين عنه^(١٠٠)، ومناصرة بيدو الثالث الارغوني له ضد يحيى الوائق، فقد قرر بيدرو الثالث التدخل لصالح ابي اسحاق بعد أن استقرت أموره داخل مملكته وعقد معاهدات سلام مع مملكة قشتالة، ومملكة بنى الاحمر في غرناطة، وتصالح مع أخيه خايمة الثاني ملك ميورقة في يناير ١٢٧٩ م (٦٧٧ هـ) ففرغ تماما لتنفيذ مخططاته في حوض البحر المتوسط^(١٠١).

ففي الوقت الذي غادر فيه ابو اسحاق ابراهيم الاندلس متوجها إلى تلمسان حيث استقبله صاحبها يغموراسن بن زيان بكل حفاوة وترحيب لائقين به^(١٠٢)، ثم جاءته بيعة والي بجاية ومشايخها فجهز جيشا سار به إلى بجاية فدخلها آخر ذي الحجة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) فبايعه واليها والموحدون والملا من أهلها^(١٠٣)، وتذكر بعض المصادر الاوربية أن بيدرو الثالث الارغوني قد أرسل أمير البحر كونراد لانثيا إلى افريقية ليس بصفته سفيرا لكن كقائد لحملة بحرية مكونة من عشر مراكب نزل بها في خليج قابس وأخذ من هناك يتصل ببعض الشائرين ضد يحيى الوائق^(١٠٤).

ومهما كان الأمر، فإن اسحاق ابراهيم نجح في دخول تونس واعتلاء كرسى الامارة بها في منتصف ربيع الثاني ٦٧٨ هـ (اغسطس ١٢٧٩ م). غير أنه أخذ إلى الراحة والملذات، ويصفه ابن القنفذ بأنه كان «..... فيه غلظة وشجاعة وخفة وغيبة عن مجلسه في لهوه وأنسه، وكان لا ينتظر في عواقب الأمور»^(١٠٥).

أما عن علاقة أبي اسحاق بيدرو الثالث الارغوني، فيدعي مونتانيير Muntaner أن كونراد لانثيا قبل مغادرة تونس حصل من الحفصيين على اعتراف بنوع من السيادة الارغونية المطلقة^(١٠٦). ومن المرجح أن يكون أبو اسحق ابراهيم قد أعطى

بيدرو الثالث وعودا قبل مسيرة إلى إفريقية من أجل الحصول على مساعدة القطلان ولما تحقق له ما أراد طالبه أمير البحر الأرغوني كونراد لانثيا بتنفيذ تعهداته السابقة وأهمها الاقرار بدفع الجزية لملك أراغون لكن أبا اسحق امتنع عن الدفع^(١٠٧).

عاد كونراد لانثيا إلى أراغون في اكتوبر ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) وأعلن نجاح أبو اسحاق في اعتلاء كرسي الامارة في تونس، عندئذ قرر بيدرو الثالث إرسال بعثة جديدة إلى تونس بغرض أخذ اعتراف من الحفصيين بسيادة أرغونية رسمية على القنصليتين الأرغونيتين في مدينتي تونس وبجاية وإعادة طلب الجزية^(١٠٨)، عهد بها إلى روجر دي لوريا Roger de Lauria صهر كونراد لانثيا في اكتوبر ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) الذي استعد للرحيل إلى تونس ورفقته عدد من المسلمين فوضه الملك في السماح لهم بالهجرة إلى إفريقية، وكان جو التفاؤل يسود أراغون لوجود شخصية موالية للبلاط الأرغوني على قمة السلطة في تونس، وبلا شك ستكون هذه الشخصية شاكرة للجميل^(١٠٩). كما نصح الملك الارغوني رعاياه البرشلونيين بالاستفادة من الامكانيات التجارية التي ستقدم لهم من جديد في إفريقية، وهذا يعنى عودة العلاقات السياسية والتجارية مع الحفصيين على عهد ابي اسحاق ابراهيم. في نفس اللحظة، ربط بيدرو الثالث سياسته الخاصة بمسلمي بلنسية ورغبته في مضاعفة الروابط الانسانية والتجارية بين إفريقية وممالكه، فأشار على رعاياه المسلمين بالذهاب والاستقرار في تونس او بجاية، ولتسهيل رحيل رعاياه المسيحيين منحهم حمايته وكذا المزايا التي كان قد قررها من قبل خايمه الأول لمن يرحل إلى إفريقية^(١١٠). وهكذا بدا للجانب الأرغوني أن الظواهر كلها كانت مشجعة وتدعو إلى التفاؤل.

وفي اغسطس ١٢٨٠م (٦٧٩هـ) قرر بيدرو الثالث بعثه اخرى إلى تونس لاعطاء وزن اكبر لمسعاة الجديد، فاستدعى هذه المرة شخصية مؤثرة نائبة في مملكة بلنسية رودريجو خيمينث دي لونا Rodrigo Jimenez de Luna^(١١١) ورغم أننا لا نعرف مدار من مفاوضات بين ابي اسحاق وروجر دي لوريا أو بينه وبين رودريجو خيمينث دي لونا إلا أنه يمكن الافتراض أن هذه المحادثات مثل سابقتها أهتم الارغونيون فيها ليس فقط بالحصول على مبالغ من الدنانير الذهبية لكن ايضا بوضع أقدامهم على سواحل إفريقية للتحضير لغزوتهم المتوقعة على صقلية. لكن هذه الجهود الأرغونية كانت عقيمة في سنة ١٢٨٠م (٦٧٩٠هـ) كما في سنة ١٢٧٩م (٦٧٨هـ)، فعندما رحل رودريجو خيمينث دي لونا إلى تونس لم يكن لدى العاهل الارغوني ثقة كبيرة في العاهل الحفصى الجديد، إذ نظر إل فشل

مساعدى لاثينا ودى لوريا، فكان لتوجيه حاكم بلنسية وفى نفس الوقت نائبة عليها دلالة هامة وهى توجيه اذار نهائى عنيف لأبى اسحاق ابراهيم، ولكن ابا اسحاق ابراهيم لم يرهبه هذا الانذار، ولم يخضع ابداً لسيطرة ارغون، فقطع العلاقات السياسية مع مملكة ارغون عقب محادثاته مع دى لونا^(١١٢).

كان لفشل سفارة دى لونا فى خريف ١٢٨٠م (٦٧٩هـ) أثر كبير لدى بيدرو الثالث الذى قرر أن يبحث من جديد عن معارض لأبى اسحاق، ولم يتأخر كثيراً فى اكتشافه فى شخص والى قسنطينة ابى بكر بن موسى بن عيسى الملقب بابن الوزير الشائر على ابى اسحاق^(١١٣). وكانت الدولة الحفصية فى عهده قد وصلت إلى حالة ما يشبه الترهل والانحلال، فقد استولى الاعراب فى عهده بتونس «على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم...، وزاد فى العوائد ليجد الراحة فى لذاته، وقلت المجابى فى ايامه وكثر الاخراج والانفاق»^(١١٤)، فضلاً عما ابتليت به افريقية على عهد الحفصيين من علة التطاحن والتآمر والعذر حتى بالنسبة لمن اعانوه وساعدوه على الفوز بإمارته افريقية. فثور ابن الوزير عليه فى قسنطينة كانت بلاشك نتيجة لهذه الحالة السيئة، وقد وجد ابن الوزير فى شخص بيدرو الثالث حليفاً ونصيراً له، فوعده بالمساعدة والتأييد انتقاماً من ابى اسحاق ابراهيم، يقول ابن القنفذ أنه «كتب إلى النصارى يحصنهم على ملك قسنطينة وغيرها، فجهزوا الحركة إليها»^(١١٥). ورغم فشل ثورة ابن الوزير لتأخر اتحاد بيدرو الثالث له إلا أن الاسطول الارغونى نزل فى مرسى القل فرضة قسنطينة وجرت بينه وبين أهالى المنطقة عدة معارك ومناوشات، ولم يتقدم الجند الارغونيون داخل البلاد لأنهم كانوا يترقبون النجدة والمساعدة من البابا مارتن الرابع إلا أنه لم يستجب لرغبة الملك الأرغونى نظراً للخلاف القائم بين ملك أرغون بيدرو الثالث وبين ملك صقلية شارل دى آنجو، وهذا الأخير كانت له مع البابا علاقات طيبة بالاضافة إلى أن البابا كان فرنسى الأصل مثل شارل دى آنجو، وهكذا إضطر الملك الأرغونى إلى الاقلاع عن مرسى القل فى النصف الثانى فى أغسطس ١٢٨٢م (٦٨١٠هـ) عائداً إلى بلاده دون أن يحقق ما كان يهدف اليه من تحالفه مع ابن الوزير ضد الأمير الحفصى ابى اسحاق ابراهيم^(١١٦).

ثم انشغل بيدرو فى حروبه مع شارل دى آنجو وشهدت المرحلة الاخيرة من تلك الحروب الاشهر الاخيرة، من عهد أبى اسحاق ابراهيم وفترة الدعى ابن ابى عمارة، ونتج عن كل ذلك أن الامير الحفصى الجديد عمر بن أبى زكريا بن عبد

الواحد بن أبي حفص بعد هزيمته للدعي ابن أبي عمارة، وبيعته في ٢٦ ربيع الثاني ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) مستعيدا مجد آبائه الحفصيين^(١١٧)، وجد نفسه وجها لوجه مع بيدرو الثالث الارغوني الذي انتصر في حروبه على شارل دي آنجو وعلى الرغم مما بدا على بيدرو الثالث من إحجام عن غزو حقيقى لأفريقية إلا أن ذلك لم يمنع من أن تصبح الامارة الحفصية عرضة لاعتداءات متكررة يقوم بها بحارة صقلية وقراصنتها.

ففي سبتمبر ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) قام أمير البحر القطلاني روجر دي لوريا Roger de Lauria باحتلال جزيرة جربة وجزر قرقة المجاورة للساحل التونسي^(١١٨). وذلك ليكون له قاعدة صلبة ذات موقع هام بمثابة سد يعوق أي حركات تنطلق ضد الوجود الارغوني في صقلية. وتتفق المصادر التاريخية على أن احتلال روجر دي لوريا جربة كان اقرب ما يكون إلى البادرة الشخصية منه إذ أنه لم يتلق أوامر باحتلالها من بيدرو الثالث، وإنما كان ذلك حسب اتفاق جرى بينه وبين أحد أبناء بيدرو الثالث هو الأمير خايمي حاكم مسينا^(١١٩). كما أن روجر دي لوريا لم يجد أي مقاومة من أهل جربة تذكر عند نزوله بها، وقد يفسر ذلك قول ابن خلدون من أن أهلها كانوا من الخوارج والنكارة^(١٢٠)، مما يوهم بأن خلافهم المذهبي مع الامارة الحفصية كان هو السبب في عدم مقاومتهم للغزو. بينما يجعل البعض الآخر بعد الجزيرة عن حاضرة الامارة من أسباب التعجيل والسهولة لاحتلالها^(١٢١)، أو بسبب ضعف الامارة الحفصية في الدفاع عن نفسها ورد المغيرين عنها في عهد الأمير أبي حفص عمر^(١٢٢).

ومهما يكن من أمر، فقد استقر الارغونيون في جزيرة جربة أكثر من نصف قرن إذ لم يجر استرجاعها إلا في أواخر الأربعين والسبعمئة، وقد صاحب ذلك الاحتلال التنكيل بالاهالي، والارهاق بالضرائب، يقول ابن خلدون: «ثم تغلبوا عليها (أي جربة) فانتهبوا أموالها، وحملوا أهلها أسرا وسبيا، فقبل: أنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضع في الجيوب.....، ثم بنوا بساحلها حصنا واعتمروه وشحنوه حامية وسلاحا وفرض عليهم (ضريبة) مائة ألف دينار كل سنة»^(١٢٣).

وفي ابريل ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) تلقى بيدرو الثالث ملك اراغون شكاية اثنين من رعاياه كانا مقيمين في تونس، يعلمانه فيها باستيلاء بعض موظفي الدولة الحفصية على أموالهما، فأمر الملك الأراغوني بالاستيلاء على أملاك الرعايا

الحفصيين والأتيان بها إلى قطلونية لتعويضهما عما لحقتهما من أضرار^(١٢٤)، هذا الموقف كان مجحفاً وأضر بلا شك بالتجارة الإفريقية.

ويبدو أن الأمير عمر الحفصى أدرك سوء العاقبة ورد الفعل الأرغونى لا سيما بعد أن أصبحت القوات الأرغونية متمركزة فى كل من جزيرة جربة وجزيرة صقلية فبادر بارسال سفارة إلى ملك أرغوان بيدرو الثالث مكونة من أربعة أشخاص للتفاوض معه وعقد معاهدة جديدة لمدة خمسة عشر عاماً وقعت هذه المعاهدة فى Panizars فى الثانى من يونيو سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ)، وكان أهم ما تضمنته تلك المعاهدة بالإضافة إلى النواحي التجارية والملاحة البحرية، أن يمارس المسيحيون شعائرهم الدينية بكل حرية فى الاراضى الحفصية وأن يسمح لهم بقرع اجراس كنائسهم، والسماح للصقليين والقطلونيين ببناء الفنادق والمتاجر فى أى مكان يختارونه، وحرية ملك أرغون فى تعيين من يراه من القناصل فى مختلف أنحاء الامارة الحفصية، وله أيضاً حق تعيين قائد الفرقة العسكرية الارغونية التى تعمل فى البلاط الحفصى منذ القديم، وحق القناصل التابعين لملك الأرغونى فى مقابلة الأمير الحفصى مرة فى الشهر على الأقل مع إلزام الامارة الحفصية بأداء ضريبة سنوية تدفعها لمملكة أرغون تبلغ حوالى ٣، ٣٣٣، ٣٣٣ بيزة وأن يعوض ملك صقلية وأرغون آل دى أنجو فى استخلاص الضريبة التى إلتمت بها الدولة الحفصية لشارل دى أنجو بموجب المعاهدة التى عقدت إثر حملة لويس التاسع على تونس^(١٢٥).

كانت هذه الاتفاقية آخر أعمال بيدرو الثالث ملك أرغوان والذى توفى فى الحادى عشر من نوفمبر ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ)^(١٢٦)، تلك الاتفاقية التى أوضحت مدى الضعف الذى وصلت إليه السلطنة الحفصية والتى تعتبر بداية لتدخلات أرغونية جديدة.

هوامش البحث

١- ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتى من هنتاته اعظم قبائل مصمود^١، و يعتبر هذا الشيخ من مؤسسى دولة الموحدين، بما كان له من سابقة فى الجهاد مع الموحدين، فلما توفى تداول أبناءه الرياسة وتقلبوا فى الامارة فى الاندلس والمغرب وإفريقية، ولما افضت الخلافة للناصر عين بولاية إفريقية الشيخ عبد الواحد نائباً عنه. انظر: ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرها من ذوى السلطان الاكبر، الجزء السادس، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٧٥ وما بعدها، الزركشى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم): تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦، ص ٢١ - ٢٣، حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر ١٩٨٣ - ص ١٢٦ - ١٢٨.

٢- ابن القنفذ القسنطينى (أبو العباس احمد بن حسين بن على بن الخطيب): الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى، الدار التونسية، ١٩٦٨، ص ١٠٥.

٣- التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد): رحلة التجانى، نشر حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨، ص ٣٦٢.

٤- نفس المصدر، ص ٣٦٠، وانظر ايضا: محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها فى المغرب العربى: دار الغرب الاسلامى، بيروت ١٩٨٦، ص ٨٨.

٥- ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٧٩، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٠٦.

٦- ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٠.

٧- ابن خلدون، نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٧، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٠٦.

٨- ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.

٩- نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.

١٠- ابن ابى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله): الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل يوجن تورنبرغ، أبساله، ١٨٤٣، ص ١٦٣ وما بعدها.

١١- ابن خلدون: المصدر السابق، ج٦، ص ٢٥٢.

١٢ نفس المصدر والجزء والصفحة.

١٣- نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٣.

- ١٤- ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٠٧.
- ١٥- ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٠٧.
- ١٦- ابن خلدون: تاريخه، الجزء السادس، ص ٢٥٣.
- ١٧- ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٠٨.
- ١٨- نفس المصدر والصفحة.
- ١٩- نفس المصدر والصفحة.
- ٢٠- نفس المصدر والصفحة.
- ٢١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي، مؤسسه شباب الجامعة، الاسكندرية، ص ٨١٨.
- ٢٢- محمد العروسي المطوي: السابق، ص ١٣٢.
- 23 - Dufourcq (charles - Emmanuel): L'Espagne Catalane et le Maghrib aux xiii et xiv siecie, Paris, 1966, p. 93.
- ٢٤- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): التكملة لكتاب الصلة، طبع بعناية كوديرة وزيدان، مجريط، ١٨٨٦، ترجمة رقم ٤٠٠، ٦٣١، الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم): صفة جزيرة الاندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٩١.
- 25 - Markham (clements): The story of Majorica and Minorica, London, 1908, pp. 37-38.
- 26- Ibid
- ٢٧- المقرئ (شهاب الدين ابو العباس أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، ج٦، تحقيق الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الاولى، مطبعة السعادة، ١٩٤٩، ص ٢١٤، وانظر ايضا:
- ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد): كتاب الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة، السفر الاول - القسم الاول، تحقيق محمد بن شريفه، دار الآبار: التكملة، السفر الثاني، الثقافة، بيروت، ص ٣٤٥، ترجمة رقم ٤٣٦، وقارن، ابن ص ٣٧٥، ترجمة رقم ٩٨٣.

28 - Alcover (Miguel): - El conquistador la isla de Mallorca, Palma de Mallorca, 1929 p. 117.

29- Vilar (p): La catalogne dans L'Espagne moderne, T.I, Paris, 1962, pp. 443-446

30- Brunschvig (R.): La berbérie orientale sous Les Hafsides, Vol, I, Paris, 1940, pp. 27 - 29.

٣١- وما جاء في هذه القصيدة:

' أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا.

وهب لها من عزيز النصر ما التمسست فلم يزل منك عز النصر ملتصبا

في مخطوط زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المرابط (أبو العلاء محمد بن علي)، ضمن مخطوط الاسكوريال رقم ٥٢٠، من لوحة ٨٢ إلى لوحة ٨٤، ابن الخطيب (لسان الدين): أعتمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام، الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا: نشر ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٣٧٢ - ٣٧٣، ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٨٣، ص ٢٨٥، المقرئ: نفح الطيب، ج٣، ص ٣٤٧، وجد٤، ص ٢٨٢.

٣٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ج٦، ص ٢٨٥، الزركشي: المصدر السابق، ص ٢٧، ص ٢٨.

٣٣- ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة، الزركشي: نفس المصدر، ص ٢٨، وانظر ايضا:

The chronicle of James I, King of Aragon surnamed the conqueror (Written by himself), Translated from the catalan by the Late John Forester Esq. Vol. I, London, 1883, pp. 377 - 380.

٣٤- ابن البار (ابو عبد الله محمد بن عبد الله): الحلة السيرة، الجزء الثاني، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٢٧، وانظر ايضا: ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد): البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، القسم الرابع، تحقيق أويشي ميراندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠، ص ٣٤٥، ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٨٥.

35- Sayous : Les methodes Commerciales de Barcelona aux xiiie et xive
siècles, 97, en (Revue Estudis Uiversitaris Catalans, T.
16, Barcelona, 1931, P. 198. Durourcq: Op. cit, p.98.

٣٦- منشور بابوي في ٩ يوليو ١٢٤٦ م، في:

37- Berger (E): Les registres d'Innocent IV, Bibliothèques des Ecoles
Française d'Athènes, Rome, (collection Paris), 1884 - 1911, T.I.P.
299; Dufourcq: Ibid.

38- Dufourcq : Ibid, p. 98.

39- Registros de chancillerie de L'Archivo Real de la Corona de Aragón,
9, F 15, Alemany (J): Milicias Cristianas al Servicio de los sultanes
musulmanes del . Almagreb en (Homenaje D. Francisco Codera en su
Jubilacion del Profe sorado, Zargoza, (1904).

40- Alemany: Ibid, P. 160.

٤١- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص ٢٨١.

٤٢- نفس المصدر والجزء والصفحة.

٤٣- نفس المصدر والجزء والصفحة.

٤٤- كان السلطان الحفصي يدفع شهريا لكل عضو في الفرقة المسيحية مبلغ يتراوح ما بين
٤٥ إلى ٩٠ دينار بيزنطي، أما قائد الفرقة فكان يتقاضى ما بين ألفي وثلاثة آلاف بيزنطي
شهريا، وكان الارغوني يحصل على جزء منها، ١٥ دينار بيزنطي تقريبا في الشهر عن
كل عضو في الفرقة، والف دينار بيزنطي شهريا عن القائد، انظر:

Dufourcq : Op. cit, pp. 102 - 103.

45- Archivo de la corona de Aragón, Barcelona, ACA, Pergaminos de
Jaime I No 1498.

46- ACA, Rg. 10, Fo . 16.

47- ACA, Pergaminos de Jaime I, No 1498

48- ACA, Rg. 9, Fo . 15.

49- ACA, Rg. 10, Fo . 16.

50- Dufourcq: Op. cit, p. 111.

51- Bofarully Broco: Historia de Cataluna T. III, Barcelona, 1876, p. 367.

٥٢- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص ٢٨١.

٥٣- الزركشى: تاريخ الدولتين: ص ١١٨.

٥٤- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص ٢٨١.

٥٥- نفس المصدر والجزء والصفحة وانظر ايضا: ابن الخطيب (لسان الدين): الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج١ تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣١٦.

٥٦- ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٨.

٥٧- نفس المصدر السابق والصفحة.

58- Brunschvig: La berbérie, t. I, pp. 41, 73.

59- Dufourcq: Op. cit, p. 112.

60- Ibid, pp. 24-25.

61- Ibid, p. 113.

62- Ibid, p.113

63- Fernando y. Gonzalez: Estado Socialy Politico des Los mudjares de Castille, Madrid, 1866, p. 166.

64- Gaspar Remiro (M.): Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, pp. 300 - 303 Dufourcq: op. cit, p.118.

65- Ibid, p. 119.

٦٦- وكان خايمى الاول ملك ارغون قد منح مجلس مدينة برشلونة حق تعيين القناصل
بمرسوم أصدره عام ١٢٦٦، انظر:

SWIFT (F.D.) I: The Life and times of James the first the coqueror, Oxford, 1894, pp. 295 - 296.

٦٧- المقرئى (احمد بن على): السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الاول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٣١.

68- Brunschvig, op; cit, T.I., p. 36.

٦٩ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، الجزء الاول، التاريخ السياسى، الطبعة العاشرة، الناشر مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٥٥٩.

70- Dutailis (Charles petit): Saint Louis, in, (The cambridge Medieval History), Vol. VI, Chap. x Cambridge, 1968, p. 360.

71- Brunschvig, op. cit, p. 53.

72- Ibid, P. 54.

٧٣ - ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص ٢٩١، وانظر ايضا: محمد العروسى المطوى: المرجع السابق، ص ٢٠٠.

٧٤ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة.

75- Brunschvig: op. cit, p. 57.

76- Dufourcq: op. cit, p. 121.

77- Aguado Blaye: Manuel de Historia de Espana, t I Madrid, 1947, p. 729.

78- Ibid, pp. 734 - 735.

79- Mas Latrie: Traites de paix et de concernant les relations de chrétiens avec les Arabes de L'Afrique Seprentrionale au moyen - âge, Paris, 1886.

80- Brunschvig: Op. cit, p. 51, No. I.

وثيقة بيزيه مؤرخة في عام ١٢٧١م يستفاد منها أن خايمي الفاخ عين في ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م مسؤولان عن الفندق والقنصلية القطلانية في تونس هما انظر:

Lorenzo oto, Pere Pascase

Mas - Latrie: op. cit, pp. 93 - 96;

81- Orton (previte): Italy, 120 - 1290, in (The Cambridge Medieval History, T. Vi Chap. 6), Cambridge, 1968, p. 191.

٨٢ - ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص ٢٩٤.

83- Brunschvig: Op cit, pp. 63 - 64.

84- Dufourcq: op. cit, p. 124

٨٥- ابن خلدون: المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٦.

٨٦- الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٠، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٣٤.

٨٧- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٦، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٣٤.

٨٨- ابن القنفذ: نفس المصدر، ص١٣٥

٨٩- نفس المصدر والصفحة.

٩٠- سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص٥٥٩ - ٥٦٠.

٩١- كونراد لانثيا، ابن عم الملكة كونستانس زوج بيدرو الثالث ملك أراغون، وكان بحارا ايطالياً ممتازاً، دخل في خدمة مملكة أراغون، وأنعم عليه بيدرو الثالث بلقب اميرال السفن الارغونية، انظر:

Dufourcq: op. cit. p. 240.

92- Dufourcq: op. cit. p. 240.

93- Brunschvig: op. cit. pp. 74 - 75.

94- Mas - Latrie : op. cit, pp. 187 - 188.

95- Brunschvig: op. cit. pp. 75 - 77.

96- Dufourcq: op. cit, p. 242.

97- Ibid, p. 242.

98- Brunschvig op. cit. p. 76.

٩٩- ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٣٥.

١٠٠- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٧.

101- Dufoucq: op. cit, p. 243.

١٠٢- ابن خلدون: المصدر السابق والجزء، ص٢٩٧.

١٠٣- نفس المصدر والجزء، ص٢٩٧، ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٣٦.

104- Dufoucq: op. cit, p. 243.

١٠٥ - ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١٣٩.

106- Dufoucq: op. cit, p. 243.

107- Ibid, p. 244.

108- Ibid, p. 245

109- Ibid.

110- Ibid.

111- Ibid, p. 246.

112- Ibid, p. 247.

١١٣ - ابن خلدون: المصدر السابق، والجزء والصفحة، وانظر ايضا:

Brunschvig: op. cit, pp. 80 - 83.

١١٤ - ابن القنفذ : المصدر السابق، ص ١٣٩.

١١٥ - نفس المصدر والصفحة.

116-Prietoy Llovera (partricio): Politica Aragonesa en Africa, hasta la muerte de Fernando el catolico, en (Premio " Africa" de Litertura), 1951, Consejo Superior de investigaciones, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1952 pp. 44 - 45.

١١٧ - ابن خلدون : المصدر السابق والجزء، ص ٣٠٥.

١١٨ - ابن القنفذ : المصدر السابق، ص ١٥٠، وانظر أيضا :

Brunschvig: op. cit, p. 93.

119- Ibid, p. 93.

١٢٠ - ابن خلدون : المصدر السابق والجزء السابق، ص ٣٠٥.

121- Brunschvig: op. cit, p. 93.

١٢٢ - محمد سعيد المطوي : المراجع السابق، ص ٢٧٣.

١٢٣ - ابن خلدون : المصدر السابق والجزء، ص ٣٠٦.

124- Brunschvig: op. cit, . 94.

125- Ibid, p. 94 - 95.

126- Dufourcq: op. cit, p. 247.

البحث الخامس

غزوة البياضة والقطلان

لجزيرتى يابسة وميوزقة الإسلاميتين

(٥٠٨ - ٥٠٩ هـ / ١١١٤ - ١١١٦ م)

١ - الموضوع ومصادره :

تمتع المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرب الخامس وأوائل السادس للهجرة بوحدة سياسية ودينية قوية في ظل دولة المرابطين، التي أعادت لدولة الإسلام في الأندلس وحدتها بعد تفكك سياسي واجتماعي دام نحو ثلاثة أرباع القرن تحت حكم ملوك الطوائف، استهلتها بنصر حاسم في موقعة الزلاقة على قوى النصرانية في الأندلس، وأردفتها بالقضاء على دويلات الطوائف المتصارعة فيما بينها وضمها تحت رايتها فنعمت الأندلس من جديد بوحدة سياسية أهلتها لأن توقف - ولو إلى حين - حركة الاسترداد المسيحي.

غير أن جزءا هاما من دولة الإسلام في الأندلس أعنى به الجزائر الشرقية (البليار) منورقة وميورقة ويابسة لم تشملها راية المرابطين بل قامت فيها إمارة مستقلة، وقد ر لهذه الإمارة منذ أوائل القرن السادس الهجري أن تواجه في يابسة وميورقة حملة صليبية ضارية شاركت فيها قوات بيزية وقطلانية وممالك أخرى استهدفت السيطرة عليهما وإسقاط الحكم الإسلامي فيها، فجرت وقائع وأحداث مثيرة صمد أمامها مسلمو الجزائر الشرقية، وأستشهد منهم من أستشهد حتى تمكن المرابطون من استعادتها وضمها إلى دولتهم، فنعمت في ظلهم بالأمن وغدت درعا واقيا لشرق الأندلس ضد أسبانيا المسيحية بعد أن لعبت دورها البارز خلال الحملة الصليبية المشار إليها والتي جرت فيما بين سنتي ٥٠٨ - ٥٠٩ هـ / ١١١٤ - ١١١٦ م.

وكان البابا باسكال الثاني Paschal II قد بارك الحملة الصليبية للاستيلاء على الجزائر الشرقية ففي ٦ أغسطس ١١١٤ م / ربيع الأول ٥٠٨ هـ أقلت الحملة من بيزا للاستيلاء على ميورقة كبرى الجزائر الشرقية ولكنها باءت بالفشل وعادت سفن المعتدين في منتصف ابريل ١١١٦ م / ذي القعدة ٥٠٩ هـ خائبة - وبعد أيام قليلة - تمكن المرابطون من استرجاع الجزائر الشرقية.

والجدير بالذكر أن دولة الإسلام في الأندلس لم تواجه منذ زمن مبكر ضغطا متصلا من الممالك الأسبانية المسيحية فقط، بل واجهت أيضا القرب المسيحي قاطبة الذي كان يسعى لانتزاع الأندلس من أيدي المسلمين. وعليه فقد تحمل الأمويون في الأندلس عبء النضال والتصدي للمد النصراني، الذي ما لبث أن زاد زمن الطوائف، وأسفر عن سقوط طليطلة في يد القشتاليين عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)

ثم تصدى المرابطون في المغرب بمعاونة بعض القوات الأندلسية للخطر النصراني الذي توقف مؤقتا بعد انتصار الزلاقة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)، في الوقت الذي واجه فيه المشرق الاسلامي الخطر الصليبي أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث بدأت الحروب الصليبية وسقط بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م)، وأستقر الصليبيون في المشرق إلى حين.

وموضوع دراستنا هو غزوة البيازنة والقطلان على جزيرتي يابسة وميورقة الاسلاميتين، التي هي بمثابة حلقة في سلسلة الاعتداءات الصليبية على دولة الإسلام في المغرب الاسلامي، ولهذا فقد حرصنا على إلقاء الضوء على دوافع هذه الغزوة، والقوى المسيحية المشتركة فيها، وتبع خط سيرها منذ إقلاع الاسطول الصليبي من بيزا حتى استيلائه على يابسة فحصاره لمدينة بلمه حاضرة جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية، والمقاومة الباسلة التي أبداهها مسلمو الجزائر الشرقية مع إبراز موقف المرابطين إزاء هذا العدوان الصليبي وأخيراً استعادة المرابطين لميورقة وباقي الجزائر الشرقية.

أما عن مصادر البحث، فالواقع أن المصادر الاسلامية صممت تماما عن ذكر تفاصيل هذه الحملة الصليبية على جزيرتي يابسة وميورقة، وإن أوجزتها في عبارات مقتضبة، مثلما جاء في روايات ابن القطان في كتابة نظم الجمان، وأبن خلدون في تاريخه، والقلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الانشاء، والحميري في الروض المعطار في خبر الاقطار فيما عدا ابن الكردبوس في كتابة تاريخ الأندلس الذي انفرد بالحديث عن الحملة في شيء من التفصيل. وإلى جانب هذه المصادر هناك مجموعة وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين - قام بنشرها الدكتور محمود علي مكي في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد السابع والثامن - تلقى بعض الضوء على موقف المرابطين من مسلمي الجزائر الشرقية.

أما المصادر الأجنبية^(١)، فتعتبر القصيدة البيزية عن الحرب البليارية من أهم المصادر اللاتينية لأن ناظمها كان شاهد عيان، وقد حفظت منها ثلاث نسخ مخطوطة :

الأولى ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي محفوظة في مكتبة Laurenciana de Florencia المسماة Rediano نشرها Ughelli في كتاب : Italia Sacra, Tomo X.

أما النسخة الثانية فترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر أو القرن الخامس عشر وهي محفوظة في المتحف البريطاني في لندن والمسماه Britanico وقد نسبت هاتان المخطوطتان إلى الشاعر المؤرخ لورنثو الفيروني الذي يتفق المؤرخون على أنه كان رجل دين - شماساً أو قسيساً - في الحملة الصليبية على مسلمي يابسة وميورقة وكان شاهد عيان لأحداثها، وقد نشر Alvaro Campaner Y Fuertes ملحقين عنهما في كتابة :

Bosquejo Historico de La Dominacion Islamita en Las Baleares, Palma, 1888.

الأول (ملحق ٤) من ص ٢٦٤ - ٢٧٢ عن مدونة لاتينية قديمة تتعلق بفتح البيزيين لجزيرتي يابسة وميورقة نقلا عن نص لاتيني من كتاب فرديناند أوجيلي :

Ughelli (Ferd) : Italia Sacra, Tomo X, Venecia, Sebastian Colet, 1722.

والثاني (ملحق ٥)، من ص ٢٧٣ - ٢٩٠ بعنوان، مختصر من القصيدة اللاتينية للشاعر المؤرخ لورنثو الفيروني عن فتح البيزيين لجزيرتي يابسة وميورقة مترجماً إلى اللغة الأسبانية عن الأصل اللاتيني بعنوان :

Laurentii Veronesis (Seu Vernsis) Petri Secundi Archiepiscopi Pisani Diachoni, Rerum in Majorico Pisanorum ac de Corum Triumpho Pisis Habito Anno Salutis MCXIV.

وقد استفدنا في كتابة البحث من هذين الملحقين، مع الأخذ في الاعتبار أسلوب التقرير والمديح الذي أضفاه مؤلفها على قادة الحملة، والمبالغة الزائدة في وصف الأحداث..

أما النسخة الثالثة من المخطوط وهي الأكثر قدماً وتسمى Pisano Roncioni لكونها حفظت في الأرشيف الخاص بأسرة Roncioni العريقة، والتي نشرها معهد التاريخ الإيطالي Istituto Historico Italiano عام ١٩٠٤ تحت عنوان : Liber Maiolichinus de gestis Pisanorum Illustribus, A Cura di Carlo Colisse, Roma,, 1904

وبالرغم من كونه مصدراً تاريخياً غزير المعلومات، كقصيدة قصصية مليئة بالمديح والتقرير للإنتصارات التي حققتها الحملة الصليبية إلا أن رواياته متنوعة

وكاملة عن حصار القوات الصليبية والحروب الدامية التي جرت في جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية. فالقصيدة - على ذلك - تعتبر كشفاً رائعاً ليس فقط عن الحرب البليارية، لكن أيضاً عن السياسة والحكم والاقتصاد والتجارة والعلاقات الدولية لجمهوريتي بيزا وقطالونيا ودويلات البرانس، فهي إذن بمثابة خزانة معلومات تعرف حيناً باسم "El Maiolquino" وحيناً آخر بالقصيدة البيزية "El Poema Pisano"، وقد اعتمد عليها المؤرخ الأسباني Migual Alcover اعتماداً كبيراً ضمن مصادر أخرى في كتابة - 707 El Islam en Mallorca y La Cruzada Pisano - Catalane (1113 - 1115), Palma de Mallorca, 1930.

ومنها استفدنا أيضاً في دراسة الحملة الصليبية وعلى الأخص في التعرف على أماكن نزول القوات الصليبية المشتركة شرق جزيرة ميورقة، والكثير عن طبوغرافية حاضرتها وتحصيناتها.

٢ - أحوال الجزائر الشرقية قبل وصول الحملة الصليبية :

كان لتغير ميزان القوى في غرب البحر المتوسط خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، وازمحلل البحرى الأندلسى عقب سقوط الخلافة الأموية وما ترتب على ذلك من تفتت الوحدة السياسية الأندلسية وتجزئها إلى دويلات مستقلة، واعتماد هذه الدويلات وخاصة المطلة على السواحل على أساطيل محلية صغيرة هى فى حقيقة الأمر قطع من الأسطول الأندلسى اقتسمته فيما بينها^(٢)، كان لذلك كله أعظم الأثر فى أن تفقد القوى البحرية الأندلسية دورها البحرى البارز فى النصف الغربى من حوض البحر المتوسط باستثناء دولة مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية الذى تجمع المصادر - سواء العربية أو الاجنبية - على أنه قام بغزوات بحرية هامة منها غزاته لجزيرة سردينيا عام ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) بأسطول تكون من مائة وعشرين سفينة، وتمكنه من اقتحام الجزيرة والسيطرة على أكثر من مواضعها^(٣)، ومنها قيامه بغارة على سواحل إيطاليا الغربية ومهاجمته ثغر لونا Luni فى شمال غرب إيطاليا وما حواه من المناطق الساحلية^(٤)، كما أغار على ثغر برشلونه ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) وعلى ثغر أربونه Narbonne ٤١٠ هـ (١٠١٩ هـ)^(٥)، وهذه الإغارات البحرية لم تكن فى الأغلب إلا محاولات لاستعادة الدور البحرى الهام الذى كان للدولة الأموية خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

هذا فى الوقت الذى نمت فيه قوى بحرية جديدة معادية مثل جنوة وبيزا وساحل إيطاليا الشمالى الغربى، وأقبلت هذه القوى الجديدة على الملاحة فى مياه البحر المتوسط وذلك فى أعقاب نجاح الكونت وليام حاكم بروفانس فى عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) فى طرد مجاهدى البحر الأندلسيين من قاعدة فراكسنيث البحرية Fraxinet فى جبل القلال^(٦)، ولم يأت عام ٤٠٦هـ (١٠١٥م) إلا وقد أصبحت جنوة وبيزا قوتين بحريتين عظيمتين تمكنتا من إيقاع الهزيمة بأسطول مجاهد العامرى فى مياه سردانية^(٧)، وتمكنت أساطيلهما بعد ذلك من السيطرة على البحر المتوسط وتجارته، وكانت بمثابة حلقة الوصل فى الميدان التجارى بين كل من المشرق العربى وبيزانطة من جهة وبين الغرب من جهة أخرى^(٨).

وكان يتولى الجزائر الشرقية ولاية من قبل مجاهد العامرى أمير دانية والجزائر الشرقية وولده على إقبال الدولة من بعده، وهذا الأخير أولى الجزائر الشرقية عناية فائقة إذ كان يعتبرها من أفضل أجزاء مملكته، فاهتم بتقوية أساطيلها ودفاعاتها وعهد بإدارتها لمولاة عرفوا بشجاعتهم وتمرسهم فى شئون البحر، فساهموا بدور بارز فى الجهاد البحرى فى حوض البحر المتوسط الغربى من جهة وتأمين وتنشيط حركة التجارة من جهة أخرى^(٩).

وعندما استولى المقتدر بن هود أمير سرقسطة على دانيه فى شعبان عام ٤٦٨هـ / أبريل ١٠٧٦م، أعلن عبد الله المرتضى والى الجزائر استقلاله فيها حتى وفاته عام ٤٨٦هـ (١٠٩٣م)، ثم خلفه بعد موته مولاة مبشر بن سليمان^(١٠). ويفهم من رواية ابن الكردبوس أن مبشرا كان أصله من قلعة الحمير Castellidasens من أعمال لاردة Lerida، وأسره النصارى فى صباه وجبّوه وعاش فى برشلونه حتى تعرّف عليه سفير المرتضى أمير الجزائر الشرقية الذى كان مبعوثا إلى كونت برشلونه برنجير، فأعجب السفير بمواهب مبشر واقتداه من الأسر وقدم به على المرتضى فسر به وقرّبه وأولاه ثقته، واستعان به فى تصريف شئون الحكم وأبدى مهارة وإخلاصا حتى وفاة المرتضى فخلفه فى الإمارة وتلقب بناصر الدولة^(١١).

اهتم مبشر بن سليمان ناصر الدولة بضبط شئون إمارته فبنى العديد من السفن وشيد القلاع والحصون، وقد جاء فى كتاب "El Mailichinus" أن ناصر الدولة شيد الرىض الجديد بمدينة ميورقة وجدد أسوارها^(١٢) وكان له دور بارز فى الجهاد البحرى، فقد أغار أسطوله على شواطئ قطلونية وبروفانس وليجوريا، كما نجحت

تخصيناته الدفاعية في صد هجمات قطلانية ونورماندية على الجزائر الشرقية. وحدث أن سيجوارد الأول Siguard I ملك النرويج كان متوجهاً على رأس أسطوله إلى المشرق لمسانده القوات الصليبية تلبية لنداء الباب أوربان الثاني Urban II . فأغار على شواطئ غرب الأندلس ٥٠٢ هـ (١١٠٧ م)، ثم عبر مضيق جبل طارق وسار إلى الجزائر الشرقية، وهاجم جزيرة فورمنتيرة Formentera الصغيرة، وأضرم فيها النار وقتل حاميتها واستولى على ما فيها من أموال وذخائر ثم غادرها إلى جزيرة منورقة، غير أنه أجبر على تركها إلى صقلية بعد أن رأى منعه دفاعاتها وعنّف مقاومة حاميتها الإسلامية^(١٣).

٣- مسلمو الجزائر الشرقية ودورهم في مواجهة غزوة البياضة والقطلان على جزيرتي يابسة وميورقة :

أبدى الأسطول البحري الميورقي نشاطاً ملحوظاً حين أغار على سواحل قطلونيه وبلاد الفرنجة وإيطاليا واليونان وجزائر البحر المتوسط - قورسقة وسردانية وصقلية، واستولى على عدد من السفن المسيحية التي صادفها في سيره، فضلاً عما استولى عليه من غنائم كثيرة بينها أعداد كبيرة من الأسرى^(١٤) - وكان لذلك كله رد فعل لدى أهل بيزا وغيرها من مدن توسكانا Toscana الذين اشتعلت حماسهم الدينية للقيام بعمل رادع ضد مبشر بن سليمان ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية، الذي يغالي المؤرخ الإيطالي Ughelli في وصفه بأنه : « كان طاغية، قاسى القلب، يعامل الأسرى المسيحيين بقسوة بالغة، حتى أن عدداً كبيراً منهم كانوا مودعين في غياهب سجونهم، يرسفون في الأغلال ويتعرضون لأشد أنواع التعذيب »^(١٥). ويصور المؤرخ الشاعر لورنثو الفيروني ما أحدثته غارات مسلمي الجزائر الشرقية بقوله : « أن مسلمي البليار في إغاراتهم على الشواطئ الإيطالية واليونانية وجزيرة صقلية أضرموا النار في القرى والحصون والكنائس وحملوا معهم إلى ميورقة - ضمن ما غنموه - عدداً كبيراً من الأسرى عاملوهم معاملته سيئه لا رحمه فيها »^(١٦). وتقدر الرواية الأسبانية عدد الأسرى النصاري في سجون ميورقة بثلاثين ألف أسير يثنون تحت نير العبودية^(١٧).

والغريب هنا أن جمهورية بيزا هي التي أبدت حماسة متقدة دون غيرها من الدول المسيحية إذ قام بدور رئيس أساقفتها وخطب في الجماهير البيزية المحتشدة في كاتدرائية بيزا قائلاً : « إخوانكم مأسورين في ميورقة، مكبلون بالأغلال، ويتعرضون للعذاب والإغراء للارتداد عن دينهم المسيحي »^(١٨). ثم ترأس وفداً من إثنى عشرة

شخصية بيزية وسار لمقابلة البابا باسكال الثاني يلتبس موافقته على إعداد حملة صليبية ضد مسلمى الجزائر الشرقية، فبارك البابا هذه الفكرة، ومنحهم إمتيازات الحرب الصليبية مع غفران كامل للذين سيشاركون فى الحرب المقدسه، وعين بدرورئيس الأساقفة قائداً أعلى للحملة^(١٩).

ونتساءل هنا عن الدوافع الرئيسية التى حملت جمهورية بيزا على تبنى مشروع الحملة الصليبية على مسلمى الجزائر الشرقية. وللإجابة على هذا التساؤل ينبغى أن نبادر بالإشارة إلى أن جمهورية بيزا كانت تتطلع إلى السيطرة على الملاحة فى البحر المتوسط والتحكم فى طرق التجارة البحرية فيه سواء فى حوضه الشرقى أو الغربى^(٢٠)، لأن تجارتها البحرية كانت قد تأثرت كثيراً نتيجة للغارات البحرية التى كان يقوم مسلمو الجزائر الشرقية بها على سواحل أوروبا الجنوبية وجزر البحر المتوسط، فاستغلت جمهورية بيزا نقمة الشعوب المسيحية على مسلمى الجزائر وحولتها لمصلحتها الخاصة، وتبنى رئيس أساقفتها الفكرة ليس من أجل تحرير الأسرى النصارى من سجون ميورقة كما ادعى فحسب بل من أجل القضاء على منافس تجارى خطير وعدو رهيب طالما تعرض للأساطيل البيزية وأوقع بها الخسائر الفادحة.

وليس أدل على ذلك من أنه عندما طلب البابا باسكال الثاني من جمهورية جنوة المشاركة فى الحملة وهى المتضررة - أيضاً - تعللت بأنه يلزمها عاما كاملاً للإعداد للحملة، وقد عبر عن ذلك المؤرخ الأسباني خوان داميتو Juan Damieto بقوله أن الجنوبيين لم يرفضوا صراحة المشاركة فى الحملة ضد مسلمى الجزائر الشرقية حتى لا يغضبوا البابوية، ولكنهم طلبوا مهلة سنة كاملة للإعداد والتجهيز، وهذا يعد فى حد ذاته تسويفا لا رفضا واقتصرت مشاركتهم فى الحملة على التمنيات الطيبة^(٢١). فى حين أن المصادر العربية نصت صراحة على اشتراك جنوة فى هذه الحملة، فابن خلدون يذكر : «أنه فى سنة تسع وخمسمائة تغلب أهل جنوة على ميورقة»^(٢٢). أما ابن الكردبوس، فيقول : «فى سنة ثمان وخمسمائة اجتمع أهل بيشة (بيزا) وجنوة وعمروا ثلاثمائة مركب، وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقة...»^(٢٣). ويبدو أن الجنوبيين لم يشتركوا فى الحملة كدولة ممثلة، وإنما شارك فيها أفراد منهم، ويؤيد ذلك أن المؤرخ الشاعر لورنثو الفيرونى يذكر أن ألبرتو الجنوى الذى كان عدوا للبيزيين وصديقا للمسلمين انضم إلى الحملة الصليبية بعد وصولها إلى الشاطئ القطلاني بعد أن ارتاب فيه المسلمون وردوه فى

جفاء^(٢٤)، ولهذا كانت مشاركة ألبرتو الجنوى فى الواقع مشاركة فردية، فربما اختلط الأمر على المؤرخين المسلمين ففهموه على أنه مشاركة جماعية. وربما يرجع امتناع جنوه عن المشاركة فى هذه الحملة إلى التنافس التقليدى بين الجمهوريتين الإيطاليتين جنوه وبيزا فى حوض البحر المتوسط والصراع القائم بينهما للهيمنة على تجارته.

ومهما يكن الأمر، فإن البيزيين لم يترددوا فى الإعداد للحملة البحرية، فبنوا عددا كبيرا من السفن ذات الأحجام المختلفة والأغراض المتنوعة، وخصصوا قطعاً منها لحمل مؤنة الأسطول وأزواده، وقطعاً لنقل الجنود وعتادهم، وكذلك لحمل الدواب، كما ألحقوا بالأسطول عدداً من القطع الصغيرة بمثابة قوارب نجاة إلى جانب صنع أدوات الحصار والهجوم كالأبراج الخشبية والجسور والسلالم والمجانيق والكباش والسلاسل الحديدية اللازمة لشد السفن والدروع والبيضات والتروس والأسلحة من سيوف وسهام ونبال وأقواس وغيرها^(٢٥). وتقدر الرواية العربية عدد قطع الأسطول البيزى بثلاثمائة مركب^(٢٦).

وفى يوم عيد القديس سكستو San Sixto ٦ أغسطس ١١١٤ م (ربيع الأول ٥٠٨ هـ)، وهو اليوم الذى كان البيزيون يحتفلون فيه بانتصاراتهم الحربية، أبحر الأسطول البيزى من ميناء أرنو Arno فى ثلاثمائة قطعة بحرية فى اتجاه شواطئ جزيرة قورسقة Corecga وعبر مضيق بونيفاشيو Bonifacio، ووصل إلى لانجونا Langona ثم رُسا فى ميناء سانتا ريباراتا Santa Reparata، انتظاراً لوصول مزيد من السفن الأخرى، ثم توجه الأسطول بعد ذلك إلى جزيرة سردانية حيث رُسا فى ميناء الرأس الأبيض Capalbi، وانضم إليه قائدان من سردانية مع جنودهما^(٢٧).

وفى ميناء الرأس الأبيض بجزيرة سردانية دب الخلاف بين قادة الحملة البيزيين وظهرتباين أهوائهم، فتدخل نفر منهم للقضاء على الخلافات وتوحيد الصفوف قبل الإبحار، ونجحوا فى ذلك إذ وافق قادة الحملة على اختيار أميرين لقيادة الأسطول، وعلى هذا أبحر الأسطول البيزى فى اتجاه جزيرة ميورقة. غير أن بعض قادة الحملة البيزية لم يلتزموا بما اتفق عليه وإطاعة أميرى الأسطول مما أدى إلى حدوث بعض الفوضى وترتب على ذلك اختلال خط السير وانفصال بعض السفن عن الأسطول وتدخلت الطبيعة أيضاً لتزيد الأمر تعقيداً ففى الليلة الثالثة من إبحار الأسطول من ميناء الرأس الأبيض هبت عاصفة قوية مصحوبة ببرق ورعد

أفقدت الأسطول المسار الصحيح، ورسا الأسطول خطأ في - اليوم التالي - أى فى غرة سبتمبر على سواحل ظنوها سواحل جزيرة ميورقة، ونزلت القوات الصليبية إلى الشاطئ وهاجمت الأهالى، ولكنهم أدركوا أنهم فى أرض مسيحية تتبع كونتية برشلونة التى كان يحكمها آنذاك الكونت رامون برنجير الثالث وأن الشاطئ الذى رسوا عليه هو شاطئ بلانيس Blanes القطلانى الذى يقع على بعد ستة أميال من سانت فيليو دى جيشولز Sant Felieu de Guixols وعندئذ أصابهم إحباط شديد (٢٨).

لكن البيزيين عرفوا كيف يستفيدون من هذه الحادثة، ويستثمرون هذا الوضع الجديد لتحقيق مشروع حملتهم، فأرسلوا على الفور سفيراً من قبلهم يدعى إيليد براندو أورلاندى Ilde Brando Orlandi أحد القادة الاثنى عشر للحملة إلى الكونت رامون برنجير الثالث ببرشلونة، لتبرير الحادثة وتوضيح هدف الحملة ووجهتها وفي نفس الوقت معرفة إمكانية اشتراكه فيها، وعندما مثل السفير البيزى فى حضره الكونت رامون برنجير حياه قائلاً: «أيها الكونت صاحب الشهرة العظيمة: إن الأمة البيزية تحب فى حب المسيح الأمة القطلانية، وإذا وافقتم على زيادة الأسطول البيزى فستجدون أن جيشنا يأمل فى تحالفكم معنا وصحبكم لنا ويشرفه تبعيته لكم»، وأضاف السفير البيزى قائلاً: «ونحن معكم نحارب العدو اللدود، ونقضى على أطماع الطاغية البليارى المرعب الذى ذاعت شهرته فى الآفاق وأزعجت أعماله العدوانية كل شعوب إيطاليا واليونان»، فاستجاب الكونت رامون برنجير الثالث لما طلبه السفير ورد عليه قائلاً: لينصر الله قضيتنا، فيستسلم العدو لنا، ولنحتشد - جميعاً - للدفاع عن قضيتنا المقدسة ونعمل من أجلها وفى سبيل العدالة المطلقة أحمل سلاحى»، ثم حمل الكونت بشدة على مسلمى الجزائر الشرقية لإغاراتهم المتكررة على سواحل كونتيته ولما أحدثوه من أضرار وتخريب لأسوار وكنائس بلانيس Blanes التى كانت تزدان قبل إغاراتهم بزخارفها الرائعة، ولتطليخهم مذابح الكنائس بدم الرهبان والقساوسة، ولوقوع عدد من الباونات فى قبضتهم أصبحوا يعانون من نير الأسر يرسفون فى الأغلال بسجون ميورقة، ويقاسون من الجوع والعطش لأنهم لم يقبلوا الارتداد عن دين المسيح، وختم الكونت كلامه بقوله: «أن جيوشنا ستحارب من أجل القضية المقدسة، صفا واحداً لتحطيم عدونا الذى لا يرحم» (٢٩).

بهذه الكلمات الحماسية أجاب الكونت رامون برنجير الثالث على السفير البيزى، وكان هذا الرد يمثل كل ما كان يتمناه البيزيون، الذين استطاعوا أن يكسبوا إلى جانبهم حليفا قويا، خبيرا بمواقع الجزائر الشرقية، عليما بقوتها ومواطن الضعف فيها، وهكذا أصبح الاتفاق بين البيزيين والقطلانيين أمرا وشيكاً، مما زاد الحملة عددا وعدة، وغدت آمالهم أقرب إلى التحقيق.

وفى يوم ٧ سبتمبر عام ١١١٤م (ربيع الآخر ٥٠٨هـ)، وصل الكونت رامون برنجير الثالث إلى ميناء سان فيليو دى جيشولز - حيث تجتمع الأسطول - وفى صحبته الأساقفة: رامون Ramon من برشلونه، وبرنجير من جرنده Gerona، ونوخيلاريو Nogelario من سان روفو، San Rufo وحضر الاجتماع إلى جانب القادة البيزيين الاثنى عشر بدرو المندوب البابوى للحملة رئيس أساقفة بيزا، وبرناردو جيرمو Bernardo Guillermo كونت سردانية والفيكونت أرنالدو Arnaldo وجوفريدو من ثريا Gaufredo de Cervia وفرسان آخرون، وعقدت بين البيزيين والقطلانيين اتفاقية تحالف وصداقة، ونشرت نصوص هذه الاتفاقية - التى عرفت باتفاقية سان فيليو دى جيشولز - بيفرر Piferrer فى شىء من التفصيل، ومما جاء بها:

«اتفاقية تحالف وصداقة وقعها كونت برشلونه رامون برنجير الثالث مع قادة الجيش البيزى، الذى سيتوجه إلى ميورقة لتحرير الأسرى المسحيين، يلتزم فيها البيزيون بمساعدة القطلانيين فى كل الحروب التى تجرى مع مسلمى الأندلس، ويعترفون للكونت البرشلونى بحمل الراية البابوية الكبرى فى كل العمليات العسكرية، ويلتزم الكونت من جانبه بالتعهد بضمان حماية وأمن نفوس وأموال البيزيين فى جميع الأراضى التابعة للكونتية، كما وعد الكونت بإعفاء البيزيين من أى رسوم أو مكوس واستثنى سفنهم من قانون الغرق»^(٣٠). ويضيف المؤرخ والشاعر لورثو الفيرونى أن الكونت البرشلونى وافق على المساهمة فى الحملة بمائتى فارس ومائة سفينة قطلانية^(٣١).

ألهب وصول الأسطول البيزى واتفاق سان فيليو دى جيشولز الحماسة ليس فقط فى أرجاء إمارة قطلونية بل وفى الإمارات الفرنجية فيما وراء البرينية، فانضم إلى الحملة كل من: جيوم كونت موبلية بمائة فارس وجند مشاه وصلوا فى عشرين سفينة، واميركو فيكونت نربونه بعشرين سفينة، وسيد آرل ريموند بسبع سفن مليئة بمحاربى أشداء، وانضم إليهم قيم كنيسة آرل، وفرسان من روسيلفون

وبيثرس Beziers ونيمه Nimes وبروفنس^(٣٢)، كما انضم الى الحملة كونت أمبورياس Ampurias ورامون دى باس Ramon de Bas، وتوجت القوات المشتركة فى الحملة الصليبية إلى ميناء سالو Salou حيث بقيت هناك فترة طويلة فى انتظار الإبحار لغزو جزيرة ميورقة^(٣٣).

وفى يوم ٢٤ سبتمبر (ربيع آخر ٥٠٨هـ)، أقلع الأسطول الصليبي المشترك من ميناء سالو إلى ثغر سان ماتيو San Mateo بقيادة فرانكاردو Francardo وسيد البرنبيه أميرى الأسطول فى طريقه إلى الجزائر الشرقية، غير أن سوء الأحوال الجوية واضطراب البحر أجبرته على الاتجاه نحو مياه دانية بساحل شرق الأندلس حيث كانت تحت حكم المرابطين، مما اضطر قادة الحملة إلى إصدار أوامره بالعودة ثانيا إلى ثغر سالو، وفيه نزل الجند طلبا للمؤن والماء، ثم قرروا العودة إلى ثغر برشلونه وقضاء فصل الشتاء هناك، وفى الطريق إليها فقد الأسطول عددا كبيرا من السفن والرجال راحوا ضحية اضطراب البحر وارتفاع الأمواج^(٣٤).

وهكذا تدخلت العوامل الطبيعية فى فشل المحاولة الثانية للأسطول الصليبي للإغارة على الجزائر الشرقية، وفقد الأسطول عددا كبيرا من قطعة واضطر إلى قضاء الشتاء فى ميناء برشلونه لإصلاح ما عطب من قطعه وانتظارا لمدد جديد من بيزا - حيث أقلت ثلاثون سفينة - ولطلب المزيد من الامدادات العاجلة. على أن وجود عدد كبير من الفرسان والجنود المشاة والبحارة من القوات المشتركة فى ميناء برشلونه أدى إلى نقص فى الأقوات والمؤن فعمت المجاعة أرجاء قطلونية، وعمل البيزيون - أصحاب المصلحة الأولى فى هذه الحملة الصليبية - على تخفيف حدة هذه المجاعة بتقديم مقادير كبيرة من مخزون أسطولهم، ليس بصفة الهبة المجانية ولكن عن طريق البيع أو المقايضة على بعض السلع والمتاجر^(٣٥). وكان لهذه الظروف السيئة التى واجهت الحملة الصليبية أثر واضح فى تبرم بعض القوى المشاركة فيها، فانسحب بعضهم من الحملة وهم بذلك جند لوكا Luca مع عدد غير قليل من البيزيون أنفسهم^(٣٦).

وفى تلك الأثناء كان مبشر بن سليمان ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية يرقب سير الحوادث حذرا متأهبا، وكانت بعض قطع أسطوله ترصد تحركات الأسطول الصليبي والإستعدادات التى يقوم بها البيزيون والقطلانيون على ساحل قطلونية، وأدرك ناصر الدولة عظم الخطر الذى يحرق بإمارته فطلب الاجتماع بمستشاريه وقواده وعرض عليهم الموقف وطلب الرأى منهم، فقرروا جميعا التصدى للقوات

الصليبية ومقاومتها على أن يقوم ناصر الدولة بمناورة دبلوماسية لصرف نظر قادة الحملة المشتركة عن مهاجمة الجزائر الشرقية بأن يعرض على قادة الحملة الصليبية تسليم ما لديه من أسرى المسيحيين وتعويض قادة الحملة عما تكبدوه من نفقات وإمدادهم بما يلزمهم من المؤن في نظير التخلي عن مشروع الحملة، وبالفعل أرسل ناصر الدولة سفارة تحمل رسالة تتضمن هذه المقترحات، لكن القادة الصليبيين رفضوا تماما مقترحات السلم، مذكّرين إياه بالحملات التي شنّها مجاهد العامري على سردانية وسواحل إيطاليا واليونان قبل ذلك^(٣٧).

ومع ذلك فإن ناصر الدولة لم يأل جهدا في حراسة سواحل جزره ودرء الخطر عنها، لا سيما وأن بعض قطع الأسطول الصليبي كانت قد انتهزت فرصة تحسن الأحوال الجوية أوائل شهر مارس عام ١١١٥ وانجحت للإغارة على جزيرة يابسه، لكن مسلمي الجزيرة اشتبكوا في قتال عنيف مع الطلائع الأولى للجند الصليبي الذين نزلوا على سواحل الجزيرة وأبادوهم عن آخرهم، مما اضطر قطع الأسطول الصليبي إلى التحول إلى مهاجمة جزيرة فورمنتيره وأسر عدد من سكانها والاستيلاء على أعداد من الماشية، ثم أعادوا الكرة مرة أخرى على جزيرة يابسه وتجدد القتال واستبسل مسلمو الجزيرة في الدفاع عن الجزيرة غير أنهم اضطروا إلى التحصن داخل أسوارها، وتمكن الصليبيون من الاستحواذ على عدد كبير من الأسرى والغنائم^(٣٨).

وفي منتصف ابريل عام ١١١٥م وصلت سفينتان بيزيتان إلى ميناء بورتوبي Porto - pi في ميورقة، فرصدتها سرايا الحراسة الإسلامية في الجزيرة، وابلغت ناصر الدولة على الفور الذي أرسل يدعو القائد البيزي للمثول بين يديه باسطا له ولجنده الأمان، لكن القائد البيزي اعتذر عن قبول دعوته والتمس مقابله علي ظهر سفينته، غير أن الأمير عرض عليه كحل وسط أن يتفاوضا عن طريق رسائل مكتوبة، فأجابه القائد البيزي أنه سيفكر في هذا العرض، وفجأة ألقع البيزي خارجا من ميناء بورتوبي!!^(٣٩). والرواية المسيحية التي تروى هذه الواقعة لم تشر إلى دوافع أو نتائج هذه الزيارة الغريبة -، ولعل هذه الزيارة المفاجئة كانت مرتبطة بالعرض الذي قدمه ناصر الدولة قبل ذلك للقادة الصليبيين، الذين أرسلوا يبلغونه برفضهم لمقترحات السلام التي قدمها، وأن تبسط أمير الجزائر مع القائد البيزي ومحاولة الالتقاء به ربما لشرح وجهة نظرة ومحاولة إقناعه بفرض السلام، لكن كما رأينا فإن القائد البيزي ألقع فجأة دون أن يجيب أمير الجزائر الشرقية إلى طلبه.

وعلى أية حال، فقد انضمت السفينتان في عرض البحر إلى بعض قطع الأسطول الصليبي واتجهت إلى جزيرة قبريرة Cabrira الصخرية الصغيرة، فرست في مينائها، وفي اليوم التالي، أقلت في اتجاه ميناء بولانسه Pollensa شمال جزيرة ميورقة، بغرض السلب والنهب لكن سكان هذه الناحية لم يمكنوهم من ذلك فهربوا إلى داخل الجزيرة بماشيتهم، ثم توجه القائد البيزى إلى جزيرة منورقة ونزل جنوده إلى الساحل لكن فرسان المسلمين ومشاتهم هاجموهم وأرغموهم على الارتداد إلى سفنهم، عندئذ قرر القائد البيزى العودة إلى برشلونه^(٤٠).

ومن المؤسف أن أخبار هذه الإغارات الأخيرة على الجزائر الشرقية استقيناها من الروايات المسيحية لأن المصادر العربية لم تشر إليها ولهذا كان علينا أن نعتمد على هذه المصادر المعادية على الرغم من أنه يمكن القول فيما يتعلق بأهداف الإغارة الأخيرة هذه أنها كانت ترمى إلى تحقيق هدفين: أولهما، الحصول على الأقوات والمؤن للقوات الصليبية المشتركة المقيمة في ميناء برشلونه والتي كانت تعاني من نقص كبير في المؤن وهذا ما تؤكد الرواية المسيحية نفسها، وثانيها، الاستطلاع والتعرف على تحصينات ودفاعات الجزائر الشرقية تمهيدا لتنفيذ مشروع الغزو الكبير.

وعلى أية حال، فبعد فترة قليلة من توقف الغارات على الجزائر الشرقية وصلت سفينتان ييزيتان إلى ميناء برشلونه تبشر بقرب وصول الامدادات والمؤن من بيزا، كما وصل الكاردينال بوسون Boson القاصد الرسولى للبابا باسكال الثانى، وفي أوائل الربيع وصلت ثمانون سفينة تحمل مددا من الرجال بجانب الأقوات والمؤن، ووصل القنصلان دودون Dodon وآتو Ato ومعهما توصية بابوية إلى قادة الحملة الصليبية بأن يعملوا على إطلاق سراح الرعايا المسيحيين الأسرى في سجون ميورقة، وهى المهمة التى سلم البابا من أجلها لقادة الحملة رايته وشعاره^(٤١).

ويجدر بنا أن نتساءل، أين كان المرابطون من هذه الأحداث؟ ولماذا لم يسارعوا لإنقاذ الجزائر الشرقية من مصير مؤلم قد تتعرض له أو على الأقل لماذا لم يسارعوا إلى ضم الجزائر الشرقية إلى دولتهم؟ وللإجابة على هذه التساؤلات، ينبغى القول أن المرابطين بعد أن اسقطوا ملوك الطوائف الجنوبية والغربية الأندلسية الذين أثبتوا عجزهم وضعفهم وتخاذلهم، لم يتعرضوا بسوء لمبشرين سليمان ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية، ولعل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اتبع فى علاقاته مع إمارة الجزائر الشرقية المستقلة نفس السياسة التى انتهجها مع بنى هود أمراء سرقسطة

والثغر الأعلى الأندلسي، إذ رأى أمير المسلمين أن كلتا الإماراتين تقوم حائلا بين ممالك النصارى وما يليها من بلاد المسلمين، ثم أن امراءهما لم يحالفوا النصارى المتآخمين لهم ضد جيوش المرابطين ولم يقفوا من الدولة الإسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذى وقفه غيرهم من ملوك الطوائف^(٤٢). فضلا عن أن المرابطين كانوا يعتبرون الجزائر الشرقية الدرع الواقى لشرق الأندلس يقيه من أى خطر يتعرض له، فما إن أحس المرابطون بتحركات الحملة الصليبية المشتركة على الساحل القطلانى واتفاق كونت برشلونة رامون برنجير الثالث وتحالفه مع البيزيين للإغارة على الجزائر الشرقية حتى انطلقت حملة مرابطية فى محاولة للضغط على أميرها للإنسحاب من تحالفه مع البيزيين وقاد هذه الحملة سنة ٥٠٨ هـ (١١٤ م)، القائدان المرابطيان محمد بن الحاج ومحمد بن عائشة إلى أرض برشلونة، وقد بدأت غزوتهما الجريئة بداية طيبة إذا أصابا كثيرا من الغنائم، غير أن ابن الحاج عند رجوعه اتخذ طريقا جبليا صيقا غير الذى سلكه فى ذهابه، وما كاد يتوسطه حتى أطبق عليه كمين من النصارى فقاتلهم قتال من أيقن الشهادة واستشهد فى هذه المعركة فعلا وهى الموقعة التى يعرفها مؤرخو النصارى باسم كونجست دى مارتوريل Congost de Martorell ونجا ابن عائشة بصعوبة بالغة^(٤٣).

ثم بدأت الاستعدادات لتنفيذ مشروع الحملة الصليبية المشتركة على الجزائر الشرقية بأسطول مكون من خمسمائة سفينة، ساهمت جمهورية بيزا بثلاثمائة سفينة، وقطلونية بمائة وثلاثين سفينة، وقدم المشاركون الآخرون سبعين سفينة، وبلغ عدد القوات المشاركة فى الحملة خمسا وسبعين ألفا مابين فارس وراجل، منهم سبعة وثلاثون ألفا من البيزيين وخمس وعشرون ألفا من القطلان، واثنى عشر ألفا وخمسمائة من عناصر مسيحية أخرى^(٤٤).

أقلع الأسطول الصليبي من ميناء برشلونة إلى ميناء سالو، حيث تجمعت هناك القوات الصليبية برئاسة بدور رئيس أساقفة بيزا يرافقه القاصد الرسولى بوسون وكبار القادة الصليبيين الذين جددوا العهد على التحالف، وأقلع الأسطول من سالو فى يوم عيد القديس يوحنا المعمدان San Juan Bautista ١٠ يوليو ١١٥ م (صفر ٥٠٩ م) فى ظروف جوية ملائمة متوجها إلى جزيرة يابسة فدار حول رأس لينترسكا Capo de Llentrisca الواقع بين جزيرتى فورمنتيره ويابسه ثم رسا فى ميناء يابسة أمام عاصمة الجزيرة التى تحمل اسمها، وهى مدينة حصينة مشيدة على ربوة عالية تدور حولها الاسوار الحصينة وعليها أبراج مراقبة مشحونة بالرجال تحيط بها

خنادق عميقة تزيدها منعة، وعندما عاين قادة الحملة الصليبية منعة المدينة، أمروا قواتهم بالنزول إلى البر وعسكروا في منطقة سهلية أمامها، ومن ثم بدأوا محاولاتهم الأولى للهجوم على الأسوار التي استغرقت طوال اليوم وسقط فيها عدد ليس بالقليل من القتلى والجرحى. وفي اليوم التالي شرع الصليبيون في إعداد آلات الحصار من أبراج خشبية ومجانيق وكباش فهاجموا أعلى السور بالأبراج الخشبية وأسفله بالكباش ونجحوا في إحداث ثلثة في السور الأول للمدينة نفذوا منها غير أنهم قوبلوا بمقاومة باسلة من مسلمي يابسه واستمرت الاشتباكات ثمانية أيام حاولت خلالها القوات الصليبية دك السور الثاني للمدينة حتى تمكنوا في اليوم الثامن من إحداث ثلثات في السور الثاني^(٤٥). فانسحبت حامية المدينة إلى القلعة التي كان يحيط بها سور قائم بذاته، وأخذت الحامية الإسلامية في قذف القوات الصليبية ببوابل من الأحجار من أعلى السور، غير أن القوات الصليبية نجحت بما توفر لها من آلات حربية متنوعة في أن تشن هجوما ببوابل من القذائف على القلعة الداخلية فأصابته - من بين ما أصابته أبا المنذر وإلى المدينة بحربة اخترقت حنجرته وجرحى نقله بعيدا عن مواضع القتال، وكان أبو المنذر يراقب الموقف بعين حذره وخبرة وعاین ما أحدثته القوات الصليبية من أضرار جسيمة، فأدرك ألافائدة من المقاومة، وعرض تسليم المدينة على أن يؤمن سكانها من المسلمين على أرواحهم، فقبل قادة الحملة عرضه، وفي يوم عيد القديس لورنثو San Lorezo ١٠ أغسطس ١١١٥ م (ربيع الأول ٥٠٩ م) تم تسليم المدينة، ورفع قادة الحملة الصليبية أعلام النصر، وشرعوا على الفور في دك التحصينات والأبراج والأسوار وسووها بالأرض، في الوقت الذي انتشرت فيه قواتهم تسلب وتنهب كل ما يقع في أيديهم، وأمر قادة الحملة الصليبية بتجميع هذه الغنائم في مكان آمن نظرا لحدوث خلافات خطيرة بين الجند الذين سرعان ما طالبوا بأنصبتهم من الغنائم^(٤٦).

هذه هي الرواية اللاتينية عن غزو جزيرة يابسه، وبالرغم من سمات المبالغة، وما ورد فيها من تضخيم وإبراز للدور الكبير الذي لعبته القوات الصليبية في الاستيلاء على المدينة إلا أنها في الوقت نفسه اعترفت بالدور البطولي الذي لعبته حامية الجزيرة المسلمة في مقاومة الغزو الصليبي.

أما المصادر العربية فلم تشر كما سبق أن أشرنا من قريب أو بعيد لهذه الغزوة باستثناء ابن الكردبوس الذي يقول في اختصار شديد: «اجتمع أهل بيشة (بيزا)

وجنوه، وعمروا ثلاثمائة مركب، وخرجوا إلى جزيرة يابسه من عمل ميورقة، فغلبوها وسبوها وأنتهبوها»^(٤٧).

وعندما وصلت أخبار استيلاء الصليبيين على جزيرة يابسه وتخريبها ونهبها إلى ميورقة حاضرة الجزائر الشرقية، كان لها رنة حزن وأسى ونذير خطر لدى ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية الذى أيقن أن الوجهة التالية للحملة هي جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية، فشرع ناصر الدولة فى التأهب للغزاة والتصدى لجحافلهم عمد بادئ ذى بدء إلى التأكد من حصانة حاضرتة واعداد قواته ومراقبة مياه الجزيرة.

ترك الصليبيون فى حاضرة يابسه قوة كبيرة، ثم أقبل على الأسطول الصليبي فى ٢١ أغسطس متجها إلى جزيرة ميورقة فدار حول رأس كالا فيجيير Capo de Calafiguera، ثم رسا فى إليتيس Illetes على طول الشاطئ الشرقى للجزيرة من رأس بوراسا Capo de Porassa حتى القلعة العظمى La Cala Major بعيدا - إلى حد ما - عن مدينة ميورقة^(٤٨)، التى تقع على خليج يتخذ شكل قوس، وفى منتصف لسان يحمى الميناء، وفى جانبه الأيمن تمتد المدينة فى لسان طبيعى وفى شمال الخليج وفى طرفه تنساب أرباض المدينة، أما قسمها الآخر فى الوسط ويمتد من البحر شمالا فيقع معظمه فوق مرتفع من الأرض يمتد صاعدا حتى يستوى فى نهاية المدينة^(٤٩).

ونزلت القوات الصليبية المشتركة فى سهل فسيح غير مستو تتخلله المرتفعات ويمتد جهة الشرق بمسافة كافية نحو ستة أميال عن مدينة ميورقة يسمى الرملة Arenal، تكسوه أشجار الصنوبر ويشرف على ساحل البحر، وفى هذا الساحل مرفآن يصلحان ملجأين أمنين للأسطول الصليبي^(٥٠).

على أن ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية لم يقف مكتوف اليدين أمام نزول القوات الصليبية على الجزيرة، فقد أثر التحصن فى حاضرتة وتعزيز الجبهة الشرقية منها، ومراقبة تحركات القوات الصليبية، فخرجت فرقة فرسان إسلامية لاستطلاع الأمر ومراقبة العدو وعدد قواته والآلات الحربية المصاحبة له، ومن جهة أخرى أعد ناصر الدولة خطة عسكرية لإجهاض الهجوم الصليبي، فقرر الخروج بجيشه من الباب الأيمن للمدينة المسمى باب البلد Bab - al Belet، ليعسكر فى الموضع الذى يقع بين محلة الرملات السبعة Los Set Arenes وطريق ماناكور Manacor

الواقع على بعد خمسمائة متر من الأسوار الشرقية للمدينة ليقطع بذلك الطريق الذى يؤدى إلى Portitxol والطريق القديم Lluch Mayor، وكانت قوات الحملة الصليبية المشتركة قد نزلت بين وادى جروس وميتخانسر Mitjanser، وعهد القادة والصليبيون إلى الكونت البرشلونى رامون برنجيز الثالث بالقيادة العليا، فبعد أن رتب قواته للقتال، هاجم قلب الجيش الإسلامى فى الوقت الذى ضغطت قواته على جناحى الجيش الإسلامى فى محاولة لتحطيم مقاومتها العنيدة، غير أن الجيش الإسلامى صمد للهجوم ونجح فى إرغام القوات الصليبية المشتركة على الانسحاب والتخلى مؤقتاً عن ميدان المعركة^(٥١).

وعاودت القوات الصليبية المشتركة الهجوم مرة أخرى، فهاجم جناحها الأيسر بقيادة كونت أمبورياس الجناح الأيمن للجيش الإسلامى المرباط جهة البحر وأجبروه على التخلي عن مواقعه ومن ثم تقدمت القوات الصليبية حتى اقتربت من باب الكنيسة، والتحم الفريقان فى قتال عنيف تخللته قذائف النبال والسهام والرماح ونجح بعض الفرسان الصليبيين فى الوصول إلى الأبواب الشرقية للمدينة وقتل بعض أفراد الحامية الإسلامية واضطر الباقون إلى التراجع وإغلاق أبواب المدينة الحصينة خلفهم والاحتباء داخلها^(٥٢).

رأى ناصر الدولة أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم، فنظم قواته إلى قلب وميمنه وميسره وتولى هو قيادة القلب وحمل الراية واندفع خارجاً من باب البلد تتقدمه الطبول ولأبواق لإثارة حماسة قواته وإدخال الرعب فى قلوب أعدائه، وانقض بحماسة شديدة على القوات الصليبية، فى الوقت الذى جال فيه القائد القطلانى رامون برنجيز الثالث بين قواته يحثهم ويحمسهم على لقاء العدو، والتحم الجيشان فى قتال مرير أشادت به الرواية اللاتينية، فأبرزت الدور البطولى الذى قام به الصليبيون وخصوصاً فرسان أمبورياس وروسيلون الذين نجحوا فى إحداث أضرار بالغة فى الجيش الإسلامى، وأعاقوا هجومه وأربكوا خطوطه بل وأجبروه على التقهقر تجاه أسوار المدينة واستولوا على عدد كبير من خيولهم وأسلحتهم^(٥٣).

أخذ الصليبيون فى تشديد الحصار على مدينة ميورقة برا وبحرا، فانتشرت قواتهم حول أسوار المدينة، وجابت بعض قطع أسطولهم مياه جزيرة ميورقة لمنع أى إمدادات قد تصلها من شرق الأندلس ورأى ناصر الدولة ضرورة كسر الحصار المحكم على مدينته وفى محاولة جريئة خرج بقواته من فرسان ورجاله وحمل على القوات الصليبية حملة قوية، غير أنه قوبل بمقاومة عنيفة من رجاله بيزا الذين

نجحوا في إعاقة هجومه، فاضطر إلى الانسحاب تلاحقه النبال والسهام، في الوقت الذي حاولت فرقه فرسان صليبية الاستيلاء على أحد الأبراج، ولكنهم صدموا بعمق الخندق المزدوج الذي يحيط بالسور الشرقي، ووقفوا على شيء مختلف تماماً عما سمعوه من تحصينات هائلة، فتملكهم اليأس، واعتراهم الخوف، وفقدوا الأمل وارتأبوا في قدرة القوات الصليبية على الاستيلاء على مدينة ميورقة الحصينة، فقد كانت المدينة تشتمل على ثلاثة أقسام عرفت باسم ميورقة، ومع ذلك فإن كل قسم له تسمية خاصة الأولى تسمى الرض الجديد (المدينة الجديدة) التي شيدها مبشر بن سليمان ناصر الدولة محاطة بخمسين برجاً حتى باب الجديد وهو اسم المدينة الثانية يدور عليها سور يصل حتى ساحل البحر ويتصل بالمدينة وهي النواة الأولى العمرانية لمدينة ميورقة والتي تحوى أبراجاً ضخمة عالية يدور عليها سور ومحاطة ببرجين آخرين وتطوق ميداناً مساحته عشرة آلاف قدم يدور حوله مائة وثلاثة وستون برجاً، ويفصل الرض الجديد عن المدينة والباب الجديد مجرى مائي يسمى عين المدينة Fuente de la villa عليه خمسة جسور للعبور^(٥٤).

أيقن قادة الحملة الصليبية بعد أن عاينوا حصانه مدينة ميورقة أن حصارها سيطول فقاموا ببعض الإجراءات فبدأوا في سحب قطع الأسطول إلى الشاطئ بعد أن تركوا قطعاً أخرى لمراقبة سواحل الجزيرة، ثم قاموا بتخطيط معسكرهم، فخصصوا محلات للقائد القطلاني وقائد فرسان روسيلون وأمبورياس وقوات بيزا وغيرها، ثم خرجت فرقة كبيرة أخذت تجوب أنحاء الجزيرة بحثاً عن الغلال وقطعان الماشية لتوفير المؤن لقوات الحملة^(٥٥).

وخلال الحصار قامت قوات بيزية وقطلانية وبروفنسية بالهجوم على أسوار المدينة الشرقية، فقربوا أبوابهم الخشبية منها وحركوا آلات حصارهم نحوها وألقوا قذائفهم عليها بغية إحداث فجوة فيها ينفذون منها إلى داخل الباب الجديد، وتمكنوا من فتح ثغرة لكنها كانت غير كافية لتحقيق الغرض، فتكررت محاولاتهم طوال يومين تمكنوا خلالها من توسيعها، ولم تكن القوات الإسلامية بغافلة عن محاولاتهم، فتصدت لمقاومتهم واضطرتهم إلى الانسحاب إلى محلاتهم^(٥٦).

وإزاء الحصار البري والبحري على جزيرة ميورقة رأى المرابطون أن يضغطوا على كونتيه برشلونه لإجبار أميرها على العودة بقواته من حصار ميورقة، وللإنتقام من هزيتهم في موقعة كونجست دي مارتوريل Congost de Martorell، فاخترقت قوات المرابطين أراضي الكونتية وعسكرت في مونجيوش Monhuich بأرض برشلونه

وحاصرت المدينة طوال يومين انتسفت خلالهما أريافها، لكن كونت أرجل Urgel وفوسان جرندة Gerona تمكنوا من الترصّد لقوات الموابطين، وأحدثوا بهم ضرراً بالغاً عند وادى سالو، وعنموا منهم غنائم كثيرة، وعندما علم الكونت البرشلونى بغارة الموابطين على كونتيته حاول العودة بسرعة، لكنه اضطرّ إزاء ضغط حلفائه أن يبقى معهم على حصار مدينة ميورقة حتى النهاية^(٥٧).

واقرب فصل الشتاء ومضى أعضاء الحملة المشتركة يعملون بدأب على ترميم آلات الحصار، والاستعداد لمواجهة أيام الشتاء القاسية، فى الوقت الذى شددوا فيه الحصار على مدينة ميورقة برا وبحرا للحيلولة دون وصول المؤن إليها، فساءت حال مسلمى ميورقة، واضطرّ واليها ناصر الدولة فى محاولة منه لإنقاذ مدينته - التى أرقها الحصار والقتال المتواصل - إلى إرسال مقترحات جديدة للقادة الصليبيين للتفاوض على أساسها وإقرار السلم لم توضح المصادر طبيعتها ويبدو أن مقترحاته لم تجد أذناً صاغية، فزاد ذلك فى إصرار ناصر الدولة على المقاومة بل وتكثيف غاراته على المعسكر الصليبي، وتذكر الرواية اللاتينية أن فرقة إسلامية خرجت فى إحدى الليالى وفاجأت الرماة البيزيين الذين كانوا يحرسون دبابه حصار وهم فى حالة سكر واسترخاء، فقدفتهم الفرقة الإسلامية بكتل من المواد المشتعلة فى أركان الدبابه الخشبية فالتهمت النّار وأحالتها رماداً، وسط صيحات فرح المسلمين وصراخ الصليبيين الذين شرعوا فى الحال فى بناء برجين خشبيين جديدين^(٥٨).

وكان ناصر الدولة قد كتب خلال الحصار إلى أمير المسلمين المرابطى يستصرّخه ويستنصره ووجه كتابه مع القائد أبى عبد الله بن ميمون، وكان إذ ذاك عنده غراب بهن يديه، «فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمراً ليلاً من دار الصناعة عليه، فانطلق فى الحين يقفو أثره، واتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره، فلما قطع يأسه فى الظفر به، رجع خاسئاً على عقبه، فوصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين، فأمر فى الحين بتعمير ثلاثمائة قطعة وأن تلقى بعد شهر دفعة...»^(٥٩)، ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية غير أنه يقول: «فلم يوافقهم الاسطول بالمدد إلا بعد إستيلاء العدو عليها»^(٦٠). أما الرواية اللاتينية فتذكر أن أميردانية المرابطى كان قد جهز لناصر الدولة أسطولاً مزوداً بالرجال والعدة ومستعداً للإبحار فى أقرب وقت، ففرح مسلمو ميورقة بهذه الاخبار، ويضيف أن الصليبيين اعاقوا قوات النجدة المرابطية من دانية وساقوا سفينتين إلى المعسكر الصليبي من بينها

مركب دانية الذى حمل جواب أميرها والذى تسميه الرواية اللاتينية بوطلحه Butale^(٦١).

استمر حصار المدينة أربعة أشهر، عانى فيها المسلمون من نقص المؤن، فانتشرت المجاعة بين أهلها مما اضطر أميرها ناصر الدولة إلى أن يبعث بسفارة إلى المعسكر الصليبي مجددا طلب الهدنة، فأحدث طلبه انقساماً فى رأى داخل المعسكر ففريق يمثله الكونتات القطلانيون يرون الاكتفاء بتخليص الأسرى النصارى من سجونهم وألا يطمعوا فى أكثر من ذلك، بينما يرفض هذا الرأى فريق يمثله القادة البيزيون بل ويتهمون القطلانيين بالتخاذل، وعندما علموا بعزم والى دانية المرابطى على إرسال قوات لمساندة مسلمى الجزيرة تناسوا اتهاماتهم وسعوا لعقد هدنة مع والى ميورقة فقاموا بإرسال سفارة إليه، أحسن الوالى استقبالها ووعد أعضاء السفارة بأن يحمل إلى قادة الحملة قدراً كبيراً من ماله الخاص ومن خراج الجزيرة، وتسوق المصادر اللاتينية رواية غريبة مفادها أن والى الجزائر الشرقية رغب فى أن تكون بلاده بمثابة إقطاع بابوى!! غير أن أعضاء السفارة الذين قبلوا بما عرضه عليهم لم يكادوا يذهبون للبحث عن أسراهم فى سجون مدينة ميورقة من النبلاء حتى غير والى الجزائر رأيه بقوله: أنه بعد أن استشار شيوخ إمارته ورجال الرأى تبين له أن شريعته الإسلامية لا تبيح له أن تكون إمارته إقطاعاً للمسيحيين وأنه لا يجوز أن يدفع الجزية لهم، ويعبر أوجلى عما أسفرت عنه المفاوضات بقوله: «بشفاعة الرب، فشلت المفاوضات التى كان كونت برشلونة يحاول إجراءها مع أمير ميورقة المسلم من أجل توقيع معاهدة صلح»^(٦٢).

فلقد كان رجال الدين المشاركين فى الحملة وعلى رأسهم بدرو المندوب البابورى رئيس أساقفة بيزا غير متحمسين لعقد هدنة بل فضلوا مواصلة الحصار والقتال، فعرضوا خمس قطع فضية لكل جندى صليبي يقتل جندياً من مشاة المسلمين، وقطعتين ذهبيتين لكل من يقتل أحد فرسانهم، وأصدروا أوامرههم بشن هجوم عات على المدينة فأمطروها بوابل من القذائف المشتعلة، فاشتعلت الحرائق فى المدينة وسقط الكثير منهم صرعى وارتفعت خسائر المسلمين بشكل ملحوظ^(٦٣).

وفى منتصف سبتمبر ازدادت حدة العمليات العسكرية الصليبية، فشدد الصليبيون حصارهم حول أسوار المدينة، وقاموا بشن غارات متواصلة داخل الجزيرة، فانتشر فيها الموت والخراب والحرائق. وفى هذه الأثناء مرض مبشر بن سليمان ناظر

الدولة أمير الجزائر الشرقية الذي يقال أنه تقياً دماً ومات بعد بضعة أيام تاركاً حكم الجزيرة إلى أبي الربيع سليمان بن لبون الذي تسميه الرواية اللاتينية Burabe في شهر رجب ٥٠٩هـ / ديسمبر ١١١٥م^(٦٤).

استهل أبو الربيع سليمان ولايته للجزائر الشرقية بطلب النجدة من والي دانية المرابطي، ومحاولة النفاذ من الحصار المحكم حول مدينته لا سيما من جهتها الشمالية الغربية، فأرسل فرقة إسلامية عن طريق باب ساركولا Sarcula لكن قوة صليبية بقيادة القائد القطلاني رامون برنجير الثالث كانت كامنة لهم في الوادي فاجأتهم واشتبكت معهم في قتال عنيف بالقرب من الطريق المؤدى إلى بورتوبي Portopi ونجح أحد رماة المسلمين من قذف حربة من أعلى الأسوار مزقت ذراع القائد القطلاني فاضطرت القوة الصليبية إلى التراجع وسط صيحات فرح المسلمين^(٦٥).

ولما كانت الخنادق تمثل مانعاً دفاعياً يحول دون تقدم العدو إلى الأسوار فقد عمل الصليبيون على ملئها بما توفر لديهم من قطع الأشجار وفروع الأغصان والحجارة حتى تستوى بأرض السهل وتيسر اقتراب أبراج الحصار، فاخترأوا مكاناً استراتيجياً للهجوم على أسوار المدينة الغربية على مقربة من باب البحر Puerta de La Marina وتمكنوا من إحداث تصدع بالأسوار وإحداث ثلاث ثغرات بها، ثم أقاموا جسراً على الخندق عبرت منه قوة من البروفنسيين خلال الثغرة الأولى إلى الربض الجديد وذلك في فبراير ١١١٦م / رمضان ٥٠٩هـ، في الوقت الذي سارت فيه قوة صليبية أخرى بازاء الأسوار لتغطية اقتحام القوة الأولى للربض واشتبكت مع الحامية الإسلامية للأسوار التي أظهرت مقاومة شديدة، بينما سارت قوة صليبية ثالثة تتقدمها الفرسان إلى الميادين الواسعة داخل الربض لكن مسلمي الربض تصدوا لها بكل شجاعة، فأمطروهم من فوق أسطح المنازل وبوابل من الحجارة والحرايب الصغيرة، وأرغموهم على الانسحاب خارج الربض، وأشعلوا النار في الجسر، وفشل البروفنسيون في إخماد النيران وهكذا صمد المسلمون للقوة البروفنسية وأوقعوا بها خسار فادحة^(٦٦). ومع ذلك لم يفقد الصليبيون الأمل في اقتحام المدينة عن طريق الثغرات فتكررت محاولاتهم هذه عشر مرات متوالية إلا أنها باءت بالفشل، وأخيراً تمكن الفيكونت أوجون Ugon بمحاولة فردية من اقتحام المدينة من جديد في عدد قليل من رجاله ثم تبعه سائر أفراد الحملة الذين قوبلوا بمقاومة مسلمي الربض فدافعوا عنه بكل شجاعة وبسالة اعترف بها المؤرخ الشاعر

لورنشو الفيروني فقال :

«لقد روى البيزيون بدمائهم طريق الفتح قبل أن يتمكنوا من زحزحة مسلمي ميورقة عن مواقعهم التي كانوا يدافعون عنها ببسالة فائقة»^(٦٧).

وبعد أن اقتحم الصليبيون الرض الجديد انتشروا في أرجائه ينهبون ويسلبون ويخربون، وأعملوا القتل في أهله حتى أنهم طاردوا بعضهم الى داخل المساجد وقتلوهم حتى امتلأت المساجد بجثثهم غير مراعين لحرمة أماكن العبادة، وفر البعض الآخر للاحتباء بقصبة المدينة.

تابعت القوات الصليبية خططها في الاستيلاء على باقى أقسام المدينة، فتوجهت إلى المدينة وقربت برجين من أبراج الحصار بجوار الباب الجديد واخرين ازاء أسوار المدينة «قصبة المدينة»، وقذفوا بالمجانيق أسوارها التي كانت مزودة بسبعة أبراج، وقد دافع المسلمون عن القصبة بكل شجاعة وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى من الجانبين، وأسفر القصف المتواصل عن هدم تحصينات المدينة الأمامية في ٢٢ فبراير ١١١٦م / شوال ٥٠٩هـ، فتمكنت القوات الصليبية من اقتحام المدينة واشتبكت مع حاميتها الإسلامية التي أبدت مقاومة شديدة وسقط الكثير منها قتلى، وانتشرت القوات الصليبية في أرجاء المدينة تنهب دورها وقصورها وتستولي على مقادير كبيرة من الغنائم والكنوز من ذهب وفضة وأحجار كريمة وخلع ثمينة من رفيع النسيج من كتان وحرير وديباج، ثم اتجهت القوات الصليبية بعد ذلك لتخليص الأسرى المسيحيين من سجون المدينة^(٦٨).

وفى رواية غريبة للمؤرخ الشاعر لورنشو الفيروني يذكر أن كونت البرانس رامون برنجير الثالث بسط حمايته على ما كان بميورقة من يهود^(٦٩)، وأغلب الظن أن هؤلاء اليهود كانوا بمثابة عيون للحملة الصليبية تدلهم على عورات المدينة، وربما دلوهم بالفعل عليها نظرا لتحول الهجوم الصليبي من الجهة الشرقية للمدينة إلى جهتها الغربية ونجاحهم في ذلك، وهذا أمر ليس بمستغرب على اليهود الذين درجوا على ذلك كثيرا في كل العصور.

شرع الصليبيون بعد ذلك في الهجوم على القلعة الكبرى التي تحمى قصر الإمارة، فقربوا آلات حصارهم إلى أسوارها وشرعوا في دكها وتدميرها، وعندما وقفت الحامية الإسلامية للقلعة على خطورة الموقف وعقم المقاومة طلبت التسليم، لا سيما وأن قوات الصليبيين كانت قد تمكنت من هدم جانب من السور ونفذت

منه، في الوقت الذي اضطرت الحامية إلى اللجوء والاحتباء داخل القلعة المنيعة الحصينة التي تحيط بها - كما سبق القول - سبعة أبراج ضخمة كانت هدفا للقوات الصليبية التي عملت بكل قواها على مهاجمتها بالأبراج والدبابات، في محاولات متكررة، تمكنوا خلالها من تدمير ركن بعد آخر، وتوالى سقوط القتلى من الجانبين. ولم يتبق إلا برج حصين طوقته بكل آلات الحصار، واستبسلت القوة الإسلامية المدافعة عنه في مقاومة أسطورية وسالت دماء غزيرة من الجانبين. ورأى والى الجزائر أبو الربيع سليمان عقم المقاومة، فحاول الهرب في نفر من أعوانه عن طريق البحر إلا أن قطع الأسطول الصليبي التي تحاصر سواحل الجزيرة تمكنت من القبض عليه وسيق مع أصحابه إلى المعسكر الصليبي^(٧٠).

اختار مسلمو ميورقة أميرا آخر تسميه المدونات المسيحية ألتى Alante ، وتذكر أنه لم يصمد للمقاومة وأنه حاول الهرب عن طريق البحر ونجح في محاولته، رغم أن هذا الرجل سبق وأن قام بدور بطولي هام أيام ناصر الدولة في الدفاع عن المدينة، فهل كان هروبه لطلب نجدة مرابطية من والى دانية، ربما كان ذلك رغم أن المصادر العربية لا تسعفنا بالاجابة عن هذا التساؤل.

واصل الصليبيون ذلك أسوار قصر الإمارة، واستطاعوا إحداث فجوات فيه، كما قام بعض أجنادهم بملء الخندق المحيط بالأسوار بالحجارة والأغصان. في الوقت الذي قاومت حامية القصر وصمدت في الدفاع عنه وألقت شعل النار على الأبراج الخشبية فاحترق بعضها، وبادلتها القوات الصليبية القذف فاشتعلت الحرائق داخل قصر الإمارة، وتمكن الصليبيون عن طريق قذف خطاطيف قوية أعلى الأبراج ثم شدها من هدم الكثير منها، مما اضطر حامية القصر إلى الانسحاب حتى تخمد الحرائق في الوقت الذي أقام الصليبيون جسرين كبيرين عبروا عليهما إلى قصر الإمارة، وجرت اشتباكات عنيفة بين الجانبين، سقط فيها عدد كبير من قتلى وجرحى، وأخيرا تمكنت القوات الصليبية من اقتحام القلعة عنوة، وقاموا على الفور بتهديم الأسوار والتحصينات مثلما فعلوا بجزيرة يابسة - حتى سوا معظمها بالأرض، وانتشرت قواتهم تجوب جميع أنحاء المدينة تسلب وتنهب وتحرق، فأسروا رجالها وغنموها وجدوه، وعادوا مثقلين بالغنائم والأسرى وكان قد حل عيد الفصح في ٦ أبريل ١١١٦ م / ذو القعدة ٥٠٩ هـ فاحتلفوا به احتفالا كبيرا لما حققوه من نصر بفضل شفاعة القديسين وبركات الحبر الأعظم البابا باسكال الثاني^(٧١).

وعلى الرغم أن الرواية العربية لم تشر إلى تفاصيل استيلاء الصليبيين على مدينة ميورقة، إلا أنها وصفت سقوط هذه المدينة في يد العدو وصفا موجزا بليغا يعبر عن عظم المقاومة التي أبدتها مسلمو ميورقة الذين بذلوا أرواحهم دفاعا عنها فسقطوا شهداء في ميدان المعركة، فالحميرى يعبر عن هذا المعنى بقوله: «وتغلب عليها» (أى ميورقة) العدو البرشلونى وخربها وهى المرة الأولى، ودخل المدينة فلم يجد سوى العيال والأطفال والشيخ الفانى فأحال السيف فيهم»^(٧٢).

أما ابن القطان فإنه يقول: «وقتلهم من فيها» (أى ميورقة) وسبيهم أهلها واحتواؤهم على جميع من فيها بعد حصار طويل شديد»^(٧٣).

ويكرر القلقشندي رواية ابن القطان، فيقول: «وقتلوا رجالها وسبوا ذراريها ونساءها بعد حصار طويل»^(٧٤).

تأخر وصول الأسطول المراتبى لإنقاذ ميورقة، والثابت من الرواية العربية واللاتينية أنه لم يصل إلى ميورقة إلا بعد مغادرة الحملة الصليبية المشتركة الجزيرة: ففي ٣ أبريل ١١١٦م / ذو القعدة ٥٠٩ هـ عاد الكونت البرشلونى رامون برنجير الثالث بقواته الى بلاده، وبعد أربعة أيام عادت القوات البيزية بعد أن شحنت سفنها بكل ما غنمته إلى بلادهم راضين بما حققوه، وحملوا معهم أمير الجزائر أبا الربيع أسيرا، حيث ظلوا يعرضونه فى ميادينهم افتخارا وزهوا بنصرهم الخالد، أما باقى القوات المشتركة فى الحملة فقد عادت أيضا إلى أوطانها^(٧٥)، وفى أثناء عودة العدو إلى أوطانه «هبت عليه ريح ببحار طامية فحملت منه أربع قطائع إلى ناحية دانية، فعمر إليها قائد البحر أبو السداد، ففرت أمامه، وغرقت واحدة منها قدامه، وعكس الثلاث» (أى جعلها مراكب اسلامية)^(٧٦).

ثم أقلع الأسطول المراتبى متوجها إلى جزيرة يابسة ولكن بعد إقلاع الأسطول الصليبي من مياهاها، فهل كان ذلك بسبب الحصار الشديد الذى فرضه الأسطول الصليبي على مياه ميورقة، ونجاح الحامية الصليبية الكبيرة فى جزيرة يابسة فى إعاقة أى نجدة مرابطية عاجلة لإنقاذ مدينة ميورقة. أم أن القوات المراتبية اكتفت بالاغارة على أملاك الكونت البرشلونى رامون برنجير الثالث فى كونتيته للضغط عليه من أجل التخلي عن دوره فى الحملة، أم أنه كانت آنذاك بالمغرب مشاكل داخلية حادة واجهت المراتبين فيها وصرفتهم عن نجدة مسلمى ميورقة فى الوقت المناسب. للأسف تصمت المصادر العربية تماما عن ذكر سبب تأخر الأسطول

المرابطين في إيجاد مسلمي ميورقة، وإنما تكتفى بالقول أن الأسطول المرابطي أُلْعِقَ أواخر ذي القعدة سنة ٥٠٩ هـ / منتصف إبريل ١١١٦ م في ثلاثمائة قطعة بحرية بقيادة أمير الأسطول تافرطاس «ولما شعر العدو بخروجه أخلى وصدر عن الجزيرة وعينه بما احتمل من السبي قريبه»^(٧٧). فهل كان لإقلاع الأسطول المرابطي على عجل بعد أن وصلت الأخبار باستيلاء الصليبيين على مدينة ميورقة، يرجع إلى خشية المرابطين أن تغدو جزيرة ميورقة قاعدة لمهاجمة أملاك المرابطين في شرق الأندلس والشمال الإفريقي، كما يعتقد أشباح^(٧٨).

على أية حال، عندما وصل الأسطول المرابطي إلى مياه ميورقة «وجد المدينة نخاوية على عروشها محترقة سوداء مظلمة، منطبقة، فعمرها قائد الاسطول المرابطي بمن معه من المرابطين والمجاهدين، وأصناف الناس، وجلب إليها من كان فرعتها إلى الجبال، فاستوطنوها وعمروها وسكنوها»^(٧٩).

وعادت الجزائر الشرقية إلى دولة الاسلام وأصبحت ولاية تابعة لدولة المرابطين يحكمها ولاية من قبلهم، واستأنفت دورها الجهادي درعا يقى شرق الأندلس والمغرب ضد نصارى الشمال الأسباني.

هوامش البحث

١ - أنظر : Miguel Alcover : El Islam en Mallorca (707-1233) y La cruzada : pisano-Catalana (1113-1115), Palma de Mallorca, 1930. P. 13-21.

أما عن المراجع الأسبانية التي تناولت بعض جوانب هذا البحث فهي :

Codera (Francisco) : Decadencia y desaparacion de los Almoravides en Espana, Zaragoza. 1899; Huici Miranda (A): Historia de Valencia y su region, 3tomo, Valencia, 1969;

Aguado Bleve ; Manual de Historia de Espana, tomo I, Madrid, 1957;

فضلاً عن عدد من المراجع العربية والمعربة التي أشارت إلى تاريخ الجزائر الشرقية في العصر الاسلامي :
محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي) : تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط ، الجزء الثاني ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية (بدون تاريخ) ، عصام سالم سيسالم : جزر الأندلس المنسية والتاريخ الاسلامي لجزر البليار ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤ .

2 - Henri Perés : La Poésie andalouse en Arabe Classique aux XII^e Siécle, Paris, 1937, p. 214.

٣ - ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : كتاب أعمال الأعلام ، القسم الأندلسي ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت : ١٩٥٦ ، ص ٢١٩ ، أنظر أيضا :

Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominacion Islamita en las Baleares, Palma, 1888, P. 71;

جوزيف رينو : الفتوحات الاسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادى ، تعريب اسماعيل العربي ، الطبعة الاولى ، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٠٠ .

٤ - أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣١٤ ، السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي) : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٣ ، محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ١٩٢ . Campanery Fuertes : Ibid, .
p. 73

٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الرابع، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص ١٦٥، أرشيبالد لويس : المرجع السابق، ص ٣١٤.

٦ - شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٤١-٢٤٦، حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١، ص ١٣١، كليليا سارنلي تشركو : مجاهد العامري، قائد الأسطول العربي في غربي البحر لمتوسط في القرن الخامس الهجري، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٩٩، أرشالبيد لويس : نفس المرجع، ص ٣١٤.

٧ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص ٢٢٠، الجميري (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان، بيروت ١٩٧٥، ص ٥٦٧، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ١٩١.

٨ - جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ٣٦٤، كما يذكر أن النشاط الذي دب في المدن الإيطالية في القرن الحادي عشر يعتبر بمثابة انقلاب اقتصادي كبير، كان من نتائجه التوسع في نظام الأجر النقدي وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الاقطاعية التي كانت سائدة حتى ذلك الحين (نفس المرجع والصفحة)

٩ - ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٤-١٦٥، أرشيبالد لويس : المرجع السابق، ص ٣١٧، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ٢٠٤

١٠ - ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١، ص ١٢٢-١٢٣، ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب، الجزء الثاني تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ٤٦٦-٤٦٧، وانظر أيضا :

Campaner y Fuertes : Op. Cit, p. 91.

١١ - ابن الكردبوس : نفس المصدر، ص ١٢٢-١٢٣، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ص ٢١٠، ومن شعر ابن اللبانة يخاطب ناصر الدولة،

وغمرت بالإحسان أرض مبورقة
ومن شعره أيضا في مدحه
ملك بروعك في حلي ريعانه
راقت برونقه صفات رمانه

في، المقرئ (أحمد علي محمد) : تاريخ الطب في المغرب، تحقيق إحسان

شعباس، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٨، ص ١٦٩، والجزء الرابع ص ٢٦٠، كما يصف صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة مدينة ميورقة حاضرة الجزائر الشرقية أيام ناصر الدولة بقوله : «باهية الجمال، عطره الصبا والشمال، تفيد النواظر بهجتها، وتتيه بندى ملكها على لجتها (ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩، ص ٧٠٢.

12- Alcover : Op. Cit., p. 44

13 - Campaner y Fuertes, Op. Cit., p. 96.

14- Alcover : Op. Cit., pp. 23-24

15-Ughelli (Ferd) : Italia Sacra, tomo X, Apendice titulados : Anecdote Ughelliana, Gesta triumphalia per Pisano Facto, Traducido á Castellana, Apendice No. IV, En, Campaner y Fuertes : Op. Cit, P. 264.

(Ughelli, Apendice IV) وسوف يشير إليه بعد ذلك كالآتي :

16- Lorenzo De Verona, Extracto del poema Latino sobre la conquista de Ibiza y Mallorce Por los pisanos, Apendice No. v (Libre I), PP. 283-274, En Campaner y Fuertes, Op. Cit.

(Lorenzo De Verona, Apendice, No. V) وسوف نشير إليه بعد ذلك كالآتي :

17-Alcover : Op. Cit., PP. 23-24.

18- Ibid.

19- Ibid

٢٠- مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بين المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشي، دار الفكر العربي، المملكة العربية السعودية، ١٩٥٨، ص ٦ من مقدمة المترجم

21- Campaner y Fuertes : Op. Cit, PP. 102-103 y Note Bo. I.

٢٢- ابن خلدون : المصدر السابق، الجزء السادس، ص ١٨٨

٢٣- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ١٢٢.

24- Lorenzo De Verone : Apendice No. V. (Libro2), PP. 275-276.

25- Alcover : Op. Cit, P. 26.

27- Alcover : Op. Cit, PP. 26-27.

28- Ibid. PP. 27-28.

29- Ibid, PP. 30-31.

30- Ibid, PP. 34-35.

وقد نشر هذه الاتفاقات Pablo Piferre في كتاب بعنوان :

Recuerdos Y Bellezas de Espana, tomo Mallorca

وأنظر أيضا عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص ٢٢٧

31-Lorenze De verona, Apendice, No. V, (Libro 1,2), PP. 274-276.

32- Alcover : Op. Cit., P. 37.

33- Ughelli : Apendice IV, PP. 265-266.

34- Lorenzo De Verona : Apendice, No. V, (Libro I), P. 275.

35- Ibid. (Libro 2), P. 276.

36- Alcover : Op. Cit, P. 40.

37- Campanaer y Fuertes : Op. Cit., PP. 106-107.

38- Alcover : Op. Cit, P. 47.

39- Ibid.

40- Lorenzo De Verona : Apendice No. V, (Libro 2), P. 275.

41- Ibid, (Libro 3). PP. 277-278.

٤٢- محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد السابع والثامن، مدريد ١٩٥٩-١٩٦٠، ص ١٥٨، أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الامكتنرية، ١٩٦٨، ص ٣٢٣.

٤٣ - محمود على مكى : نفس المصدر، ص ١٢٨-١٢٩، وعن موقعة ألبرت أو Congost de Martorell، أنظر :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) : التكملة لكتاب الصلة، ج ١، القاهرة،

١٩٥٦، ص ١٢٩، ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار لاندلس والمغرب، الجزء الرابع، بيروت، ص ٦١، حسين مؤنس : الشجر الأعلى الأندلس في عصر المرابطين، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر، ح ٢، ١٩٤٩، ص ١١٢ وما بعدها، محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٧٥ وما بعدها. Codera (Francisco) : Op. Cit, P. 20 Y Note (16), PP. 272-278; Gaspar Remiro (Mariano). Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, P. 149, Huici Miranda : Op. Cit, Tomo III, PP. 37042.

44- Alcover : Op, Cit., P. 57.

٤٥- نستدل من ذلك على أن سور هذه المدينة كان يتألف من سور أساسي مرتفع يتقدمه سور أمامي منخفض (حزام براني) على غرار أسوار مدينة اشبيلية ولبلة وقرطبة وقاصرش، ولزيد من التفاصيل عن هذا النوع من الأسوار، انظر:

السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ولنفس المؤلف : المغرب الكبير، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية.

46- Ughelli, Apendice, IV, P. 278.

٤٧- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ص ١٢٢.

48- Alcover : Op. Cit, PP. 69-70

٤٩- محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية، الخانجي، القاهرة ١٩٦١، ص ١٢٤-١٢٥.

50- Alcover : Op. Cit, P. 75.

51- Ibid, P. 78

52- Ibid, PP. 80-81

53- Ibid, PP. 88-82

والذي يضيف أن مبشر ناصر الدولة عهد بقيادة الميمنة إلى قائد مسلم يسمية ألتى Alante

54- En, Alcover, Ibid, PP. 15-16

55- Lorenzo De Verona, Apendica No. V, (Libro, 6), P. 281.

-56- Ibid, P. 282, Alcover : Op. Cit, P.,99.

٥٧- محمد عبد الله عنان : دول الطوائف، ص ٢١٢

58- Lorenzo De Verona, Apendice, No. V. (Libro, 6), PP. 282-283.

٥٩- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ص ١٢٣، كان ابن ميمون قائدا بحريا مشهورا لعب دورا بارزا في قيادة الأساطيل البحرية في عصر المرابطين وكانت قاعدته مدينة قادس.

٦٠- ابن خلدون : المرجع السابق، ح ٤، ص ١٦٥.

61- Alcover : Op. Cit., P. 108.

62- Ughelli, Apendice, IV, P. 269.

63- Lorenzo De Verona, apendice No. V. (Libro, 6), P. 284.

64- Ibid, (Libro, 6), P. 285; Ughelli., Apendice, IV, P. 271.

65- Ibid, (Libro, 7), P. 285

66- Alcover : Op. Cit, P. 119.

67- Lorenzo De Verona, apendica, No. V. (Libro, 1), P. 286

68- Ibid, P. 286.

69- Ibid.

70- Ibid

71- Ibid, PP. 288-289; Ughelli, Apendice, No, IV, P. 222.

٧٢- الروض المعطار، ص ٥٦٧.

٧٣- نظم الجمان في أخبار الزمان، نشر وتحقيق محمود علي مكى، الرباط ١٩٦٤، ص ٢٠.

٧٤- القلقشندي (زبو العباس أحمد) : صبح الأعشى في صناعة الانشاء، الجزء الخامس، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٥٦.

75- Lorenzo De Verona : Op. Cit, P. 290.

٧٦- ابن الكردبوس : المصدر السابق، ص ١٢٤ وحاشية رقم ٣.

٧٧- نفس المصدر والصفحة.

٧٨- أشباح : المرجع السابق، ص ١٤٢.

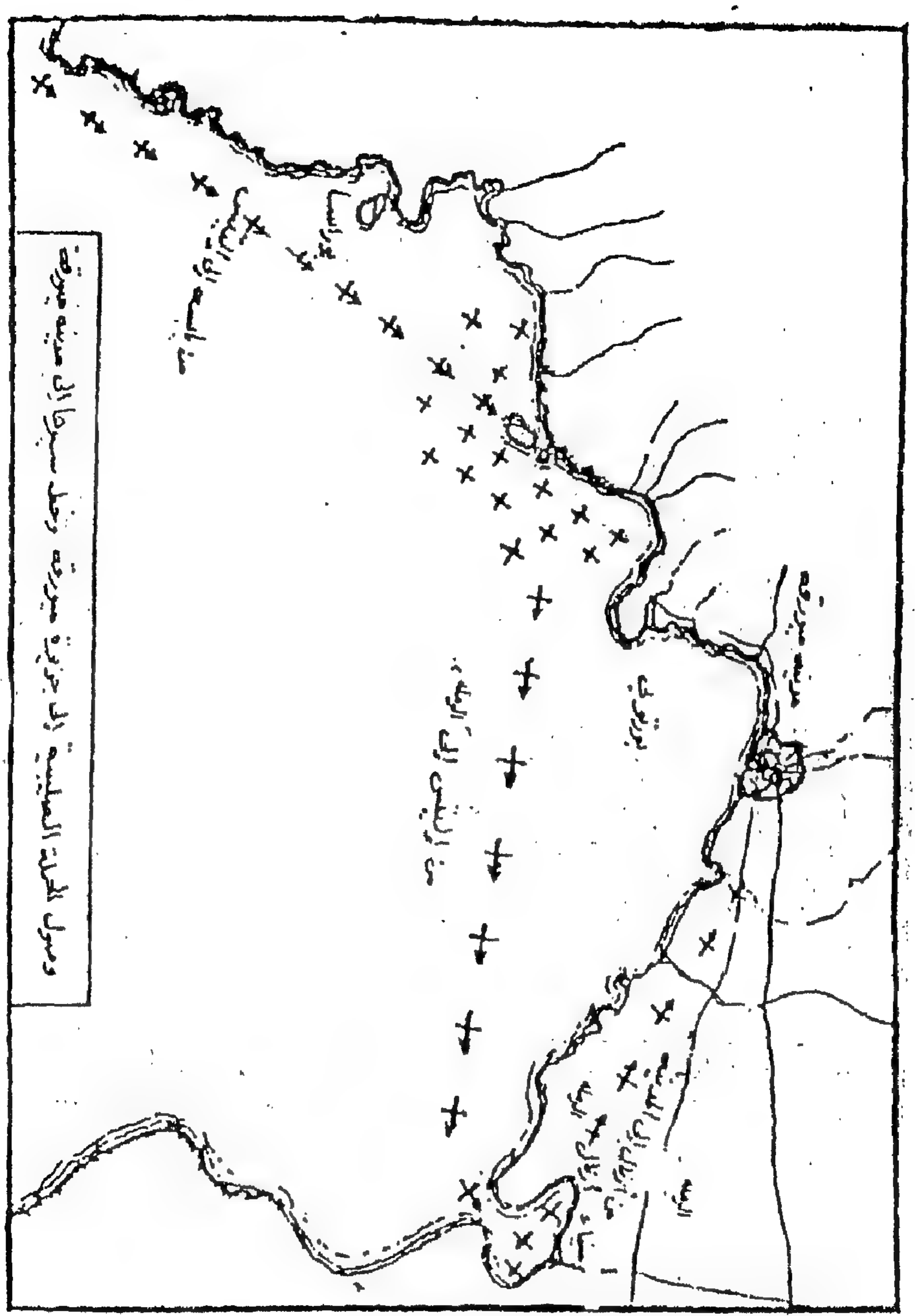
٧٩- ابن الكردبوس : المرجع السابق، ص ١٢٤.



شکل (۱)

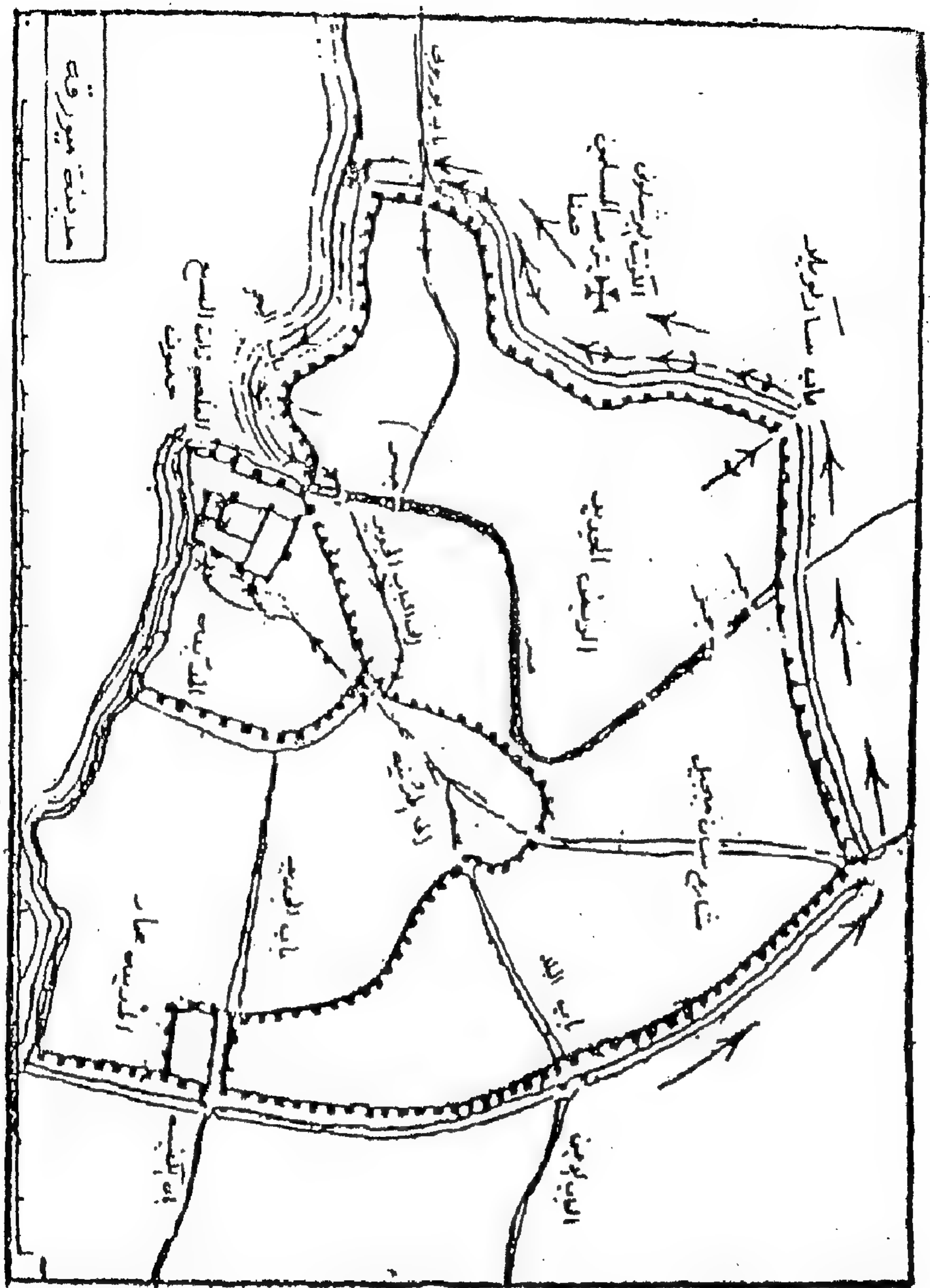
خط سير الحملة الصليبية على يابسة وميوزقة

شكل (٢) : وصول الحملة الصليبية إلى جزيرة ميورقة وخط سيرها إلى مدينة ميورقة .



شكل (٢)

وصول الحملة الصليبية إلى جزيرة ميورقة وخط سيرها إلى مدينة ميورقة



شکل (۴)

البحث السادس

الحملة النصرانية على مدينة المرية

الإسلامية وسيادة القشتاليين عليها

٥٤٢ - ٥٥٢ هـ / ١١٤٧ - ١١٥٧ م

١ - الموضوع ومصادره :

فى الوقت الذى كان المرابطون يواصلون فيه جهادهم ضد ممالك إسبانيا المسيحية ويبدلون قصارى جهدهم فى توحيد المغرب والأندلس، تفجرت فى المغرب الإسلامى ثورة عاتية أشعل جذوتها محمد بن تومرت مؤسس دعوة الموحدين فأثر ذلك فى سياسة المرابطين العسكرية وتسبب فى اضطراب نشاطهم ضد قوى المسيحية لأنهم أصبحوا يقاتلون فى أكثر من ساحة مما فتت قواهم واستنفذ جهودهم فى الأندلس، فبدأت الهزائم تتوالى عليهم واضطروا إلى سحب بعض قواتهم من الأندلس لمواجهة الدعوة الموحدية فى المغرب الأقصى. والواقع أن المعارك المتواصلة التى خاضها المرابطون فى الأندلس، وبالذات فى شرقه وفى الثغر الأعلى هى التى إستنزفت الجانب الأعظم من قواهم، وقضت على كل مواردهم، فى الوقت الذى تنكر فيه الأندلسيون لهم وتحولوا عنهم، يؤكد ذلك ما ذكره المقرئ فى «نفح الطيب» من أن يوسف بن تاشفين كتب إلى أهل المرية يطالبهم بالمعونة، فرد عليه قاضئها أبو عبد الله بن القراء بكتاب رفض فيه أن يمدّه بالمال وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش فيقسم أمام الملائكة بأنه ليس عنده درهم ولا فى بيت مال المسلمين أسوة بما فعله الرسول ﷺ والخليفة عمر بن الخطاب، ثم وعده فى النهاية بالنظر فى معاونته إذا ثبت ذلك^(١).

فلما تعرضت الأندلس لغزو ألفونسو الأول المحارب سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م اضطر المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الأندلس الهامة تعرف بالتعتيب أو التعطيب يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة^(٢)، وتم على هذا النحو ترميم أسوار غرناطة والمرية وقرطبة واشبيلية وغيرها من مدن الأندلس.

ولما توفى على بن يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٢٣هـ / ١١٣٩م وخلفه ابنه تاشفين توالى عليه الهزائم فى المغرب الأقصى على أيدي الموحدين، فانتهاز أهل الأندلس هذه الفرصة وأعلنوا العصيان وفجروا الثورات فى الأندلس، وكان أول من أذكى نار الثورة فيها جماعة الصوفية أو المريدين وعميدهم الشيخ أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى بشلب - أحد تلامذة الفقيه أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطالله المرى المعروف بابن العريف - الذى أشعل نار الثورة ضد المرابطين بادئ ذى بدء فى مرتلة، ومنها إنتشرت الثورة إلى يابرة وباجة وشلب ولبلبة وقرطبة ومالقة وشرق الأندلس.

وتتابعت الوقائع في بلاد الأندلس لاسيما بعد أن لقي تاشفين بن علي مصرعه في وهران في ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، وتمزقت الأندلس من جديد إلى دويلات للطوائف أكثر مما كانت قبل قرن ونصف وقبل أن يوحدها عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله). وفي الفترة من سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م إلى ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م أعلنت أكثر من ثلاثين مدينة أندلسية طرحها لطاعة المرابطين وأعلنت إستقلالها، ومن بين هؤلاء الثوار : ابن وزير أبو محمد سدرای الثائر بياطرة ويوسف البطروجي وليد بن عبد الله بشتريين وأبو القمر بن عزون بشريش وابن عياض بشرق الأندلس وعلي بن عيسى بن ميمون بقادس، ومحمد بن علي بن الحجام بيطليوس، ومحمد بن عمر بن المنذر المولد بشلب، والقاضي أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين التغلبي بقرطبة، والقاضي أبو الحكم بن حسون بمالقة، والقاضي أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض، فمحمد بن سعد الجذامي المعروف بابن مردنيش الذي ضم إليه مرسية، والقاضي أبو أمية أحمد بن عاصم بأريولة، والقاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزى بجيان وأحمد بن ملحان بوادي أش^(٣).

أما المرية فقد طرحت الطاعة أيضا للمرابطين، ودخلت في فلك دولة الموحدين، وتولى أمر جيوش الموحدين بها عبد الله بن سليمان الذي قتله البحريون رجاله القطائع^(٤).

وكان أول ولاية الموحدين بها يوسف بن مخلوف، الذي لم يلبث أن خلعه أهل المرية وقتلوه، وعرضوا على أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون الرئاسة، فرفضها، وقال : «إنما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري»، فقدموا على أنفسهم رجلا منهم إسمه عبد الله بن محمد، يعرف بابن الرميمي^(٥)، فلم يزل عليها إلى أن إستولى عليها ألفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخي العرب بالسليطين ملك قشتالة^(٦) سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م.

وموضوع البحث يعالج تفاصيل الحملة الجنوبية القشتالية القطلانية على مدينة المرية الإسلامية عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م وتبعيتها لمملكة قشتالة حتى إستعادها الموحدون عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، وهذه الفترة القصيرة من تاريخ المرية لا زال يكتنفها الغموض، لأن الباحثين المحدثين مروا عليها مرور الكرام دون أن يتعمقوا في تفاصيلها، في الوقت الذي إلترمت فيه المصادر العربية الصمت حيال هذه الفترة

من السيطرة القشتالية على المرية ولهذا فقد ظلت هذه السنوات العشر من تاريخ المرية الإسلامية فترة مجهولة تمثل فجوة في تاريخ المدينة تحتاج إلى ما يسدها من الحقائق إستكمالاً لتاريخ المدينة في العصر الإسلامي وربما كان ذلك من دوافع إختياري لهذا الموضوع رغم صعوبته بأمل التوصل إلى حقائق قد تتيح إزالة ما إكتنفت هذه الفترة من الغموض.

وإذ كانت المصادر الإسلامية قد أسهبت في الحديث عن أهمية المرية الإقتصادية قبل سقوطها في أيدي النصارى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م فقد تجنبت ذكر الوقائع والأحداث التي تعرضت لها المدينة حتى إستيلاء النصارى عليها، فبعضها يحدد تاريخ سقوط المرية، والبعض الآخر يروي الحادث بطريقة مختصرة أو يضيف روايات أقل أهمية، مثلما جاء في روايات عبد الواحد المراكشي في «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»^(٧)، وابن الأثير في «الكامل في التاريخ»^(٨)، وابن الأبار في «التكملة لكتاب الصلة»^(٩)، وابن خلكان في «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»^(١٠)، وابن أبي زرع في «الأنيس المطرب بروض القرطاس»^(١١)، والإدريسي في «المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس»^(١٢)، وابن خلدون في «العرب وديوان المبتدأ والخبر»^(١٣)، وابن عذاري في «البيان المغرب»^(١٤)، والنويري في «نهاية الأرب»^(١٥).

أما المصادر الأجنبية، فيعتبر كتابي :

- Los Annales Genuenses ab anno Mc,

- De Captione Almeria et Tottuosa,

للمؤرخ الجوى كافارو Caffaro من أهم المصادر اللاتينية لأن مؤلفهما كان شاهد عيان لهذا الحادث إذ صاحب الحملة الجنوية الأولى على المرية في عام ١١٤٦م، وأسهم في عام ١١٤٧م في إعداد حملة أخرى على المرية، ومن المحتمل أنه لم يشترك في هذه الحملة الأخيرة، وإنما استقى أخبارها من القناصل الذين شاركوا فيها في ذلك العام. فهو في روايته لوقائع سقوط المرية في أيدي النصارى يرويها كشاهد عيان وإن كان يؤخذ عليه تحيزه الواضح لأبناء جنسه الجنوبيين، ووصفه الحملة كمشروع جنوى خالص^(١٦).

وهناك مصدر جنوى آخر كتب بعد ثلاثة قرون من وقائع حملة المرية للمؤرخ جوستينيانو Giustiniano وهو:

- Annali della repubblica di Geno,

يعتمد فيه جستنيانو كلية على روايات كافارو، وإن أضاف إليها بعض الروايات التاريخية^(١٧).

أما المصادر البيزية فلدينا مصنف لمؤلف مجهول عنوانه:

- El Libro Maiolichinus

ويضيف هذا المصدر روايات تؤكد إشتراك بيزه في مشروع الهجوم على المرية^(١٨).

أما المصادر القشتالية المعاصرة لوقائع غزو المرية فمنها كتاب^(١٩).

- Anonimo : Chroniaa Adefonsi Imperatoris,

وكتاب :

- El Poema de Almeria

فالمصدر الأول يتعلق بتاريخ الإمبراطور ألفونسو السابع، والثاني هو قصيدة المرية التي تشير إلى استجابة فرسان الفرنجة وجليقية وأشتوريش ولينون وقشتالة واسترامادوره لنداء الإمبراطور بالاشتراك في الحملة الصليبية المؤتلفة على المرية عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م.

وقد أهتم المؤرخون القشتاليون والأرغونيون والقطلان والفرنسيون بوقائع إستيلاء النصارى على المرية، فتناولوا بالدراسة الأخبار التي أوردها كافارو وجستنيانو، وكذا الموجودة في المصادر القشتالية والقطلانية، وطوعوها لميولهم، ومالوا بما كتبوه مع هواهم، كل يرد أن ينسب الفضل في سقوط المرية لوطنه، ومن هؤلاء المؤرخين: مارمول، وساندوفال. وثوريتا وبوتيه، وبوخادس وبلاجيروفايست^(٢٠).

٢ - النشاط البحري للمرية قبيل إستيلاء النصارى عليها في المجالين الحربي والاقتصادي:

أ - جهود أبي عبد الله محمد بن ميمون قائد أسطول المرية المرابطة في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

قامت الأساطيل المرابطة التي وصل عدد سفنها ما يقرب من مائة وحدة بحرية في مختلف ثغور الأندلس والمغرب الأقصى وجزر البليار والقواعد البحرية للمرابطين بدور هام ضد قوى المسيحية في حوض البحر المتوسط^(٢١). ومن الجدير

بالذكر أن أبرز الأسرات البحرية التي لمعت في الجهاد البحري في عصر دولة المرابطين أسرة بنى ميمون^(٢٢)، وأصل هذه الأسرة غير معروف على وجه الدقة، وأغلب الظن أنهم من العرب الذين مكنوا الأمير عبد الرحمن الداخل من التأثير حيوة بن ملامس، ومن تأبش معه من البربر^(٢٣). وقد ينتسب بنو ميمون إلى بنى عبد الدار الذين إستقروا بقرطبة، ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمد بن عبد الله العبدري (ت ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م)^(٢٤). ويبدو أن جماعة منهم إستقروا بثغر دانية بشرق الأندلس، ثم انتقلوا منها إلى المرية^(٢٥)، بينما استقرت جماعة منهم في جزيرة قادس.

على أن أعظم من أنجبته هذه الأسرة وذاعت شهرته في الجهاد البحري هو أبو عبد الله محمد بن ميمون^(٢٦)، الذي كان في مطلع شبابه قائد «غراب» في فترة الحصار الصليبي على مدينة ميورقة، وانطلق في غرابة من دار الصناعة ليلا لنقل رسالة إستغاثة من أمير الجزائر الشرقية إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الذي ألحقه بالأسطول المرابطي إعجابا بشجاعته وتقديرا لرسالته^(٢٧).

وفي عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م أصبح محمد بن ميمون أحد كبار القادة في أساطيل دولة المرابطين، يقول ابن عذارى «وفي عام ٥١٠ هـ قدم أمير المسلمين (علي بن يوسف)، محمد بن ميمون قائد الأسطول البحري، وكان له غزوات مشهورة وأمور مذكورة»^(٢٨).

ومن المرجح أنه كان يتخذ من المرية قاعدة لأسطوله^(٢٩)، يؤيد ذلك ما قاله الشقندي «وفيها (أي المرية) كان ابن ميمون القائد الذي قهر النصاري في البحر، وقطع سفرهم فيه، وضرب على بلاد الرمانية، فقتل وسبي، وملا صدور أهلها رعبا»^(٣٠).

وأول إشارة في المصادر الإسلامية إلى حملات أبي عبد الله محمد بن ميمون البحرية ما ذكره ابن عذارى في حوادث عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م يقول: «وفيها نفذ عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله بن ميمون قائد الأسطول بتعمير حملة لغزو بلاد الروم... فعمر (ابن ميمون) خمسة وعشرون مراكبا من ذوى الدربة والنجدة، فاستفتح مدينة قطرون»^(٣١)، وعاد إلى المرية سالما غانما. وتشير المصادر القشتالية إلى إحدى الغارات البحرية التي قام بها ابن ميمون على ساحل قطلونية، فيقول: «وقد أسر أحد النبلاء المسيحيين من أعضاء مجلس بلدية برشلونة العشرة، وكان يدعى بالبربتير في حملة من الحملات

البحرية التي كان يقوم بها محمد بن ميمون أمير البحر المرابطي على سواحل إمارة قطلونية، فحمله إلى بلاد المغرب، حيث أسند إليه على بن يوسف بن تاشفين قيادة فرقة المرتزقة النصاري في الجيش المرابطي التي أسهمت بدورها في النشاط الحربي في نهاية هذه المراكبيين»^(٣٢). ويذكر محمد الزهري أن أساطيل المراكبيين بقيادة أمير الأسطول محمد ابن ميمون أغارت على بلاد الرمانية، فيقول: وفي غربي رومة بلاد الرمانية وقد بلغت غارات المسلمين في البحر من بلاد الأندلس إلى هذه البلاد. «وكان يومئذ على الأسطول محمد بن ميمون من مدينة المرية، وغزاها من بعده من أشبيلية عيسى بن ميمون»^(٣٣)، وذلك لما خرج محمد بن ميمون في أسطوله إلى جزيرة صقلية لغزو نقوطة بساحل بلاد قلورية (كلابريا) من عمل رجار (روجر) الثاني، ففتحها وسبي نساءها وأطفالها، تلبية لصريخ أمير إفريقية الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بأمر المسلمين على بن يوسف بن تاشفين لردع رجار الثاني ملك صقلية النورمندی من القيام بأي عدوان على ثغور إفريقية»^(٣٤). يقول «ابن عذاري» وفي سنة ٥١٦ هـ ١١٢٢ م غزا أبو عبد الله بن ميمون قائد على بن يوسف ملك البزير (المغرب والأندلس) جزيرة صقلية، وافتتح بها مدينة نقوطة من عمل رجار (روجر الثاني) صاحب صقلية وسبي نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجد فيها»^(٣٥). ويلاحظ أن ابن خلدون في روايته عن غزو جزيرة صقلية يرسم أمير أسطول المراكبيين حيناً باسم أحمد بن ميمون، وحيناً آخر باسم محمد ابن ميمون، وافتتح قرية منها فسبهاها وقتل أهلها سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م^(٣٦). ويروي التجاني رواية أخرى عن هذه الغارة المراكبية يقول فيها: «ولما مات على بن يحيى وولى بعده ابنه الحسن، كان أمير المسلمين بالغرب على بن يوسف بن تاشفين، فقام بإرسال أسطوله بقيادة قائدة على بن ميمون إلى بلاد رجار (روجر الثاني)، فاستفتح بها حصونا وسبي سبايا كثيرة»^(٣٧).

وأيا كان اسم أمير الأسطول المرابطي الذي قاد الحملة إلى صقلية وكلابريا فيمكن القول أن هذا يدل على التعاون الوثيق بين أسطول المرية بقيادة محمد بن ميمون وعلى بن ميمون قائد أسطول قانس في الإغارة على جزيرة صقلية وقلورية. وهكذا استطاعت الأساطيل المراكبية أن تقوم بغارات بحرية رادعة على إمارة قطلونية وعلى السواحل الجنوبية لبلاد الفرنجة، وساحل إيطاليا الغربي وقلورية (كلابريا) وجزيرة صقلية النورمندية.

ظل أبو عبد الله محمد بن ميمون مواليا للمراكبيين، فلما حاصر الموحدون

أمير المسلمين تاشفين بن علي في حصنه بمشارف وهران^(٣٨) وكان أمير المسلمين تاشفين بن علي قد أرسل إلى محمد بن ميمون أمير أسطول المرية يطلب منه أن «يجهز له عشرة أجفان غزوية تكون بمرسى هذا الحصن، معدة لحادث يحدث عليه، وإن ألقاه ضرورة إلى الجواز إلى الأندلس جاز»^(٣٩)، فلما أحدث الموحدون مجزرة دامية بالمرابطين من حرس تاشفين في ليلة السابع والعشرين من رمضان عام ٥٣٩ هـ / ٢٥ مارس ١١٤٢ م، وتمكن الأمير تاشقين وبعض أصحابه من إقحام الحصار المضروب عليه وأخذ طريقه إلى سفن أسطول المرية الراسية في ثغر وهران بقيادة محمد بن ميمون سقط به حصانه من حافة صخرية مما أدى إلى وفاته في ٢٧ رمضان عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٢ م، وإذا كان لم يقدر لابن ميمون أن ينقذ أميره المرابطي تاشفين فإنه تمكن من إنقاذ من استطاع أن يصل إليه من حاشية تاشفين وحرسه^(٤٠).

ب - الأهمية الاقتصادية للمرية في العصر المرابطي:

كانت مدينة المرية في عصر المرابطين كما يصفها الإدريسي «مدينة السلام»^(٤١)، لدورها الهام في المجالين الصناعي والتجاري، ولكونها ثغر الأندلس الأول الذي كانت تقصده المراكب من مختلف الدول المطلة على البحر المتوسط، ويعبر عن هذا بقوله: «وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالا، ولا أنجز منهم في الصناعات، وأصناف التجارات تصريفا وإدخارا... والمدينة في ذاتها كبيرة، كثيرة التجارات، والمسافرون إليها كثيرون، وكان أهلها مياسير، ولم يكن في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا»^(٤٢).

وقد حظيت مدينة المرية باهتمام ولاية المرابطين، الذين اهتموا بدور الطراز ودور الصناعة بها، كما عنوا بالمرافق التجارية الهامة بها من فنادق وأسواق، يذكر الإدريسي أن عدد دور الطراز بالمرية في أيام المرابطين بلغ ثمانمائة طرز^(٤٣)، لنسج الحرير. ومن أمثلة منسوجاتها: الديباج الموشى والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني والعتابي المموج^(٤٤)، والثياب المعينة أي التي تزدان بنقط صغيرة تشبه عيون الوحش أو بزخرفة هندسية على هيئة العين^(٤٥)، وإذا أضفنا إلى ذلك شهرة المرية في صناعة آلات النحاس والرصاص والحديد والسفن بجميع أنواعها في دار صناعة المرية^(٤٦).

أما من الناحية التجارية، فقد كانت المرية المركز التجارى العالمى فى شرق الأندلس، فقد كانت محطاً للسفن القادمة من شرق البحر المتوسط من الشام ومصر، ومن السواحل النصرانية من جنوة وبيزة والبندقية وقطالونيا وأراغون، وإليها كانت سفنهم تحمل بضاعتهم لتوزع من المرية إلى سائر أنحاء الأندلس، ثم تشحن بالبضائع والمتاجر الأندلسية إلى سائر دول حوض البحر المتوسط^(٤٧).

٣ - إستيلاء النصارى على المرية:

- الأسباب والدوافع لغزو المرية:

عندما ندرس إستيلاء النصارى على المرية والجيش المؤتلفة التى اجتمعت على حصار المرية الإسلامية بغية الإستيلاء عليها، نجد أنها كانت تضم الجنوبيين والقطلان والقشتاليين، ونقف على الوسائل السياسية والدبلوماسية التى اصطنعوها لتوحيد الجهود، والشعراء الوافدين الذين اصطحبهم لتحسيس الفرسان الفرنجة، والدافع الإقتصادى الذى حركهم وجعلهم يتفقون على الإشتراك فى توجيه حملة صليبية على المرية، ينبغى إذن أن نبحث عن الأسباب والدوافع الحقيقية من خلال مدوناتهم المعاصرة والقريبة من المعاصرة جنوبية كانت أو قطلانية أو قشتالية لكى نقرب من الحقيقة ونصل إلى تفسير منطقى لها. لذلك سوف نتناول بالدراسة الدوافع والتفسيرات التى أدلت بها المصادر الأجنبية:

أ - عن الدوافع الدينية الإنسانية:

يقول القنصل الجنوى كافارو الذى قاد حملة جنوبية عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م على المرية والذى أعد وجهز الأسطول الجنوى فى العام التالى للاشتراك فى الحملة المؤتلفة على المرية ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م:

«معلوما لدى كل العالم تقريباً أن مسلمى المرية منذ سنوات سابقة شنوا غارات برية وبحرية طويلة وواسعة على النصارى فى بلاد متعددة، فأسروا بعض أهلها وقتلوا البعض الآخر، وأودعوا الكثيرين فى السجون وعذبوهم فمات الكثير منهم، وأقدم بعض النصارى خوفاً من التعذيب على الإرتداد عن دينهم وإعتناق عقيدة الإسلام، لذلك لن يسمح الرب أن يظلوا دون إنتقام وإزاحة دماء»^(٤٨). ويضيف كافارو فى مكان آخر بقوله: الجنوبيون، الذين إستجابوا لاستدعاء الرب بواسطة المقر البابوى، حضروا من أجل شن حملة صليبية ضد المرية»^(٤٩). ويردد هذا القول الأسقف الجنوى جستنيانو بعد ثلاثة قرون، حيث نهل من حويلات كارو، فيقول:

« في ذلك الوقت كانت المدينة (أى المرية) قوية بحريا، وسكانها كانوا من المسلمين، الذين سببوا مضايقات لا تحصى للمسيحيين، وأنهم انتحلوا رئاسة القرصنة البحرية وسادوا كل البحر، خصوصا ضد النصارى مبرهنين على الإضطهاد الدينى»^(٥٠).

ويستفاد من روايتى كفارو وجستنيانو أن الجنوبيين كانوا المحرضين الرئيسيين، والأكثر تمسكا وفعالية لتحقيق مشروع الهجوم على المرية، مدفوعين فى ذلك بدافع دينى وإنسانى على حد قولهما، بهدف القضاء نهائيا على نشاطات القرصنة التى يمارسها أسطول المرابطين بقيادة ابن ميمون، الذى اتخذ من ثغر المرية قاعدة لأسطوله. هذا وينسب المؤرخ مارمول Marmol إلى البابا يوجنيوس الثالث Eugenio III (١١٤٧ - ١١٥٣ م) أنه المحرض والمشجع على الحملة الصليبية ضد المرية، وكذلك الممول للأسطول الجنوى^(٥١).

أما المدونات القطلانية والقشتالية فتذكر نفس الدوافع، فمصنف «حياة القديس أوليجاريو، أسقف برشلونة» "La vida de san Oleggrio, Obisp de Barcelona" يقول أن : قرصنة المرية مدوا غاراتهم على كل الشواطئ المسيحية للبحر المتوسط^(٥٢). ويضيف مؤلف كتاب

"La Historia Compostelana"

«أن مسلمى المرية وصلوا إلى شواطئ جليقة وأحرقوا ودمروا الكنائس وقتلوا وأسروا الرجال والنساء والأطفال، واضطر باقى السكان بسبب الغارات البحرية إلى هجر سواحلهم، والانتقال إلى المناطق الداخلية»^(٥٣). بينما يقول بالثيا فى هذا الصدد : «أن مسلمى المرية حققوا غارات مفاجئة على شواطئ بلنسية وبرشلونة، وعلى إمتداد البحر المحيط أبعد من جبل طارق حيث أننا لانستطيع أن نحصرها على الأقل جزئيا، فهى نشاطات مداها عظيم»^(٥٤). بينما تقول مدونة ألفونسو السابع، وهى شاهد معاصر قشتالى لتلك الوقائع، أنه عندما حضرت سفارة جنوبية فى خريف ١١٤٦ م لمقابلة ألفونسو السابع عند حصاره لمدينة قرطبة، وذلك من أجل التحضير لمشروع هجوم محتمل على المرية، فإن السبب فى تجمعهم أن مدينة المرية كانت : «مقرا للصيادين الذين يمارسون نشاطهم فى كل البحار، فهاجموا شواطئ بارى Bari وأسكلون Ascalon والقسطنطينية وجزيرة صقلية وجنوة وبيزه وفرنسا والبرتغال وجليقية وأشتوريش، ووسقوا مراكبهم بالأسرى

المسيحيين^(٥٥). ومن المؤرخين النصارى الحديثين لدينا روايتان إحداهما قطلانية والأخرى قشتالية أجمعتا على الدافع الذى تذرعه به النصارى للهجوم على المرية، الرواية الأولى للمورخ القطلانى بوخارس الذى يقول: أن مسلمى المرية رأوا وراثة الاقطاع الذى أخذه قديما Tiriosy Rodos فى البحر المتوسط ولهذا، ليس فقط على ملك قشتالة، لكن وجب على كل المسيحيين وعلى وجه الخصوص قطلانية منع هذه المحلة (أى المرية) من السلاح وكف قدرة أهلها البحرية، وتخطيم قواتهم، وقد أنجز ذلك مرة ما أخبر به^(٥٦). بينما يقول القشتالى ساندوفال، «كانت المرية وكرا للقراصنة حيث يعودون إليه ويخرجون منه للسلب»^(٥٧).

ومما لاشك فيه أن مسلمى المرية كانوا يحسون بالزهو لجسارة قائدهم ابن ميمون وجراته فى مهاجمة سفن المسيحيين فى البحر ونشر الرعب فى قلوب النصارى، يعبر عن ذلك الشقندى بقوله: «وفىها (أى المرية) كان ابن ميمون القائد الذى قهر النصارى فى البحر، وقطع سفرهم فيه، وضرب على بلاد الرمانية، فقتل وسبى، وملاً صدور أهلها رعباً»^(٥٨). هذه النشاطات البحرية لابن ميمون ضد النصارى يبدو أنها كما ظنت المصادر المسيحية السبب والدافع الأساسى لمشروع الهجوم ضد المرية، والحقيقة أن هذا السبب الذى إتخذه النصارى ذريعة للهجوم على المرية ولللقضاء على وكر القرصنة - على حد قولهم - غير كاف للأهتمام بالإعداد وتجهيز الحملة، ذلك لأنه فى عالم العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث كانوا قد خصصوا وقت فراغهم للإبحار للقرصنة ولم يكن لديهم أى تكلف فى بيع الأسرى الذى كانوا يقعون فى أيديهم عند كل غارة يشنونها على سواحل أعدائهم أو عند هجماتهم المعادية، إسلامية كانت أو مسيحية. ففى رواية الأوربانيخا يقول أن «بعض القراصنة القطلان نهبوا الشواطئ الأندلسية، فى الوقت الذى كان فيه مسلمو المرية معتبرين شياطين البحر المتوسط، وعند عودتهم إلى موطنهم محملين بالغنائم خرج قراصنة المرية ودانية وبنسبة فى أثرهم وأوقعوهم فى مأزق كبير، فابتهلوا إلى القديس القطلانى لإبجادهم»^(٥٩).

ب - الدوافع الاقتصادية:

يبدو منطقياً أن دولا ساحلية مثل برشلونة وجنوة وبيشة (بيزه) لم تكن تنعم بالاستقرار بسبب الغازات الجريئة التى كان يشنها أبو عبد الله محمد بن ميمون قائد أسطول المرية كل عام تقريبا من فصل الربيع إلى فصل الخريف مهددان سواحلها وطرقها التجارية، لذلك لا يمكننا إستبعاد الافتراض أن هذه الدولة البحرية

ذات القوة البحرية كانت هي أيضا تحاول إبعاد ابن ميمون أشد المنافسين لها والذي يحظى بخبرات بحرية واسعة من مرسلة تجارته مع موانئ الشمال الإفريقي ثم موانئ شرقي حوض البحر المتوسط بعد ذلك.

فلقد كانت العلاقة التجارية بين المرية وإفريقية والنرب وكذا المشرق الإسلامي قد توطدت، ولا شك أن ذلك كان له أثره في تعويق نشاط الدول البحرية المسيحية ووقفه بالقوة. فلقد استغرقت كل من برشلونة وعلى الأخص جنوة قرنا تأملان في الحصول على منتجات المنسوجات اليدوية من الحرير والكتان التي كانت قد نمت وازدهرت في مدينة المري وضواحيها، والتي اضطامعت بهذه الصناعة حيث أصبحت المصدر الرئيسي لثروة أهلها، والذي جعلها أهم صناعة لها أسواقها الخارجية في الدول الأخرى وذلك بسبب دقة منسوجاتها الحربية المتقنة للغاية نتيجة لتوفر المواد الأولية التي ينتجها إقليمها مثل الحرير والكتان لتبادلها مع الحبوب والمنتجات الإفريقية الأخرى والمنتجات الأخرى التي تقاربها في الأسواق في المشرق الإسلامي، وإرسال باقى هذه المنتجات المستوردة بعد ذلك إلى الأندلس والدول الأوربية.

اعتقد الجنويون والقطلان أنه من الضروري إبعاد المرية المنافس التجاري الخطر عن طرق التجارة البحرية بتدمير المصدر الأساسي لثروتها، وبهذا الدافع أعدوا حملة للإستيلاء على المرية وتخريبها لمدة عشر سنوات، ومع أن المرية استعادت حريتها ونشاطها الصناعي بعد ذلك على أيدي الموحدين إلا أنها أصبحت غير منافسة تجاريا، واضطر أهلها إلى بيع الحرير للنصارى لتعذر صناعته بسبب نقص الأنوال التي دمرها النصارى عند إستيلائهم عليها، ووقع عدد كبير من الصناع أسرى في أيديهم.

لهذا لم تستطع المرية أن تسترجع إزدهارها القديم، وإن كانت قد أصبحت منذ بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي الميناء التجاري الأول في الأندلس، الذي يتعامل مع الدول النصرانية، فقد كانت تصلها السفن من الجمهوريات الإيطالية وأراغون وأقطار أخرى محملة بالبضائع، فتفرغها في المرية، وتحمل بضائع أخرى أندلسية^(٦٠)، يؤكد ذلك ما ذكره الشقندي بقوله: «وبها (أي المرية) كان محط مراكب النصارى، ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع في أعشارهم ولم يوجد لهذا الشأن مثلها، لكونها متوسطة، ومتسعة، قائمة بالوارد والصادر»^(٦١).

ج - دوافع سياسية وإستراتيجية:

كان للقشتاليين وجهة نظر مختلفة جدا عن القطلان والجنوبيين فالقشتاليون لم يستعجلوا النصر المباشر على قراصنة المرية فلم يكن لديهم شعور عدائى دينى ضدهم. وكانت الدوافع لدى ألفونسو السابع ذات أهمية سياسية تتعلق بسمعته، فمئذ أن توج إمبراطورا فى ليون وهو يعمل على إسترداد مواضع أندلسية كثيرة، منتهزا فرصة ضعف دولة المرابطين. إذ كان إضمحلال سلطان المرابطين فى المغرب، وتفوق قوى الأندلس عند إتحادها، والعون الذى كان يلقاه ثوار الغرب من ملك البرتغال، بالإضافة إلى إحتمال إنتقال الموحدين إلى الأندلس؛ كل ذلك حمل ابن غانية القائد المرابطى - الذى ترك دون عون من إفريقية - على أن يسعى للحصول على مساعدة النصارى، وقد حصل عليها من ألفونسو السابع أعظم ملوك أسبانيا المسيحية، وبذل فى سبيلها بلاشك وعودا ضخمة، وبعد أن قاتل النصارى بالتعاقب مع حزب سيف الدولة بن هود، ثم عبد الله الطغرثى، ثم أحمد بن قسى تحالفوا عندئذ مع المرابطين ألد أعدائهم من قبل، وسارت القوى المتحالفة معا صوب أندوجار وبياسة وقرطبة^(٦٢). فدخل ابن غانية ومعه فرقة من النصارى قرطبة فى ١٢ شعبان عام ٥٤٠ هـ، وعاث النصارى فى مسجدها الجامع، وربطوا خيولهم فى أروقتة، وأقاموا قداسا حافلا وتناولوا بأيديهم المصحف العثمانى^(٦٣)، فأثاروا بذلك غضب أهل قرطبة. ويبدو أن السبب فى ذلك أن ألفونسو السابع طالب ابن غانية بمدينة قرطبة كتعويض لمساعدته له ولكن ابن غانية صالحة على أن يعطيه بياسة وتحفا كثيرة^(٦٤).

وقد لقى ألفونسو السابع معاونة صادقة من محمد بن سعد بن مردنيش وإبراهيم بن همشك، وهذان الرجلان مسؤولان إلى حد بعيد عما أصاب الإسلام فى شرق الأندلس فى أواخر العصر المرابطى وخلال العصر الموحدى، وأصبح ألفونسو السابع إمبراطورا لوسط إسبانيا، وأقدمت جيوشه على الإغارة على مدن الأندلس، غير أن الإنتشار الأرغونى فى شرق الأندلس، وكذا الوجود النشط للأسطول الجنوى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط أقلقته بشكل خاص. ولاشك أن هذا قد دفع ألفونسو السابع للموافقة على الإشتراك فى مشروع الهجوم على المرية، ليس لإحتلالها ومواجهة قوى الموحدين بالمغرب الطامعة فى ضم الأندلس، ولكن لكبح جماح الأطماع القطلانية والجنوية. وفى نفس الوقت لكى يتخذ ألفونسو السابع من مدينة المرية قاعدة متقدمة كحد فاصل بين الأطماع الأرغونية والقشتالية فى شرق الأندلس.

المحاولة الأولى: الحملة الجنوية على المرية عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م

خلال فصلى الصيف والخريف لعام ٥٤١هـ / ١١٤٦م أعد الجنويون حملة على جزيرة منورقة وثمر المرية^(٦٥). ولم يذكر القنصل الجنوي الذي قاد هذه الحملة ضد المرية تاريخا محددا لها، بينما يقول ابن أبي زرع باختصار: فى عام ٥٤٠هـ نزل العدو المرية بثمانين جفنا، فأحرق أرباضها وانصرف عنها^(٦٦).

وأعد الجنويون أسطولاً يتألف من إثنين وعشرين سفينة شراعية وست قوارب مزودة بالمجاذيف، وشحنوا هذه السفن بأدوات الحرب، كما أبحر مع الحملة مائة فارس بعتادهم من السلاح والبياذق، وتولى قيادة الحملة القنصل الجنوي كافارو الذى أوبرتو توريس Oberto Turre بالمشاركة فى القيادة، ووصل هذا الأسطول أولاً إلى مائة جزيرة مينورقة إحدى جزر البليار، ففاجأ مسلمى الجزيرة ونهب قراها، واشتبك فى معارك طاحنة مع أهلها، وساق معه بعض الأسرى^(٦٧). ومن مينورقة أبحر الأسطول الجنوي رأساً إلى المرية حيث صادف فى مينائها مراكب تجارية محملة بالبضائع، فاستولى عليها ووسقها فى مراكبه، ثم نزل الجنويون إلى الشاطئ حيث شرعوا فى إقامة معسكر لهم بالقرب من أسوار المدينة، ونصبوا مجانيقهم، ولم يجد مسلمو المرية بدا من طلب هدنة وعرضوا على الجنويين مبلغ ١١٣,٠٠٠ دينار مرابطى فى مقابل إنسحابهم من المدينة دون أن يلحقوا بها أضرار، وقد أجاب كافارو ومعاونيه بأنهما لا يستطيعان عقد هدنة سلام معهم إلا إذا سلم أهل المرية المبلغ المعروض كله، وأخيراً توصل الطرفان إلى إتفاق يقضى بأن يدفع أهل المرية خمسين ألف دينار مرابطى فى الحال، على أن يسدوا باقى المبلغ المتفق عليه خلال ثمانية أيام^(٦٨).

احتفل القناصل الجنويون مساء ذلك اليوم بهذه المناسبة، ووزعوا المبلغ الذى دفعه مسلمو المرية على قادة الأسطول. أما أهل المرية فقد خلعوا يوسف بن مخلوف عامل الموحدين عليهم، لفشله فى رد هجوم الجنويين، وعرضوا رئاستهم على قائد أسطولهم ابن ميمون فرفضها فولوا عليهم أبا يحيى بن الرميمى^(٦٩). ويرجح أويشى ميراندا أن المرية شهدت خلال حكمه قيام إمارة مستقلة حتى إستيلاء النصارى عليها^(٧٠). على أية حال فإن ابن الرميمى أرسل للجنوبيين يبلغهم بما حدث ويقر إتفاقهم مع الوالى السابق، وتعهد بتقديم الأموال المتبقية خلال المدة المحددة.

ولما أنقضت المهلة المحددة ولم يقدم أهل المرية الأموال المتبقية أشد غضب الجنويون، وصمموا على مواصلة حصارهم للمدينة فأقاموا عليها نحو اثنين وعشرين يوما، أحرقوا خلالها زروعها، وأحدثوا أضرارا كبيرة في أسوارها، واضطروا إلى رفع الحصار عنها لحلول فصل الشتاء^(٧١).

وكان الجنويون خلال حصارهم لمدينة المرية قد أدركوا إستحالة تجاوز دفاعاتها، وفي الوقت نفسه أنكر أهل المرية دفع ما سبق أن اتفقوا عليه، لذلك صمم الجنويون على الإستيلاء على المدينة بالقوة، ولهذا السبب اتصلوا بالفونسو السابع حيث كان على رأس جيشه على حصار مدينة قرطبة في النصف الثاني من سبتمبر عام ١١٤٦م، وخرجت سفارة جنوبية من ضواحي المرية برئاسة القنصل كافارو، وتوجهت حيث كان الامبراطور، فوصلت في أواخر شهر سبتمبر، وساعده على الوصول ما كانت تموج به الأندلس من اضطرابات بسبب إضمحلال النفوذ المرابطي به^(٧٢). فالتمس الجنويون من ألفونسو السابع أن يأخذ دوره القيادي في مشروع الإستيلاء على المرية وتخليصها في العام التالي ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، فوافق على العرض وأقر تفصيلات المشروع، وتعهد بأن يحاول إشراك بعض أمراء اسبانيا النصرانية وسادة وسط فرنسا في مشروع الحملة^(٧٣).

عاد الامبراطور ألفونسو السابع فجأة إلى قشتالة في نوفمبر ١١٤٦م واستطاع أن يوفق بين مملكتي نافارا وأراغون، وأن يعقد نوعا من السلام العام بين الممالك الاسبانية بغرض تجهيز حملة على المرية^(٧٤). يقول ساندوفال أن ملكي نافارا وأراغون إتفقا بينهما. وعقدا حلفا للعام التالي ١١٤٧م، الذي جاء بنتيجة طيبة من لقاءاتهما^(٧٥).

ثم عاد كل عاهل إلى مملكته للإعداد للحملة على المرية، واضعين نصب أعينهم شارة الصليب لمهاجمة مسلمي المرية ومعاقبتهم على الجرائم الخطيرة التي إرتكبها قراصنتهم، ودعا دون أونالدو أسقف استرقة Astorga سادة وسط فرنسا وقناصل الجمهوريات الإيطالية باسم الامبراطور ألفونسو السابع «لخلاص أرواحهم، وإتفقوا على شهر أغسطس لتدمير وكر القراصنة»^(٧٦).

المحاولة الثانية للهجوم على المرية:

- القوات المؤتلفة في مشروع الهجوم على المرية:

كانت القوات المؤتلفة التي اشتركت في مشروع الهجوم على المرية هي:

ألفونسو السابع امبرطور قشتالة وجارثيا راميرث ملك ناغار، ورامون برنجير الرابع كونت برشلونة وأمير أرغون، والكونت جيرمو دى مونتيلية والقنصلان الجنويان أنسالدو Ansaldo وبلدوين دى أوريا Balduino de oria وأمراء الأسطول البيزى^(٧٧).

عباً الامبرطور ألفونسو السابع لهذا المشروع كل قواته البرية وربما شارك أسطوله فى خليج كانتيريا فى الحملة^(٧٨). كما شاركت مع الامبراطور قوات أخرى جليقية بقيادة الكونت فرناندث بيرس دى ترابا Fernandez Perez de Traba أحد الشخصيات الهامة فى مملكة ليون، وكان قد شارك فى فتوح أوريجا Oreja وقورية Coria وقرطبة^(٧٩). كما اشتركت قوات من مدينة ليون تحت قيادة الكونت راميرو فلوريث دى جوثمان Ramiro Folrez de Gozman^(٨٠) وقوات من اشتوريش قادها بدور ألفونسو Pedro Alfoso^(٨١). وقوات من ليون قادها الكونت بدور بونث دى مينرفا Pedro ponce de Minerva^(٨٢).

كجها اشتركت قوات من الفرسان من مقاطعة ليميا Limia بمحافظة أورينسا Orensa بقيادة نبيل جليقى يدعى فرناند خوانيس Fernando Juanes^(٨٣). أما قوات طليطلة فقد تولى قيادتها حاكمهم ألفارو رودريجس Alvaro Rodriguez^(٨٤). أما رامون برنجيز كونت برشلونة الذى استجاب لدعوة الامبراطور ألفونسو السابع للأشتراك فى مشروع الهجوم على المرية، فقد تكونت قواته الأساسية - كما يقول كافارو - من خمسمائة وثلاثين فارساً بمعداتهم^(٨٥). ووضع لخدمتهم حوالى ألفين وخمسمائة رجل وخصص لكل فارس جوادين، فضلاً عن المشاة والنوتية لتسيير السفن، ومن المحتمل أن عدد قطع الأسطول القطلانى كان يتراوح ما بين خمس وعشرين وثلاثين سفينة.

والغريب أن كابمانى Capmany يجعل من رامون برنجير الرابع المحرض الرئيسى على مشروع الهجوم على المرية، فيقول ان رامون برنجير دعا الجنويين وكونتات برشلونة إلى عقد حلف قوى أكد فيه مساعدته لهم فى مشروع الهجوم على المرية نظير الوفاء بحصة مؤكدة لكل منهم^(٨٦). وما لا شك فيه أن هذه الرواية غير صحيحة، فقد سبق أن ذكرنا أن كافارو (القنصل الجنوى) كان قد أكد مشروع الهجوم على المرية مع ألفونسو السابع، وترك له العمل لمحاولة إشراك أمراء اسبانيا النصرانية فى المشروع، وهذا يعنى أن رامون برنجيز الرابع كان نصيراً لألفونسو السابع والجنويين.

أما جنوة، فقد شاركت بأسطول مكون من ثلاث وستين سفينة ومائة وثلاث وستين مركباً من أنواع مختلفة، وأشارك في الحملة بعض القناصل وذلك في عام ١١٤٧ م. ورافقهم مجموعة من النبلاء^(٨٧). ويفترض بعض المؤرخين اشتراك القنصل الجنوى كافارو في هذه الحملة مستنديين على ما جاء في كتابة "De Captione Almerie y Tortuise" لكن ذلك لا ينهض دليلاً مؤكداً، لأن المعلومات التي يحتويها الكتاب استقاهها كافارو من قناصل هذا العام الذين عاونوا وأداروا المشروع.

أما بيزه، فهناك ما يشير إلى اشتراكها بقائد أسطولها أمير البحر يوجو فسكونت كورنولو Ugo Visconti Comolo دون ذكر لعدد قطع أسطولها، ولا لأي نشاط لها في الحصار في الهجوم على المرية^(٨٨).

ومن فرنسا، اشترك أحد النبلاء الفرنسيين ويدعى جيوم السادس Guillemo VI سيد مونتبلية إحدى مقاطعات لانجدوك^(٨٩). وهناك إشارة إلى اشتراك ثلاثة من فرسان المعبد في الهجوم على المرية وهم : جيلهم هيك Guilhem Hek، وفرانسيس جوفري Francis Jouffory، ورودلف ترنش Rodolph Trench، إذ عهد إليهم بحراسة حصن كان قائماً على مرتفع سان كريستوبال San Cristobal الواقع بين سور المرية ومنطقة هويا القديمة La Hoya Vieja، وهو المكان المعروف عند الكتاب المسلمين بالعرقوب^(٩٠).

حصار مدينة المرية وسقوطها في أيدي النصارى وتبعتها لقشتالة:

وفي العام التالي، اجتمعت في ميناء برشلونة الأساطيل القطلانية والجنوية والبيزية المشاركة في مشروع الهجوم على المرية، ثم اتجهت هذه الأساطيل إلى ثغر المرية، فوصل إلى شواطئ خليج القبطة الكونت البرشلوني رامون برنجير في أسطوله يرافقه خمسمائة وثلاثون فارساً عدا المشاة^(٩١)، ثم تابعه الأسطول الجنوى الذي كان متحرراً للاستيلاء على المرية وتخريبها، فلم ينتظر وصول الامبراطور ألفونسو السابع بقواته البرية لمحاصرة المرية بحراً وبراً، بل شرع في الهجوم بقواته على أسوار المدينة، وقد أعد الهجوم هذه المرة بدقة، فعند الفجر حضر بلدوين في خمسة وعشرين مركباً في اتجاه المدينة Almedina وأمر بعض جنده بالنزول إلى الشاطئ ليوهم مسلمي المرية بأنهم يشرعون في القتال، وفي الوقت نفسه كان الكونت البرشلوني مستعداً أيضاً للمعركة متوارياً مع جنده عن الانظار في أحراش بحيرة

بوبار بالقرب من مصب النهر، وأخفى بها خمسا وعشرين مركبا، وأبقى واحدة منها بارزة في نفس البقعة من النهر لتحذير المراكب الاخرى عند خروج المسلمين من المدينة للقتال، يقول كافارو أن مسلمي المرية عندما شاهدوا نزول الجند من المراكب الخمس عشرة إلى الشاطئ وهم على أهبة القتال، خشوا أن يكون النصاري قد أعدوا لهم قوات أخرى، لهذا أرسل المسلمون فارسين أحدهما أبيض والآخر أسود ارتقيا مرتفع سان كريستوبال لمراقبة ما حوله، ولأن الفارسيين لم يلاحظا الفرسان النصاري الذين استروا، أعطيا إشارات بالرايات لكي يخرج مسلمي المرية ويهاجموهم^(٩٢).

وهكذا خرج مسلمو المرية عندما شاهدوا الإشارة من سور المدينة جهة باب البحر، مجهزين تماما للقتال، يقول كافارو أن عددهم كان أربعين ألفا^(٩٣)، ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه، لأن عدد سكان المرية كلهم بحساب الشيوخ والنساء والأطفال يكاد يقارب هذا الرقم، ولهذا فإن المشاركين في القتال لابد أنهم كانوا أقل من ذلك بكثير.

والتحم مسلمو المرية والجنويون الذين نزلوا إلى الشاطئ، وتمكن المسلمون من ردهم وقتلوا منهم ثمانية وأجبروا الآخرين على الهرب إلى مراكبهم، حينئذ أعطى القنصل الجنوي أنسالدو دى أوربا الإشارة المتفق عليها، وكانت متأخرة كثيرا، إلى الكونت البرشلونى والمراكب المتوارية في النهر، فتركت الخمس وعشرون مركبا والفرسان القطلان تجاه المدينة، وعادت مراكب بلدوين إلى إنزال جنودها على شواطئ المرية، وأيضا نزل إلى الشاطئ قوات أنسالدو دى أوربا. وألقى القطلان والجنويون بأنفسهم في القتال بحماس ضد مسلمي المرية، الذين قاتلوا ببسالة غير أنهم لم يجدوا مناصبا من الإرتداد إلى المدينة والاحتماء خلف أسوارها تاركين وراءهم - كما يقول كافارو - خمسة آلاف قتيل، وهذا رقم مبالغ فيه جدا، والدليل على مبالغة وتعصب كافارو ضد المسلمين روايته التي يقول فيها أن جندي جنوي أصيل، يدعى جيرمو بيلس Guillermo Pellis، أسرع دون تصريح من قاداته، واشتبك من الصفوف الاولى ضد مسلمي المرية، فقتل وقطع بسيفه رأس أكثر من مائة من المسلمين على الشاطئ^(٩٤).

وهكذا فشل الهجوم الجنوي القطلاني على أسوار مدينة المرية، وأيقن قادة الحملة المؤتلفة بعد أن عاينوا قوة تحصينات أسوار المرية أن حصارها سيطول فقاموا ببعض الترتيبات، فأمروا قطع أساطيلهم بالاقتراب من الشاطئ، ثم قاموا بتخطيط

معسكرهم وأحاطوه بسياج متين بعد أن أنزلوا آلات الحرب والاختشاب من أجل إقامة حصون صغيرة لمهاجمة الأسوار، وأثناء إنشغالهم في إقامة معسكرهم وفي نصب المجانيق، كان مسلمو المرية يخرجون في محاولات لكسر الحصار المحكم على مدينتهم ويحملون على القوات النصرانية ويعودون إلى التحصن داخل الأسوار^(٩٤).

وكان ألفونسو السابع منذ شهر مايو ١١٤٧ م قد أعد كل قواته في قلعة رباح، واحتشدت قواته بها وكانت تتألف من قوات جليقية واشتوريش وقشتالة وأرغون ونافارا، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم، ويتولى ألفونسو السابع نفسه القيادة العليا للجيش^(٩٥).

هذا وقد قرن كافا ووصول ألفونسو السابع وجيشه إلى المرية بالوقت الذي انتهى فيه الجنويون والقطلان من إقامة المعسكر^(٩٦).

ويصف مورخ عربي الحملة ضد المرية، فيقول: ملأ النصارى السهل بجيوشهم الضخمة، وخربوا الحقول، واستاقوا الماشية، وساروا نحو المرية، وكان يقود النصارى ملكهم اذفنش، ويتألف جيشه من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاة، وقد ملأوا الجبال والسهول، ولم تكف مياه العيون الانهار لإرواء ظمئهم، ولا الحشائش والنبات لتغذيتهم، وكانت الجبال ترج بوقع حوافر خيولهم وصوت أقدامهم، وتردد صداها، وكان من بين قادة الجيش فردلند ملك جليقية والقمط رذمير ارمنجودي، وغيرهم من أمراء الفرنج وأمم النصرانية المجاورة، وجاء القمط رمند من البحر في سفائن عديدة، وطوق مدينة المرية من البر والبحر، حتى أصبح من المتعذر أن يدخلها أحد سوى النسر، ونفذت المؤن بسرعة، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم في النجدة، فخرجوا مرارا لمقاتلة النصارى، وفقدوا خيرة فرسانهم^(٩٦).

أما الرواية الجنوبية فتقول أن: القوات المتولفة قامت على الفور بنصب المجانيق على أسوار المدينة، وكمنوا في أماكن ملائمة إستعداداً للهجوم وبدء القتال ليل نهار، في الوقت الذي اتخذ فيه مسلمو المرية إستعداداتهم لمحاولة كسر الحصار حولهم وذلك بقذف كرات من اللهب من أعلى الأسوار لحرق حصون النصارى المتقدمة، والقيام بغارات متوالية أسفرت عن تدمير بعض المنجنيقات، كما اشتبكوا بفدائية مع قوات النصارى حتى سقط من الطرفين عدد كبير من القتلى ولجأ النصارى إلى اختبار مقاومة المسلمين، فركزوا هجومهم بالمجانيق على الأسوار في مكان معين، وتمكنوا من فتح ثلثة في السور طولها ثمانية عشر قدما واستولوا على

برجين^(٩٧). يقول بوخاديس pujades أن مسلمي المرية فقدوا الأمل من رفع الحصار، في الوقت الذي أصر فيه النصارى على عدم الرحيل من هناك إلا بالموت أو النصر. وأمر القادة أمراء الأسطول بسحب أسطولهم إلى الشاطئ^(٩٨).

انصرم معظم شهر سبتمبر في أعمال الحصار، وفي النصف الأول من شهر أكتوبر قرر مسلمو المرية طلب السلام من ملك قشتالة الذي أرسل - خفية عن الجنوبيين - مبعوثين لإبلاغ ملك نافارا وكونت أرخل أن أهل المرية عرضوا دفع مائة ألف دينار مرابطي، يدفعون على الفور رهنا عبارة عن مقدار من الذهب في مقابل أن ينسحب ألفونسو السابع وجارثيا راميرث ويتركوا الجنوبيين والقطلان وحدهم على الشاطئ، أملين أن هؤلاء سوف لا يستطيعون الاستمرار في الحصار وقتا اكبر لنقص الأزواد وقرب حلول فصل الشتاء، ويعتقد بوخاديس أن الامبراطور وملك نافارا كانا يميلان للموافقة على عرض أهل المرية^(٩٩).

كرر أهل المرية المحاولة مع الجنوبيين، لكن الجنوبيين لم يتركوا لهم الفرصة لخداعهم مرة أخرى، يقول كافارو أن القناصل الجنوبيين تدخلوا في الإتفاقات السرية بين القشتالين ومسلمي المرية بغرض إفشالها، وصمموا على استمرار حصار المدينة حتى الإستيلاء عليها بالقوة، وفي فجر يوم ١٧ أكتوبر ١١٤٧م/ ٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢هـ، أمروا قادة الحملة بالاستعداد للهجوم، وأعدوا نحو اثني عشرة فرقة، كل فرقة تتكون من ألف رجل تتقدمهم الرايات، واستخدموا على الساقطين كتائب من الفرسان، وأمروهم بعدم التقدم تجاه أسوار المدينة إلا بعد سماع الإشارة المتفق عليها بدق الطبول، وأن يكون تقدمهم دون إثارة ضجة، ويكمنوا لمسلمي المرية، فعندما يخرجون للإغارة على المعسكر، يشتبكوا معهم في قتال دون أن تصدر منهم صيحات، وفي صباح اليوم التالي توسلوا مرات عديدة إلى ألفونسو السابع والكونت رامون برنجير أن يصدرا الأوامر لقواتهما بالاستعداد واتخاذ أهبة الاستعداد للقتال، وطلبوا منهما الاقتراب من أسوار المرية لمعاينة الفرق الجنوبية المستعدة للهجوم، وهكذا عندما دقت الطبول، تقدم الجنوبيون تجاه أسوار مدينة المرية، واستعدوا للهجوم من خلال عشرة مواضع مختلفة^(١٠٠).

أما فيما يتعلق بالهجوم على الأسوار، فيذكر كافارو روايتين يختلفان فقط في تفسير التوقيت، ففي مؤلفه De captione يقول، «وفي أقل من ثلاث ساعات من صباح اليوم، وبرعاية الرب، قتلوا الكثير من المسلمين بسيوفهم، واحتلوا كل المدينة حتى القصبة»^(١٠١). والرواية الأخرى في مؤلفه Los Annales . حيث يقول: كان

القناصل قد أمروا جندهم عندما يسمعون قرع الطبول بالتقدم للهجوم على المدينة دون صياح وفي هدوء تام، وهكذا فعلوا وتلاههم الفرسان في الساعات الثلاث الأولى من اليوم، أنجدهم الرب وأعانهم، وأراقت سيوف الجنويين دماء كثيرة من مسلمي المرية، واستولوا على كل المدينة حتى La subda^(١٠٢).

وقد لاحظ جستنيانو أن الهجوم بدأ عند بزوغ الفجر، واستغرق ثلاث ساعات^(١٠٣).

وفي رواية بوخاديس عن الهجوم يذكر أن كل القوات المؤتلفة أخذت مكانها في الواقعة، وقد رتبت في إحدى عشرة كردوسا كل كردوس يتكون من ألف رجل، واختير الجنود من كل القوات المؤتلفة، ثم أحاطوا بالمدينة، وواصلوا زحفهم ببطء تجاه الأسوار، وكان في المؤخرة ملكا قشتالة ونافارا مع جنودهم، ومع بزوغ الفجر، أعطوا الإشارة للهجوم فبدأ القطلان الهجوم بشدة وقسوة، ذلك الهجوم الذي لم يستغرق أكثر من ثلاث ساعات، وبعدها أدركوا ضعف الحامية الإسلامية، وقوة القطلان، الذين ساندتهم الرب وساعدتهم المسيح في تحقيق النصر الذي عملوا له ... النصر ... النصر، هاجموا بثبات، وخضعت المدينة كلها حتى المدينة ونهبوها^(١٠٤).

وهذا يعنى أن مدينة المرية أخذت عنوة، وهو ما يؤكد ابن الأثير والمقرى، فابن الأثير يقول: في هذه السنة (٥٤٣هـ) في جمادى الأولى حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة. واكثروا القتل بها والنهب^(١٠٥).

وأما المقرى فيقول: «أن العدو دخل مدينة المرية يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثني وأربعين وخمسمائة، عنوة»^(١٠٦)، وهو ما يتعارض مع الرواية العربية التي أوردها أشباح والتي تقول أن مسلمي المرية بدأوا المفاوضات مع النصارى وسلموا المدينة للأذنفش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمنوا في أنفسهم، وكان ذلك في أواخر عام ٥٤٣هـ^(١٠٧).

والواقع أننا ينبغي أن نوافق على أن المرية فتحت عنوة، وأن سقوطها كان نتيجة مباشرة للاختلافات التي نشبت بين قادة القوات المؤتلفة في الساعة الأخيرة، فالمفاوضات التي دارت سرا بين أهل المرية والقشتاليين كانت قد أثمرت بالموافقة على رفع الحصار من جانب القشتاليين والنفاريين، ولكن ارتياح الجنويين فيما كان

يجرى سرا بين أهل المرية والقشتاليين من جهة، والقشتاليين والنفاريين من جهة أخرى، دفعهم إلى عقد العزم منذ البداية على الإستيلاء على المرية بالقوة وتخريبها وهي الميناء المنافس لنشاطاتهم التجارية، وقد تابعهم في ذلك القطلان الذين قاسوا مثلهم غارات المسلمين البحرية والمنافسة التجارية. لهذا نعتقد أن رواية بوخاديس أقل مبالغة عند وصفه لترتيب القوات المؤتلفة وإعدادها لتكون على أهبة القتال فوضع الكتائب المهاجمة جنوية وقطلانية في المقدمة، بينما ترك في المؤخرة القوات القشتالية والنفارية.

على أى حال، فقد استشهد عند دخول النصارى المدينة عدد كبير من المسلمين، يقول المقرئ: «أنه كان منهم الامام المشهور ابو محمد عبد الله بن علي ابن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر، اللخمى الرشاطى المرى^(١٠٨). وينقل المقرئ رواية أخرى عن ابى القاسم الامام الحافظ عبد الرحمن بن الانصارى المشهور بابن حبيش آخر الحفاظ بالأندلس الذى قال: «كنت فى قلعة المرية لما وقع الإستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام، فتقدمت إلى زعيم الروم السليطين، وهو ابن بنت الاذفونش، وقلت له: أنى احفظ نسبك منك إلى هرقل، فقال لى: قل، فذكرت له، فقال لى: اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقاء بلا شئ^(١٠٩)».

كما حصل الكونت ريموند على معظم الاسرى^(١١٠). ويقول المقرئ أنه «قد أحصى عدد من سبى من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا^(١١١). وهذا رقم مبالغ فيه.

والغريب هنا أننا لا نجد أى نص تاريخى يشير إلى تلقى مسلمى المرية أى معونة خارجية سواء من مسلمى الأندلس أو المغرب، فابن مردنيش الامير المسلم المسيطر على بلنسية ومرسية لم يحاول التدخل عسكريا ضد القوات النصرانية المتحالفة، التى كان يرتبط معها برباط من الصداقة وثيق، فلم يشأ أن يتعرض لها حتى لا تنهار صلاته الودية التى يرتبط بها معهم سيما وأنه كان فى مواجهة خطر يتمثل فى قوة الموحدين. وكان على يقين أن المواجهة بينه وبينهم أصبحت وشيكة، وأن اليوم الذى سيلاقيهم فيه بات وشيكا، وهذا ما جعله يرتضى هذا الموقف المتخاذل، موقف المتفرج على الاحداث، وإن كان فى نفس الوقت يعتبر نفسه حاميا للرعايا المسلمين فى طرطوشه والمرية، فعندما عقد معاهدة الصداقة مع الجنوبيين اشترط عليهم أن يتعهدوا ألا يوقعوا أضرارا برعاياه فى طرطوشه والمرية ولا

سيما أن جنوة كانت من بين الممالك المسيحية التي اشتركت في افتتاح المرية وطرطوشة^(١١٢).

أما الموحدون فلم يقدموا لفترة على التدخل عسكريا لنجدة المرية أو إستعادتها نظرا لمشاغلكم الكبيرة فى بسط سيطرتهم على كل المغرب، وتأكيد نفوذهم على قواعد الأندلس الأخرى، فلما استقرت أوضاعهم السياسية فى العدوتين، أعدوا العدة لإستعادة المرية ولكن ذلك لم يتم إلا بعد ماضى عشر سنوات من استيلاء النصارى عليها.

٤- السيادة القشتالية على المرية:

تؤكد الروايات النصرانية أن المرية أصبحت تحت سلطة العاهل القشتالى ألفونسو السابع، وتقول أن «مدينة المرية وقعت فى قبضته، حيث أن رجاله العظام استولوا عليها، ودخلها الامبراطور بعد تحقيق النصر»^(١١٣). ويضيف كافارو «أن الجنوبيين تركوا فرقة مكونة من ألف جندي بقيادة أوتون دى بونفيللا للمشاركة فى حماية مدينة المرية لكن ينبغي القول أن السيادة على المدينة خلال الفترة من (٥٤٢هـ / ١١٤٧م - ٥٥٣هـ / ١١٥٧) كانت قشتالية»^(١١٤).

وعند إقتراب شتاء عام ٥٤٣هـ / ١١٤٧م عاد كل فريق إلى بلاده بالغنائم والاسرى، فأقلعت الأساطيل الجنوبية والأرجونية إلى برشلونة، حيث مكث الجنوبيون يعملون فى إصلاح سفنهم، إنتظارا لهجوم آخر مع القطلان على طرطوشه، وذلك بعد أرسل الجنوبيون بعض قطع أسطولهم إلى جنوة محملة بالغنائم والاموال وبعض الاسرى^(١١٥).

بينما عاد ألفونسو السابع إلى قشتالة، بعد أن اختار من قبله حاكما على المرية، وأصبحت المرية منذ ذلك الحين تحت السيادة القشتالية، ودخلت رسميا فى أملاك الامبراطور ألفونسو السابع الذى تسمى بملك جليقية وليون وقشتالة ونافارا وسرقسطة والمرية وبياسة وأندوجار^(١١٦).

٥- استعادة الموحدين للمرية:

منذ عبر الموحدون إلى الأندلس واستقروا فى قرطبة، وامتد نفوذهم فى أواسط الأندلس وجنوبها، أظهروا حرصا على استعادة ثغر المرية الهام، لاسيما وأن وجوده تحت سيطرة القشتاليين كان يهدد مواصلاتهم البحرية شرقى مضيق جبل طارق فيما بين سواحل المغرب الاوسط والسواحل الجنوبية للأندلس، فلما تم لهم

دخول غرناطة، شعروا أن الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا المشروع الذى كان الخليفة عبد المؤمن بن على يولية عنايته واهتمامه، يؤيد ذلك رسالته إلى الطلبة وأشياخ الموحدين بيجانه والتي يقول فيها أنه رأى «أمر لمرية - حرسها الله - من أهم الامور وأكدها فى هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية»^(١١٧).

فحشد السيد أبو سعيد والى غرناطة قواته، وبعث إلى المرية بادی ذى بدء حملة استطلاعية «ليستطلع أحوال النصارى»^(١١٨)، وذلك بالوقوف على دفاعات المرية، والاستعلام عن عدد قوات حاميتها. ويبدو أن هذه الفرقة الاستطلاعية أخذت طريق البشرات، وسلكت جبل جادور ثم وصلت إلى أسوار المرية، يقول ابن عذارى، أن عسكر الموحدين، كمن على مقربة منها (أى المرية) إلى نصف النهار، ثم خرج وأغاروا على باب المرية وقتلوا من النصارى عددا كثيرا، ورجعوا من غارتهم إلى حصن برجة»^(١١٩)، وهذا الحصن يقع شمال غربى المرية، وفى الحصن علم قائد فرقة الموحدين الاستطلاعية من أهله أن النصارى بقلعة المرية فى عدد قليل، فخاطب قائد الفرقة الموحدية السيد أبا سعيد بغرناطة بما قاله أهل برجة»^(١٢٠).

سار السيد أبو سعيد على رأس الجيش الموحدى من غرناطة، ومعه قوة أندلسية بقيادة ابن ملحان صاحب وادى آش السابق، فهاجموا النصارى الذين انتشروا ظاهرها على الربى والبطاح وتغلبنوا عليهم، ففروا داخل المدينة وتبعتهم جيوش الموحدين، واقتحمت عليهم أبواب المرية واستولوا عليها»^(١٢١). ولاذ النصارى بالقصبة وتحصنوا فيها، فحاصرها الموحدون حصارا محكما، ونصبوا مجانيقهم»^(١٢٢). واقامت عساكر الموحدين بظاهر المرتفع، وعسكرت على الجبل الذى يطل على القصبة»^(١٢٣). وتذكر الروايات العربية أن السيد أبا سعيد ابتنى فوق الجبل إزاء المدينة سورا يمتد إلى البحر، وحفر خندقا حوله بحيث يحقق بالقصبة والمدينة فى آن واحد»^(١٢٤). غير أن اويشى ميراندا يشكك فى هذه الرواية، فيقول أنه يبدو غريبا بناء الحائط مع خندق من مرتفع سان كريستوبال حتى البحر، ولو صح هذا، فمن المستحيل إنجاز هذا العمل الكبير فى مدة قصيرة، وذلك لأول وهلة من دراسة طبوغرافية المرية والقصبة وضواحيها»^(١٢٥).

وأيا ما كان الأمر، فإن النصارى بالقصبة شعروا منذ البداية بخطورة الموقف، وتوقعوا امتداد فترة الحصار، فأرسلوا فى طلب النجدة من حليفهم ابن مردنيش

صاحب مرسية وبلنسية الذي نبه ألفونسو السابع أو السليطين بخطورة الموقف الذي تواجهه حاميته القشتالية في قصبة المرية، فأقبل ألفونسو السابع على رأس جيش يتألف من اثني عشرة ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة قوامها ستة آلاف^(١٢٦)، وتضافرت جموعهم البائدة، وجنودهم الحائدة، على المرية - حرسها الله - في أحفل عدد، وأوفر مدد، فلم يزد الموحدون ذلك إلا شهامة وصرامة، ولا تعرفوا بنزول الكفرة إلا عدة وكرامة^(١٢٧).

وحدث اثناء الحصار بين ملحان وبين عبد الله بن سليمان نزاع «فأنف من ذلك (ابن ملحان) وارتد إلى ابن مردنيش وإلى اذفونش ولحق بعسكرها»^(١٢٨)، ليشاطر ابن مردنيش خزي موقفه.

حاول ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش إجبار القوات الموحدية على رفع الحصار والتراجع عن مرتفع سان كريستوبال ولكن دون جدوى، وكان السيد أبو سعيد قد طلب مددا من الخليفة الموحدى لتعزيز الحصار على النصارى فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية صحبة ابنه الأمير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باشبيلية، وكان قائدا في جيوش الموحدين من الرجالة، كما كان معروفا بتفوقه في الرماية^(١٢٩). وعندما علم ابن مردنيش بوصول المدد الموحدى «رأى العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى، فارتحل، فقال النصارى ما رحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد»^(١٣٠). يقول ابن عذارى ولما عجز اذفونش وابن مردنيش عن نصر النصارى أقبلوا وافترقا ولم يجتمعا أبدا ولا ارتفقا^(١٣١).

وهكذا انسحب ألفونسو السابع عندما أيقن بعدم جدوى نصرته لحاميتها القشتالية، فأمر برفع معسكره، وأخذ طريقه إلى غرناطة آملا أن يستطيع مفاجاتها في غيبة حاميتها الموحدية المشاركة في حصار المرية، لكن غرناطة كان بها حامية للدفاع عنها، ففشلت محاولة ألفونسو السابع الذي أمر بحرق مجانيقة وآلات الحرب، وفرق جيوشه واتجه إلى قشتالة، فعبر جبال مورينا عن طريق باب مورادال ووصل إلى فرسيدا Fresneda، حيث مات في ٢١ أغسطس ١١٥٧ م^(١٣٢).

لم يصمد النصارى في القصبة بعد انسحاب ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش غير شهر، إذ ساءت أحوالهم بسبب نقص المؤن، وطلبو التسليم على الأمان، وتدير سفن لنقلهم إلى حليفهم ابن مردنيش في شرق الأندلس، وكان الوسيط في المحادثات الوزير أبو جعفر بن عطية^(١٣٣)، فوافق السيد أبو سعيد عثمان

على مطلبهم، وعاد النصارى عن طريق البحر إلى شواطئ مرسيه ومن هناك عادوا إلى قشتالة^(١٣٤).

ودخل الموحدون المرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة عام ٥٥٢هـ أواخر عام ١١٥٧م^(١٣٥)، بعد حصار دام سبعة أشهر، وعادت مدينة المرية إلى ديار الإسلام بعد أن احتلها القشتاليون زهاء عشرة أعوام^(١٣٦).

هوامش البحث

- ١ - المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، ج١، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ص١٦١م، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية، قاعدة اسطول الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية. ١٩٨٤، ص٩٠.
- ٢ - الادريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نظره دى غويه ودوزى، ليدن، ١٨٦٦، ص٢٠٠.
- وليزيد من المعلومات عن التعتيب فى غرناطة والمرية وقرطبة واشبيلية ارجع الى ابن عذارى المراكشى، نشر وتحقيق د. احسان عباس، ج٤، بيروت ١٩٦٧، ص٧٣ وما يليها. وعن غزوة ابن رزمير أو ألفونسو المحارب، راجع ابن عذارى، ج٤، ص٦٩، الحلل الموشية ص٦٦-ابن الاثير ج٨ ص٣١٩.
- ٣ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية، ص٩٣.
- ٤ - انظر، البيدق (ابو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٢٨، ص١٢٦، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص٩٣.
- ٥ - المراكشى (عبدالواحد) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، الطبعة السابعة، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص٣٠٧.
- ٦ - مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية : نشرها الاستاذ ليفى بروفنسال، الرباط، ١٩٤١، ص٧٥، المقرئ : نفح الطيب ج٤، ص٤٦٣.
- ٧ - المراكشى : بيانات هذا المصدر جاءت فى هامش رقم (٥).
- ٨ - ابن الاثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) : الكامل فى التاريخ، الجزء التاسع، دار الفجر، بيروت ١٩٧٨.
- ٩ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاعى) : التكملة لكتاب الصلة، تحقيق كوديرة، مدريد، ١٨٨٦.
- ١٠ - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢.
- ١١ - ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله) : الانيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل يوحن تورنبرغ، أبساله، ١٨٤٣.

- ١٢- الأدريسى : بيانات هذا المصدر جاءت فى هامش رقم (٢)
- ١٣- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، يولاق. ١٢٨٤هـ.
- ١٤- ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الأول والثالث وقطعة خاصة بالمرابطين، بيروت ١٩٦٧، والقسم الثالث الخاص بالموحدين، تحقيق الأستاذ اويشى ميراندا وآخرون، تطوران، ١٩٦٠.
- ١٥- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الادب، ح-٢٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- ١٦- أنظر :
- Tapia Garrido (J.A) : Almeria Musulmana T. III (711-1147), Almeria, 1976, p. 368.
- 17,18- Ibid, PP. 367-368.
- 19- Anonimo, Chronica Adefonsi Imperatoris, Ed. de Sanchez Belda, Madrid, 1950.
- El Poema de Almeria, En H. Salvador Martinez.
- 20- Marmol (L.), Historia del rebelion Y castigo de Los moriscos del reino de Granada, 1946, PP. 123.365.
- Sandoval (P.) Historia de Alfonos VII, Madrid, 1792, Zurita (J.), Anales de la Córna de Aragon, Zaragoza, MOCLXIX. Beuter (P.A.), Cronica general de toda Espana y especialmente de Valencia, Valencia, 1604, Pujades (J.), Crónica Universal del principado de Cataluna, Barcelona, 1832, Balaguer y Cirera, Bellezas de la Historia de Cataluna. Barcelona, 1853, Vaissete (J.J.), Histoire generales de languedoc, Paris, : 1733.
- ٢١- ابن خلدون : المقدمة، دار الكتاب اللبنانى-بيروت الطبعة الثالثة، ١٩٦٧، ص ٤٥١-٤٥٢، وتعنى كلمة أسطول التى وردت فى رواية ابن خلدون مجموعة من السفن، انظر حول هذه الكلمة، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص ٣٢٢-٣٢٣.

- ٢٢- ابن خلدون : المقدمة، ص٤٥٢.
- ٢٣- مؤلف مجهول : اخبار مجموعة، تحقيق أميليو لافونتي الكترا، صورة عن طبعة مجريط ١٨٦٧، مكتبة المثنى ببغداد، ص١٠٧-١٠٨.
- ٢٤- ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، ص٧٥١، ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد) : تاريخ المن بالامامة على المستضعفين، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، ١٩٦٤، ص٢٢٦.
- ٢٥- عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق، ص٣٠٧.
- ٢٦- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد) : رحلة التجاني، تقديم الاستاذ حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٥٨، ص٣٣٩، الذي يرسمه في موضع آخر على بن ميمون نفس المصدر، ص٣٣٥.
- ٢٧- ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك) : قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مجلد ١٣، ١٩٦٥-١٩٦٦، ص١٢٤-١٣٣.
- ٢٨- ابن عذاري : البيان المغرب، ح٤، ص٦٢.
- ٢٩- المقرئ : نفع الطيب، ح٣، ص٢٢٠.
- ٣٠- ابن عذاري : البيان المغرب، ح٤، ص٦٦.
- ٣١- نفس المصدر والجزء والصفحة.
- 32- Alfred Bel : Les Banou Ghania, Paris, 1903, P. 28.
- ٣٣- الزهري (محمد بن أبي بكر أبو عبد الله) : كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨، ص٧٥-٧٦.
- ٣٤- ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس ١٩٦٧، ص٩١، ابن خلدون : العبر، ح٦، ص٣٣٠-٣٣١، رحلة التجاني، ص٣٣٤، السراج (الوزير محمد بن محمد الاندلسي) : الحلل السندسية في الاخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب السهيلة، ح٢، الدار التونسية، ١٩٧٠، ص٣٥٧.
- ٣٥- ابن عذاري : البيان المغرب، ح١، ص٣٠٧-٣٠٨، ح٤، ص٦٧.
- ٣٦- ابن خلدون : العبر، ح٦، ص٣٣٠.

٣٧ - رحلة التجاني . ص ٣٣٤ .

٣٨ - ابن عذاري : البيان المغرب ، حد ٤ ، ص ١٠٤ .

٣٩ - مجهول : الحلل الموشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ ، ص ١٣٢

٤٠ - مجهول : مفاخر البربر ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٥٩ ، ابن عذاري :

البيان لمغرب ، حد ٤ ، ص ١٠٤ ، ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل

الاحتلام ، القسم الاندلسي ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦ ،

ص ٢٤٧-٢٤٨ ، وله أيضا ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، حد ١ . تحقيق محمد عبد الله عنان ،

مكتبة الخانجي ، ١٩٧٣ ، ص ٤٥٤ .

٤١ - الادريسي : المصدر السابق ، ص ١٩١ م ، وانظر أيضا :

Salem (E.A) : Algunos aspectos del Florecimiento economico de

Almeria islamica durante el periodo de los taifas y de los almoravides,

Revista Del Instituto Egipcio De Estudios Islamicos en Madrid, V.XX,

1979-1980, PP. 21-22.

٤٢ - الادريسي : نفس المصدر ، ص ١٩٧ وما بعدها .

٤٣ - نفس المصدر : ص ١٩٧ ، وانظر ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ٨٨ .

٤٤ - الادريسي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

٤٥ - عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤ .

46- Enrique Santoyo (E.) : Cronica de la provincia de Almeria, Madrid,

1869, P. 45.

47- Ibid.

وانظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ٨٩ .

Salem, op. cit, PP. 8-9.

48- Caffaro : Annales Genuensis, Lib lo, En Muratori, VI, P. 285; Tapia

Garrido, OP, cit, t.II P. 390.

49- Caffaro : De captione Almerie et Tortuosa 1973, P. 21; Tapia Garrido :

op. cit, P 390.

- 50 - Giustiniani, Annali della repubblica di Genoa, 1937, Fols, 31-40; Tapia Garrido ; Ibid, P. 391.
- 51- Marmol : Descripcion de Africa, apud, Tapia Garrido, Ibid, P. 425.
- 52 - En. Tapia Garrido, Ibid, P. 391.
- 53 - En, Tapia Garrido : op. cit, P. 391.
- 54 - Palancia (A.), Guerre de Granada 1909, PP. 445-448.
- 55 - Chronica, Adefonsi Imperatoris, P. 202.
- 56 - Pujades : op. cit , CAPS 14 Y 15.
- 57 - Sandoval : op. cit, P. 269.

٥٨ - المقرئ : نفح الطيب، حـ ٣، ص ٢٢٠.

- 59 - Orbanejo (G.P.) : Vida de San Indalecio, parte, I, P. 65; Tapia Garrido, op. cit, P. 393.

- 60 - Torres Balbas, Almeria Islamica, al-Andalus, Vol XXII, 1957, P. 421.

٦١ - في، المقرئ : نفح الطيب، حـ ٣ ص ٢٢٠، وانظر ايضا : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية، ص ٩٨-٩٩.

٦٢ - يوسف اشباح : تاريخ المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مطبعة، الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٢٠.

٦٣ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ١٤٨.

٦٤ - نفس المرجع والصفحة.

- 65 - Caffaro : De captione, P. 17.

٦٦ - ابن ابني زرع، ص ١٧٦.

- 67 - Caffaro : DE captione, P. 17.

- 68 - Ibid, P. 18.

٦٩ - المقرئ : نفح الطيب، حـ ٣، ص ٥٣٣.

- 70 - Huici Miranda : Historia de Valencia y su region, t. III, P.120.

71- Caffaro : Decaptione, P. 18.

72 - Chronica Adefonsi, P. 160.

73 - Ibid.

٧٤ - اشباخ : المرجع السابق، ص ٢٢٣.

75 - Sandoval : op. cit, P. 261, Tapia Garrido, op. cit, P. 407.

76 - Chronica Adefonsi, P. 161.

77 - Zurita, Annales, Lib, II, Tapia Garrido, op. cit, P. 407.

78- Tapia Garrido : Ibid, P. 408.

79 - En, El Poema de Almeria, Vrs, 51-64, Tapia Garrido, P. 409.

80 - Sanchez Albornoz : Estampas de la vida en leon, 1934, P. 91-100.

81- En, el Poema de Almeria, vrs, 66-100, Tapia Garrido, P. 411.

82 - Tapia Garrido : op. cit, P. 413.

83 - En, El Poema de Almeria, Vrs, 1860204.

84 - Sandoval : op. cit, P. 261-262.

85 - Caffaro : Annales ... P. 286.

86 - Capmany (A.) : Memorias historicas, t, II, 1779, P. 92.

87 - Caffaro : De Cptione, PP. 21-22.

88 - Tapia Garrido : op. cit, p. 423.

89 - Vaissete : op. cit, P. 146.

90 - Tapia Garrido : op. cit, P. 423.

91 - Caffaro : Los Annales, P. 287.

92 - Caffaro : de Captione, P. 24

93 - Ibid.

94 - Ibid.

٩٥ - اشباخ : المرجع السابق، ص ٢٢٤-٢٢٥.

٩٦ - فى، أشباخ : نفس المرجع، ص٥٢٢، وانظر أيضا :

Caffaro : De Captione, PP. 26-27.

97 - Ibid, P. 27.

98 - Pujades : op. cit, Cap. 14; Tapia Garrido op. cit, P. 448.

99 - Pujados : Ibid, Tapia Garrido ; Ibid, P. 449.

100- Ibid.

101- Caffaro : De Captione, P. 28.

102- Caffaro : Los Annales.

103- Giustiniano : op. cit., Fol, 40; Tapia

Garrido : op. cit, P. 450.

104- Pujados : op. cit, Tapia Garrido, op. cit, p. 450.

١٠٥- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ح٩، ص١٧.

١٠٦- والمقرئ، نفع الطيب، حظ٤، ص٤٦٢.

١٠٧- فى، اشباخ : المرجع السابق، ص٢٢٥.

١٠٨- المقرئ : نفع الطيب، ح٤، ص٤٦٢.

١٠٩- نفس المصدر والجزء : ص٤٦٣.

١١٠- اشباخ : المرجع السابق، ص٢٢٦.

١١- المقرئ : نفع الطيب، ح٤، ص٤٦٣.

112- Codera (Francisco) : Decadencia y desaparicion de Los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899, PP. 122-128.

113- Primera Cronia general de Espana, que mando campaner Alfonso El Sabio y se continuaba bajo, sancho IV, en 1289,II Publicada por Ramon Menendez Pidal, Madrid, 1955, P. 661.

114- Caffaro : De Captione, PP. 29-30.

115- Tapia Garrido : op. cit,P. 456.

١١٦- اشباخ : المرجع السابق، ص٢٣١.

- ١١٧- مجموعة رسائل موحدية : ص ٧٣-٧٤، ابن الاثير : الكامل، ح ٩، ص ٥٥.
- ١١٨- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب، القسم الثالث الخاص بالموحدين، ص ٣٣.
- ١١٩- نفس المصدر؛ ص ٣٣.
- ١٢٠- نفس المصدر و الصفحة
- ١٢١- مجموع رسائل موحدية : ص ٧٤.
- ١٢٢- ابن الخطيب : الاحاطة، ح ١، ص ٢٧٩.
- ١٢٣- مجموع رسائل موحدية : ص ٧٥.
- ١٢٤- النويري : نهاية الارب، ح ٢٢، ص ٢٠٤، السلاوي (أحمد بن خالد الناصري) : الاستقصاء
... لاختبار دول المغرب الاقصى، ح ١ القاهرة، ١٣١٠-١٣١٢ هـ، ص ١٤٩،
- Codera : op. cit, P. 137.
- 125- Huici Miranda : Un nuevo manuscrito del Al-Bayan al-Mugrib, en
AL-Andalus, XXIV, 1959, p.77.
- Codera : op. cit P., 137.
- ١٢٦- ابن الاثير : الكامل، ح ٩، ص ٥٦،
- ١٢٧- مجموع رسائل موحدية : ص ٧٥.
- ١٢٨- ابن الاثير : الكامل، ح ٩، ص ٥٦، ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين،
ص ٣٣.
- ١٢٩- ابن الخطيب : الاحاطة، ح ١، ص ٢٧٣.
- ١٣٠- المقرئ : نفع الطيب، ح ٤، ص ٤٦٣.
- ١٣١- ابن عذارى : المصدر السابق، ص ٣٣
- 132- Primera Cronica general, P. 661.
- ١٣٣- ابن ابى زرع : الانيس المطرب، ص ١٢٦.
- 134- Huici Miranda : op. cit, P. 80.
- ١٣٥- ابن الخطيب : الاحاطة، ح ١، ص ٢٧٩.
- Codera : op. cit, P. 138.
- ١٣٦- ابن الاثير : الكامل، ح ٩، ص ٥٦.

القسم الثاني
دراسات في الحضارة الاندلسية

البحث الأول

التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس
على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل*
١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م

كان الفتح الاسلامي لاسبانيا حدثا سياسيا وحضاريا هاما، إذ أصبحت إسبانيا إقليما إسلاميا تابعا للخلافة الأموية، وانسلخت عن أوروبا المسيحية. وطبع الاسلام إسبانيا بطابع مميز زاده ما اكتسبته من امتزاج حضارتها السابقة بحضارة الاسلام، فنتج عن هذا الامتزاج فيما بعد حضارة اندلسية اسلامية

فالمعروف أن الاندلس أصبحت منذ الفتح الاسلامي حتى سنة ١٣٢ هـ / ٧٥١ م ولاية اسلامية تابعة لخلافة المشرق، ولهذا فقد تأثرت الاندلس بالحضارة الشامية وسارت على نهجها. ومنذ قيام الامارة الاموية بالاندلس أخذ طابع الاستقلال السياسى عن المشرق يقوى فيها وإن استمرت الامارة الاندلسية تتلقى التأثيرات الحضارية من المشرق.

وعند اعتلاء عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م كرسى الامارة فى الاندلس عمل أولا على توحيد أقاليمها وإحلال الأمن والاستقرار بها، واستطاع أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من النواحي التي تطلعون إلى الاستقلال بها، فأخذهم عبد الرحمن الداخل بالشدة والحزم فدخلوا فى طاعته. وعلى ذلك أعاد «الداخل» هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، ولكنه لم يتلقب بلقب الخليفة بل اكتفى بأن أضاف الى اسمه لقب «ابن الخلائف»، وهو اللقب الذى استمر فى خلفائه من بعده حتى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م عندما تلقب عبد الرحمن بن محمد بلقب الخلافة. واستمرت الاندلس على عهد عبد الرحمن الداخل تتلقى مؤثرات الحضارة الشامية فى شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والادبية والدينية.

ففى مجال العمران، يرجع الفضل الأول فى تمصير قرطبة وتجميلها وتنظيم شئونها الى الأمير عبد الرحمن الداخل، فزودها بروائع المنشآت والعمائر، وقامت فيها حركة معمارية وعمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل فاتخذت قرطبة منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيره، وأصبحت جديرة بأن تكون عاصمة للامارة الأموية، ويعبر المقرئ عن ذلك فى «نفحه»، فيقول : «لما تمهد ملكه (أى عبد الرحمن الداخل) شرع فى تعظيم قرطبة، فجدد مغانيها وشيد مبانيها، وحصنها بالسور، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع، ووسع فناءه، وأصلح مساجد الكور^(١). فأقام الداخل المنية المعروفة بالرضافة الى الشمال الغربى من قرطبة لنزهه وسكنه أكثر أوقاته، فى أول سنى حكمه، وذلك تشبها بما كان يفعله أجداده فى المشرق

من تشييد القصور خارج مدينة دمشق حاضرة خلافتهم، ربما للتمتع بهدوء الصحراء بعيداً عن عيون رعاياهم أو لقضاء الشتاء في البوادي^(٢). وعلى ذلك فإن معظم قصور الأمويين في المشرق أقيمت في أودية الأردن مثل قصر عمره في عصر الوليد ابن عبد الملك وقصر المشتى والطوبة في عصر الوليد الثاني^(٣)، وقصر الحير الغربي الذي يقع جنوب غرب تدمر، وقصر الحير الشرقي الذي يقع شمال شرقي تدمر في عصر هشام بن عبد الملك^(٤)، فحاكي عبد الرحمن الداخل ببناء الرصافة قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه هو الآخر خارج دمشق سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م وسماه بهذا الاسم أيضاً^(٥). وقد أوضح المقرئ ذلك في قوله: «فاتخذ بها قصراً حسناً، ودحا جناحاً واسعاً، ونقل إليها غرائب الغروس وأكوار الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسوله إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة»^(٦).

كما شيد عبد الرحمن الداخل قصراً آخر بقرطبة أورده مؤرخو العرب عرف بقصر الدمشق وظهر فيه بوضوح التقليد الشامي، اتخذه بنوه بعد ذلك «ميداناً مرايحهم ومضماراً أفراحهم»^(٧)، وحاكوا به قصرهم بالشام وقد شيد عبد الرحمن الداخل هذا القصر بالصفائح والعمد، وأبدع بناءه، ونمق ساحاته، فكسى سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة، وأحاط رياضه وحدائقه وجداوله في ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة^(٨). أما عن عمارة المسجد الجامع بقرطبة فقد أوضح المقرئ: «أنه لما افتتح المسلمون الأندلس، امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت، وابتنوا في ذلك الشطر مسجداً جامعاً، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، واقتنع المسلمون بما في أيديهم، إلى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة، ونزلها أمراء العرب: فضاق عنهم ذلك المسجد، وجعلوا يعلقون منه سقيفه بعد سقيفة يستكنون بها، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المجلس الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها وتطامن سقفها، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال، لتقارب سقفها من الأرض. ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس، واستولى على أمارتها، وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدنت

به، فنظر في أمر الجامع، وذهب الى توسعته، واثقان بنيانه، فأحضر أعظم النصارى وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه، وأوسع لهم البذل، وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجدل بهم أن يباحوا ببناء كنيستهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به، فتم الأمر على ذلك، وكان ذلك ثمان وستين ومائة، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لإحاجة الى تفسير الزيادة فيه، وإنما الحاجة فى وصفه بكماله، وفى بنائه لهذه الزيادة، قال: «وأكمل سنة سبعين ومائة»^(٩). ونخرج من هذا النص بالمعلومات التالية: ان المسلمين كانوا يشاطرون الروم فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحا بناء على رأى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأنهم امتثلوا بما حدث فى الشام فشاطروا أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى شنت بنجنت Sant Vincent وابتنوا مسجدهم الجامع، وأن عبد الرحمن الداخل عندما استولى على امارة الاندلس، وأبقى على قرطبة حاضرة لامارته نظر فى أمر شراء ما بقى من كنيسة شنت بنجنت ففاوض أعظم النصارى بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى حتى وافقوا بشرط أن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم خارج المدينة بدل التى هدمت عليهم، وأن عبد الرحمن الداخل ابتنى المسجد الجامع سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م وأكماله سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م.

غير أننا نرتاب فى أن المسلمين قاموا بمشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها بناءً عن رأى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فهذا الأمر يتعارض مع ما كفله الاسلام من حرية دينية لأهل الكتاب وممارسة شعائرهم وطقوسهم دون تدخل من الادارة الاسلامية وفق القاعدة الاساسية فى قوله تعالى «لا إكراه فى الدين». ولعل المقصود هنا بتقسيم كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق بين النصارى والمسلمين، هو مشاطرة المسلمين لهم فى السياج الخارجى فقط دون الكنيسة نفسها، يؤيد ذلك العالم الأثرى كريزويل والذى يضيف بأن هذه الكنيسة ظلت قائمة وفى حالة سليمة حتى عهد الوليد بن عبد الملك فهدمها^(١٠). أما عن اختيار المسلمين لموضع كنيسة يوحنا المعمدان فربما يرجع الى أن هذه الكنيسة كانت تقع فى وسط المدينة وهذا يتوافق مع حرص المسلمين على أن تكون مساجدهم الجامعة فى مركز المدينة.

وأما عن مشاطرة مسلمي الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى المسماة بشنت بنجنت وتأسيس مسجدهم الجامع، فإن المسلمين في الأندلس احتذوا ما فعله مسلموا الشام فلم يقتسموا كنيسة شنت بنجنت مع أعاجم قرطبة، لكنهم بنوا مسجدهم الجامع في الأرض الفضاء الملحقة بالكنيسة والتي كانت تضم مرافق مختلفة: كصلايا ومعمودية ودار أسقفية وفناء. وأن الكنيسة الفعلية بمذبحها وأروقتها ظلت من نصيب النصارى^(١٢). ومن الغريب أن فلوريث Florez في دراسته التي أعدها عن قائمة الكنائس القرطبية السابقة على الفتح الإسلامي لم يورد ذكر كنيسة باسم Sant Vincent^(١٣). وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن كنيسة شنت بنجنت كانت مهجورة قبل الفتح الإسلامي، وأن المسلمين تفاوضوا مع نصارى قرطبة في شراء نصف الأرض المحيطة بالكنيسة لإقامة مسجدهم الأول.

ولعل فيما يذهب إليه من أن الأمير عبد الرحمن الداخل نظر في شراء ما بقي من كنيسة شنت بنجنت، فهذا لا يتعارض مع التسامح الديني مع مستعربي الأندلس إذ كان في وسع أمير الأندلس أن يستولى بالقوة عليها ولكنه أثر التفاوض بل ووافق على إعادة بناء كنيستهم التي هدمت خارج سور قرطبة والمسماة بكنيسة شنت أجلع^(١٤).

بقي أن نشير إلى أنه ثمة اختلاف في تاريخ بناء المسجد الجامع بين روايتي المقرئ وابن عذاري ذلك أن الأول يحدد بناءه في سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وانتهاءه في سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥م دون الإشارة إلى تاريخ انتهائه^(١٥). ويرجح العالم الأثري الإسباني توريس بالبأس أن البناء لم يستكمل نهائيا في سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦م على عهد عبد الرحمن الداخل، وقام خلفه هشام باستكمال بعض عناصره كالصومعة وسقائف النساء والميضأة^(١٦)، فإننا على الأقل نرى أن المسجد الجامع كان صالحا لاستخدامه في الصلاة.

وهكذا قام الأمير عبد الرحمن الداخل ببناء المسجد الجامع في قرطبة مقلدا ما أتبع في الشام، وقد أورد الإدريسي وصفا لهذا المسجد الجامع يفهم منه أنه كان ينقسم قسمين : قسم مسقوف هو رواق القبلة ببلاطاته وأعمدته، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن^(١٨). أما رواق القبلة، فكان يتكون من إحدى عشر بلاطة تسير كلها بياثكاتها في اتجاه عمودي على جدار القبلة ممتدة على اثني عشر قوسا في كل بلاط، وتقوم عقودها على عمد من الرخام جلبها المسلمون من بقايا الكنائس الخربة، وكان البلاط الأوسط أكثر اتساعا من البلاطات الجانبية (شكل ١) وهو في

هذا يشبه المسجد الأقصى الذي شيده الخليفة المهدي العباسي في عام ١٦٣ هـ / ٧٨٠م والذي كان رواق القبلة فيه ينقسم الى بلاطات عددها خمسة عشر بلاطة تتجه كلها عمودية على جدار القبلة، وكان الرواق الأوسط أكثر اتساعاً من البلاطات الجانبية (شكل ٢) أما صحن المسجد الجامع بقرطبة فقد كان مغروساً بأشجار، فقد عهد الأمير عبد الرحمن الداخل الى عبد الله بن صمصمه بن سلام (ت : ١٩٢ هـ / ٨٠٧م) صاحب الصلاة بقرطبة أن يغرس صحن المسجد بأشجار اللبمون والنازنج^(١٩)، وهذا تأثيراً شامئاً عن مذهب الإمام الأوزاعي .

وقد ساد اعتقاد بين بعض الأثريين أن عمارة المسجد الجامع بقرطبة تأثرت بالنظام المتراكب للعقود المعمول به في جامع دمشق، ويعلمون ذلك بأن تدرج الأرض نحو الارتفاع في شمال المسجد كان له عظيم الأثر في الاقتداء بهذا النظام، فطبقة في قرطبة ولكن بمعالجة مختلفة وبطريقة أكثر أصالة، فبعد أن رفع السقف إلى ضعف ارتفاعه باستخدام الدعائم فوق العمدة، اخذت العقود القرطبية صورة جديدة مبتكرة ساعد على ذلك توافر عناصر البناء ومواده وطبيعة الأرض والحاجة إلى زيادة ارتفاع سقف المسجد الجامع^(٢٠) . غير أننا نرى أنه ليس هناك أى وجه شبه بين فكرة ازدواج العقود بالمسجد الجامع بقرطبة والمسجد الأموي الجامع بدمشق، ذلك أن النظام المعمول به في المسجد الجامع بدمشق يهدف إلى تخفيف الثقل على العقود بعمل فتحات في حين يرى البعض الآخر أن أصل فكرة ازدواج العقود بالمسجد بقرطبة، ترجع إلى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقيين أو ثلاثة وذلك بمقارنة نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بماردة وهو الجسر المعروف بجسر المعجزات Los Milagros ، فزعموا أن عقود الجسر المذكور تقوم بنفس الوظيفة البنائية التي تقوم بها العقود بجامع قرطبة وهي الربط بين الدعائم المرتفعة تفادياً لانهيائها^(٢١) . وقد ناقش هذه المشكلة العالم الأثري كريزويل فقال : «لقد قيل إن هذا النظام القرطبي استلهمه مهندس الجامع من العقود المزدوجة بالجسور الرومانية مثل الجسر المعروف بلوس ميلاجروس بماردة، ولكن العقود القرطبية هنا ليست مثلها، ولذلك فإننا يجب أن نعطي مهندس الجامع ما يستحقه من الأصالة لتوفيقه إلى هذا الحل البارع الذي لا يوجد له نظير في أى مكان^(٢٢) ، وقد أيدته في ذلك العالم الأثري المغفور له الدكتور أحمد فكري الذي بين أن فكرة العقود المتراكبة في المسجد الجامع بقرطبة ابتداء فريد في تاريخ العمارة^(٢٣) .

كما يتجلى مظهر آخر من مظاهر التأثير الشامي في المسجد الجامع بقرطبة في تناوب الصنجات الحجرية مع الصنجات المتخذة من قوالب الآجر بالعقود، مثل نظيرتها في عقود المسجد الجامع الأموي في دمشق، وبعض العقود بجامع حماه وبعض القصور الأموية مثل حصن الحلابات حيث تتناوب صنجات رخامية مع أخرى من البازلت^(٢٤). وهي فكرة انتشرت بعد ذلك لبناء جدران العمائر وسماها المؤرخون العرب «الأبلق» حيث كان يتناوب استخدام الحجر الفاتح اللون والحجر الداكن أو البازلت، وهذا الأسلوب انتشر في الشام حيث يتوافر الحجر الجيري وحجر البازلت^(٢٤) (شكل ٤).

وفي المجال الاقتصادي، فإن النشاط الزراعي في إمارة الأندلس كان يمثل الركيزة الأساسية في هذا المجال، وعلى ذلك اهتم عبد الرحمن الداخل بالنشاط الزراعي وتنوعه. كان عبد الرحمن الداخل يرسل عملاءه إلى المشرق لجلب الفاكهة من الشام والحبوب الغذائية التي لم تزرع في إمارة الأندلس، من قبل، وكان لاهتمامه ورعايته في هذا المجال عظيم الأثر إذ سرعان ما نجحت زراعتها وعم انتشارها بأرض الأندلس الخصيبة واكتسبت شهرة واسعة لما لها من مذاق طيب لم يعرفه الأندلسيون عن هذه الأنواع الجديدة من الفاكهة الشرقية من قبل^(٢٥). ولقد عدد ابن سعيد المغربي أصناف هذه الفاكهة ومنها الرمان السفري ووصفه «بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعدوبة الطعم ورقة الحجم، وغزارة الماء، وحسن الصورة»^(٢٦).

والغريب هنا أن عبد الرحمن الداخل كان يعرض رمانه على خواصه بفخر وزهو، ويقال في سبب انتشار غرسه بأرض الأندلس أن الذي استجلبه إلى الأندلس أحد اجناد الأردن وهو سفر بن يزيد الكلاعي، واعطى عبد الرحمن بعضاً من ذلك الرمان له، فراق حسنه وخبره فسار سفر به إلى قرية بكورة ريه، وتفنن في غرسه واستنباطه بها، فأثمر وفاق السامي في حلاوته وشكله، وعندما أيقن من نجاح غرسه حمل بعض ثمراته إلى الأمير عبد الرحمن، فوجد أنه لا يختلف عن الرمان الرصافي الشامي، فسأله الأمير عن مصدره فأخبره سفر بحيلته في استنباطه، فأعجب الأمير به وأمر فاغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من نباتينه، وهكذا انتشرت زراعة الرومان وعرف بالرمان السفري إلى أيام ابن سعيد المغربي^(٢٧)، ولا يزال هذا النوع من الرمان معروفاً في إسبانيا بحلاوته وصغر حجمه ويسمى بنفس الاسم أيضاً^(٢٨).

أما من الناحية الأدبية، فقد كانت هي الأخرى متأثرة بالتقاليد الشامية، وهذا أمر طبيعي بل يكاد يكون ضروريا لأسباب منها: ازدهار العلوم النقلية والعقلية في المشرق في الوقت الذي كان الأندلسيون أحوج إلى التزود بهذه العلوم، لذا مشرت رحلاتهم العلمية والدينية إلى المشرق الاسلامي رغبة وحبا في التزود بالعلم والايمان وأداء فريضة الحج. وقد خصص المقرئ اجزاء من «نفحه» لذكر من سافر من الاندلسيين إلى المشرق في طلب العلم وأداء فريضة الحج، مما أسفر عن تعرفهم على الحركة الأدبية المشرقية فساروا على نهجها وأسرفوا في تقليدها^(٢٩). وقد لاحظ ذلك ابن بسام الشنتريني، فعبر عن ذلك في مقدمة ذخيرته: «إلا أن أهل هذا الأفق (أي الأندلس) أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعى بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصيدة ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد»^(٣٠).

ومهما يكن من شيء فإن المشرق كان بصفة عامة والشام بصفة خاصة قبلة لطلاب العلم الأندلسيين نقلوا عنه وتأثروا به، وضح ذلك فيما بعد في الأدب الأندلسي شعره ونثره على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وخلفائه من بعده، فالشعر الأندلسي في هذه الفترة كان يحاكي شعر المشرق، غير أن جمال طبيعة قرطبة بنهرها الوادي الكبير، وسهولها الخضراء، وغياضها الملتفة، كان له أكبر الأثر في إسراف شعرائها في تعلقهم بها، فوصفوا رياضها وبساتينها ومنازلها، وأدى ارتباط فن الشعر بفنون الغناء والطرب إلى استكثار أهل قرطبة من مجالس الأنس والشراب، ومن برز من الشعراء في عصر عبد الرحمن الداخل، الشاعر عاصم بن يزيد التميمي المعروف بابي الخشن^(٣١). وكان الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه شاعرا وهذه الشاعرية ليست غريبة عليه لأنها موهبة متوارثة في بني أمية ورثها أبناؤه من بعده، ومن شعره الذي يصف فيه نخلة أثارت شجونه^(٣٢)، يتبين لنا مدى تعلق هذا الأمير بمسقط رأسه الشام، فلا نستغرب بعد ذلك اهتمامه بنقل كل ما هو شامي ليعوض به بعده عن وطنه ويحس كأنه لم يغادره.

أما الحياة الدينية في الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، فكانت هي الأخرى متأثرة بالشام، فقد اعتنق الأندلسيون مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام ٨٨ - ١٥٧ هـ / ٧٠٧ - ٧٧٤ م^(٣٣)، بحكم الرابطة

المتينة بين الأندلس وبلاد الشام، ولتجدد الدولة الأموية في الأندلس، ولتوافق ما ذهب إليه هذا الفقيه وخاصة في التشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد^(٣٤)، مع ما كان يسود الأندلس في هذه الفترة من عدم استقرار واضطراب، فقد عالج الأوزاعي الأحكام العامة المتعلقة بالحرب وأفاض فيها وعرض لجزئياتها عرضاً دقيقاً، فمن الأحكام العامة أحكام الجهاد والمبارزة، وتحريق المشركين ورميهم بالمنجنيق، والتحريق والتخريب في بلاد العدو، وأحكام المهادنة، والمهادنة المسلمين أهل الحرب (الصلح المؤقت) وأسرى الحرب من المشركين، والمفاداة، وأحكام الغنائم، وأحكام عقد الذمة، والصلح الدائم وغير ذلك من القضايا الكبرى^(٣٥).

وعلى سبيل المثال، فمن الأحكام التفصيلية التي عرضها الإمام الأوزاعي، جهاد الولد وهل يتوقف على إذن أبوية، ونقل نساء المسلمين والذرية إلى الثغور، وحكم قتال المشركين إذا تترسوا بنسائهم أو بصبيانهم أو بأطفال المسلمين أو بأسراهم. وحكم رمي الحصن وفيه أسرى المسلمين، وعقوبة الأسير، وأمان الأسير، وأمان المستأمن والحرابي إذا أسلما، وأموال من أسلم في دار الحرب، وأسر الزوجين معاً، وأسر أحد الزوجين، والطفل السبي مع أبوية، وحكم الاستعانة بالمشركين في القتال، وحكم أموال المسلمين المستردة من دار لحرب وغير ذلك كثير، وهي أحكام مستمدة من شريعة الإسلام، موثقة بآية من الكتاب العزيز أو أثر من السنة الشريفة أو قائمة على اجتهاد أو قياس على أحكام شرعية إسلامية^(٣٦).

يذكر بان الفرضي أن أول من نقل هذا المذهب إلى الأندلس هو القاضي الألبيري أسد بن عبد الرحمن السبي (كان حياً سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٩ م^(٣٧))، وانتشر على يد صعبعة بن سلام الشامي (ت: ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م^(٣٨)).

وهكذا سيطر المذهب الأوزاعي على الأندلس خلال القرن الثاني الهجري، وكانت الأحكام تصدر وفقاً لما تنص عليه. وعلى الرغم من انتشار المذهب المالكي في الأندلس في عصر خلفه هشام إلا أن الأندلسيين احتفظوا بعادة غرس الشجر في المساجد وهي من مذهب الأوزاعي^(٣٩).

من هذا العرض الموجز يتبين لنا كيف أن الأندلس قد تأثرت على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل بالتقاليد الشامية في شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والأدبية والدينية، فكان التيار الحضاري الشامي واحداً من تيارات حضارية أخرى حجازية وبغدادية أثرت حضارة الأندلس والتي ظهرت منابتها الأولى على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط.

هوامش البحث

* ألقى هذا البحث في «الندوة الدولية من الشام الى الأندلس» بمناسبة مرور اثني عشر قرناً على انتقال عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قادماً من الشام وبناء جامع قرطبة الكبير، دمشق، إبريل ١٩٨٦.

١- المرأة (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٦٨)، ص ٥٤٥.

٢- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء مؤسسة شباب الجامعة (١٩٨٤)، ص ٤٨، ٤٩.

٣- زكي محمد حسن: القصور الأموية في شرق الأردن، مجلة الكتاب، (ديسمبر ١٩٤٥)، ص ١٥٨.

٤- دانيال شلو مبرجة: قصر الحير الغربي، ترجمة إلياس أبو شبكة، بيروت، ١٩٤٥.

٥- المقرئ: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٤٦٧.

٦- نفس المصدر والجزء والصفحة.

٧- نفس المصدر والجزء، ص ٤٦٨.

٨- نفس المصدر والجزء والصفحة.

٩- نفس المصدر والجزء، ص ٥٦٠ - ٥٦١.

10- Creswell (K. A. C): Early Muslim Architectuer, Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, Vol. I, Oxford, (1938), pp. 102- 103.

11- Al Sayyid Salem: Cronologia de la Mezquita de Cordoba Levantado por abd el - Rahman I, Al -Andalus, 1954, P.6, Ocana Jemenez, la Basilica de San Vicente Y la Gran mezquita de Cordoba, - Al - Andalus, (1942), P. 349.

١٢- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ٢٨٦.

13- In, Creswell: Op. Cit, Vol. II, pp. 138 - 139.

١٤ - تقع كنيسة شنت أجلح (San Acisclo) خارج باب اشبيلية - احد ابواب مدينة قرطبة فى العصر الاسلامى المعروفة أيام العرب باسم باب العطارين : انظر (ابن عذارى البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب، ج٢، ص ١٠، المقرئ: المصدر السابق، المجلد الاول، ص ٢٦٣، محمد احمد ابو الفضل : مغيث الرومى ونوه دورهم السياسى والحضارى فى المغرب والأندلس، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، العدد ٣٠ لسنة ١٩٨١، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

١٥ - المقرئ: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٥٦٠ - ٥٦١، ابن عذارى المراكشى : نفس المصدر والجزء والصفحة.

16- Torres Balbas (Leopoldo): Art Hispao Musulman Hasta la Caida del Califate de Cordoba, En Historia de Espana, dirigida por Don Ramon Menedez - Pidal, T. V. Madrid, 1957, pp. 345.

١٧ - المقرئ: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٥٦١.

١٨ - الادريسي (الشرىف): وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق، نشر ألفريد ديسيه لامار، الجزائر، (١٩٤٩)، ص ٢، وانظر أيضا، الحميرى: صفة جزيرة الاندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار، نشره ليفى بروفنسال، القاهرة، (١٩٣٧)، ص ١٥٣، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، الجزء الأول، ص ٣١٦.

١٩ - ابن الفرضى (ابو الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي): تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٩٦٦)، ص ٧٤، النباهى (ابو الحسن بن عبد الله بن الحسن): كتاب المراقبة العليا فى استحقاق القضاء والفتيا، نشر ليفى بروفنسال، دار الكاتب المصرى، القاهرة (١٩٤٨)، ص ٥١.

20- Creswell (K. A. C): Ashort Ashort Account of Early muslim Architecture, Penguin Senies (1958), P222.

21- Torres Balbas: op. cit, p. 228.

٢٢ - 228 - Creswell: Ashort Account, p. 228 : راجع ايضا: الترجمة العربية بعنوان، الآثار الاسلامية الأولى، نقله إلى العربية عبد الهادى عبله، وعلق على نصوصه احمد غسان سبانو، دار قبيه، دمشق، (١٩٨٤)، ص ٣٠٣.

- ٢٣ - احمد فكرى: المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها، الاسكندرية، (١٩٦١)، ص ١٤ .
- 24 - Sauvaget : La mosque Omeyyede de Medina, e'tude sur les Origines architecturales de la mosque er la basilique, Paris , 1947, p. 105.
- ٢٤-أ- على حين شاع استخدام اسلوب آخر وهو الحجر الفاتح اللون مع لون آخر قد يكون أحمر أو غير ذلك، أطلقت عليه الوثائق الأثرية مصطلح المشهر.
- ٢٥- فى، المقرئ: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٤٦٧ .
- ٢٦- نفس المصدر والمجلد والصفحة.
- ٢٧- فى، المقرئ: نفس المصدر والمجلد، ص ٤٦٨ .
- ٢٨- أحمد مختار العبادى وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، منشورات دار السلاسل، الكويت (١٩٨٥)، ص ٣٩٢ .
- ٢٩- احسان عباس: تاريخ الأدب الاندلسى، الطبعة الثانية، دار الثقافة بيروت (١٩٦٩)، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- ٣٠- ابن بسام الشنترى: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، المجلد الأول، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص ٢ .
- ٣١- ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٣٥ .
- ٣٢- ومن شعر عبد الرحمن الداخل:
- تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول التناى من بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الاقصاء والمتأى مثلى.
- (فى، ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٢، ص ٩٠، ابن الأبار (ابو الوليد عبد الله محمد بن عبد الله): الحلة السيرة، الجزء الثانى، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، (١٩٦٣)، ص ٣٧، ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد): كتاب أعمال الاعلام، القسم الاندلسى، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، (١٩٥٦)، ص ١٠ .
- ٣٣- هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الازاعى، ولد بمدينة بعلبك بالشام سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م، وأصله من عرب اليمن، أخذ عن عطاء بن رباح مفتى مكة

المتوفى في سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م، والزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م وغيرهما،
كما اخذ عنه سيفان الثوري ومالك بن أنس عالم دار الهجرة، وبعد أن جال في البلاد
في طلب العلم عاد الى قرطبة واقام في بيزوت ومات فيها سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م، ومن
مصنفاته كتاب السير الذي يتناول احكام الجهاد والقتال، انظر ترجمته: كارل
بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث، مصر، ١٩٦٩، ص ٣٠٧ - ٣٠٨
والمصادر التي وردت به.

34- Mahmud Makki: Ensayo Sobre Los Aportaciones Orientales, en
La Espana Musulmana, en Revista del Estudios Islamicos en
Madrid, V. IX - X, Madrid, (1961), pp. 129 - 154.

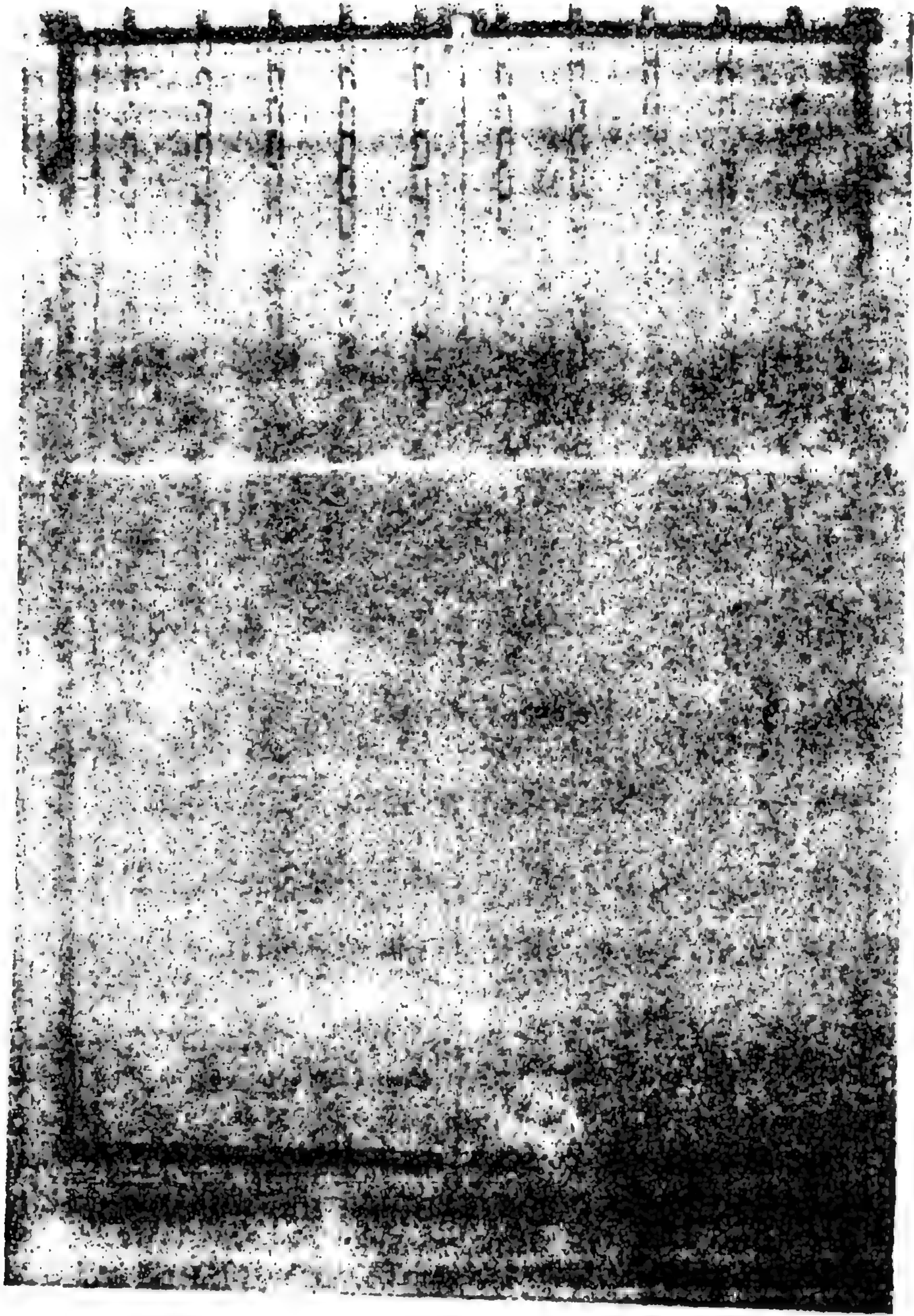
٣٥- مصطفى الشكعة، مواقف المستشرقين من الحضارة الاسلامية في الاندلس، مسئله من
مناهج المستشرقين في الداسات العربية الاسلامية، الجزء الثاني، الرياض (١٩٨٥)،
ص ٣١١.

٣٦- نفس المرجع، ص ٣١١ - ٣١٢.

٣٧- ابن الفرضي: تاريخ علماء الاندلس، ص ٧٤.

38- Mahmud Makki: Op. Cit, P. 130.

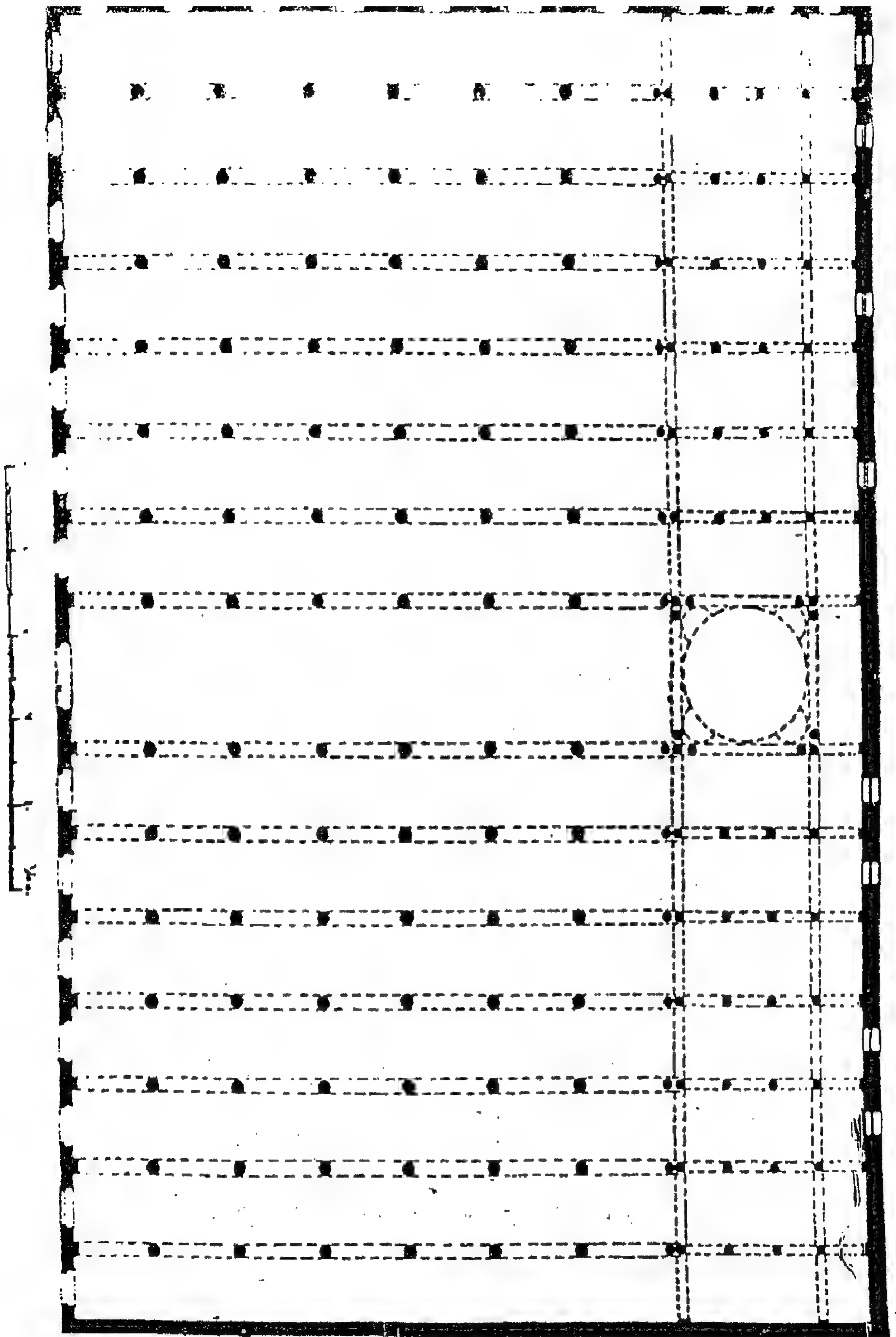
٣٩- النباهي: المرقبة العليا نشر ليفي بروفنسال، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥١
وانظر ايضا: Mohmud Makki: Ibid. pp. 227 - 231 وكذا، محمد احمد ابو
الفضل: قضاة ثوار في الاندلس، بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط،
العدد الثالث، دار المعارف بمصر، (١٩٨٥) ص ٢٦١، ٢٦٢.



شكل (١) مسقط رأسي للمسجد الأموي بقرطبة

شكل (١)

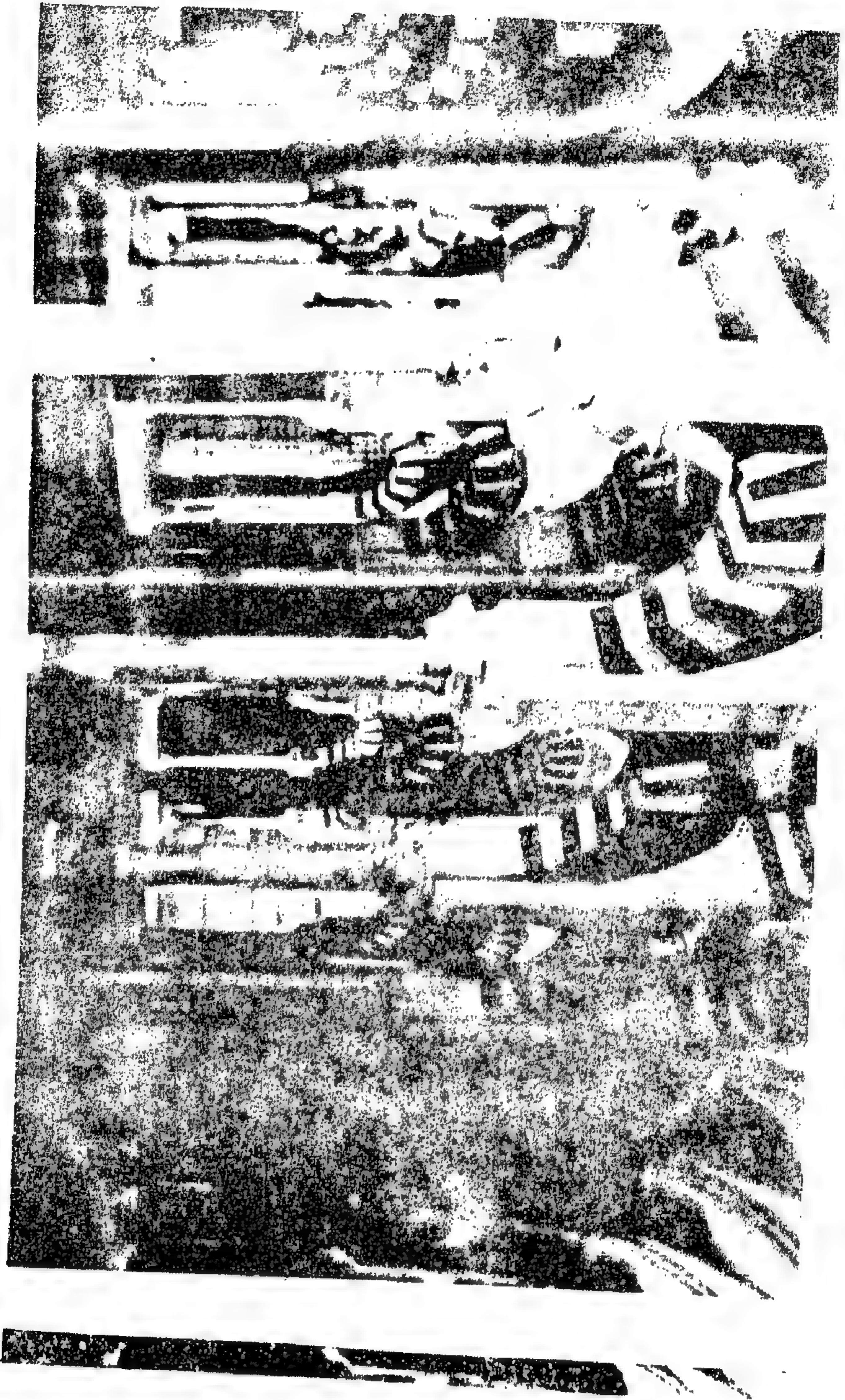
مسقط رأسي للمسجد الأموي بقرطبة



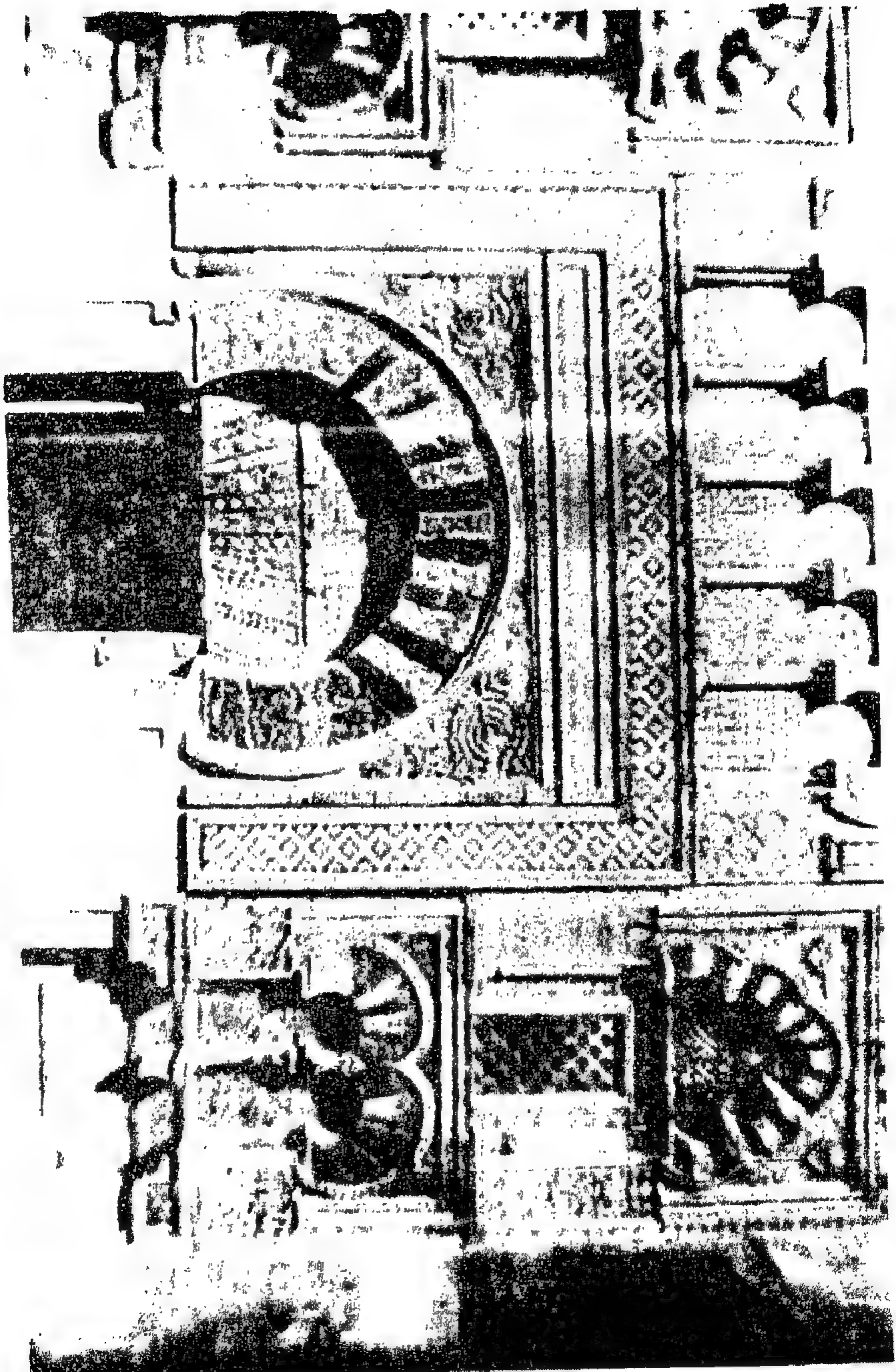
شكل (٢)

مسقط رأسي للمسجد الأقصى بالقدس

شکل (۳) : المسجد الأموي بقرطبة



شکل (۳)
المسجد الأموي بقرطبة



شكل (٤) : احد الابواب الخارجية للمسجد الجامع بقرطبة
ويظهر فيه تناقوب الحجر الفاتح اللون والحجر الداكن (المشهر)

البحث الثاني

قضاة الجماعة بالأندلس في عصر الإمارة الأموية

١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م

قضاة الجماعة بالأندلس

في عصر الإمارة الأموية

١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م

تعتبر خطة القضاء من أعظم الخطط قدرا وأجلها خطرا في الدولة الإسلامية ، فهي تأتي بعد الخلافة في الأهمية ، يقول النباهي : " فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء (١) ، لذلك اعتبر العلامة ابن خلدون القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة أي أن الأصل أن يتولى الخليفة القضاء بنفسه (٢) ، فيقول . " وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها (٣) . كما يشير الخشني إلى أهمية متولي القضاء بقوله : " القاضي أعظم الولاة خطرا بعد الإمام جعله الله زماما للدين وقواما للدنيا ، لما يتقلده القاضي من تنفيذ القضايا ، وتخليد الأحكام في الدماء والفروج والأموال والأعراض وما يتصل بذلك من ضروب المنافع ووجوه المضار " (٤) . ولهذا حرص بنو أمية في الأندلس على أن يحفظوا لمنصب القضاء في دولتهم أهميته وجلاله .

وأول مناصب القضاء في عصر الإمارة الأموية في الأندلس منصب قاضي الجند أو قاضي العسكر ، ثم منصب قاضي الجماعة ، ووظيفة صاحب هذا اللقب الأخير تعدل وظيفة قاضي القضاة في المشرق الذي ظهر في خلافة هارون الرشيد . ومن المعروف أن أول من تلقب بقاضي الجماعة في الأندلس هو يحيى ابن يزيد التجيبي ، يقول الخشني : " أن عبد الرحمن بن معاوية الإمام دخل قرطبة ، وقام بالإمامة والقاضي حينئذ يحيى بن يزيد التجيبي ، فأنبته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له ، وللقضاة قبله : فلان قاضي الجند

فلما امتنع الفهري بغرناطة ، واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله إلى النزول واشترط حضور القاضي يحيى ، فحضر ، وكتب في كتاب المقاضاة ، وذلك بمحضر يحيى بن يزيد قاضي الجماعة " (٥) . ومنذ ذلك الحين أصبح قاضي الجند يسمى " بقاضي الجماعة " وهو اسم محدث لم يكن في القديم " (٦) ولعله من أصل أندلسي .

وقد حاول النباهي المألقي أن يفسر لنا سبب هذه التسمية فذكر : " والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة ، إذ كانت ولايتهم قبل اليوم غالبا من قبل القاضي بالحضرة السلطانية كائنا من كان فبقى الرسم كذلك " (٧) .

ومع ذلك يجب أن نؤكد هنا أن تسمية قاضي الجماعة لم تبطل استعمال التسمية الأولى فقد استمر استعمال لقب قاضي الجند لعدد من السنوات ، بدليل ما يذكره النباهي في رواية منسوبة إلى محمد بن حارث ، يقول فيها : " رأيت سجلا عقده سعيد بن محمد بن بشير بقرطبة ، يقول فيه : حكم محمد بن بشير قاضي الجند بقرطبة " (٨) ، لذا نرجح أن قضاء الجند انتهى العمل به بعد وفاة محمد بن بشير في سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م بدليل خلو المصادر من الإشارة إلى هذا اللقب بعد ذلك وعلى هذا يمكن القول أن لقب قاضي الجماعة أخذ يستعمل دون غيره ابتداء من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حيث صار صاحب هذا اللقب في قرطبة حاضرة الإمارة الأموية بالأندلس يحظى بمكانة أعظم سموا من بقية القضاة لأن الأمير كان يستشيرهم في كافة الشئون القضائية .

والباحث في موضوع قضاء الجماعة في عصر الإمارة الأموية في الأندلس سوف يلاحظ بوضوح أن هذا الموضوع لم يحظ إلا بالنزول القليل من اهتمام الباحثين ولازال في حاجة ماسة إلى دراسات متعمقة " يمكن أن تسلط مزيدا من الضوء على قضاء الجماعة في الأندلس وقد أمدتنا كتب طبقات القضاة مثل " كتاب قضاء قرطبة " ، للخشني (٩) ، وكتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا " ، للنباهي المألقي (١٠) ، وكتب التراجم لعلماء الأندلس ومنها " كتاب تاريخ علماء الأندلس ، لابن الفرضي (١١) ، وكتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، للحميدي (١٢) ، وكتاب بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس " ، للضبي (١٣) ، فضلا على المصادر التاريخية مثل " كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، للمؤرخ القرطبي الكبير ابن حيان (١٤) ، و " كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . ، لابن عذارى المراكشي (١٥) ، ومقدمة ابن خلدون (١٦) ، و " كتاب المغرب في حلى المغرب " ، لابن سعيد المغربي (١٧) ، و " كتاب نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب " ، للمقرئ التلمساني (١٨) ، وكذا المراجع

الأجنبية مثل :

Levi - provençal : Histoire de l'Espagne musulmane, Tome III, Paris , 1953 ;

Mahmud Makki : Ensayo Sobre Los aportaciones orientales en La Espana Musulmana , en ' Revista del Instituto de Estudios Eslamicos en Madrid , V. IX .. X , Madrid , 1961.

أمدتتا هذه المصادر والدراسات الحديثة بنقف من أخبار من تولوا هذه الوظيفة في عصر الإمارة الأموية ١٢٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م . لذلك أخذنا على عاتقنا أن تخصص هذه الدراسة لوظيفة قاضي الجماعة نظرا لأهميتها، وسوف تتضمن دراستنا لهذا الموضوع نقطتين أساسيتين :

أولاهما ، ثبت موثق بأسماء قضاة الجماعة بالأندلس في الفترة من ١٢٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م وسوف نتبع فيه الترتيب التاريخي لأنه في رأينا أنسب من الترتيب الأبجدي (١٩) ، وسوف نصنف كل شخصية على النحو التالي : -

١- الإسم ، إسم الأب ، إسم الجد ثم اللقب فالنسبة والكنية .

٢- تاريخ الوفاة كلما أمكن ذلك من خلال المصادر التي بين أيدينا .

٣- تاريخ التولية والعزل كلما أمكن ذلك .

٤- درجة القرابة بين هؤلاء القضاة إن وجدت .

أما النقطة الثانية ، فسوف نضمونها لدراسة تحليلية عن قضاة الجماعة في الأندلس من خلال هذا الثبوت التاريخي .

ثبت قضاء الجماعة في الأندلس
في عصر الإمارة الأموية
في عهد الأمير
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك
١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م

١- يحيى بن يزيد التجيبي .

تاريخ الوفاة : ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م

تاريخ التولية : ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م

توفي قاضيا غير معزول

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٤٧ - ٤٩ ؛ ابن الفرضي :
تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٧٧ (١٥٥٢) ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ٢ ،
ص ٤٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٢١) .

٢- معاوية بن أبي صالح بن عثمان الحضرمي ، أبو عمرو (٢٠)

تاريخ الوفاة : ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م

تاريخ التولية الأولى : ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م

تاريخ العزل : ١٤٣ هـ / ٧٦٠ م

(انظر في ترجمة : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٥٠-٥٥ ؛ الحميري : جذوة
المقتبس ، ص ٣٩٩ (٧٩٦) ، الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٤٣ ، (١٣٣٨) ،
الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ص ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ،

حـ ١٠ ، ص ٢٠٩ - ٢١٢ ، ابن سعيد المغربي . المغرب في حلى المغرب ، حـ ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ : ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ ٢ ، ص ٤٨ : النباهي ، المرقبة العليا ، ص ٤٢) .

٢- عمر بن شراحيل المعافري ، أبو حفص (٢١)

تاريخ الوفاة . غير معروف

تاريخ التولية الأولى : ١٤٢هـ / ٧٦٠م

تاريخ العزل : ١٤٤هـ / ٧٦١م

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٥٠ - ٥٥ : ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ ٢ ص ٤٨) .

٤- معاوية بن أبي صالح بن عثمان الحضرمي ، أبو عمرو

تاريخ التولية الثانية : ١٤٤هـ / ٧٦١م

تاريخ العزل : ١٤٥هـ / ٧٦٢م

(انظر ، الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٦١) .

٥- عمر بن شراحيل المعافري ، أبو حفص

تاريخ التولية الثانية : ١٤٥هـ / ٧٦٢م

تاريخ العزل : ١٤٦هـ / ٧٦٣م

(انظر : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٦١) .

٦- عبد الرحمن بن طريف اليحصبي (٢٢)

تاريخ الوفاة : ١٧٢هـ / ٧٨٨م .

تاريخ التولية : غير معروف

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر في ترجمته ، الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٦٤ : ابن عذارى : البيان المغرب ، حـ ٢ ، ص ٤٨ : النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٤ : المقرئ : نفح الطيب ، حـ ٢ ، ص ٤٦) .

في عهد الأمير
هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م

٧- المصعب بن عمران بن شفى بن كعب بن زيد بن عمرو بن امرئ القيس بن
زيد الهمداني (٢٣)

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : ١٧٢ هـ ٧٨٨ م

توفى قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٦٧ - ٧٢ ؛ ابن سعيد :
المغرب في حلى المغرب ، ح ١ ، ص ١٤٤ ابن عذارى : البيان المغرب ، ح ٢ ،
صفحات ٤٨ ، ٦١ ، ٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٥ - ٤٧) .

في عهد الأمير الحكم بن هشام
١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م

٨- محمد بن بشير بن شراحيل المعافري ، أبو بكر (٢٤)

تاريخ الوفاة : ١٩٨ هـ / ٨١٣ م

تاريخ التولية : غير معروف

تاريخ العزل : غير معروف

درجة القرابة : والد رقم (٩) ورقم (١٧) .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٨٣-٨٨؛ الضبي . بغية الملتبس ، ص ٥١ - ٥٣ (٦٩) ؛ مؤلف مجهول أخبار مجموعته، ص ١٢٧ ؛ ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ص ٩٠ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢ ، ص ٦٨ : النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٧ - ٥٣؛ المقرئ : نفح الطيب ، ص ٢ ، ص ١٤٣ - ١٤٩) .

٩- سعيد بن محمد بن بشير بن شراحيل المعافري

تاريخ الوفاة : ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م

تاريخ التولية الأولى : غير معروف .

تاريخ العزل : ١٩٨ هـ / ٨١٣ م

درجة القرابة : ابن رقم (٨) وأخو رقم (١٧) .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٨٩ - ٩٢ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٦٠ (٤٧٣) ؛ ابن حيان : المقتبس بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٧٨ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢ ، ص ٨٠) .

١٠- الفرّج بن كنانة بن نزار بن عتبان بن مالك الكفاني ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م

تاريخ التولية : ١٩٨ هـ / ٨١٣ م

تاريخ العزل : ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م

(انظر من ترجمته ، الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٩٣ - ٩٨ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٣٤٩ (١٠٣٠) ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٨ (٧٦٢) ؛ ابن سعيد : المغرب ، ص ١ ، ص ١٤٦ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢ ، ص ٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٣ - ٥٤) .

١١- قطن بن جزء بن اللجلاج بن سعيد بن سعيد بن محمد بن عطار بن حاجب بن زرارہ التميمي :

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية : ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م

تاريخ العزل : غير معروف

درجة القرابة : والد رقم (١٢)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٩٩) .

(١٢) بشر بن قطن

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية : آخر سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م

تاريخ العزل : ٢٠١ هـ / ٨١٦ م

درجة القرابة : ابن رقم (١١) .

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٩٩ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ ، ص ٦٨) .

١٢- عبيد الله بن موسى بن إبراهيم بن مسلم بن عبد الله بن مسلم بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن عمار بن عبيد الغافقي ، أبو مروان .

تاريخ الوفاة : ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م

تاريخ التولية : ٢٠١ هـ / ٨١٦ م

توفي قاضيا غير معزول

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٠ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٥ (٧٦٢) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ١ ، ص ١٤٦ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ ، ص ٦٨) .

١٤- محمد تليد بن حامد بن محمد الرعيني ، أبو محمد

تاريخ الوفاة : ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م

تاريخ التولية : ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٠ ؛ ابن الفرضي : تاريخ

علماء الأندلس ، ص ١٠٥ (٣٢٨) : الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٤٥ (٣١) :
ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ح ١ ، ص ١٤٦ ، ابن عذارى : البيان
المغرب ح ٢ ، ص ٦٨)

١٥- حامد بن عبد اللطيف الرُّعيني (٢٥)

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : غير معروف .

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠١ : ابن عذارى : البيان
المغرب ، ح ٢ ، ص ٦٨) .

١٦- سعيد بن محمد بن بشير بن شراحيل المعافري .

تاريخ التولية الثانية : غير معروف .

تاريخ العزل : ٢٠٧هـ / ٨٢٢م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٩-٣٠ ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق
د. مكي ص ٧٨) .

في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام
٢٠٦-٢٣٨هـ / ٨٢٢-٨٥٢م

١٧- مسرور بن محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري ، أبو نجيع
(٢٦)

تاريخ الوفاة : ٢٣٨هـ / ٨٥٢م

تاريخ التولية : ٢٠٧هـ / ٨٢٢م

تاريخ العزل : ٢٠٨هـ / ٨٢٣م

درجة القرابة : ابن رقم (٨) وأخو رقم (١٦، ٩) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٢ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٢ (١٤٣٠) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ح ١ ، ص ١٤٦-١٤٧ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ح ٢ ؛ ص ٨٠) .

١٨- سعيد بن سليمان بن حبيب الغافقي ، أبو خالد .

تاريخ الوفاة : ٢٢٧هـ / ٨٤١م

تاريخ التولية الأولى : ٢٠٨هـ / ٨٢٣م

تاريخ العزل : ٢٠٩هـ / ٨٢٤م

درجة القرابة : عم رقم (٣٢) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٢٥ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٦٢ (٤٧٧) ؛ ابن حيان : المقتبس بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ١٧ ، ص ٢٩-٤٠ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ح ١ ، ص ١٤٧) .

١٩- يحيى بن معمر بن عمران بن منير بن عبيد بن أنيف الالهاني ، أبو بكر

تاريخ الوفاة : ٢٢٩هـ / ٨٤٣م

تاريخ التولية الأولى : ٢٠٩هـ / ٨٢٤م

تاريخ العزل : آخر سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٥م

(انظر في ترجمته ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٠٣ - ١٠٩ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٧٨ - ١٩٠ (١٥٥٥) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٣٩ - ٤٠ ؛ الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٢٧٩ (٩٠٥) ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ٤٩٢ (١٤٩١) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ح ١ ، ص ١٤٧ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ٨٠ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٤) .

٢٠- الأسوار بن عقبة بن حسان بن عبدالله النصري ، أبو عقبة .

تاريخ الوفاة : ٢١٣هـ / ٨٢٨م

تاريخ التولية : ٢١٠هـ / ٨٢٥م

توفى قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١١٠-١١١ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٨٨ - ٨٩ (٢٧٩) ؛ ابن سعيّد : المغرب في حلى المغرب ، ١ ، ص ١٤٨) .

٢١- ابراهيم بن العباس بن عيسى بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، أبو إسحاق

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية الأولى ٢١٣هـ / ٨٢٨م

تاريخ العزل : آخر ٢١٣هـ / ٨٢٩م

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١١٦ - ١٢٠ ؛ ابن سعيّد : المغرب في حلى المغرب ، ١ ، ص ١٤٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٥) .

٢٢- محمد بن سعيّد الدلييري

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : ٢١٤هـ / ٨٢٩م

تاريخ العزل : ٢٢٠هـ / ٨٣٥م

(انظر في ترجمته : ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق د. مكّي ، ص ٦٢ ، ابن سعيّد : المغرب في حلى المغرب ، ١ ، ص ١٤٩) .

٢٣- يخامر بن عثمان بن حسان بن يخامر بن عبيد بن أقتان بن ودان بن عمرو الشعباني .

تاريخ الوفاة : ٢٢٧هـ / ٨٤١م

تاريخ التولية : ٢٢٠هـ / ٨٣٥م

تاريخ العزل : ٢٢١هـ / ٨٣٦م

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٢١-١٢٣ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢١٠ (١٦٤٦) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق

الدكتور محمود على مكي ، ص ٤٠ ؛ ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ،
، ١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

٢٤- سعيد بن سليمان بن حبيب الغافقي ، أبو خالد

تاريخ التولية الثانية : ٢٢١هـ / ٨٣٦م

تاريخ العزل : ٢٢٢هـ / ٨٣٧م

(انظر : ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٥٤)

٢٥- يحيى بن معمر بن عمران بن منير بن عبيد بن أنيف الإلهاني ، أبو بكر .

تاريخ التولية الثانية : ٢٢٢هـ / ٨٣٧م

تاريخ العزل : ٢٢٣هـ / ٨٣٨م

(انظر : ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٥٧) .

٢٦- إبراهيم بن العباس بن عيسى بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، أبو
إسحاق

تاريخ التولية الثانية : ٢٢٣هـ / ٨٣٨م

تاريخ العزل : ٢٢٧هـ / ٨٤١م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١١٨) .

٢٧- علي بن أبي بكر بن عبيد بن علي الكلابي ، أبو الحسن .

تاريخ الوفاة : ٢٣١هـ / ٨٤٥م .

تاريخ التولية : ٢٢٧هـ / ٨٤١م .

تاريخ العزل : ٢٣٢هـ / ٨٤٦م .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٢٤ ؛ ابن حيان : المقتبس ،
بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٦٨ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ،
، ١ ، ص ١٥٠) .

٢٨- معاذ بن عثمان الشعباني .

تاريخ الوفاة : ٢٣٤هـ / ٨٤٨م

تاريخ التولية : ٢٣٢هـ / ٨٤٦م

درجة القرابة : أخو رقم (٢٣)

توفي قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٢٥ - ١٢٧ ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٣ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ١ ، ص ١٥٠ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٥) .

٢٩- محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشره بن لوذان بن حبس ابن حاطب بن حارثة بن راشد بن زيد حارثة بن جزيلة بن لخم بن عدي ، أبو عبد الله .

تاريخ الوفاة : ٢٣٧هـ / ٨٥١م

تاريخ التولية : ٢٣٤هـ / ٨٤٨م

درجة القرابة : والد رقم (٤١) ، وأخو رقم (٣٠) .

توفي قاضيا غير معزول .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٢٨ - ١٣٤ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١ (١١٢١) ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٥٦ (٥٥) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ١٧ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ص ٦٦ - ٦٧ (١٢٠) ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥٥) .

في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن
٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م

٣٠- أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي

تاريخ الوفاة : ٢٥٠هـ / ٨٦٤م

تاريخ التولية : ٢٣٧هـ / ٨٥١م

تاريخ العزل : ٢٤٠-٢٤١هـ ٨٥٤-٨٥٥م

درجة القرابة : أخو رقم (٢٩)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٤٢ - ١٤٥ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٣ (٥٦) ؛ ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ح١ ، ص ١٥١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ح٢ ، ص ٩٤) .

٣١- عمرو بن عبد الله بن ليث المعروف بالقبيعة ، أبو عبد الله .

تاريخ الوفاة : ٢٧٣هـ / ٨٨٦م .

تاريخ التولية الأولى : ٢٤١هـ / ٨٥٥م

تاريخ العزل : ٢٤١هـ / ٨٥٥م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٤٦ - ١٥٤ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٣١٩ (٩٣٨) ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ح٢ ، ص ٩٤) .

٣٢- سليمان بن أسود بن يعيش بن جشيب الغافقي ، أبو أيوب .

تاريخ الوفاة : ٢٧٣هـ / ٨٨٦م .

تاريخ التولية الأولى : ٢٤١هـ / ٨٥٥م

تاريخ العزل : ٢٦١هـ / ٨٧٤م

درجة القرابة : ابن أخ رقم (١٨)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٥٥ - ١٦٩ : ابن الفرضي
تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٨٥ (٥٤٩) : ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ،
١ ، ص ١٥٤ : ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ ، ص ٩٤ ابن النباهي : المرقبة
العليا ، ص ٥٦ - ٥٩) .

٣٣- عمرو بن عبد الله بن ليث المعروف بالقبة ، أبو عبد الله .

تاريخ التولية الثانية : ٢٦١هـ / ٨٧٤م

تاريخ العزل : ٢٦٣هـ / ٨٧٦م

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٧٠) .

٣٤- سليمان بن أسود بن يعيش بن جشيب الغافقي ، أبو أيوب

تاريخ التولية الثانية : ٢٦٣هـ / ٨٧٦م

تاريخ العزل : ٢٧٣هـ / ٨٨٦م .

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٧٣) .

في عهد الأمير المنذر بن محمد

٢٧٣-٢٧٥هـ / ٨٨٦-٨٨٨م

٣٥- عامر بن معاوية بن عبد المسلم بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن
ناشره بن لوزان اللخمي ، أبو معاوية .

تاريخ الوفاة : غير معروف .

تاريخ التولية : ٢٧٣هـ / ٨٨٦م

تاريخ العزل : ٢٧٥هـ / ٨٨٨م

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٨٢ - ١٨٥ : ابن الفرضي

: تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢١٠-٢١١ (٦٣٠) : ابن حيان : المقتبس ،

بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٧ : ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ١ ،

ص ١٥٣ : ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ ، ص ١١٣) .

في عهد الأمير عبد الله بن محمد
٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م

٣٦- النضر بن سلمه بن وليد بن أبي بكر محمد بن علي بن عبيد الكلابي، أبو محمد .

تاريخ الوفاة : ٣٠٢هـ / ٩١٤م .

تاريخ التولية الأولى : ٢٧٥هـ / ٨٨٨م

تاريخ العزل : ٢٨٥هـ / ٨٩٨م

درجة القرابة : أخو رقم (٣٨) .

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٨٦-١٨٩ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٥٨ (١٤٩٩) ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٦-٧ ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣٥٨ (٨٤٥) ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١ ، ص ١٥٣ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢ ، ص ١٥٢ ، المقرئ : نفح الطيب ، ص ١ ، ص ٣٥٣ .

٣٧- موسى بن محمد بن زياد بن يزيد بن زياد بن كثير بن يزيد بن حبيب الجذامي ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : غير معروف

تاريخ التولية : ٢٨٥هـ / ٨٩٨م

تاريخ العزل : ٢٨٥هـ / ٨٩٨م

(انظر في ترجمته : الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٩٠ - ١٩٢ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٤٨ (١٤٥٩) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٦ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١ ، ص ١٥٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢ ، ص ١٥٢) .

٣٨- محمد بن سلمه الكلابي ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : ٢٩١هـ / ٩٠٣ م

تاريخ التولية الأولى : آخر سنة ٢٨٥هـ / ٨٩٩ م .

تاريخ العزل : غير معروف .

درجة القرابة : أخو رقم (٣٦)

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ١٩٣ - ١٩٩ ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢ (١١٢٤) ؛ ابن حيان : المقتبس بتحقيق ملتشور انطونيا ، ص ٦-٧ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥٢) .

٣٩- النضر بن سلمه بن وليد بن أبي بكر محمد بن علي بن عبيد الكلابي ، أبو محمد .

تاريخ التولية الثانية : غير معروف .

تاريخ العزل : غير معروف .

(انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٠)

٤٠- محمد بن سلمه الكلابي ، أبو القاسم .

تاريخ التولية الثانية : غير معروف .

توفي قاضياً غير معزول .

(انظر . الخشني : قضاة قرطبة ص ٢٠٢) .

٤١- الحبيب أحمد بن محمد بن زياد اللخمي ، أبو القاسم .

تاريخ الوفاة : ٣١٢هـ / ٩٢٤ م .

تاريخ التولية : ٢٩١هـ / ٩٠٣ م

تاريخ العزل : ٣٠٠هـ / ٩١٢ م .

درجة القرابة : ابن رقم (٢٩) .

(انظر في ترجمته : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٤ - ٢١١ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٩ (٨١) ؛ ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق ملتشور

انطونيا ، ص ٧ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ح ١ ، ص ١٥٥ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ١٥٢ .

يتضح من هذا الثبوت أن عدد قضاة الجماعة الذين تولوا هذا المنصب في الفترة من ١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦-٩٢٩ م وصل إلى واحد وأربعين قاضيا ، منهم اثنان شغلا هذه الوظيفة أكثر من مرة (أرقام : ٣، ٢) ، وثمان شغلوها مرتين (أرقام : ٩، ١٨، ١٩، ٢١، ٢١، ٢٢، ٣٦، ٣٨) ، والباقي مرة واحدة .

ويستشف من هذا الثبوت أيضا أن أطول مدة قضاها قاضي الجماعة في منصبه كانت عشر سنوات ، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن القاضي النضر بن سلمه بن وليد بن أبي بكر محمد بن علي بن عبيد الكلابي (رقم : ٣٦) شغل منصب قاضي الجماعة على مدى عشر سنوات متصلة، على النقيض تماما من القاضي موسى بن محمد بن زياد بن يزيد بن زياد بن كثير بن يزيد ابن حبيب الجذامي (رقم ٣٧) الذي لم يمكث في هذه الوظيفة سوى سبعة أيام فقط

ويتضح من الدراسة التحليلية لهذا الثبوت أيضا وجود أحد عشر قاضيا كانت تربطهم صلات عائلية (أرقام : ٨، ٩، ١١، ١٢، ١٧، ١٨، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٦) ، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن بعض العائلات احتكرت هذا المنصب مثلما كان يحدث في المشرق الإسلامي .

وتثبت الدراسة التحليلية لأسماء قضاة الجماعة في عصر الإمارة الأموية بالأندلس أن أغلب القضاة الذين أشارت إليهم المصادر بدون ذكر لقب قاضي الجماعة ، في عصر أميرها ضمن كتابه وحجابه كانوا بالفعل يشغلون هذا المنصب في عصر الأمير المشار إليه . وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه ابن عذارى بصدد الأمير عبد الرحمن الداخل ، إذ يقول : " وقضاة خمسة هم : يحيى بن يزيد التجيبي ، ومعاوية بن صالح ، وعبد الرحمن بن طريف ، وعمر بن شراحيل ، والمصعب بن عمران ، وهكذا (٢٧) . ولستنا في حاجة إلى القول بأن هؤلاء جميعا كانوا بالفعل ضمن قضاة الجماعة .

سلطات قاضي الجماعة واختصاصاته :

تشير هذه الدراسة كذلك إلى أن قاضي الجماعة كان يعد بمثابة قاضي الحاضرة في قرطبة، يتم تعيينه مباشرة من قبل أمير الأندلس، ومن ثم فقد كان يعد من بين كبار رجال الدولة إلي جانب الحاجب والوزير اللذان يستمدان

سلطاتهم من الأمير مباشرة كما نرى ، نعتبر قاضي الجماعة من صميم اختصاصات الأمير ومن بين السلطات المخولة له كالمشأن في سك اسمه على العملة، والدعاء له في الخطبة، وكان يؤذن لقاضي الجماعة بأن يتصرف في القضاة تقليدا أو عزلا ، وأن يتفقد أحوالهم وأن يعاملهم كأنهم ذاب عنه ، فيختبر أقضييتهم ويراعي أمورهم ومكانتهم في مجتمعاتهم (٢٨) . دليل أن أهل كورة جيان jaen كانوا قد تظلموا للأمير الحكم بن هشام من قاضي كورتهم، فعهد الأمير الحكم إلى سعيد بن محمد بن بشير قاضي الجماعة بقرطبة في هذه الظلامة وسأله إن ظهر القاضي بريئا أقره على قضائه، وإن ظهر عليه ما دفع إلى الأمير فيه عزله عن قضاء الكورة ، وفي ذلك يقول الخشني : " فنظر قاضي الجماعة فالفاه بريئا ، فقال له : انصرف إلى قضائك " (٢٩) . وفي رواية أخرى للخشني يستفاد منها أن أهل مدينة استجة Ecija رفعوا إلى الأمير كتابا يطلبون منه أن يعين لهم قاضيا يفصل في منازعاتهم ، فحول الأمير الكتاب إلى محمد بن بشير قاضي الجماعة في قرطبة وأمره أن يتخير من يراه (٣٠) .

ونستدل من هذين المثالين على أن قاضي الجماعة في قرطبة كانت له سلطة على قضاة الأقاليم إذا أذن له الأمير بذلك ، وهذه بحالة مؤقتة وليست دائمة ، ذلك لأن سلطة قاضي الجماعة الحقيقية كانت تقتصر على الحاضرة قرطبة، بعكس قاضي القضاة في المشرق في العصر العباسي ، فكان قاضي الدولة كلها ومن سواه من القضاة في الأقاليم يقومون عنه ويتم تعيينهم وعزلهم على يديه وبأمر منه (٣١) .

ونظرا لأن ولاية قضاء الجماعة في قرطبة كانت ولاية عامة ، فقد اتسعت اختصاصاته وشملت النظر في (٣٢) :

١- الفصل في المنازعات وقطع التشاجر والخصومات إما صلحا عن تراضي ويراعي فيه الجواز أو إجبار بحكم بات يعتبر فيه الوجوب ، واستيفاء الحقوق ممن مطل بها، وإيصالها إلى مستحقيها بعد ثبوت استحقاقها من أحد وجهين إقرار أو بينة.

٢- ثبوت الولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون أو صغر والحجر على من يرى الحجر عليه لسفه أو قلس ، حفظا للأموال على مستحقيها وتصحيحا لأحكام العقود فيها (٣٣) .

٣- النظر في الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها والقبض عليها وصرفها في سبيلها، فإن كان عليها مستحق للنظر فيها راعاه ، وإن لم يكن تولاه (٣٤) .

٤- تنفيذ الوصايا على شروط الموصى فيما أباحه الشرع ولم يخطره وإن كانت لمعينين كان تنفيذها بالإقباض ، فإن كان فيها وصي راعاه ولم يكن تولاه (٣٥) .

٥- إقامة الحدود على مستحقيها ، فإن كان من حقوق الله تعالى تفرد باستيفائه من غير طلب إذا ثبت بإقرار أو بينة ، وإن كان من حقوق الأدميين كان موقوفا على طلب مستحقه .

٦- تصفح شهوده وأمنائه واختيار النائين عنه من خلفائه في إقرارهم والتحويل عليهم من ظهور السلامة والإستقامة وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجرح والخيانة .

٧- وأخيرا النظر في تعديل الشهود أو تجريحهم .

وكان يضاف إلى مهام قاضي الجماعة في قرطبة أحيانا بعض اختصاصات المحتسب كما كان الحال في المشرق الإسلامي ، ففي رواية عن محمد بن عمر بن لبابة يقول فيها : " حضرت وقد خاصم إليه (أي إلى سليمان بن أسود الغافقي قاضي الجماعة) رجل في قرن بناء صاحبه ، فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة ، يقول ابن قاسم : إن ذلك من الضرر الذي يجب قطعه ولا يباح اتخاذه - فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك أن يجعل أنبوبا في أعلى الفرن ، فيخرج الدخان من أعلاه ، فلا يضر بمن جاوره " (٣٦) .

وكان يسند إلى بعض قضاة الجماعة في قرطبة وظائف أخرى كخطة الصلاة (٣٧) ، ويلاحظ أن ذلك الجمع بين خطتي قضاء الجماعة والصلاة كان مقصورا على العرب فقط دون الموالي (٣٨) ، كما نستدل من ترجمة القاضي المصعب بن عمران على أن الأمير هشام بن عبد الرحمن أسند إليه بالإضافة إلى خطتي قضاء الجماعة والصلاة، النظر في ضيعته يومي السبت والأحد (٣٩) .

الشروط الواجب توافرها في قاضي الجماعة :

والمتتبع لتاريخ قضاة الجماعة في الأندلس إبان هذه الفترة يلاحظ بوضوح أنهم كانوا يتحلون بدرجة عالية من النزاهة والمحايدة الخالصة ، فقد كانوا يلتزمون بالمثل السامية الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف . فالإسلام لا يسمح لأي إنسان مهما علت مرتبته أو ارتفعت مكانته أن يتدخل في حكم القاضي حين يحكم بالعدل ، ويقيمه في واقع حياة الناس ، بل إن القاضي إذا أحس بأي نية في التدخل في شؤونه كان من واجبه أن يرفض هذا التدخل

بشدة، وعليه أن يحكم بما يراه عدلا ، ووجب على الناس الإلتزام بحكمه.

ويبدو أن اختيار قاضي الجماعة كان يتم في أغلب الأحيان من بين كتاب قضاة الجماعة ، فقد روى الخشنى أن محمد بن بشير كتب في حديثه للقاضي مصعب ابن عمران (٤٠) ، ثم ولى قضاء الجماعة في قرطبة في عهد الأمير الحكم بن هشام . وأن عمرو بن عبد الله بن ليث المعروف بالقبة كان كاتباً لأحمد بن زياد قاضي الجماعة بقرطبة ثم ولى قضاء الجماعة في قرطبة في عهد الأمير محمد (٤١) . والحق أن تعيين هذا القاضي في هذا المنصب أثار استياء العناصر العربية في الأندلس لكونه من الموالى فبلغ ذلك الأمير محمد ، فكان رده " وجدت فيه ما لم أجد فيهم " (٤٢) . هذا ومن المعروف أن الموالى قد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الأندلس منذ وفادتهم في طاعة بلج بن بشر وكانت عدتهم في هذه الطائفة حوالي ألفي رجل (٤٣) ، انضموا إلى موالى بني أمية في الأندلس وألّفوا حزباً هاماً . وكان أغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بني أمية أو عمالهم ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، وبقية الموالى من المشرق ، فمنهم دمشقيون وأردنيون وقنسريون وفرس (٤٤) ، ممن كان لهم دور ملموس في نجاح الأمير عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس دولته بالأندلس (٤٥) ، وعليهم اعتمد بنو أمية في إدارة شؤون البلاد وعهدوا إليهم بأهم المناصب في الدولة ، لم يسوّه من تفانيهم في الإخلاص لها فكان منهم الوزراء والكتاب والقواد والقضاة (٤٦) .

إستقلال القضاة :

يذهب فقهاء المسلمين إلى أن للقضاة حدوداً ليس لأحد أن يتعرض لها ، يقول النباهي " وحدود القضاة في القديم والحديث معروف لا يعارضون فيها ، ولا تكون لغيرهم من الحكام " (٤٧) . فمن خلال دراستنا لتراجم قضاة الجماعة في قرطبة نلاحظ أن القضاة كانوا يستقلون بالرأي والأحكام بمعنى أنهم لا يقعون تحت تأثير سلطة أو شخص من شأنه أن ينحرف به عن هدفه الأسى في تحرى العدالة .

فلقد وردت أمثلة كثيرة في تاريخ القضاء والقضاة في الأندلس تؤكد مدى إستقلال القضاة في إصدار أحكامهم ، فمنها ما رواه أبو عمر بن عبد البر من أن حبيباً القرشي دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية فشكا إليه القاضي نصر ابن ظريف اليحصبي ، وذكر أنه يريد أن يسجل عليه في ضيعة قيم فيها ، وادعى عليه الاغتصاب لها ، ولأن الأمير من إسراع القاضي إلى الحكم عليه من

غير تثبت ، فأرسل الأمير إليه ، وكلمه في حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه وعمل بغير ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيبا ، فدخل إلى الأمير متغرا غيظا ، فذكر له ماعمله القاضي ، ووصفه بالاستخفاف بأمره ، والنقض له ، وأغراه ، فغضب الأمير على القاضي واستحضره ، فقال له : " من أمرك على أن تنفذ حكما ، وقد أمرتك بتأخيرته والإناءة به ؟ فقال له : قدمني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما بعثه الله بالحق ، ليقضي به على القريب والبعيد ، والشريف والدني ، وأنت أيها الأمير ، ما الذي حملك على أن تتحامل لبعض رعييتك على بعض وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تعنى به ، وتمد الحق لأجله ؟ فقال له : جزاك الله يا ابن ظريف خيرا " ، وخرج القاضي فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم بالاستحقاق ، وكلمهم فوجدتهم راضين ببيعها ، إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم وصارت إلى حبيب ، فكان بعد ذلك يقول : جزى الله ابن ظريف عنا خيرا ، كانت بيدي ضيعة حرام ، فجعلها حلالا (٤٨) .

ويورد النباهي مثلا آخر يؤكد استقلال القضاة في إصدار أحكامهم ، فيذكر أن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجلا من أهل جيان ضيعته ، فبينما هو ينازعه فيها ، هلك الرجل ، وترك أيتاما صغارا ، فلما ترعرعوا ، وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه ، قدموا قرطبة ، وأنهبوا إليه مظلمتهم بالعباس ، وأثبتوا ما وجب إثباته ، فبعث القاضي في العباس وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام وعرفه بالشهود عليه ، وأعذر إليه فيهم ، وأباح له المدافع ، وضرب له الآجال ، فلما انصرمت ، ولم يأت بشئ أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه ، ففزع العباس إلى الأمير الحكم ، وسأله أن يوصي إلى القاضي التخلي عن النظر في قضيته ، ليكون هو الناظر فيها فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له . أكابر فتياه ، فلما أدى الوصية إليه ، اشتدت عليه ، وقال : " إن القوم قد أثبتوا حقهم ولزمهم في ذلك عناء طويل ، ونصب شديد ، لبعد مكانهم ، وضعف حالتهم ، وفي هذا على الأمير - أعزه الله - مافيه فلست أتخلي عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه ، فليفع الأمير بعده ما يراه صوابا من رأيه " ، فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه ، فوجم منه وجعل العباس يغريه بمصعب ، ويقول : " قد أعلمت الأمير بشدة استخفافه ، وغلظه في نفسه ، وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه ، وكرر الأمير الطلب إليه أن يكف عن إصدار الحكم في القضية ، فأمر القاضي الرسول بالعود وحكم للقوم بالضيعة ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ... قد حكمت بالعدل فلينقضه الأمير إن قدر ، فاستشاط الأمير غيظا وأطرق مليا ... وأقر حكم القاضي " (٤٩) . وفي رواية للخشني أن الرسول عندما رجع وأبلغ الأمير بمقالة

القاضي أطرق الأمير ، وقال : " ما أشقاه من لطمه قلم القاضي ، ثم رجع إلى ماكان فيه ، ولم يعرض للقاضي ، ونفذ له حكمه " (٥٠) .

ويستفاد كذلك من رواية أوردها الخشني أن قاضي الجماعة في قرطبة عمرو ابن عبد الله بن ليث كان قد أصدر حكما على أحد أتباع الأمير أبي إسحاق أخو الأمير محمد ، فأواه أبو إسحاق وستره ، فقال القاضي لرسول الأمير أبي إسحاق : " قل له : ظلمت وأساءت فيا فعلت ، عمدت إلى رجل قد أخذه حكمي فأويته وسترته ، تريد أن تمنع الحق من أن ينفذ عليه ، إن لم تخرجه وتبرزه ، ليؤدي ماعليه ، ويصير فيه إلى الواجب ، وإلا أرسلت إليك من يسمر أبواب دارك(٥١) .

تخوفا القضاة من توليهم منصب قضاء الجماعة :

وعلى الرغم من أهمية منصب قاضي الجماعة في قرطبة ، فقد كشفت دراستنا لتراجم القضاة عن إحجام البعض عن تولي هذا المنصب ، ربما بسبب ما جاء في القرآن الكريم ، وماورد في بعض الأحاديث النبوية الشريفة من عبارات تحذير حول ولاية القضاء ، من ذلك قول الله تبارك وتعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (٥٢) . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ابتغى القضاء وسأل ، وكل إلى نفسه ، ومن أكره عليه ، أنزل الله عليه ملكا يسدده(٥٣) .

لهذا كان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفا من ألا يستطيعون إقامة العدل على الأقوياء أو تخرجوا من خدمة أمراء لا يرضون على كل تصرفاتهم (٥٤) . ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك الفقيه المصعب بن عمران الذي عرض عليه الأمير عبد الرحمن بن معاوية ولاية القضاء ، " فأبى قبولها وذكر عذرا له في ذلك ، فرد عليه الأمير عبد الرحمن القول ، وأظهر له العزيمة ، ولم يوسع العذر في ترك القبول ، فأصر على الإبادة لها وتمادى على النفور منها ، فلما يئس الأمير عبد الرحمن منه فقال لمصعب : اذهب ، فعليك كذا وكذا ، وعلى اللذين أشاروا بك(٥٥) . غير أن المصعب بن عمران عاد وتولى قضاء الجماعة في قرطبة في إمارة هشام ابن عبد الرحمن ضد إرادته على ما يبدو ، كما يفهم من رواية الخشني التي يقول فيها : " فلما قدم المصعب على هشام ، قال له : قد علمت أنه إنما منعك من قبول القضاء من أبي الأخلاق التي كانت له ، وقد عرفت أخلاقي ، فتول القضاء ، فأبى عليه ، فعزم عليه هشام رحمه الله - عزما شديدا حتى ولى القضاء " (٥٦)

كذلك أبى الفقيه يحيى بن يحيى قبول ولاية القضاء عندما عرضها عليه الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ويرر ذلك بقوله للأمير أن : " المكان الذي أنا به لما تريدون خير لكم ، إنه إذا تظلم الناس من قاضي أجلستموني فنظرت عليه ... فقبل عبد الرحمن بن الحكم منه ذلك وعاقاه " (٥٧) .

مجلس قضاء الجماعة ورسومه :

وكان لابد لقاضي الجماعة في قرطبة أن يتخذ مكانا يعرفه الناس ، ليأتوا إليه عند التنازع والتخاصم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قضى في المسجد ، وسلك الخلفاء الراشدون سنته فقضوا في المسجد (٥٨) ، فالمسجد أنسب مكان يجلس فيه القاضي وهو مكان معروف ومشهور بين الناس ، وطريقه سهل ميسور لجميع الناس ، يقيهم برد الشتاء ، وحر الصيف حتى يستطيع المتخاصمون والشهود الحضور إليه والإطمئنان فيه ، ويتمكن القاضي من إصدار الحكم دون منغصات كالبرد الشديد أو الحر الشديد . فقد كان قاضي الجماعة محمد بن بشير يقضي بين الناس في سقيفة معلقة بقبلى مسجد أبي عثمان القريب من منزله (٥٩) . وكان قاضي الجماعة يقعد لسماع الخصومة من الصباح حتى قبل الظهر بساعة ، ثم يقعد بعد صلاة الظهر إلى العصر ، لا يكون نظره غير السماع من البيئات (٦٠) .

وقد يقضي قاضي الجماعة بين الناس في داره ، يقول محمد بن عمر بن لبابة : " كان إبراهيم بن العباس ربما جلس يقضي في بيته بين الناس " (٦١) ، ولعل ذلك كان يحدث عند النظر في القضايا التي تقع بين المسلمين وأهل الذمة ، كما كان يحدث في المشرق الإسلامي (٦٢) .

وكان قاضي الجماعة بقرطبة يعقد مجلسه بدون رسوم خاصة ، فقد اعتاد أن يرتدي جبة صوف بيضاء ، ويضع على رأسه أقروفاً أبيض وغفارة بيضاء (٦٣) . وهناك إشارة أخرى تفيد أن القاضي محمد بن بشير المعافري كان يخرج إلى المسجد ويقعد للحكم في إزار مبرد وله مفرقة (٦٤) ، وذلك بخلاف ما جرت به رسوم القضاء في المشرق ، حيث تجرت العادة أن يتشح القاضي منذ العصر العباسي بالسواد وأن يضع على منكبيه الطيلسان ، ويعد القاضي أبو يوسف أول من ميز لباس القضاة والعلماء ، فأصبح القاضي يتعمم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، كما كان قضاة الفاطميين يتشحون أيضاً بالبياض ويحملون سيفاً أثناء جلسات الحكم (٦٥) .

وكان مجلس الحكم يعقد علناً ، ويتكون عادة من جماعة الفقهاء المشاورين ،

والكاتب الذي يدون ما يدور في الجلسة، والشهود العدول والشرطة والأعوان . فأما الفقهاء المشاورون فكان قاضي الجماعة يشاورهم فيما يشكل عليه ، لقوله تعالى : " وشاورهم في الأمر " (٦٦) . ومن المعروف أنه كان في قرطبة عدد كبير من الفقهاء المشاورين ذوي العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم ، وكان هؤلاء الفقهاء يرفضون تولي القضاء أو الوظائف العامة مكثفين بالانصراف إلى العلم والتدريس والافتاء فيما يعرض لهم من مشاكل ، وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم في أعين الناس (٦٧) ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الفقيه يحيى بن يحيى أعرض عن ولاية القضاء عندما عهد إليه الأمير عبد الرحمن بن الحكم بولايتها، وقد ارتفعت منزلة هذا الفقيه حتى أصبح من أكبر شخصيات الدولة فكان له رأي في تولية القضاة وفي عزلهم (٦٨) ، ولذا نجد أن قضاة الجماعة في قرطبة كانوا يستفتون هؤلاء الفقهاء في أقضيّتهم ، فيسجلها الكاتب حتى تولي الحبيب بن محمد بن زياد اللخمي قضاء الجماعة في قرطبة ، فطلب من أهل الفقه المشيرين عليه في أقضيّته بضبط فتياهم وزمام رأيهم بخط أيديهم (٦٩) . وأما الكاتب ، فكان قاضي الجماعة يستعين به في تسجيل الدعاوي والإقرارات وما يتعلق بالأحباس وتعيين الأوصياء وتقدير نفقات الأيتام وتدوين محاضر الجلسات في الديوان والمحافظة عليه ، وكان يراعى في إختيار كتاب القضاة أن تتوفر فيهم صفات منها : أن يكون الكاتب حافظا عالما بالفقه ، وأن يكون أميناً حراً ، وأن يكون ورعاً نزهاً لا يستمال بهدية أو رشوة ، وأن يكون حسن الخط حتى يتمكن غيره من قراءته عند العودة إليه إذا دعت الحاجة واقتضى الأمر، وأن يكون صحيح الضبط ، وأن يكون ذا خبرة بكتابة المحضر والسجلات والأوامر والأحكام القضائية (٧٠) . وأما الشرطة والأعوان ، فكان القاضي يحتاج إليهم في مجلس الحكم إجلالا له وفرض الهيئة على مجلسه ولأن وجودهم فيه إرهاب للمبطل وتأديب للمجرم .

ومن الآداب المرعية عند قضاة الجماعة بالأندلس إبان هذه الفترة ، أثناء النظر في القضايا المعروضة عليهم أن يعطي القاضي لكل خصم طابعا وهو كتاب مختوم بخاتم القاضي ، الذي يأمر كاتبه أن يدون به اسم الخصم وعنوانه ، ثم يأخذ القاضي الطابع ويخلطها جميعا ثم يأخذ طابعا ثم آخر، وعلى ذلك يقدم الخصوم على مراتبهم في الحضور (٧١) . فإذا تخاصم رجل غريب مع آخر غريب مثله أو تخاصم الغريب مع رجل من أهل البلدة فإن القاضي يقدم النظر في هذه القضية على غيرها (٧٢) ، وذلك لأن هذا الغريب مسافر إلى أهله فإذا أخره القاضي ربما ترك الدعوى وترك حقه فضايع ، فكان تأخير القاضي له سببا في ضياع حقه ، وإن جاز للقاضي أن يؤجل له بقدر بعد مدينته (٧٣) .

حرية الاعتماد على المذهب المالكي أو الاجتهاد في إصدار الأحكام :

وتجدر الإشارة إلى أن قضاة الجماعة في قرطبة منذ قيام الدولة الأموية اعتمدوا في أحكامهم على مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام ٨٨-١٥٧ هـ / ٧٠٧-٧٧٤ م (٧٤) ، وهو المذهب الذي كانت أحكامه تطبق في الأندلس لتوافق ما ذهب إليه هذا الفقيه وخاصة في التشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد (٧٥) ، مع ماكاد يسود الأندلس في هذه الفترة من عدم استقرار واضطراب . ويذكر ابن الفريسي أن أول من نقل هذا المذهب إلى الأندلس هو القاضي الألبيري أسد بن عبد الرحمن السبئي (كان حياته ١٥٠ هـ / ٧٦٩ م) (٧٦) ، وانتشر على يد صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م) (٧٧) . وظل مذهب الأوزاعي ، غالبا على الأندلس إلى أن انتشر المذهب المالكي في عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالرضا ١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩-٧٩٦ م ، ولم يلبث أن أصبح مذهب مالك هو المذهب الرسمي للدولة الأموية وحل / محل المذهب الأوزاعي ، غير أن الأندلسيين احتفظوا بمسألة استجاسة غرس الشجر في صحون المساجد (٧٨) ، متبعين فيها مذهب الأوزاعي ، ومذهب مالك يكره ذلك ، وهذه المسألة ميزت المالكية الأندلسية عن غيرها حتى انتهاء دولة الإسلام في الأندلس . وهكذا انتقلت الفتوة في الأندلس إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه في حواضر الأندلس (٧٩) .

ومع ذلك فينبغي أن يفسح للقاضي المجال ليفكر ويستنبط الأحكام ، فلقد شجع الإسلام القاضي على التدبر والتفكير والاجتهاد ، وعاب على أولئك الذين لا يفكرون بعقولهم ولا يستخدمونها في الحكم على الأشياء والأفكار والعقائد بل ينساقون وراء الآباء والأجداد ، يرددون ما قالوه دون وعي أو أدنى تأمل ، قال تعالى : " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون " (٨٠) . ومن هذا المنطلق ، وهو ترك الحرية للقاضي في الاجتهاد ، فإنه لا يلزم بمذهب معين ، بل يقضي بما يتوصل إليه من أحكام ، يقول أبو يعلى الفراء : " ويجوز لمن يعتقد بمذهب أحمد أن يقلد القضاء من يعتقد بمذهب الشافعي ، لأن على القاضي أن يجتهد برأيه في قضائه ، ولا يلزمه أن يقلد في النوازل والأحكام من اعتزى إلى مذهبه " (٨١) . بل لقد ذهب الماوردي وأبو يعلى الفراء وغيرهما إلى أن القاضي لو ولي على القضاء واشترط عليه أن يحكم بمذهب معين فإن الشرط باطل . وعليه أن يحكم بما يؤدي إليه اجتهاده ، أي أن الشرط باطل والولاية صحيحة

على تفصيل في الحالات والشروط إن كان الشرط أمرا أو نهيا أو غير ذلك (٨٢). وهذا ما اعتقده قضاة الجماعة في قرطبة ، فالمصعب بن عمران يقضي باجتهاده دون أن يتقيد بمذهب معين ، فقد ذكر ابن عبد البر أنه كان لا يقلد مذهبا معينا ، ويقضي بما يراه صوابا ، وكان خيرا فاضلا (٨٣) .

غلبة البساطة على حياة قاضي الجماعة :

أما عن راتب قاضي الجماعة في قرطبة ، فلم تنص المصادر التي بين أيدينا صراحة عليه ، ومع ذلك فهناك بعض الإشارات التي يفهم منها أن راتب قاضي الجماعة بقرطبة في عام واحد كان يكفيه لعامين ، ففي رواية للخشني أن الأمير عبد الرحمن بن معاوية كان " يدل بين معاوية بن صالح وعمر بن شراحيل عاما هذا وعاما هذا ، فولى عمر بن شراحيل عاما من تلك الأعوام ، فلما انقضى العام أقره على القضاء ولم يحركه (٨٤) ، فذهب القاضي معاوية بن صالح لمقابلة الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وقال له : " وليتني القضاء في أول مرة ، وأنا كاره ، فتوليته فلما تولى رأس الشهر رزقتني رزقا واسعا توسعت به ، ثم استمر الرزق كل شهر حتى عزلتني عند رأس العام ، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت فيه معزولا ، بفضول من رزق العام الأول ، فانقضت تلك الفضول بانقضاء العام " (٨٥) . وهذا يوضح أن راتب قاضي الجماعة بقرطبة كان أيضا كافيا ويزيد عن حاجته حتى لا ينحرف ويقبل الرشوة . فقد حرص الإسلام على نزاهة القضاء عن طريق توفير الحياة الكريمة لكل من يتولى هذا المنصب الهام ، فأوجب له راتبا في بيت مال المسلمين يكفيه هو ومن يعول ، يقول الإمام النووي في روضة الطالبين : " وليكن رزق القاضي بقدر كفايته وكفاية عياله على ما يليق بحالهم من النفقة والكسوة وغيرها " (٨٦) . وقد اتفق الفقهاء على جواز أخذ القاضي الرزق من بيت مال المسلمين ، واختلفوا في جواز أخذه إذا لم يكن محتاجا (٨٧) . وتؤكد هذه الدراسة أن قضاة الجماعة في قرطبة كانوا متزهدين في معيشتهم ، بدليل تلك الروايات العديدة التي تصور لنا البساطة المبالغ فيها في كثير من الأحيان ، والتي تميزت بها طبقة العلماء والفقهاء الأتقياء الذين كان القضاة يختارون من بينهم ، ففي رواية لمحمد بن عمر بن ليابة ، قال : " صلى بنا سعيد بن سليمان القاضي صلاة الجماعة في المسجد الجامع بقرطبة ثم خرجنا معا ، فمشى ولم يركب ، ومشينا معه حتى بلغ إلى القرن الذي كان يطبخ فيه خبزہ ، فقال للفران : خبزتي مطبوخة ؟ فقال له : نعم ، فقال له : هاتها فناولها له ، فأخذها فجعلها تحت عضده ، وأقبلنا نمشي حتى بلغنا الدار ، فدخل وانصرفنا عنه " (٨٨) .

ويسوق الخشني رواية أخرى تعكس لنا البساطة في معيشة قضاة الجماعة في قرطبة فيذكر أن يحيى بن معمر عندما عزل عن قضاء الجماعة أرسل إليه أحد خواصه من الوزراء ابنه وبعض أعوانه ليعاونوه في حمل متاعه ، فعندما أتوا بيت القاضي لم يكن فيه " إلا حصير وخابية بدقيق ، وصحفة وقلة للماء ، وقدح ، وسرير كان يرقد عليه " (٨٩) .

وعلى الرغم من تلك البساطة التي كانت تسود حياة قضاة الجماعة بقرطبة في معيشتهم إلا أنهم كانوا شديدي التهيب في قضائهم لا يخاطبون في شيء من أمر الخصوم إلا في مجلس نظرهم ، ولا يأذنون لأحد من الخصوم بلقياهم في الطريق بمرافقتهم ، ولا أن ينصرفوا معهم ، ومن ألح فيما لا ينبغي من ذلك أمر قاضي الجماعة بحبسه (٩٠) .

أسباب إقدام الأمراء على عزل قضاة الجماعة :

كان قضاة الجماعة بقرطبة يتعرضون للعزل وإنهاء ولايتهم لأسباب نلخصها فيما يلي : -

١- من ذلك أن يقوم الأمير بعزله إذا وجد أفضل منه أو ظهر عجزه أو عدم كفايته ، أو أقر أنه حكم بجور متعمدا أو ثبت عليه ذلك بالبينه ، فقد عزل يحيى بن معمر الإلهاني عن قضاء الجماعة لما نسب إليه من أحوال قبيحة (٩١) .

٢- كان القاضي يعزل أحيانا إذا ما استكثر من تنفيذ الأفضية ، فلقد أحصى على قاضي الجماعة معاذ بن عثمان الشعباني تنفيذ سبعين قضية في ولايته ، فاستكثر منه ، وخيف عليه الزلل ، ويعلق الخشني على هذا الخبر ، فيذكر أن هذه الرواية فيما يرى مدخولة لأنه لا ينكر تنفيذ الأفضية وكثرتها مع حضور الحق ، فإذا صحت فإنها قد تكون من تحامل الفقهاء ، إذ " كلما طالت الخصومات كان أنفع لهم " (٩٢) .

٣- قد يكون العزل بسبب انتهاء مدة ولايته ، فإذا عين الأمير رجلا على القضاء مدة سنة ، فإن ولايته للقضاء تنتهي بانتهاء السنة ، وخير مثال على ذلك معاوية بن صالح وعمر بن شراحيل الماعفري ، فقد كانا يتداولان قضاء الجماعة عاما معاوية وعاما عمر (٩٣) .

٤- وقد يكون بسبب استعفاء قاضي الجماعة نفسه وموافقة الأمير على ذلك ، فلقد كتب أحمد بن زياد قاضي الجماعة في قرطبة إلى الأمير يطلب إعفاءه

من ولاية القضاء فعزله عنها (٩٤) .

٥- يتم العزل أحيانا عند وفاة قاضي الجماعة ، لأن الموت مبطل لأهلية التصرف ، فلقد توفى المصعب بن عمران الهمداني ومحمد بن سلمة وهما على القضاء (٩٥).

٦- وقد يكون ذلك أيضا بسبب خروج قاضي الجماعة للغزو ، فقد جرت العادة أنه إذا غزا القاضي ثم قدم ، لم ينظر حتى يعهد إليه بالنظر من جديد (٩٦) . جرت العادة أيضا أنه في حالة وفاة قاضي الجماعة أو عزله عن ولايته كان أمير الأندلس يعهد إلى صاحب المدينة باستلام الديوان ، وأن يجعله بمكان الحفظ والصيانة حتى يولى قاضيا آخر مكانه (٩٧) . ولعله من المناسب أن نذكر هنا أن سبعة من قضاة الجماعة بقرطبة توفوا أثناء شغلهم لمنصب قاضي الجماعة (أرقام : ١ ، ٧ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠) .

بقي أن نشير في ختام هذه الدراسة عن قضاة الجماعة في عصر الإمارة الأموية في الأندلس إلى أن هذه الوظيفة كانت مستقرة إلى حد كبير بدليل أنها شهدت على مدى ١٦٢ عاما واحدا وأربعين قاضيا فقط أي بمعدل قاض لكل أربع سنوات تقريبا . وقد وضع هذا الاستقرار بصفة خاصة في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي حكم ما يقرب من ثماني سنوات قام خلالها بتعيين قاض واحد فقط . وفي عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي حكم ما يقرب من خمس وثلاثين سنة تقلد قضاة الجماعة خمسة قضاة أي بمعدل قاض لكل سبع سنوات . وذلك على النقيض تماما مما كان يحدث في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي عين ثلاثة عشر قاضيا خلال السنوات الإثنتين والثلاثين التي مكثها في الإمارة أي بمعدل قاض لكل سنتين ونصف ، ذلك بسبب تدخل جماعة الفقهاء المشاورين أحيانا في تعيين قضاة الجماعة وعزلهم في أيامه .

هوامش البحث

- ١- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) . كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تاريخ قضاة الأندلس ، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢ .
- ٢- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٣٩٠ .
- ٣- نفس المصدر والمجلد والصفحة .
- ٤- الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد) : قضاة قرطبة ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ، الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ ، ص ٢٥٢ .
- ٥- الخشني : نفس المصدر ، ص ٤٧ ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى أن يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أرسلوا إلى عبد الرحمن بن معاوية عندما بلغ قرية أرمله Armilla من من قرى إلبيره ، ويعترف بإمارته على الأندلس بشرط أن يؤمنهما في أموالهما ومنازلهما ويؤمن الناس كلهم ، فأجابهما إلى رغبتهما ، وأصطلحا في سنة ١٤٠هـ ٧٥٧م ، وكتب بينهما كتاب صلح ، انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٧٢ ، مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها ، تحقيق لا فونتي الكتترا ، مجريط ، ١٨٦٧ ، ص ٩٤ .
- ٦- الخشني ، المصدر السابق ، ص ٤٧ ، النباهي : المصدر السابق ، ص ٢١ .
- ٧- النباهي : نفس المصدر ، ص ٢١ .
- ٨- نفس المصدر والصفحة .
- ٩- الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد) : قضاة قرطبة ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ، الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ .
- ١٠- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن) . كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تاريخ قضاة الأندلس ، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

١١- ابن الفرّضي (أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ) : تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

١٢- الحميدي (أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي) : جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

١٣- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره) : بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، تحقيق كوديرا وزيدان ، مجريط ، ١٨٨٤ .

١٤- ابن حيان (أبو مروان بن خلف) : كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، بتحقيق ملتشور انطونيا ، باريس ١٩٣٧ . وله أيضا كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١٥- ابن عذارى (أبو العباس أحمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج٢ ، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

١٦- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٩ .

١٧- ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج١ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة .

١٨- المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ثمان مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

١٩- أن الفضل في هذا المنهج يرجع إلى المستشرق الفرنسي جاستون فيت الذي طبقه في مقالة عن كتاب السر في العصر المملوكي .

Wiet CG.) : Les secre'taires de la chancellerie en Egypte sous Les Mamlouks circassiens, Me'Langes de Rene' Basset. (Paris, 1932 :
وقد رأينا أن هذا المنهج يفيد الباحث في إجراء دراسة منظمة تعتمد على ثبت واف .

٢٠، ٢١- يذكر الخشني اعتمادا على رواية لأبي مروان عبيد الله بن يحيى ، أن الأمير عبد الرحمن بن معاوية كان يديل بين معاوية بن صالح وعمر بن شراحيل عاما هذا وعاما هذا ، انظر : قضاة قرطبة ، ص ٦١ .

٢٢- لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئا عن تاريخ توليته أو عزله ، بينما رسم النباهي اسمه هكذا نصر بن ظريف اليحصبي ، انظر: المرقبة العليا ص ٤٤ .

٢٣- يذكر ابن عذارى أن المصعب بن عمران تولى قضاء الجماعة في إمارة عبد الرحمن بن معاوية ، في حين أن الخشني يذكر أنه أبى قبولها في عهد عبد الرحمن ، وقبلها بعد تردد في عهد خلفه هشام . انظر : الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٦٩ .

٢٤- أبى الأمير الحكم المصعب بن عمران على قضاء الجماعة في قرطبة حتى وفاته ، انظر ، الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٣ .

٢٥- رسمه ابن عذارى هكذا ، حامد بن محمد بن يحيى ، انظر : البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ٦٨ .

٢٦- يقول ابن الفرضي أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم استقضىه بقرطبة سنة سبع وثمانين في آخرها ، ولعلها ثمان ومائتين في آخرها ، انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٣ ترجمة (١٤٢٠) .

٢٧- ابن عذارى : البيان المغرب ، ح ٢ ، ص ٤٨ ، وصفحات ٦٨ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١١٣ ، ١٥٣ .

٢٨- انظر ، أحمد شلبي : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، ح ٨ ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٤ .

٢٩- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٢٩ .

٣٠- نفس المصدر ، ص ٨٩ .

٣١- انظر ، عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٧ .

٣٢- انظر : الماوردي (أبى الحسن على بن محمد بن حبيب) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الثالثة ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٧٠ ، ٧١ : النووي (زكريا يحيى بن شرف) : روضة الطالبين ، الطبعة الأولى ، ح ١١ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٥ ، النباهي : المرقبة العليا ، ص ٢٢١ ، ٢٢ .

٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ - ويفهم مما جاء في هذه الاختصاصات أنه كان يجتمع لدى القاضي مبالغ كثيرة ، وبموجب هذه الاختصاصات كان يخول للقاضي النظر في الأوقاف وحفظها وتنمية فروعها ، وقبض ريعها ، وقبض المال الموصى به لتنفيذ الوصية ، والنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى وأهل السفه ، كما يخول للقاضي قبض أموال الغرباء حتى يحضر الوارث .

انظر : محمد عبد القادر أبو فارس : القضاء في الإسلام ، الطبعة الأولى ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٧٣ ، هـ ١ .

٣٦- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٦٥ .

٣٧- انظر الخشني : نفس المصدر ، صفحات ٥٤ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ١٢٤ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ .

٣٨- الخشني : نفس المصدر ، ص ١٤٦ ، نقلا عن محمد الذي يقول : " أن عمرو بن عبد الله ، كان مولى ، وهو أول من ولى قضاء الجماعة للخلفاء من الموالى ، فشق ذلك على العرب فكلّموا فيه فقال العرب : أما القضاء فإننا لانعترض فيه لأنه من سلطان ، وأما الصلاة فإننا لانصلى وراءه ، فولى الأمير للصلاة النميري عبد الله بن الفرّج "

٣٩- نفس المصدر ، ص ٦٩ .

٤٠- نفس المصدر ، ص ٧٣ .

٤١- نفس المصدر ، ص ١٤٣ ، ١٤٦ .

٤٢- نفس المصدر ، ص ١٤٦ .

٤٣- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

٤٤- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص ١٢٦ .

٤٥- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣ .

٤٦- Le'vi - provencal : L'Espagne Musulmane au Xe sie'cle , p.106, Note 10 .

٤٧- المرقبة العليا ، ص ٥

٤٨- في ، النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٤ ، وانظر أيضا : الخشني . قضاة قرطبة ، ص ٦٥-٦٦ .

٤٩- المرقبة العليا ، ص ٤٦-٤٧ .

٥٠- قضاة قرطبة ، ص ٧٠ .

٥١- نفس المصدر ، ص ١٥٠ .

- ٥٢- سورة المائدة ، آية ٤٧
- ٥٣- التبريزي - مشكاة المصابيح ، ص ٢١٤
- ٥٤- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٨٧ .
- ٥٥- الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٧
- ٥٦- نفس المصدر ، ص ٦٩ .
- ٥٧- نفس المصدر ، ص ٣٠
- ٥٨- العيني (بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد) : عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ، ج ١٦ ، نشر مجموعة من العلماء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ص ٢٧٧ .
- ٥٩- الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٧٦ .
- ٦٠- في الخشنى : نفس المصدر ، ص ٧٧ .
- ٦١- نفس المصدر ، ص ١١٧ .
- ٦٢- الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة جست ، ص ٢٥١ .
- ٦٣- الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٢٧ .
- ٦٤- انظر : أخبار مجموعة ، ص ١٢٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨١ ، ويقول الخشنى أن محمد بن بشير القاضي كان يرتدي رداءً معصفر ، وفي رجليه حذاء يضرب ، وعليه جمة مفرقة ، انظر : قضاة قرطبة ، ص ٧٩ .
- ٦٥- انظر : ابن سيده : المخصص ، ج ٤ ، ص ٧٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ ، أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ص ٢٧٣
- ٦٦- سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .
- ٦٧- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٧ .
- ٦٨- انظر ، الخشنى : قضاة قرطبة ، صفحات : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٨ .
- ٦٩- نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .
- ٧٠- الكاساني (علاء الدين أبى بكر بن مسعود - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، نشر

الأستاذ زكريا على يوسف ، ح ٩ ، مطبعة الإمام ، ص ٤١٠ ، أبو فارس : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٧١- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٧ .

٧٢- الكاساني : بدائع الصنائع ، ح ٩ ، ص ١٠٢ .

٧٣- الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٧٧ .

٧٤- انظر في ترجمته ، كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ح ٣ ، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم التجار ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٠٧-٣٠٨ ، والمصادر التي وردت به .

٧٥- Mahmud Makki : op. cit, pp. 129,154

٧٦- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٧٤ .

٧٧- Mahmud Makki : op. cit, pp. 129,154

٧٨- النباهي : المرقبة العليا ، ص ٥١ .

٧٩- المقرئ : نفع الطيب ، المجلد الثالث ، ص ٢٣٠ ، ابن الخطيب (لسان الدين) : الإحاطة في أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٣٤ ، اللذان يذهبان إلى أن المذهب المالكي انتشر في عبد الحكم بن هشام ، وهذا يخالف الأحداث التي وقعت في عهد ذلك الأمير ، والأقرب إلى الصحة أن هذا المذهب انتشر في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن .

٨٠- سورة الزخرف ، آية ٢٣ .

٨١- أبي يعلى الفراء (محمد بن الحسن) : الأحكام السلطانية ، الطبعة الثانية ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٦٣ .

٨٢- الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٦٨ ، أبي يعلى الفراء : المصدر السابق ص ٦٣ - ٦٤ ، أبو فارس . المرجع السابق ، ص ١٨١ .

٨٣- في ، النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٧ .

٨٤- قضاة قرطبة ، ص ٦١ .

٨٥- نفس المصدر ، ص ٦٢ .

٨٦- النروي : روضة الطالبين ، ص ١٣٧

٨٧- انظر : ابن قدامة المقدسي (أبي محمد موفق الدين عبد الله) : الكافي في فقه الإمام المجل أحمد بن حنبل ، ج ٢ ، الطبعة الأولى ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ٤٢٢ ، ابن أبي الدم الحموي (شهاب الدين أبي إسحق إبراهيم بن عبد الله) . كتاب أدب القضاء وهو الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات ، الطبعة الأولى ، تحقيق د. محمد مصطفى الزحيلي ، دمشق ١٩٧٥ ، ص ٥٦ ، ابن فرحون : المالكي (برهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي قاسم بن محمد) : تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ، ج ١ ، الحلبي ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص ٣٠ .

٨٨- في ، الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ١٢٩ - ١٤٠

٨٩- نفس المصدر ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

٩٠- نفس المصدر ، ص ١٤٢ - ١٤٧ .

٩١- نفسه ، ص ١٠٦ ، أبو فارس : المرجع السابق ، ص ٧٤ .

٩٢- الخشني : نفس المصدر ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ابن حيان : المقتبس ، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٦٨ - ٦٩ ، وف ١٧٧ .

٩٣- الخشني : نفس المصدر ، ص ٦١ ، وانظر أيضا ، فاروق الكيلاني : استقلال القضاء ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٨ .

٩٤- الخشني : نفس المصدر ، ص ١٤٤ ، ابن فرحون : تبصرة الحكام ، ج ١ ، ص ٧٨ .

٩٥- الخشني : نفس المصدر ، ص ٦٧ - ٦٨ ، ٢٠١ - ٢٠٢ .

٩٦- نفس المصدر ، ص ١٧٢ ، وانظر أيضا ، أبو فارس : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

٩٧- الخشني : نفس المصدر ، ص ٢٠٤

البحث الثالث

أبو عبيد البكرى والبكريون فى ولبة وشلطين

يعتبر أبو عبيد البكري - أبرز شخصيات هذه الأسرة - علماً من
أعلام الفكر الأندلسي في عصر نضجه أي في القرن الخامس الهجري
(الحادي عشر الميلادي) .

فهو واحد من أبرز أعلام ذلك العصر ، ومن أشهر علمائه دون جدال
علماً وتحصيلاً وقراءة ، ولذلك جاء تدوينه شيقاً رتيباً بأسلوب سهل ممتع
وليست هذه الأمور كلها لتتاح لغير عبقرى . ولهذا يتفق الكثيرون من
الباحثين على أنه من أعظم جغرافى الاسلام ، وهو بغير شك أعظم جغرافى
أخرجته الأندلس (١) .

وهو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري
يرتفع نسبة إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة

(١) أنظر :

Dozy (R) : Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne
pendant le Moyen Age, t I , Leyde, 1849, -P. 288 ;

Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los historiadores y
Geografos Arabigo-Espanoles, Madrid, 1898, P. 160; .

كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليا نوفتش) : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقلة إلى
العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
١٩٦٣ ، ص ٢٧٤ .

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية
مدريد ١٩٦٧ ، ص ١٠٨ .

جشاك بالنيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ، ٣٠٩ ،

السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨١ ،
٢٩٨١ ، ص ١٩٥ .

ابن أسد بن ربيعة بن تزار (٢)

ولعل من المفيد القاء الضوء على حياته أو ما يحتمل أن يكون قد ورثه عن بعض أجداده من صفات ، ولحسن الحظ أن ابن بشكوال - أقدم مترجم لأبي عبيد البكري - قد احتفظ لنا بترجمة لأحد أجداده وهو أيوب بن عمرو البكري ، يفهم منها أن أسرة البكريين كانت من البيوتات الكبيرة في الأندلس التي ترددت فيها الخطط والمناصب (٣) .

فأول من ولى منصباً ذا شأن في أسرة البكري هو أحد أجداده أيوب ابن عمرو البكري ، ونعرف مما يورده ابن بشكوال (٤) ، أن أصل هذه الأسرة من لبله (Niebla) (٥) وأن أيوب بن عمرو كان ذا علم وفضل وسرو وعظمة ومروءة ، وأنه رحل إلى المشرق كمادة الأندلسيين في ذلك العصر لطلب العلم والحج فالتقى بجماعة من علماء المشرق ودرس عليهم ثم عاد .

(٢) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) : جهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ص ٣٢١ ، ابن بشكوال (أبي القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة ، القسم الأول ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ١١٢ .

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر) : الحلة السراء ، الجزء الثاني ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٨٠ ، حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١٠٩ .

(٣) الصلة ، القسم الأول ، ص ١١٢ (ترجمة ٢٦٧) .

(٤) نفس المصدر والقسم والصفحة .

(٥) لبله Niebla ، وكان اسمها في القديم Ilipla ، وتقع في جنوب غرب اسبانيا في مقاطعة أونبه Onuba ، أنظر :

الحميري (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله) : كتاب الروض المطار في خبر الاقطار ، تحقيق ليفربروفتسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٨ ، الترجمة ليفربروفتسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٨ ، الترجمة الفرنسية ، ص ٢٠٣ ، وراجع أيضاً :

Ency of Islam, art Huelva. by levi- Provencal.

إلى الأندلس ، فتولى خطة الرد وهي من الخطط القضائية التي تميز بها الأندلس ، وكانت من بين الخطط الستة التي تحولت لتقلدها سلطة انفاذ الأحكام (٦) . وكانت مرتبة صاحب خطة الرد أدنى منزلة من قاضي الجماعة يدل على ذلك ترتيبه في الجلس والاحتفالات والمناسبات الرسمية إذ كان يأتي في الترتيب بعد قاضي الجماعة ، وكان عادة ما يسند إلى صاحب خطة الرد الخروج إلى الكور لمطالعة رعاياها والكشف عن سير عملها، والتحقيق في الشكاوى المقدمة من أهل تلك الكور ضد عماله (٧) . وكان أيوب بن عمرو البكري شديداً في أحكامه من أهل النباهة والذكر في قرطبة (٨)

ويورد ابن الأبار رواية هامة نقلا عن ابن حبان مفادها أن أيوب ابن عمرو هذا وأخيه محمد كانا ضمن الشخصيات الأندلسية الذين سمعوا من الخليفة هشام المؤيد ما أمر بعقده للحاجب المنصور بن أبي عامر مجدداً للألفة بعد جفوة طارئة حدثت بينهما عندما رغب الخليفة هشام المؤيد واتباعه استرجاع السلطة من يد الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وتاريخ العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ هـ (فبراير - مارس سنة ٩٩٧ م ، (٩) .

ويفهم من هذا أن أيوب بن عمرو وأخيه محمد أجداد أبو عبيد البكري كانا من رجال الخليفة هشام المؤيد وحظياً في عهده بمكانة طيبة ، وتولى

(٦) والخطط الست هي : القضاء والشرطة والمظالم والرد والمدينة والسوق ، راجع ابن حبان (أبو مروان) المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، لجنة أحياء التراث الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٨ ، ١٥٤٨ .

(٧) أنظر : ابن حبان (أبو مروان) : المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن حل الحجي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ ص ١٠٤ .

(٨) ابن بشكوال : الصلاة ، القسم الأول ، ص ١١٢ .

(٩) ابن الأبار : الحلة السيرة ، القسم الثاني ص ١٨١ .

أحدهما على الأقل خطة الرد بقرطبة فلما آلت السلطة إلى الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، وأصبح هو المتصرف في أمور الدولة ، انحازوا إليه ، وأصبحوا من رجاله الموثوق بهم ، ومن ثم استمرت مكانتهم في الدولة الأموية ، يؤيد ذلك ما رواه ابن حبان «وكان (أيوب بن عمرو) من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة والاتصال القديم بسلطان الجماعة» (١٠) . فنعى البكريون في ظل العامريين بمكانة مميزة وأصبحوا محل ثقهم فتولى أيوب بن عمرو ولاية ولبة وشلطيش في أخريات أيامه ، ولعل تقلده أمر هذه الولاية كان بعد سنة ٨٣٨٧ وهي التي تؤرخ انحياز البكريين وتأييدهم للمنصور ابن أبي عامر المستبد بأمر الخليفة هشام المؤيد في الأندلس .

وامارة ولبة وشلطيش تحتل جزءاً صغيراً في جنوب غرب الأندلس عند ملتقى الوادي الأحمر (نهر التنتو Rio Tinto) ووادي القناطير (نهر الأوديل Odiel) مكوناً مصباً متسعاً تنتهي في المحيط الأطلسي (١١) احتوى على بعض جزر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش Saltes وهي جزيرة صغيرة احترف أهلها صيد الأسماك وتخليجها وتصيديرها إلى أشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس ، وأهم مدن الجزيرة مدينة شلطيش في جنوبها وهي مدينة غير مسورة بنيانها متصل ببعضه ببعض ، ولها أرباض واسعة تضم البساتين والمراعي الحصبة ، ولها أسواق وبها دار صناعة انشاء السفن واشتهرت في الأندلس بصناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد

(١٠) ابن بسام الشتريني (أبو الحسن علي) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨١ ص ٢٣٤ ابن الأبار : الجلة السراء ، القسم الثاني ، ص ١٨٢ .

(١١) أنظر :

Lévi-Provençal : La description de L'Espagne D'Ahmad Al Razi, Al-Andalus Vol, XVII, 1953, P. 92.

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١١٢

لصلايته وأهمها صناعة مراسي السفن (١٢) . وأما مدينة ولبه Huelva، ويطلق عليها أيضاً أونبه Onuba فهي مدينة صغيرة تقع بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي ، ويدور حولها سور من الحجارة ، وتضم الأسواق ومختلف الصناعات (١٣) .

ظل أيوب بن عمرو واليا على ولبه وشلطيش إلى أن وافته المنية في شهر رمضان سنة ٣٩٨ هـ (مايو ١٠٠٨ م) ، ودفن بمقبرة الربض (١٤) ، وخلفه على ولايتها ابنه أبا زيد محمداً جد أبي عبيد البكري ، الذي دامت ولايته عليها خمس سنوات ، آلت بعدها إلى ابنه أبو المصعب عبد العزيز الذي بويع بها سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) (١٥) ، وهذا يعني أنه منذ ولاية الأخير استقل بولايته تماماً عن الحاضرة قرطبة التي كانت تشهد في ذلك الوقت صراعاً مريراً بعد أن سقطت الدولة العامرية بمصرع شنجول بن المنصور بن أبي عامر وعلى أثر ذلك وما ترتب عليه من بداية التصدع في هيئة الخلافة الأموية التي زالت تماماً بانتهاء رسم الخلافة الأموية في الأندلس وتعدد الحكومات في انحائها ، فانزى الرؤساء والقواد والولاة على اختلاف أجناسهم في سائر الأندلس واقتسموا خططها ، لا تجمعهم مصلحة مشتركة ، ولا تربطهم رابطة ، بل تفرق بينهم ، المنافسات والأطماع الشخصية وتضطرم بينهم حروب أهلية صغيرة ، وتعرف هذه الدول الصغيرة التي قامت على انقاض

(١٢) الأدريسى (الشريف) : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذه من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ليدن ، ١٦٦٨ ، ص ١٧٨ ، الحبيرى : الروض المعطار ، ص ١١١ والترجمة الفرنسية ، مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول ، رقم ٣٦ ، نسخة مصورة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديده ، لوحة ٦٦ .

(١٣) الأدريسى : نفس المصدر ، ص ١٧٨ ، الحبيرى : نفس المصدر ، ص ١٧٨

(١٤) ابن بشكوال : الصلة ، القم الأول ، ص ١١٢

(١٥) ابن عذارى المراكشي : كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،

الجزء الثالث تحقيق ليث بروفسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ، ص ٢٩٩

الدولة الأموية بدول الطوائف ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف . وفي خضم هذا الصراع انتزى أبو المصعب عبد العزيز بولاية ولبة وشلطيش وبويع بها كما سبق في سنة ٤٠٣ هـ .

وهكذا أصبح أبو المصعب أميراً مستقلاً على إحدى دويلات الطوائف في ذلك العصر وتسجل المصادر العربية حسن سيرته في رعاياه ، فدامت لذلك دولته مدة طويلة ، واتسم عهده بالرخاء والسلام والأمن ، وكان يمكن أن يستمر الحال كذلك لولا طمع بني عباد أصحاب أشيلية ، فلما قوى سلطانهم تطلعوا إلى الاستحواذ على امارات غربي الأندلس . كلها ومن بينها ولبة وشلطيش (١٦) .

ونستشف من رواية لابن حيان أن المعتضد بن عباد أمير أشيلية ، بعد أن فرغ من خربه مع المظفر بن الأفطس صاحب بطاليوس Badajos وعقد معه صلحاً أجراه بينهما الوزير أبو الوليد بن جهور رئيس الجماعة في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١م) أخذ في تنفيذ مخططه بالاستيلاء على امارات غربي الأندلس ، فبدأ بحصار لبلة ، فاضطر أميرها أبي نصر فتح ابن خلف البحصبي إلى التسليم له ، وخرج فعلاً في أهله إلى قرطبة حيث مات بها (١٧) . ويبدو أن عبد العزيز البكري أدرك - بعد سقوط لبلة في يد المعتضد بن عباد - أن الدور لا بد آت عليه ، فعمل على استمالة المعتضد وتقوية الصلات بينهما ، فأرسل له يهته باستيلائه على لبلة ، ويذكره بالصلات الوثيقة والمودة القديمة التي كانت بين أبيه وجده واسماعيل بن عباد آملاً في استمرار هذه المودة ، يقول ابن حيان : «فبادر (أي عبد العزيز) البعثة إلى المعتضد ساعة دخل لبلة يهته بما تها لها منها ، وذكره بالذمام الموصول بينهما » (١٨) .

(١٦) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٤

(١٧) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١٨) في ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ص ٢٢٤

غير أن المعتضد لم يحفل كثيراً بما أظهره عبد العزيز البكرى من مودة بل سار في تنفيذ مخططه ، وتحقيق أطماعه في ضم أماره ولبه وشلطيش ، فأرسل على الفور قواته لحصار مدينة ولبه ، حاضرة الامارة ، ولم يكتف بذلك بل أمر قواده باحكام الحصار حولها لسرعة الاستيلاء عليها ، فانقطع كل اتصال بين المدينة وباقي المدن الأخرى ، وعانت كثيراً من الغارات المتتابعة التي شنتها قوات المعتضد بن عباد فاضطر عبد العزيز البكرى إلى طلب المفاوضة وأرسل إلى المعتضد يعرض الصلح ، بل ويعترف بطاعته ، ويعرض عليه التخلي عن ولبه والاحتفاظ بشلطيش فقط ان شاء ، فوافق المعتضد بن عباد على ما اقترحه عبد العزيز على الفور « فوقع له ذلك من المعتضد موقع ارادة » (١٩) وأرسل المعتضد يبلغه بالموافقة على الاجتماع به وعلى ما اقترحه غير أن عبد العزيز لم يظمن إلى لقائه ، وحمل متاعه وأمواله وأسرتة في مراكبه إلى جزيرة شلطيش ، وتخلي للمعتضد عن ولبه « فحازها حوزة للبله » (٢٠) ودخلت ولبه من ذلك الوقت في طاعة ابن عباد (٢١).

لكن المعتضد بن عباد لم يترك عبد العزيز يهنأ بالهدوء في جزيرته بل أخذ في مضايقته وفرض الحصار عليه ، ومنع الناس طراً من الدخول اليه ، فتركه محصوراً وسط الماء ، إلى أن ألقى بيده من قرب ولم يغرب عنه الحزم (٢٢) وأرغمه على التفاوض معه مره ثانية ، وفي هذه المرة تنازل عبد العزيز عن آخر أملاكه جزيرة شلطيش سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بشروط

(١٩) في ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثاني المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ص ٢٣٤

(٢٠) نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحة .

(٢١) أنظر : العذري (أحمد بن عمر بن أنس) : نصوص عن الأندلس من كتاب قرصم الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواز ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ص ١٠٧ .

(٢٢) ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ .

منها : أن يشتري المعتضد بن عباد أملاكه وسفنه وأثقاله ، فدفع له عشرة آلاف مثقال من الذهب (٢٣) ، يقول العذري : «وفي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة اشترى (المعتضد بن عباد) جزيرة شلطيش من البكري ، ودفع إليه ثمن كل ما كان له فيها من عدة وطعام وغير ذلك من المشمونات» (٢٤) وأن يتركه يغادر الجزيرة في أهله وأمواله في طريقة إلى قرطبة يقول ابن حيان «فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه فأمنه ولحق بقرطبة» (٢٥). فلي المعتضد مطالبه وسمح له بذلك ، بل أعد له النزل والضيافة في طلياطه Tejada (٢٦) وهو في طريقه وأهله إلى قرطبة ، غير أن عبد العزيز البكري لم يأمن جانبه وارتاب فيما أعده له ، فاتصل بصاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالي يطلب منه حمايته ، وأجابه ابن البرزالي إلى ما طلب وبعث إليه بفرقه من الخيل لقيته بموضع اتفقا عليه ، فغير طريقه بدلا من أن ينزل في طلياطه التي أعدها له المعتضد نزل بقرمونه (٢٧) ، ومنها توجه إلى قرطبة سالما ليعيش بها في كنف رئيس الجماعة ابن جهور (٢٨) .

وهكذا رحل أبو عبيد البكري في صحبة والده إلى قرطبة لتعيش الأسرة في كنف ابن جهور بعد وقوع جزيرة شلطيش في قبضة المعتضد بن عباد ٤٤٣ هـ (١٠٥١ - ١٠٥٢ م) ، وهذا يجعلنا نرفض الرواية التي تحدد مكان

(٢٣) نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٢٣٥ .

(٢٤) العذري : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢٥) في ، ابن بسام : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٢٦) طلياطه Tejada ، وتقع على بعد ثلاثين كيلومترا شمال كيلومتر شمال غرب اشبيلية ،

راجع وصفها في (الحميري : الروض المطار ، ص ١٢٨ ، والترجمة الفرنسية ، الأديبي المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، العذري : ترصيع الأخبار ، ص ١٧٤ - ص ١٧٥) .

(٢٧) قرمونه Carmona ، وهي الآن مركز إداري في مديرية اشبيلية ، راجع وصفها

في (الحميري : الروض المطار ، ص ١٥٨ ، والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٠ ، الأديبي : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ وكذلك مادة Carmona في دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة الفرنسية الجزء الأول ، ص ٨٤٩ .

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السراء ، الجزء الثاني ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

مولده في قرطبة (٢٩) وان كانت هناك رواية أخرى تحدد مكان مولده في مدينة شلطيش (٣٠) .

أما عن تاريخ مولده فغير معروف ، لم تورد المصادر التاريخية المعاصرة وان كانت هناك رواية ذكرها جايا نجوس Gayangos (٣١) في بعض تعليقاته على ما ترجمه من نصح الطيب للمقرى أن أبا عبيد البكري ولد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ - ١٠٤١ م) أي أن عمره عندما دخل قرطبة في صحبة آله لاجئين إليها سنة ٤٤٣ هـ كانت إحدى عشرة سنة ، ومن الغريب أن جايا نجوس لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تحييد هذا التاريخ ، مما جعل المستشرق الهولندي رينهارت دوزي يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد رواية لابن حيان يذكر فيها أن أبا عبيد البكري « بد الاقران جمالا وبهاء وسروا وأدبا ومعرفة » (٣٢) . ونستشف من هذه الرواية أن أبا عبيد كان في مستقبل شبابه ، يؤيد ذلك رواية الفتح بن خاقان في ترجمته له بقوله : « رأيت (أي أبو عبيد) وأنا غلام ما أقهر هلالى ، ولانبغ في الذكاء كوثرى ولازالالى في مجلس ابن منظور ، في هيئة كأنما كسيت بالهاء والنور ، وله سبله كأنما يروق العين ايامها ، ويفوق السواد بياضها وقد بلغ سن ابن محلم وهو يتكلم فيفوق كل متكلم » (٣٣) . وهذا يوضح أن أبا عبيد البكري كان في نحو

(٢٩) آنخل جونثالث بالثيا : تاريخ الكفر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠٩ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان القاهرة (الف كتاب ٢٧٢) ، ص ٧٥ .

(٣٠) الزركلى : الاعلام ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٣ .

(٣١) في ، حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١١٥ ، وقارن مؤنس ، نفس المرجع والصفحة .

(٣٢) في ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ ، مؤنس : نفس المرجع والصفحة .

(٣٣) قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، قدم له محمد العنانى ، المكتبة المتينة ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢١٨ - ص ٢١٩ .

الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاماً وبلاسترشاد برواية ابن حيان نرى أنه كان شاباً يافعاً حين رحل إلى قرطبة في صحبة والده ، ونرجح أن يكون مولده في العقد الأول من القرن الخامس الهجري وليس سنة ٤٣٢ هـ كما ذكر جايا نجوس ، وأن مولده كان في مدينة ولبة التي كانت حاضرة امارة ولبة وشلطيش حتى سنة ٤٤٣ هـ .

على أية حال ، فان أبا عبيد البكري عاش طفولته وصدر شبابه في مدينة ولبة ، وتلقى تعليمه الأول فيها ، ثم رحل مع أبيه وآله إلى مدينة شلطيش سنة ٤٤٣ هـ وأكمل تعليمه وتربيته فيها ، وارتحل بعدها إلى قرطبة وهو في ريعان شبابه ، ولا شك أن الفترة التي قضاها في ظل امارة أبيه لشلطيش أفادته كثيراً في تحصيل المعارف الاساسية ثم اكمل تعليمه في قرطبة ، ولحسن الحظ فقد احتفظت قرطبة بعد سقوط الخلافة الاموية بأهميتها حيناً من الدهر كمرکز ثقافي وكملاذ لأمرأء الدويلات الذين فقدوا سلطانهم (٣٤) . وهناك أتم أبو عبيد البكري دراسته بل وانتسب إلى المدينة فعرف أيضاً باسم أبو عبيد البكري القرطبي .

ولسنا نعرف من أساتذة أبي عبيد البكري - ممن نص عليهم ابن بشكوال أقدم مترجميه - الا ثلاثة سنعرض لهم بالتفصيل وهم أبو مروان بن حيان وأبو بكر المصحفي - لم اهتمد إلى ترجمته - وأبو العباس العذري سمع منه بالمريه ، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر (٣٥) والواقع أن هذا العدد الذي حدده ابن بشكوال من الشيوخ قليل بالنسبة لسليل أسرة عريقة في الأندلس كأبي عبيد إذ كان يوسعه أن يتردد على مجالس كثير من العلماء الذين كانت ترخر بهم قرطبة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، على أن اقتصار ابن بشكوال على ذكر أولئك الشيوخ لا يمنع أن يكون أبو عبيد

(٣٤) كراتشوفسكى : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٧ ، ترجمة ٦٣٣ .

البكرى قد أخذ عن غيرهم ، وكما سرى فان جل اهتمامه كان منصباً على الاطلاع على المصنفات المتعددة التي كانت ما تزال تبعج بها قرطبة في هذه الفترة .

أما شيخه الأول فهو المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ / ٩٧٧ - ١٠٧١ م) الذي يعد من أعظم مؤرخي الاسلام ، وهو بلا جلدال شيخ مؤرخي الاندلس بوجه عام ، ولهذا العصر بوجه خاص (٣٦) فقد أنظم أبو مروان في سلك وظائف الدولة ، وصنف عدداً كبيراً من الكتب لا يقل عن خمسين (٣٧) ، ولكن للأسف لم يصل إلينا من هذه المؤلفات كلها الا أجزاء بسيرة وقد توسم ابن حيان في أبي عبيد البكرى الذكاء والنجابة منذ شبابه حينما قدم إلى قرطبة ، فقد أثنى عليه ابن حيان حينئذ قائلاً : «بذ الاقران جمالا وبهاء وسرواً وأدباً ومعرفة» (٣٨) :

ويحتمل أن أبا عبيد البكرى لازم ابن حيان خلال إقامته في قرطبة ، ويبدو أنه هو الذي وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافية الذي كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ (٣٩) ، وبالرغم من أن ابن حيان قد اختص أبو عبيد بأخبار قايمة لا تغني كثيراً في التعريف به ، فاننا لا نجد أى غرابة في ذلك إذ كان أبو عبيد ما يزال شاباً في بداية تكوينه العلمي مما لا يستحق معه أن يفرد له ابن حيان أكثر مما أفرد ، ولعل ثناء شيخه عليه وهو بعد في في سنى الشباب إنما يدل على بعد نظره وصواب حكمه على تلاميذه وتميزه

(٣٦) أنظر البحث الذي أعده الدكتور محمود على مكى في مقدمة المقتبس لابن حيان ، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط من ص ٧ إلى ص ١٢٧ ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م وأنظر أيضاً

Pons Boigues : O P. Cit, N. 114, Melchor . M Antuna : Abenhayandede Cordoba y su Obra historica Escorial, 1924.

(٣٧) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق

(٣٨) في ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ .

(٣٩) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ٥٢ .

للتابعين منهم ، وعلى أية حال فإن تلمذة أبي عبيد على شيخ مؤرخي الأندلس حقيقه يؤكدها - فضلاً عن رواية ابن بشكوال في ترجمته تلك الإشارة الواردة في فهرسة ابن خير الاشيلي عن سند روايته لكتاب «اصلاح المنطق ليعقوب ابن السكيت» إذا جاء فيها : « .. وقرأته أيضاً على الشيخ الوزير أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ، قال : حدثني به الشيخ أبو مروان ابن حيان ابن خلف بن حيان .. » (٤٠) .

وثاني شيوخ أبي عبيد البكري ، فهو الجغرافي أبو العباس أحمد بن عمر ابن أنس العذري (٣٩٣ - ٤٧٨ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٨٥ م) ، الذي ولد في المريه سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م ورحل إلى المشرق لطلب العلم ثم عاد إلى الأندلس (٤١) . وللعذري مصنفاً جغرافياً بعنوان كتاب «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» ، فقد معظمه ولم يتبق منه الا جزء مخطوط عنوانه «السفر السابع من ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» (٤٢) والكتاب يعتبر من أهم ما صنف في الجغرافيه الأندلسية حتى الآن ، سواء من حيث المادة التي ضمنها اياه مؤلفه ، هذا بجانب دقته في التحديد وضبطه

(٤٠) ابن خير (أبو بكر محمد) : فهرسته ، تحقيق فرنسيسكو كوديره وخليان ريبيرا ، مرقطة ١٨٩٣ ، ص ٣٣٠ - ٣٣٢ .

(٤١) رحل العذري مع أبويه إلى المشرق سنة ٤٠٧ هـ ، ووصلوا إلى مكة في سنة ٤٠٨ هـ ١٠١٧ م ، وجاوروا أعواماً بها ، وسمع الكثير من شيوخها ومنهم الشيخ أبي العباس الرازي ، والشيخ أبي ذر عبد بن أحمد الهرمري وعليه سمع صحيح البخاري ، كما سمع على الكثير من القادمين اليها من أهل الرواية والحفظ من أهل العراق وخراسان والشام (راجع ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٧ ، ترجمة ١٤١) ورحل عن مكة في سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) ، وما لاشك فيه أن نشأة العذري الدينية كان لها عظيم الأثر في اهتمامه العلمية ، فإن كنا نعرف العذري مؤلفاً جغرافياً ، فقد وجه جل اهتمامه إلى علم الحديث «بل أن عنايته بالحديث تنهض في المقام الأول على اقراء أمهات كتب الحديث وخاصة الصحيحين» (أنظر : العذري : المرجع السابق ، ص ٢ من مقدمة المحقق) .

(٤٢) بتحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .

في رسم الاعلام (٤٣) ، وتوفي العذري في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ودفن بمقبرة الخوض بالمريه (٤٤) . ويبدو أن دراسة أبو عبيد البكري على يد شيخه العذري في المريه هو الذي حبيب علم الجغرافية اليه ورغبه في التأليف فيها لا سيما أن ابن حيان قد اكتشف ببصيرته النافذة موهبته فوجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافيه الذي كان متين الصلة بعلم التاريخ كما سبق القول ، ويحتمل أن يكون هو الذي أشار عليه بالاتصال بالعذري في المريه والاستفادة من علمه في هذا المجال .

ويمكن أن نضيف اليهم الفقيه المحدث أبا عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ، الذي أجاز لأبي عبيد البكري ، ولد في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٦٨ هـ (نوفمبر ٩٧٨ م) ، وتفقه في قرطبة ، وصار كما يقول ابن بشكوال امام عصره ، وواحد دهره (٤٥) . وكان أول أمره ظاهرياً ، واعتنق بعد ذلك مذهب المالكية وان مال كثيراً إلى مذهب الشافعي ، وبعد أن جال في غرب الأندلس مدة سكن دانيه وبلنسية وشاطبه ، وتولى قضاء الاشبونة وشترين في عهد الملك المظفر بن الأفطس ، وتوفي بشاطبه في التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ (فبراير ١٠٧١ م) (٤٦) .

وإذا تأملنا معارف هؤلاء الشيوخ ، لاعطتنا فكرة عن ثقافة أبي عبيد البكري في دور تكوينه العلمي ، والتي ساعدت بلا شك على نفوج شخصيته

(٤٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٢٩٢ .

(٤٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ص ٦٧ ، الضبي بغية الملتمس ، ص ١٩٧ .

(٤٥) راجع في ترجمته : الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٨٩ ، ترجمة ١٤٤٣ ، ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ، ص ٦٧٧ ، ترجمة ١٥٠١ .

(٤٦) أنظر ، جونثالت بالنشيا : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ . دارن بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر دارلاً المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ٢٦٠ وما بعدها .

Pons Boigues : Op. Cit, PP. 147—150.

وتحديد معالمها ، فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة الانسانية العامة وان مالوا إلى علوم اللغة والأدب والأخبار والممالك ثم إلى علوم الحديث . وقد استفاد أبو عبيد لا شك من كل ذلك فوائد جمة ، وإذا أضفنا إلى ذلك نزعة البكرى الملموسة في الانكباب على قراءة المصنفات العلمية التي كانت تخر بها قرطبة في ذلك الوقت والتي تجلت في اهتمامه وحبه الشديد للكتب فأولاهها اهتماماً متزايداً ، وكان يلفها فوق الجلد بقطعة من النسيج « اكراماً لها » ، يقول ابن بشكوال مترجماً له مجبراً عن اهتمامه بالكتب أنه « كان يمسكها في سباني الشرب وغيرها اكراماً لها وصيانته » (٤٧) . وقد أفادته دراسة هذه العلوم في مجال التأليف الجغرافي ، ذلك أن احصاء المواضع الجغرافية وضبط اسمائها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتقيد ما فيها من الاعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف في كل أصل من هذه الأصول ، فضلاً عن ضرورة وجود منهج مقرر في القراءة والتقيد والمقارنة وهو ما تميز به البكرى .

أما تلاميذ البكرى فإننا نعرف منهم عدداً غير قليل ، وأهم ثبت بأسمائهم وتراجمهم تمكننا من استخراجهم من «صلة» ابن بشكوال ، وتكملة الصلة لابن الأبار وهم : أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي (٤٨) (ت ٥٣٦ هـ) ، اشبيلي المولد سكن قرطبة ، وفيه يقول ابن دحية «انه بلد أهل وقته في الكتابة والأدب واللغة وأنساب العرب ، وكان وزيراً جليلاً بوزارة السلاطين بقرطبة » (٤٩) . وأبو طالب عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد

(٤٧) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٧ ، وراجع أيضاً : ابن الأبار الصلة ، ج ٢ ، ص ١٨٥ وسباني جمع سبنيه وهي المتديل الكبير أو الملامة البيضاء ، راجع شرح هذه اللفظة في نفس المصدر والجزء والصفحة ٤٨ .

(٤٨) ابن بشكوال : الصلة : ج ٢ ، ص ٥٨٧ ، ترجمة رقم ١٢٨٩ .

(٤٩) المطرب في أشعار أهل المغرب ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠٨ .

ابن أصبغ القرشي من أهل قرطه (٥٠) . وأبو جعفر محمد بن حاكم
ابن باق من سرقسطة . وهو من بيت شرف إذ كان جده محمد بن أحمد
ذا الوزارتين حاكماً لمدينة سالم (٥١) . وسعد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر
المتوفى في حدود سنة ٥٢٠ هـ (٥٢) . وآخر من نذكره من هؤلاء حفيد
للبيكري له نفس كنيسته واسمه (٥٠٧ - ٥٨١ هـ) ، قال عنه ابن الأبار
انه كان من أهل المعرفة بالغريب واللغة والآداب حدث بمصنفات جده كلها
أخذها عن أبي بكر بن عبد العزيز عنه (٥٣) .

وكان الفضل في تنمية هواية أبي عبيد البيكري للقراءة والاطلاع .
للحركة الأدبية التي شلت الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر
الميلادي) ، فعلى الرغم من التفكير السياسي الذي طرأ على الأندلس في عصر
ملوك الطوائف ، وما ترتب على ذلك من فتن واضطرابات وحروب أهلية
ومنازعات بين مختلف دويلات الأندلس ، فقد نشطت الحركة الأدبية
وبلغ النشاط الأدبي مداه ، وتنافس ملوك الطوائف في تقريب فحول الشعراء
والكتاب والمبالغة في اجتذابهم إلى حواضرهم بالهبات القيمة (٥٤) ، فارتقي
الأدب في الأندلس وازدهر ازدهاراً لم تشهده من قبل وأصبحت قصور
قرطبة واشبيلية والمرية وبطليوس منتديات لأهل الشعر والأدب (٥٥) .

ونضيف إلى ذلك عاملاً هاماً ساعد على تفرغ أبي عبيد لتحقيق هوايته
ذلك أن أبا عبيد كان أسعد حظاً من الكثيرين من أمثاله في ذلك العصر ،

(٥٠) ابن الأبار : تكملة الصلة ، نشر عزت العطار ، ترجمة رقم ٨١١

(٥١) نفس المصدر ، ترجمة ١٢٦١ .

(٥٢) ابن عبد الملك الانصاري (أبو عبد الله محمد بن محمد) : بقية السفر الرابع من كتاب

الذيل والتكملة تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣ .

(٥٣) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٨٦٠ - ٨٦١

(٥٤) جونثال بالثيا . ولرجع السابق ، ص ١٣ .

(٥٥) السيد عبد العزيز سالم قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٠

فلا نعلم أنه تولى أى منصب من المناصب بل اعتمد على مال منهخر تركه له أبوه استعان به على معيشته ، وبذلك توفّر على تحقيق آماله الأدبية والعلمية ، فعاش عيشة كريمة ، وحظى بكل تقدير وترحيب ، واندمج في مجتمع الطبقة الخاصة ، ولم يكتف بما حصل عليه من معارف في قرطبة ، بل ارتحل إلى بلاط المريه وعاش حيناً في كنف المعتصم بن صمّاح ، وكان صديقه الأثير ، وأغدق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته (٥٦) ، وفيها اتصل بالجغرافي المشهور العذري الذي شجع فيه الاتجاه إلى دراسة علم الجغرافية . ثم ارتحل إلى بلاط المعتمد بن عباد ، فوصل إلى اشبيلية في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وكان ضمن الوفد الذي خرج في وداع المعتمد ابن عباد حين عبر إلى المغرب لاقناع يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين بضرورة العبور إلى الاندلس بجيوشه مرة ثانية أوائل ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أي قبل وفاة البكري بتسع سنوات (٥٧) .

ومن الغريب أن أبا عبيد البكري الذي كتب في علم الجغرافيا ، لم يغادر الاندلس أبداً حتى وفاته ، فلسنا نعلم له رحلة عن بلاده ولا مقاماً في أى قطر آخر من المغرب أو المشرق العربي ، وهذا شيء غريب حقاً ، فالتأليف الجغرافي يتطلب بجانب قراءة الأصول الجغرافية المشاهدة والتنقل في الأماكن المراد الكتابة عنها ، وزعم هذا جاءت مؤلفاته الجغرافية غاية في دقة الملاحظة والموضوعية ، ذلك أنه اعتمد في كتاباته في المقام الأول في القراءة والتصنيف والتصور وبذلك فاق فيما وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة ويطلق على هذا العمل — بلغة العصر — الجغرافية المكتبية

(٥٦) محمد عبد الله عتّان : دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، مكتبة الحانجي ، القاهرة

١٩٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٥٧) أنظر

Pons Boigues : op. Cit, P. 161.

(Arm Chair Geography) (٥٨) . وهذا يدل دلالة خاصة على أن أبا عبيد كان على سعة ثقافته، واستفادته الجمة من محصول قراءاته، عميق الإدراك لما هو مقدم عليه ، فرى له مصنفان جغرافيان ، حازا اعجاب معاصريه ، وتنعاً بشهرة عريضة وهما «معجم ما استعجم» ، «المسالك والممالك» .

وإلى جانب اهتمام البكرى بعلم الجغرافيا ، فلقد كان مهتماً أيضاً بالشعر والأدب اللذين أفرد لهما بعض المؤلفات اللغوية والأدبية التي تنعكس فيها فيها مجادلاته مع اللغوي الشهير أبي علي القمالي الذي نقل ثقافة بغداد الأدبية إلى الأندلس ، فن مصنفات البكرى كتاب «الاحصاء لطبقات الشعراء» (مفقود) (٥٩) ، وكتاب «اشتقاق الاسماء» (مفقود) ، (٦٠) ، وكتاب التنبيه على اغلاط أبي علي في أماليه « (مطبوع) (٦١) «شفاء عليل العربية» (مفقود) (٦٢) ، وكتاب «صاة المنصول في شرح أبيات الغريب المصنف» (مفقود) (٦٣) ، وكتاب «فصل المقال في شرح الامثال» (مطبوع) (٦٤) «وسمط اللالي» في شرح أمالي القمالي (مطبوع) (٦٥) و«اعلام نبوة نبينا محمد» (مفقود) (٦٦) ، «والتدريب والتهذيب في ضروب أحوال الحروب» (مفقود) (٦٧)

-
- (٥٨) أنظر : عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ١٥٠ .
- (٥٩) في البكرى : سمط اللالي ، بتحقيق عبد العزيز الميمى ، ج ١ القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٧٧ ، ٢٣١ .
- (٦٠) في ، السيوطي : بنية الوعاء ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .
- (٦١) طبع في القاهرة : ١٩٢٦ .
- (٦٢) في ، حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
- (٦٣) في ، ابن خير ، فهرسته ، ص ٢٤٣ .
- (٦٤) طبع هذا الكتاب في الخرطوم بتحقيق عبد المجيد عابدين واحسان عباس ، ١٩٥٨ .
- (٦٥) نشره عبد العزيز الميمى في مجلدين ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
- (٦٦) في ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ، ترجمة ٦٣٣ .
- (٦٧) البكرى : معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ج ٢ القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٣٩٨

«كتاب النبات» (مفقود (٦٨) .

ولا يبقى علينا بعد ذلك في معالجة اسهام البكرى في غير ميدان التأليف
الجغرافى الا ما نسب اليه من الضرب بسهم في قول الشعر ، وهناك اشارات
وردت في ذخيرة ابن بسام (٦٩) منها : قول أبى عبيد البكرى يخاطب أبا
الحسن ابراهيم بن محمد المعروف بابن السقاء وزير ابن جمهور ، وقد خرج
رسولا إلى باديس بن حبوس بغرناطة نورد أبيات منها :

كذا في بروج السعد ينتقل البدر ويحسن حيث احتل آثاره القطر
وتقتسم الأرض الخطوط فبقعة لها وافر منها وأخرى لها نزر
وله في المعتصم عندما أجاز البحر مستجيراً بأمير المسلمين وناصر
المسلمين يوسف بن تاشفين :

يهون علينا مركب الفلك أن يرى محيا العلاء لما بنا مركب الجرد
فجزنا أجاج البحر نبغى زلاله وذقنا جنى الشريان نبغى جنى الشهد
وله ، وكان مولعاً بالخمير :

خليلى انى قد طربت إلى الكاس وتقت إلى شم البنة فسيح والاس
فقوماً بنا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سرّاً من الناس
فليس علينا ، في التعلل ساعة وان وقعت في عقب شعبان من باس

وقد أثارت هذه الأبيات التى نظمها البكرى في الخمير ، البعض من
معاصريه الذين توهموا أن رأسه لم تسلم من أن يلعب بها الخمير ، يقول الفتح

(٦٨) فى ، ابن خير : فهرسته ، ص ٣٧٧ ، ذكره أيضاً ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء
فى طبقات الأطباء ج ٢ ، ص ٥٢ ساسم أعيان النباتات والشجريات الأندلسية .

(٦٩) فى ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨

ابن خاقان « .. فانه رحمه الله مباكر للراح ولا يصحو من خمارها ، ولا يحو
 رسم ادمانه من مضمارها ، ولا يريح لاعلى تعاطيها ولا يستريح الا إلى
 معاطيها (٧٠) ، مما جعل المشرق الهولندي دوزي يستبعدها ولا ينفها
 مدافعا عن أبي عبيد البكري من أجل أعماله المتعددة التي تركها والتي لا تحمل
 أى آثار تبين أنها كتبت وهو في حالة سكر ، ويبرر ذلك بأن البكري
 كمعاصريه ، كان صديق الولايم بما تحفل به من مآكل ومشرب (٧١) ،
 ويعزو مؤرخ محادث اقباله على الشراب إلى ما أصابه في الماضي من ضياع
 ملك أبيه والاضطرار إلى مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه
 وهو بعد في شبابه ، وما حاق بالاندلس من الفتن والاضطرابات والنكبات ،
 مما أثر في نفسية البكري وفي مزاجه ، لاسيما أنه كان بطبعه رجلا مرهف
 الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ،
 فمال إلى شيء من الخمر يتسلى به ، ويغرق فيه همومة إذا سئمت نفسه
 القراءة والكتابة (٧٢) ، وإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة حياة مجتمع الحاصه
 في ذلك العصر ، والتي كانت تفرض على اعضائها حضور الولايم والحفلات
 بما تحتويه من مآدب الطعام والشراب فلا نستغرب في البكري وهو من هذه
 الطبقة أن يسايرها ويجاريها في طبيعتها مع تناول القدر من الشراب الذي
 يحسن فيه بالانتشاء والسعادة .

أما مصنف أبي عبيد البكري في التأليف الجغرافي ونالا شهرة عريضة ،
 أحدهما بعنوان «معجم ما استعجم» وصفه البعض بأنه وسط بين اللغة والجغرافية

(٧٠) فلاند العقيان ، ص ٢١٨

(٧١) أنظر

Dozy : Op Cit, t. I, P 297

Pons Boigues : Op. Cit, PP. 161—167.

(٧٢) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ١٢٠ ، ص ١٢١ .

أو خطوة. انتقال بينهما (٧٣) فهو إذن كان أحياءاً للمنهج القديم في المعالم الجغرافية الذي يرتفع إلى القرن الثالث الهجري وهي المعاجم التي وضعها اللغويون ، والتي اضمحلت بعد ذلك خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين حتى ظهر معجم البكري الذي كان ايذاناً بفتحة عهد جديد لازدهار هذا النمط الأدبي (٧٤) ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الأدب الجغرافي .

وكان الغرض الذي دفع البكري إلى تأليف معجمة هو شيوع التصحيف في أسماء المواضع بين الناس ، فلما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس ، أراد أن يفصح عنه بأن يذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف (٧٥) .

مهّد البكري لمعجمه بدراسة وافية لجغرافية شبه الجزيرة تبحث في حدودها ومناطقها ونواحيها كالبحار والينابيع، اتسمت بالدقة والشمولية، ثم تكلم عن القبائل المستوطنة بها وعن هجراتها .

والبكري هو أول من استخدم الترتيب «الألف بائي» الحديث في معجمه فهو أول معجم غير لغوي يبنى على الترتيب المعجمي (٧٦) . رتب البكري معجمه على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الأندلسيين في عصره (وهو أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي) وجعل ترتيب الكلمات في كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثاني الأصليين من الكلمة دون نظر إلى ترتيب ما بعدها من الحروف ، وإذا كان الحرف الثاني ألفاً زائدة ، كألف صاحب وفاضل ، أهمله ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثاني ما بعد الألف وفي هذا ما فيه من العسر

(٧٣) نفس المرجع ، ص ١٢٣ .

(٧٤) كراتشوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٧٥) البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ ص ١ .

(٧٦) عبد الله يوسف الغنيم : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

والتكلف (٧٧) .

هذا وقد لاحظ فرد يناند فستيفاد هذه الصعوبة عندما شرع في نشر هذا المعجم لأول مرة فأورد في نهايته ثبناً أبجدياً للاعلام مع ذكر أرقام الصفحات تيسيراً على الباحث .

وعندما قام الأستاذ مصطفى السقا بنشرة مرة أخرى بالقاهرة أعاد ترتيب الاعلام الجغرافية خميغاً ترتيباً أبجدياً حديثاً .

أما عن منهج البكرى في تأليف معجمه ، الذى يتألف من سبعائة وأربعة وثمانين باباً ، فقد التزم بمصادر معينة في دراسته لبعض أقسام شبه الجزيرة العربية ، واعتمد على ما كتبه عرام ابن الأصبع السلمى في دراسة المواضع الواقعة في تهامة والحجاز ، وعلى ما كتبه السكونى في وصف الاخفاء في نجد ، كما اعتمد على مصنفات الهمداني في دراسة للمواضع الواقعة في اليمن وحضر موت .

وقد حرص البكرى على ذكر مصادره وأصوله بدقه ، فمن مصادره الفقهية والتاريخية كتب الحديث والسيرة النبوية والسير والانساب والتاريخ ، فنقل من كتب الحديث ما رواه محمد بن السائب الكلبي (ت : ١٤٦ هـ) وابنه هشام (ت : ٢٠٤ هـ) ، ونقل من كتاب السيرة «لابن اسحاق» وسمى كتابه «المغازى» في موضعين (٧٨) وسماه «السير» في موضع آخر (٧٩) مما يرجح أن البكرى كانت لديه أكثر من نسخة من هذا الكتاب ، فقد بين ذلك أكثر من مرة (٨٠) . كما اعتمد البكرى على عدد آخر من رواة الأخبار مثل الزبير بن بكار (ت : ٢٥٦ هـ) ، الذى ألف أكثر من ثلاثين

(٧٧) البكرى : معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٤ حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٢٥

(٧٨) معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ج ٢ ، ص ٦٦٦ .

(٧٩) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٤٦

(٨٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٢٣ ، ج ٢ ، ص ٦٩٨

كتاباً ووصفه الخطيب البغدادي بأنه «كان ثقة ثبتاً عالماً بالنسب عارفاً بأخبار المتقدمين وسائر الماضيين»، وإله الكتاب المصنف في نسب قریش وأخبارها» (٨١) كذلك اعتمد البكري على مصادر جغرافية نقل عنها وذكرها، فرجع مثلاً إلى أبي عبيد الله بن بشر السكوني ونقل عنه ما جاء في رسالة عرام ابن الأصبع السلمي ونقل عن إبراهيم بن اسحق بن إبراهيم بن بشير، أبو اسحق الحارثي (ت: ٢٨٥ هـ) ومن أهم مصنفاته كتابيه «غريب الحديث» والمناسك ونقل عن أبي علي هارون بن زكريا من كتابة «التعليقات والنوادر»، والذي تأتي أهميته من تحديده الدقيق الكثير من المواضع التي تعرض لها، فهو يصف مياهها وجبالها وقبائلها وما ينبت فيها من ضروب النبات والشجر يجرى كل ذلك ل تفسيره لغريب الشعر وما فيه من مفردات لغوية عربية (٨٢). ونتيجة لذلك خرج المعجم في صورة طيبة نال ثناء الباحثين، يقول دوزي: «اننا بينما نجد غيره من الجغرافيين يقعون في خطأ بعد خطأ ويتناقضون أنفسهم بين موضع وموضع، اذ بنا نجد معلومات البكري واضحة ناصعة، وكتابات توصف بعبارة واحدة أنها صادقة (٨٣). ولذلك فان دوزي اعتبره فريداً لا يمكن مقارنته بأحد آخر (٨٤). ولا شك اننا نوافقه فيما ذهب اليه في انه يعتبر مصدراً هاماً لا غنى عنه بالنسبة للباحثين، بالرغم من ظهور معجم ياقوت الذي يفوقه بشكل ملحوظ سواء في اهتمامه بجميع البلدان، وثرأ ملاحظاته، وضخامة مادته، ومن الطريف أن ياقوت كان على علم بهذا المعجم، ولكنه لم يستطع الاستفادة منه مباشرة فيقول: «ولم أره بعد البحث عنه والتطلب له» (٨٥).

(٨١) الخطيب البغدادي (أحمد بن علي): تاريخ بغداد، ج ٨، القاهرة، ١٣٤٩ هـ،

ص ٤٦٧ - ٤٧١

(٨٢) عبد الله يوسف النديم: المرجع السابق، ص ٨٤ - ٨٥.

(٨٣) أنظر

Dozy: Op. Cit, t. I, PP. 303—305

¶ bid, P. 305.

(٨٤)

(٨٥) ياقوت: المعجم، ج ١، ص ٧، ٨

على أية حال رأى دورى ومن تبعه من الباحثين يكفى لافساح مكان
ممتاز للبكرى بين الجغرافيين .

أما مصنف البكرى الثانى فى الجغرافيا فهو بعنوان : «الممالك والممالك»
الذى صنفه فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧-١٠٦٨م) ، فهو كتاب جغرافية العالم
المعروف يومها ، ويحتوى على كثير من المعلومات التاريخية (٨٦) .

الزم البكرى نفس المنهج الذى سار عليه فى تأليفه المعجم ، فعلى سبيل
المثال اعتمد على كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لعلى بن الحسين
المسعودى (ت: ٣٤٦هـ) فى دراسته للقسم الخاص بالبحار والأنهار وذكر
الممالك وعلى كتاب مسالك افريقية وممالكها للوراق القيروانى (٢٩١-٣٦٢هـ)
فى القسم الخاص ببلاد افريقية ، كما اعتمد على كتاب «الممالك والممالك»
للجيهانى فى دراسته لممالك الهند ومدن الصين ، وتأثر بالعذرى ونقل عنه
نقولا من مصنفه «ترصيع الأخبار» وتنويع الآثار والبلدان فى غرائب
البلدان والممالك إلى جميع الممالك ، كما استفاد البكرى استفادة كبيرة
من رحلة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عند كلامه عن الصقالبة ، وما
لا شك فيه أن البكرى له الفضل الأكبر فى وصول أجزاء كبيرة من رحلة
الطرطوشى إلينا ، فقد فقدت أصولها . ولم تبق الا بعض النقول التى تضمنتها
كتب البكرى والقزوينى وأبى الفدا ، غير أن أكبر قطعة من هذه الرحلة
وصلت إلينا عن طريق كتاب الممالك والممالك للبكرى .

إلى جانب مصادرة الجغرافية ، اعتمد البكرى على مصادر أخرى دينية
وهى الكتب السماوية كالتوراه والانجيل والقرآن ، ونقل عن كتب الحديث

(٨٦) أنظر :

Dubler (César) : Abu Hamid El Granadino, Madrid, 1953, P. 167.

ولما كانت كتابات البكرى جغرافية تاريخية ، فقد اعتمد على مصادر تاريخي
على قدر كبير من الأهمية وهو «تاريخ الرسل والملوك» لابن جرير الطبري .

وان كان يعيب منهج البكرى أنه رغم اعتماده على مصادر جغرافية
سابقة عليه أو معاصرة له على قدر من الأهمية ، ورغم اطلاعه على كتابي
الاصطخري وابن حوقل الا أنه لم يأخذ عنهم الخرائط ، فجاء كتابه خالياً
منها ، ذلك على الرغم مما وصلت اليه الخرائط والأشكال التوضيحية من
أهمية في هذا العصر باعتبارها أساساً من أسس الدراسة الجغرافية (٨٧) .

والاسف لم يصلنا كتاب المسالك والممالك كله ، فقد فقد معظمه
ولم يتبق منه الا قطاع متفرقة عن افريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان واحي
بحر قزوين وبعض أجزاء أسبانيا وأوربا .

ومن أكبر القطع تلك التي تصف افريقيا الشمالية والتي قام بنشرها
البارون دي سلان De Slane (٨٨) ، وقد اعتمد البكرى في كتابته
عنها اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد بن يوسف الوراق القروي الذي ياقب
بالتاريخي (٢٩١ هـ - ٣٦٢ هـ / ٩٠٤ - ٩٧٤ م) في مؤلفه بعنوان «مسالك
افريقية وممالكها» ، إذ يقرر البكرى ذلك في مواضع متعددة في كتابه
غير أننا نلمح في كل فقرة أثر البكرى ومنهجه ودقته (٨٩) ، والتي يتضح
منها معرفته العميقة بالطرق وبكل الساحل بمرافته وخليجانه العديدة (٩٠) .

(٨٧) عبد الله يوسف الغنيم : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٨)

Desri ption de l'Afrique Septentrional por Abu Obeid el Bakri,
Paris, 1873.

وأعيد طبعه في سنة ١٩١١ .

(٨٩) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٩٠) كراتشوفسكى : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

وذلك قطعة أخرى من كتاب ... التي نشرت في ... عبد الرحمن الحجي بعنوان جغرافية الأندلس وتوربا . تحتوي على بعض النصوص الجغرافية عن شبه الجزيرة الأيبيرية فضلاً عن المعلومات التاريخية المتناثرة فيها ، كما أنها تحتوي أيضاً على وصف لبعض الأقطار الأوربية وشعوبها تعتبر من أقدم وأدق المعلومات عن هذه الأقطار ، وقد اعتمد البكري على الجغرافيين الرحالة أمثال ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي ، وكان رحالة أندلسياً ينتسب إلى مدينة طرطوشة من رجال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وكان يهودياً أو مسيحياً من أصل يهودي ، وزار مناطق أوربية كثيرة ، ووصفها وصفاً قيباً (٩١) . ولا نستبعد أن يكون البكري قد استطاع الوصول إلى كتابات ووثائق جغرافية ربما لم تصل إليها يد الآخرين بل لعله استطاع الوصول إلى الوثائق الرسمية المحفوظة في قرطبة (٩٢) .

ظل البكري مقبلاً باشبيلية حتى سنة ٤٨٤ هـ ، عندما استولى عليها المرابطون واعتقلوا المعتمد بن عباد ، فلم يجد أبو عبيد البكري مخرجاً سوى العودة إلى قرطبة فارتحل إليها وأقام بها إلى أن وافته المنية في شوال سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ / ١٠٩٥) ودفن بمقبرة أم سلمة (٩٣) .

(٩١) عن رحلة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي هذه ، أنظر

EL-Hajjii : Andalusian Diplomatic relations with western Europe during the Umayyad period, Beirut, 1970

محمد محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٩٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ، وأنظر أيضاً ، مادة أبو عبيد البكري بقلم ليلى بروفنسال بدائرة المعارف الإسلامية .

(٩٣) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٨ ، وتقع مقبرة أم سلمة في ظاهر مدينة قرطبة من جهتها الشمالية خارج باب اليهود ، أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

Torres Balbas : Ciudades musulmanas Madrid, P. 239.

نستدل من هذا العرض السريع أن أبا عبيد البكرى كان احدى سليل
البيوتات الاندلسية العريقة التي تقلدت مناصب هامة في الاندلس في القرن
الخامس الهجرى ، فنشأ أبو عبيد في ظلها نشأة طيبة ، وتلقى معارفه الثقافية
العامّة بما وفرته له من الاسم والمجد والمال ، فلم يضطر إلى تقلد أى من الوظائف
العامّة بما وفرته له من الاسم والمجد والمال ، فلم يضطر إلى تقلد أى من
الوظائف ، بل توفر على البحث والدراسة ، فخلقت منه عالما جليلا بذ
أقرانه في مجال العلوم الأدبية بصفة عامة ، والتأليف الجغرافى بصفة خاصة
فجنت أسرته ثمرة كفاحه إذ عرفت به ، وانتسبت اليه .

مصادر ، مراجع بحث

(أولاً) مصادر عربية قديمة

ابن الأبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر) ت : ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م

— الحلة السراء ، الجزء الثاني . تحقيق الدكتور حسين مؤنس المطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٣)
— التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، نشر الأستاذ عزت العطار الحسيني (القاهرة ١٩٥٦) .

الأدرسي : (أبو عبد الله محمد الشريف السبتي) ت : حوالي ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م

— المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، ليدن ، ١٦٦٨ .
ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن علي) :

— الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول تحقيق الدكتور احسان عباس ، الدار العربية للكتاب (تونس ١٩٨١)
ابن يشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :
— كتاب الصلة ، جزءان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٦) .

البكري (أبو عبيد عبد الله عبد العزيز) ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م
— سمط اللالي ، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٦) .
— معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى الدقا ، أربع أجزاء (القاهرة ١٩٤٥) .

— المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر البارون دي سلان
(الجزائر ١٩١١)

— جغرافية الاندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق
الدكتور عبد الرحمن علي الحججي ، دار الارشاد (بيروت ١٩٦٨)
ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) :

— جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون
الطبعة الرابعة ، دار المعارف (القاهرة ١٩٧٧) .

الحميري (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله) ت : أواخر القرن التاسع الهجري
— كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، ١٩٣٧) :

ابن حيان (أبو مروان) ت : ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م

— المقتبس من أنباء أهل الاندلس ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي
لجنة احياء التراث الاسلامي (القاهرة ١٩٧١) .

— المقتبس في أخبار بلاد الاندلس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي
الحججي ، دار الثقافة بيروت (لبنان ١٩٦٥) :

ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي) ت : حوالي ٥٢٩ هـ

— قلائد العتيان في محاسن الاعيان ، قدم له الأستاذ محمد العناني ،
المكتبة العتيقة (تونس ، ١٩٦٦) .

الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) :

— تاريخ بغداد ، الجزء الثامن ، (القاهرة ١٣٤٩ هـ)

ابن خير (أبو بكر محمد) :

— فهرسته ، تحقيق فرانسيسكو كوديره وخوليان ريبيرا
سنة ١٨٩٣ .

ابن أبي حيه (أبو الخطاب السبتي) ت : ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ هـ

- المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري
وآخرون المطبعة الأميرية (القاهرة ١٩٥٤) .

الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت : ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م

- بغية الملتبس في تاريخ رجال الاندلس (القاهرة ١٩٦٧) .
ابن عبد الملك الانصاري المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت :
٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م

- بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة ، تحقيق الدكتور احسان
عباس (بيروت ١٩٦٤) .

ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد) ، كان حيا عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م
- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق
ليفى بروفنسال دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

العذري (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى) ت : ٤٧٨ هـ / ٩٨٨ م
- نصوص عن الاندلس من كتاب ترضيع الاخبار وتنويع الآثار
والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق الدكتور
عبد العزيز الاهواني ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية (مدريد ١٩٦٥) .
مؤلف مجهول :

- جغرافية الاندلس ، مخطوط مصور بالمعهد المصري للدراسات
الإسلامية ، مدريد ، تحت رقم م ٣٦ ، عن الأصل الموجود
بالخزانة العامة بالرباط .

ياقوت الحموي الرومي (شهاب الدين أبي عبد الله) ت : ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م
- معجم البلدان ، الطبعة الأولى ، المجلد الأول (القاهرة ١٩٠٦) .
(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية معربة :
أحمد (الأستاذ نفيس) :

— جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة الدكتور فتحى عثمان ، القاهرة
(ألف كتاب ٢٧٤) .

— الشيخ (دكتور محمد محمد مرسى) .

— دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين في الأندلس حتى أواخر القرن
العاشر الميلادى ، مؤسسة الثقافة الجامعية (الاسكندرية ١٩٨١)
الغنيم (الأستاذ عبد الله يوسف) :

— مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، مطبعة المائى (القاهرة ١٩٧٤)
بالشيا (جونثالث) :

— تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة
الأولى ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٥٥) .
بروكلمان (كارل)

— تاريخ الأدب العربى ، الجزء السادس ، نقله إلى العربية الأستاذ
السيد يعقوب بكر (دار المعارف ١٩٧٧)
سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :

— التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية
١٩٨١) .

عنان (الأستاذ محمد عبد الله)

— دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، مكتبة الحانجى (القاهرة ١٩٦٩)
كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليا نوفنش)

— تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله إلى العربية الأستاذ صلاح الدين
عثمان هاشم ، القسم الأول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
(القاهرة ١٩٦٣) .

مؤنس (دكتور حسين) :

— تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، مطبعة معهما الدراسات
الإسلامية (مدريد ١٩٦٧) .

Antuna (Melchor) :

- Abnhayan de cordoba Y Su obra historica & (Escorial 1924).

De Slane :

- Description de L'AF rique septentri onal por Abu obeid El Bakri, (Paris 1873).

Dozy (R

- Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le Mo yen Age, t. I, (leyde 1849).

Dubler (César) :

- Abu Hamid El Granadino, (Madrid 1953).

Encyclopaedia of Islam.

Hajji (A.A :

- Andalusian Diphomatic relations with westean Europe during the Umayed period, (Beirut 1970).

Levi'provencal :

- La description de L'Espagne D'Ahmad AL-Razi, AL-Andalus, Vol. XVII, (1953)

Pons Boigues :

- Ensayo Bio-bibliografico sobre los historiadores Y Geografos Arabigo Espanoles, (Madrid 1898).

Torres Balbas (L) :

- Ciudades musulmanas, T.I. Madrid.

البحث الرابع

أضواء على النشاط العلمى فى الأندلس

شهدت الفترة الأولى للوجود الاسلامي في الاندلس اضطرابا شديدا في الشؤون السياسية واندلاع الصراع بين العصبيتين القيسية واليمينية، وبطبيعة الحال لم تترك هذه المنازعات المحلية كثيرا من الوقت للعناية بتنمية الحياة العقلية.

غير أنه منذ اعتلاء عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م) كرسى الأمانة في الاندلس بدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذه البلاد فقد عمل هذا الامير أولا على توحيد أقاليمها واحلال الأمن والاستقرار بها، واستطاع أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من النواحي التي تطلعوها الى الاستقلال بها، فأخذهم عبد الرحمن الداخل بالشدة والحزم فدخلوا في طاعته. وعلى ذلك أعاد هذا الامير هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، ومن ثم أخذ يطابع الاستقلال السياسي عن المشرق يقوى فيها، وإن استمرت الامارة الاندلسية تتلقى التأثيرات الحاضرة من المشرق متمثلة في التيار الحجازي على عهد الامير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦ م) وسرعان ما حدث امتزاج حضاري بين الحضارتين اللاتينية والعربية أثمر المنابت الاولى للحضارة الاندلسية بما فيها العلم العربي.

ولقد أصبحت قرطبة على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط مركزا حضاريا عظيما ورغدت حضارة المسلمين في الاندلس مركزا للازدهار المادي والتقدم الاداري والنشاط الفكري، ثم لم تلبث منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) وبفضل تشجيعه ان تزايد نشاطها الادبي والفكري بتأثير مشرقى ايضا، فأصبح هذا الخليفة بحق حامى العلوم والآداب، ثم تزايدت هذه الحركة الادبية والعلمية في عهد خلفه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) الذي أبى إلا يكون هو نفسه من العلماء، فأرسل وكلاء عنه الى جميع انحاء العالم الاسلامي لابتياح الكتب أو استنسلخها، ووفق في جمع مكتبة غاية في الثراء تقدر محتوياتها بأربعمئة ألف كتاب، كما كانت تملأ أربع وأربعين جزءا، وكان من نتائج هذه النهضة العلمية ان دخل الاندلس الكثير من مؤلفات المشاركة فتنارسوها وأضافوا إليها

وقد استمر ازدهار الآداب والعلوم حتى بعد سقوط الخلافة الاموية في الاندلس عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م، بل يمكن القول أنها نشطت عن ذى قبل، فلقد استكثر ملوك الطوائف في مختلف دويلاتهم من مهاد الحضارة الخصبة،

وضربوا مثلاً جديداً لم يمكن أن يفعلها الذكاء الاجتماعي والتنافس بل التفاخر أحياناً.

وعلى الرغم من تبعية الأندلس منذ عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م لدولة المرابطين لم بالمغرب إلا أنها لم تقف عشرة دون تقدم العلوم والازدهار فاستمرت الحركة العلمية في تقدم وازدهار.

ولم آلت الأندلس إلى دولة الموحدين بالمغرب لم يتوقف النشاط العلمي في الأندلس، بل استمر حتى أيام مملكة بني نصر في غرناطة، وأن الدور الهام الذي اضطلع به الأندلس كان قد وصل إلى غايته. ويمكن القول إن سر النهضة العلمية لهذا القطر الإسلامي تمكن وراء تكريم الخلفاء، على النشاط العلمي في الأندلس وأن المجال لا يتسع للكتاب والأمراء والعلماء والاعلاء من شأنهم.

ولما كان موضوع البحث هو: إلقاء أضواء في كل فروع العلم، فأنا سوف نقصره على بعض فروع العلم، الطب والصيدلة والفلك، وذلك باستعراض تاريخ بعض العلماء الذين نبغوا منذ عصر الازدهار وحتى نهاية العصر الإسلامي في الأندلس، حتى يمكن الوقوف من خلال مصنفاتهم عن الحالة العلمية بوجه عام في الأندلس.

ففي مجال الطب، يمكن القول أن الذين نقلوا هذا العلم من المشرق إلى الأندلس هم الأطباء النصارى، يذكر ابن جليجل «أنه لم يكن في الأندلس لغاية أميرها عبد الرحمن بن الحكم إلا أطباء نصارى يعتمدون في علمهم ودراستهم على كتاب مترجم من كتب النصارى، يقال له الأبريشم ومعناه المجموع أو الجامع^(١)، ويرجع أنه كتاب الفصول لأبقراط Aphorismi^(٢)».

وهذا يؤكد على دخول الكتب الطبية من المشرق في هذا العصر، واستفادة العلماء منها، فابن جليجل نفسه ينقل في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» أقوالاً من كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما، وليس من المستبعد أنه ينقل عن الترجمات العربية التي وصلت إليه من المشرق^(٣) هذا وقد ورد في ترجمة إسحاق

(١) ابن جليجل (أبى داود حسان الأندلسي): طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٩٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٠ من مقدمة المحقق.

(٣) نفس المصدر، ص ١٢١ من مقدمة المحقق.

الطبيب أنه لما ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، فتتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الاطباء المشهورين^(٤).

وهناك من الدلائل التي تؤكد على دخول كتب إلى لاندلس في عصر متقدم ، فكتاب الحشائش لديسقوريدس (Dioscorides) بترجمة اصطفن بن باسيل واصلاح حنين بن اسحق (ت: ٢٦٠هـ / ٣٧٨م) ، كان معروفاً عند الاندلسيين الى عصر عبد الرحمن الناصر، يذكر ابن جليجل في مقدمة كتابة «تفسير أسماء الأدوية المفردة»، أن كتاب الحشائش في أصله اليوناني دخل في لاندلس وكان معروفاً^(٥)، ذلك أن الكتاب ترجم إلى العربية في بغداد في عهد الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ - ٧٤٢هـ / ٨٤٦ - ٨٦١م) غير أن المترجم له واسمه اصطفن بن باسيل لم يترجم إلى العربية سوى جزء من أسماء الأدوية لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها، ولهذا ظلت أسماء باقى النباتات على صورتها اليونانية بحروف عربية^(٦)، وعندما ورد هذا الكتاب الاصلى بلغته اليونانية هدية من امبراطور بيزنطة أرمانوس (Romanus) إلى الخليفة الناصر سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م هدية مع هدايا أخرى، أرسل له الامبراطور البيزنطى بعد ذلك راجها يدعى نيقولا (Nicola) الذى وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م وقام بترجمة الكتاب مرة أخرى بالاشتراك مع بعض أطباء بلاط الناصر منهم حسداى بن شبروط الاسرائيل ، وقد اعتنى بذلك الكتاب جميع من ألف في المفردات الطبية عانية ما بين شرح واستدراك وتصحيح من الاندلسيين منهم ابن جليجل فى كتاب «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس»، وابن وافد الاندلسى (ت : ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) فى كتابة « الادوية المفردة » الذى جمع فيه بين كتابى ديسقوريدس وجالينوس ، والشريف الادريسي (ت: ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) فى كتابه «الجامع لصفات أشتات النبات» واستدرك فيه على ما أغفله ديسقوريدس، وضياء الدين بن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) الذى استوعبه فى كتابه «الجامع فى الأدوية المفردة» جميع المقالات الخمس^(٧).

(٤) نفس المصدر، ترجمة (٤٠)، ص ٩٧ - ٩٨

(٥) نفس المصدر، ترجمة (٧)، ص ٢٢ .

(٦) أحمد مختار العبادى، وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، الطبعة الثانية، دار

السلاسل، الكويت، ١٩٨٦، ص ٣٨٨ .

(٧) ابن جليجل: المصدر السابق، ص ٢٢، وحاشية ٧١

بالإضافة إلى دخول كتب العلوم المشرقية إلى الأندلس، فقد كان لرحلة الأندلسيين لطلب العلم إلى مشرق العالم الإسلامي الأثر الكبير في نمو الحركة العلمية في الأندلس. ففي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر رحل إلى بغداد أخوة الحراني وهما أحمد بن يونس وأخوه عمر سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م، وتأدبا في بغداد بالطلب، ثم انصرف إلى الأندلس ودخلاها في خلافة الحكم المستنصر فألحقهما لخدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء، ومات عمر بعلّة المعدة، وبقي أحمد الذي كان بصيرا بالأدوية المفردة وصانعا للأشربة والمعجونات^(٨). فتولى إقامة خزانة بالقصر الخلافي للطب لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثني عشر صبيّا طبّخين للأشربة، صانعين للمعجونات، واستأذن أمير المؤمنين أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى فأباح له ذلك^(٩).

ومن رحل من الأندلسيين إلى المشرق لتلقى علم الطب محمد بن عبدون العددي، ففي سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م دخل البصرة، ثم أقام بمدينة القسطنطينية حيث خدم بالبيمارستان العتيق الذي كان أنشأه أحمد بن طولون فيما بين عامي ٢٥٩ - ٢٦١هـ ٨٧٢ - ٨٧٤م، ثم رجع الأندلس سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م، وخدم بالطب الخليفة المستنصر وهشام الويد^(١٠).

ولم تقتصر الرحلة في طلب العلم على المشرق الإسلامي فقط، فقد رحل أبو جعفر عمر بن جعفر بن برتق إلى إفريقية فدخل القيروان، ولزم عالمها أبي جعفر ابن الجزار^(١١)، وأدخل إلى الأندلس كتابه «زاد المسشافر وقت الحاضر»، وهو كتاب في الطب والعلاج والمفردات^(١٢).

ترتب على ذلك ازدهار علم الطب في الأندلس، فبرز أطباء عظام منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، منهم أبو القاسم خلف بن عباس الزهرواي نسبة إلى مدينة الزهراء الواقعة شمال غرب قرطبة، وكان جراحا بارعا، اشتغل بالطب خلال عهد لخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام الويد، ويعتبر كتابه «

(٨) نفس المصدر، ص ٤٨٧

(٩) نفس المصدر، والصفحة.

(١٠) ابن جليل: المصدر السابق، ترجمة (٥٧)، ص ١١٥.

(١١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، منشورات دار الحياة، بيروت، ص ٤٨١

(١٢) نفي المصدر، ص ص ٤٩٠ - ٤٩١

التصريف لمن عجز عن التأليف» أكبر مولفاته وأشهرها^(١٣)، فهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءاً، فيه قسم طبي، وقسم صيدلي، وقسم جراحى، ويشتمل على أكثر من مائتى شكل للأدوات والآلات الجراحية التى كان يستخدمها الزهرواى ومعظمها من ابتكاره^(١٤)، إلا أن ما رفع قدره وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابة « المقالة الثلاثون» التى أفردتها للجراحة، وهى تعتبر أول ما كتب فى علم الجراحة مقرونًا برسوم إيضاحية كثيرة لأدوات والآلات الجراحية لتستخدمها الزهرواى ومعظمه من ابتكاره، ولأهمية هذه المقالة الثلاثين فقد ترجمها جيرارد دى كريونا (Gerardo de Cremona) إلى اللاتينية فانتشرت وجذبت الاهتمام إليها فى الجراحة. ومن مآثر هذا العالم الطبيب الجراح أنه أول من ربط الشرايين، وأول منعمل عملية استئصال حصى المثانة فى النساء عن طريق المهبل، وأول من وصف النزيف، ونجح فى عملية شق القصبة الهوائية، واخترع آلة لتوسيع باب الرحم للعمليات الجراحية^(١٥)، وأشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء عند إجراء العمليات الجراحية للنساء^(١٦) وتوفى الزهرواى سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م

وفى القرن الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، برز فى الأندلس أسرة من كبار الأطباء الأندلسيين هى أسرة بنى زهر، التى انجبت سلسلة كاملة من مشاهير الطب. وأول شخصية مشهورة من هذه الأسرة، هو أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادى الأشبيلية، المولود فى مدينة اشبيلية سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، وكان قد رحل إلى المشرق، فدخل الفيروان ثم مصر وتطبيب هناك زمناً ثم رجع إلى الأندلس، والتحق بخدمة مجاهد العامرى صاحب دانية بالطب، وذاعت شهرته فى مدينة دانية بتقدمه فى صناعة الطب، ثم انتقل إلى مدينة اشبيلية زمن بنى عباد^(١٧).

وقد تطيب على يده عدد من المرضى لفطنته فى التشخيص وبصيرته النافذه،

(١٣) نفس المصدر، ص ٥٠١.

(١٤) ألدوميبيلى: العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العربى، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون،

القاهرة ص ٣٥٣.

(١٥) عمر رضا كحالة: العلوم البعثة فى العصور الإسلامية، دمشق ١٩٧٢، ص ٤٦ - ٤٧.

(١٦) سعيد عاشور وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ص ١٢٥.

(١٧) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥١٧.

فضلا عن خبرته الطويلة فى هذا المجال، ولاستخدامه على وجه الخصوص أدوية فعالة، وظل بمدينة اشبيلية إلى وفاته سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م^(١٨).

وثانى شخصية من لهذه الأسرة الطبيب أبى العلاء زهر بن أى مروان عبد الملك بن محمد بن مروان الذى حظى فى دولة المرابطين بمكانة كبيرة، ومنزلة رفيعة اشتغل بصناعة الطب وهو صغير منذ أيام المعتمد بالله أبى عمرو عباد بن عباد، ثم خدم بعد ذلك زمن المرابطين بعد تبعية الاندلس لها، وصنف العديد من كتب الطب منها: كتاب الخواص، وكتاب الادوية المفردة، وكتاب الايضاح بشواهد الافتضاح فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق فى كتاب المدخل إلى الطب، وكتاب حل شكوك الرازى على كتب جالينوس، ومجربات، ومقاله فى الرد على ابن على بن سينا فى مواضع من كتاب الادوية المفردة^(١٩).

وثالث شخصية من هذه الأسرة أبو مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر ابن مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، الذى تعلم على يد أبيه فى صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء فى الادوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة، وقد ذاع صيته فى الاندلس، ألف فى الطب، وأعانت مؤلفاته أطباء الاندلس فى تفهم هذه الصنعة، حتى أنه «لم يكن فى زمانه من يماثله فى مزاولة أعمال صناعة الطب»^(٢٠) خدم بن مروان دولة المرابطين بالطب، وحظى بمكانة مرموقة لديهم، كما خدم بعد ذلك دولة الموحدين على عهد عبد المؤمن بعلى، الذى قرب إليه أهل العلم وأكرمهم، وتمتع أبو مروان بمنزلة خاصة لديه فقد «كان مكينا عنده، عالى القدر، متميزا على كثير من أبناء زمانه»^(٢١).

كم أشار أبو مروان إلى قيمة التجربة مثل والده أبو العلاء، وقد تتلمذ عليه عدد من الدراسين فى صناعة الطب منهم أبو الحسن بن أسدون، وأبوبكر بن الفقيه القاضى أبو الحسن قاضى اشبيلية، وأبو محمد الشذونى، والفقيه الزاهد أبو عمران بن أبى عمران^(٢٢).

(١٨) نفس المصدر، ص ٥١٩ - ٥٢١.

(١٩) ابن أبى اصبيعة: المصدر السابق، ص ٥١٧ - ٥١٨.

(٢٠) نفس المصدر، ص ٥١٩.

(٢١) نفس المصدر، ص ٥٢٠.

(٢٢) نفس المصدر، ص ٥٢١.

ومن مصنفاته، كتاب المداوة والتدبير، أشار فيه الى قيمة التجربة، وكتاب الاغذية والأدوية الذي ألفه لابي محمد عبد المؤمن بن علي، الذي يعرض فيه للنظام الغذائي المتنوع مع ذكر مكونات الاطعمة والتوابل والاشربة وطريقة استخدام الادوية والغذاء المناسب، ورسالة كتب بها إلى بعض أطباء اشبيلية في عليّ البرص والبهامة، وكتاب لابن ابي بكر ذكر فيه أول مايتعلق بعلاج الامراض^(٢٣). وأخيرا كتاب الاقتصاد في اصلاح الأنفس والجسد، تضمن سلسلة من الارشادات العلاجية بجانب تعليمات وقائية^(٢٤).

أما الشخصية الرابعة والأخيرة من أسرة بنى زهر التي اشتهرت بصناعة الطب، هو أبو بكر محمد بن ابي مروان بن ابي العلاء بن زهر، ولد في اشبيلية سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م، ونشأ بها وتميز في العلوم، أخذ صناعة الطب عن أبيه، وياشر أعمالها، وكان صائب الرأي حسن المعالجة، جيد التدبير، وقد حظى بثقة الخلفاء الموحدين، يعقوب المنصور وأبا عبد الله محمد الناصر، ومن مصنفاته كتاب الترياق الخمسيني الذي ألفه للمنصور لموحدى، ورسالة في طب العيون، وتوفي عام ٥٩٦هـ / ١١٩٩م^(٢٥).

وفي نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، نشطت حركة الاسترداد في شرق الاندلس، فاضطر عدد من علماء الاندلس إلى الهجرة إلى المغرب ومن بين هؤلاء أبي اسحق بن طملوس المولود في جزيرة شقر، تعلم الطب على يد الطبيب أبي محمد عبد الله بن أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، رحل ابو اسحق إلى مراکش والتحق بخدمة الخليفة الموحدي الناصر بالطب، ثم عاد إلى الاندلس، وتوفي عام ٦٢٠ / ١٢٢٣م^(٢٦)، كتب تعليقا على

(٢٣) ابن ابي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٢١، وانظر ايضا:

Micelanea de Estudios Árabes Y Hebraicos, Universidad de Granada, X X V I, I, 1977, pp. 103 - 116 Rachel Arie: Espana Musulmana Siglos VIII - XV, T. III, Editorial - Labor S. A, 1924, P. 419.

(٢٤) وكتاب الاقتصاد في اصلاح الانفس والجسد، كان موضوع رسالة دكتوراه باسم روزا كوهيه

باربانث (Rosa Kuhne Barbant) اجيزت في جامعة مدريد المركزية عام ١٩٧١، انظر Rachel Arie: Op Cit, P. 419.

(٢٥) ابن ابي اصبيعة: المصدر السابق، ص ٥٢١ - ٥٢٢:

Rachel Arie: Op Cit, P. 419

(٢٦) ابن ابي اصبيعه المصدر السابق، ص ٥٢١ - ٥٢٢.

ارجوزة ابن سينا فى الطب^(٢٧).

وفى عصر بنى نصر فى مملكة غرناطة، برز بعض الاطباء مثل ابن السراج، وكان طبيباً للسلطان محمد الثانى الفقيه، نال شهرة فريدة لنزاهته، فنال ثناء كل من ترجم له ، اذا حرص على علاج الفقراء بالمجان، كما وهب لهم ثلث دخله^(٢٨). والطبيب محمد فرج الصفار الذى التحق بخدمة سلاطين بنى نصر بالطب، فاتخذوه طبيباً لهم فى بلاطهم بوادى آش فقد كان جراحاً ماهراً وعشاباً بارزاً^(٢٩).

ويلاحظ أيضاً فى هذا العصر الاهتمام بالمعارف الجديدة فى مجال الطب، تمثل فى مداومة الرحلة العلمية إلى مشرق العالم الاسلامى للاطلاع والاستزادة من تقدم الطب هناك ، فعلى سبيل المثال سافر ابوتميم غالب الشقورى إلى القاهرة للاستزادة من تقدم الطب هناك، فمارس الطب فى يمارساتها^(٣٠).

كما برز أيضاً فى غرناطة عدد من الاطباء الذين تمتعوا بشهرة منهم ابو زكريا يحيى بن هذيل، وكان من شيوخ لسان الدين بن الخطيب^(٣١). وصفه ابن الخطيب بأنه «درة بين الناس معطلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة»^(٣٢). والطبيب عبد الله محمد اللخمى الشقورى حفيد أبو تميم غالب الشقورى، ولد فى جزيرة شقر سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م، ومارس الطب فى البلاط الغرناطى على عهد كل من يوسف الاول ومحمد الخامس الفنى بالله، ثم اضطر إلى الهجرة إلى المغرب فأقام فى تلمسان عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م، كتب عدة فى الطب منها رسالة فى الطب الشعبى، ومجربات فى الطب^(٣٣).

(27) Rachel Arie: Ob. Cit, p. 419.

(٢٨) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنه فى اعيان المائة الثامنة، الجزء الاول، حيدر أباد، ١٩٢٩، ص ٣١٥.

(٢٩) ابن الخطيب: الاحاطة فى اخبار غرناطة، الجزء الثالث، بتحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣٠) نفس المصدر والصفحة.

(٣١) فى المقرئ: نفخ الطيب، ج-٣ ص ٢٥٨.

(٣٢) فى المقرئ: نفس المصدر، ج-٣، ص ٢٥٨. وانظر أيضاً، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٤٦٨.

(33) Rachel Arie: Ob. Cit, PP. 420 - 421.

ومن المؤلفات الطبية الاندلسية المشهورة، الكتاب الذى ألفه لسان الدين بن الخطيب، وعنوانه: «عمل من طب لمن حب»، وهو مؤلف طبي كبير، تناول فيها ابن الخطيب الأمراض المختلفة، مع ذكر أسباب كل مرض، وأعراضه وطرق علاجه، وتحوطاته، ونظام الغذاء الذى يناسبه، كما يحدث عن مختلف أعضاء لجسم، وطرق العناية؛ ذكر ابن الخطيب فى مقدمة الكتاب «أنه لم يجد السلطان أبى سالم المرينى أفضل من الطب، فألف له هذا الكتاب تعبيراً عن حبه لهذا السلطان»، وكان ذلك فى سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م^(٣٤).

إلى جانب ثلاث رسائل عن الوباء الكبير الذى عصف بالأندلس عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م الاولى بعنوان: مقنعة السائل فى المرض الهائل «لابن الخطيب، الذى يصف فيها أعراض المرض لكبير»^(٣٥). والرسالة الثانية من تأليف أبى جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الانصارى بعنوان: تحصيل غرض القاصد فيتفصيل المرض الوافد، يصف فيها عصف الوباء وسيره بمدينة المرية^(٣٦). أما الرسالة الثالثة والأخيرة كتبها الشقورى عن نفس المرض بعنوان: تحقيق النبأ عن أمر الوباء^(٣٧).

أما علم الصيدلة، فيمكن القول أنه كان تابعا بالضرورة لعلم الطب وأن جميع الاطباء الاندلسيين قد كتبوا فى الاعشاب بوصفها فنين لازمين للطب. وقد حظى هذا العلم بقدر من الاهتمام فى عصر الخلافة الأموية فى قرطبة^(٣٨)، على يد عدد من الاطباء منهم ابن جانة، وهو طبيب يهودى عاش فى قرطبة ثم انتقل إلى مدينة سرقسطة فى منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، مصنف رسالة فى الصيدلة^(٣٩).

=/=

وانظر ايضا: احمد مختار العبادى: لسان الدين بن الخطيب وكتابات التاريخة، عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثانى، ص ٢٥٤، هـ ١٩.

(٣٤) ابن الخطيب: الاحاطة فى أخبار غرناطة، جـ ١، دار المعارف بمصر، ص ٧٥ - ٧٦.

وقد نشر هذا الكتاب باسميكت دى بينتو Vazquez de Benito فى سلمنقة عام ١٩٧٢،

Rachel Arie: Op. Cit, p. 459, Nota 82

انظر:

(35) Rachel Arie: Op. Cit, p. 421.

(36) M. M. Antuna: Abenjatima de Almeria Y su Tratado de Peste, en Re - Ligion Y Cultuber de 1928, pp. 68 - 96.

(37) Rachel Arie: Op. Cit, p. 421.

(38) Encyclopedie de L Islam, 2 ed, T. III, p. 773.

(39) Rachel Arie: Op. Cit, p. 418.

والطبيب القرطبي ابن سمجون الذى ألف كتابا بعنوان « الجامع فى الأدوية المفردة » ، عدد فيه أعضاء الجسم ووصف النباتات وفوائدها الطبية وأشار فى مؤلفه إلى العشاب المشرقى ابى حنيفة الدينورى ومؤلفه النباتات^(٤٠) . كذلك الطبيب الزهراوى الذى لم يقتصر على الطب والجراحة كما يظن الكثيرون، بل كان أيضا عالما متمقا فى الصيدلة، يصفه ابن ابى اصبيعه بقوله « كان طبيا فاضلا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج »^(٤١) ، وكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » لا يحوى إلا مقالتين مخصصتين للجراحة، أما باقى المقالات فخاصة بالأدوية، بحيث يمكن اعتباره صيدليا أكثر منه جراحا، ولقد ألف فى الأدوية كتابا آخر خاصا بعنوان: « مقاله فى أعمار العقاقير المفردة والمركبة »^(٤٢) . ولعل عدم تقدير الزهراوى كعالم يرجع إلى أن المؤلفين العرب وغيرهم وإن ذكروا كتاب التصريف لم يعطوا معلومات وافيه عن جميع مقالاته، ولم يهتموا إلا بالجزء الخامس الخاص بالجراحة الخاص بالجراحة والطب، وقد اقتبس ابن البيطار كثيرا من الزهراوى ، وأبلغ هذه الاقتباسات كيفية صنع الخبز المركب من أجود انواع القمح والذى يخمر ويكون خفيفا خاليا من الشوائب^(٤٣) .

وفى عصر ملوك الطوائف، برز بعض علماء الصيدلة ممن ذاعت شهرتهم فى الغرب الأوروبى، نذكر منهم الطيب العشاب عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم المعروف بابن وافد الذى أقام فى طليطة منذ عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م، ودرس الأدوية المفردة وبرع فيها وألف كتابا بعنوان « الادوية المفردة » جمع فيه بين كتابى ديسقوريدس وجالينوس، وفى طليطة كلفه صاحبها المأمون بن ذى النون بالوزارة بجانب خدمته بالطب، وقبيل سقوط طليطة فى يد القشتاليين لجأ ابن وافد إلى اشبيلية وأقام بها^(٤٤) .

(40) Ibid.

(٤١) ابن ابى اصبيعه: المصدر السابق، ص ٥٠١ .

(٤٢) انظر: الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عن العرب، باشراف د. محمد كامل حسين، اصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٤٣) نفس المرجع .

(٤٤) ابن ابى اصبيعه: المصدر السابق، ص ٤٩٦ وانظر ايضا:

Veret Gines (J). Historia de La Eilecia Espanola Madrid, 1975, P. 64
Rachel Arie: Op. Cit. P. 418.

وفي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، برز العشاب ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الملقى النباتي المعروف بابن البيطار، ولد في مقاله وتوفي فجأة في دمشق سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م، ويعد ابن البيطار من أبرز علماء عصره وأكثرهم شهرة وتعمقا في علم النبات زار دول الاندلس والمغرب مصر والشام وآسيا الصغرى، وفي أثناء رحلاته التقى بمن يهتمون بعلم النبات وأخذ عنهم العديد من أنواع النبات عاينها في موضعها، كما درس كتاب الحشائش لديسقوريدس واثقنه اتقانا تاما حتى لا يكاد يوجد من يحاربه في التعمق فيه^(٤٥). امتاز ابن البيطار بعقلية علمية أصيلة، فكان يعتمد على التجربة، ويؤمن بالملاحظة والاستنباط، وكان أمينا ودقيقا في نقله عن الآخرين، وهو أكثر علماء النبات إنتاجا وأعمقهم دراسة، ومن مصنفاته كتاب الجامع لمفردات الاغذية والادوية^(٤٦)، الذي وصف أكثر من ألف وأربعمائة دواء من أصل نباتي وحيواني ومعدني، مرتبة على خروف المعجم، منها ثلاثمائة لا توجد في أى كتاب آخر وهي من صنعه، وقد استقصى في كتابه ذكر ماهية الأوية المفردة ومنافعها ومضارها والصحيح منها، وما وقع الاشتباه فيه معتمدا على دراساته الخاصة وتجاربه الى جانب ما نقله عن العلماء الذين سبقوه كديسقوريدس وجالينوس وابن سينا والادريسي وغيرهم، وكان وصفه للأدوية دقيقا جدا مع ذكر مترادفات وترجمتها بالاغريقية، كما ذكر الكثير من المترادفات بالفارسية والبريقية^(٤٧).

أما علم الفلك فقد جاء اهتمام المسلمين به مواكبا لم ورد في القرآن الكريم من آيات في مواضع عديدة: (فلا أقسم بمواقع النجوم، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم)^(٤٨). (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه

(٤٥) ابن البيطار: كتاب الجامع لمفردات الاغذية والأدوية، أربع اجزاء بولاق، ١٨٧٤، وانظر أيضا:

Leclerc (I): Traite des Simples d Ibn El - Beithar, Arie Op. Cit, P. 419

أحمد مختار العبادي: دراسات في الحضارة العربية الاسلامية، ص ٣٩١.

(٤٦) نفس المصدر.

(٤٧) العلى الدفاع: اسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، ص ٢٥٨ - ٢٦٠، عبد الحليم

منتصر: في العلوم الطبيعية وأثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧،

ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤٨) قرآن كريم: سورة الواقعة، الآية (٧٥، ٧٦).

منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر والليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون^(٤٩).

ولما ود من آيات تحث المسلمين على التفكير والتأمل في خلق الله (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)^(٥٠)، (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار)^(٥١).

فضلا عن ارتباط بعض أحكام الدين بالظواهر الفلكية فالتجاء القبلة وأوقات الصلاة واختلافها حسب المواقع والفصول، اقتضى معرفة المواقع والفصول، اقتضى معرفة المواقع الجغرافية للبلدان وحركة الشمس في البروج.

لذلك كان اهتمام المسلمين بهذا العلم، فنشطوا في دراسته واعتمدوا في بادى الأمر على مؤلفات الفلك الهندية واليونانية، فقرب الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور الفلكيين وأخذ يستشيرهم في أموره، وشجع حركة النقل والترجمة، فنقل أبويحيى البطريق كتاب «الاربع مقالات لبطليموس» في صناعة النجوم، كما ترجم ابراهيم الفزارى أول الفلكيين المسلمين كتاب «السند الهند» عن الهندية، وأخرج ابنه محمد كتابا على غراره «السند هند» الكبير واختصره الخوارزمى وعمل منه زيجا اشتهر في كافة البلاد الإسلامية ووصف بقوله «السند هند الصغير».

انتقل هذا العلم إلى الاندلس في عصر الخلافة الاموية في القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى، إذا قام مسلمة بن أحمد المجريطى (ت: ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) بإنشاء مدرسة علم الفلك والرياضة في قرطبة، ودرس على يديه فيها عدد من الاندلسيين من أشهرهم ابن الصفار وابن السمع والزهروى وابن

(٤٩) قرآن كريم، سورة ياسين، الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠)

(٥٠) قرآن كريم، سورة البقرة، الآية (١٦٤)

(٥١) قرآن كريم، سورة آل عمران، الآية (١٩٠، ١٩١)

(٥٢) ابن ابى اصبيحة: المصدر السابق، ص ٤٨٢، ٤٨٣.

فى زيج الخوارزمى الى الحساب العربى^(٥٣). كما كتب شرحا على كتاب المجسطى (Plaisphacrium) لبطليموس. ويبدو أيضا أنه قد شارك فى التعريف بكتاب رسائل اخوان الصفا فى بلاد الاندلس، ومن مصنفاته رسالة فى الاسطرلاب ترجمت إلى اللاتينية، كما شروحه على كتاب بطليموس^(٥٤) لذلك أصبح بحق أمام الرياضيين بالاندلس فى وقته وأعلم من كان قبله لعلم الافلاك وحركات النجوم^(٥٥).

وعندما مزقت الحرب الاهلية الاندلس فى بدايات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، لجأ تلاميذه إلى شرق الاندلس وإلى طليطلة وغرناطة، فأقام ابو القاسم احمد بن عبد الله بن عمر المعروف بابن الصفار فى دانية^(٥٦)، فألف زيجاً مختصراً على مذهب السند الهندى، وكتاباً فى العمل بالاسطرلاب ترجم الى اللاتينية، كما أقام ابو السمع أصبغ بن محمد بن السمع المهدى فى غرناطة حيث توفى بما سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م «وكان محققاً لعلم العدد والهندسة، متقدماً فى علم هيئة الافلاك وحركات النجوم، ألف كتابين فى الاسطرلاب، أحدهما فى التعريف بصورة صنعتهما، ويتكون من مقالتين، والثانى فى العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها»^(٥٧). وأبو الحسن على بن سليمان الزهرواى، وكان عالماً بالعدد والهندسة، معتنياً بعلم الطب، ومن مآثره كتاب فى المعاملات عن طريق البرهان وهو الكتاب المسمى بكتاب الاركان^(٥٨).

وأبو مسلم عمر بن أحمد بن خلدون الخضرى، نزيل اشبيلية، وكان متصرفاً فى علوم الفلسفة مشهوراً بعلم الهندسة والنجوم والطب^(٥٩).

كما برز أيضاً فى هذه الفترة العالم الرياضى الفلكى أبواسحاق ابراهيم بن يحيى النقاش المشهور بالزرقالى، الذى احتل مكانه رفيعه بين الرياضيين والفلكيين فى الاندلس، أقام فى مملكة طليطلة فى ظل بنى ذى النون، والزرقالى باحث مفكر،

(٥٣) نفس المصدر، ص ٤٨٣.

(54) Rachl Arie: Op. Cit. P. 417.

(٥٥) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٨٣.

(٥٦) نفس المصدر، ص ٤٨.

(٥٧) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٨٣.

(٥٨) نفس المصدر، ص ٤٨٠.

(٥٩) نفس المصدر، ص ٤٨٥.

ورياضى فلكى، اختراع آلات فلكية جديدة، مثل نوع الاسطرلاب المعروف باسم الصفيحة، وأخرج الازياج الطليطلية، وجمع فيها نتائج الملاحظات الفلكية التى أجراها بمشاركة فلكيين آخرين عاشو فى طليطلة^(٦٠). وقد وصفه خوان برنيت(Juan Vernet) بقوله: الزرقالى علم نفسه، صانع متخصص فى تصنيع الآلات الفلكية التى كلفه به المأمون بن ذى النون فى طليطلة، كما قام بعمل جداول فلكية تتنافس مع الجداول الفلكية المشرقية^(٦١). ولقيمة اعماله العلمية ترجمت الى اللاتينية. ولأهلية هذا العالم فى علم الفلك فقد خصه ميلا بياكورسا (Millas Vallicrosa) بدراسات عديدة ووصفه، بأنه أول فلكى أوربى سابق لكبلر KAPLER^(٦٢). وتوفى الزرقالى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .

وفى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، تراجعت دراسات علم الفلك وإن ظهر فى قرطبة الفلكى ابو محمود جابر بن الافلح حيث ألف كتابا فى الفلك بعنوان: كتاب فى اصلاح المجسطى أى فى نظريات بطليموس التى تتعلق بالكواكب، وينسب اليه اختراع بعض الآلات الفلكية^(٦٣).

وفى عصر بنى نصر فى مملكة غرناطة برزت بعض اسماء علماء اندلسين فى الفلك منهم الفلكى محمد بن رقام، المولود فى مرسية، رياضى وفلكى، كتب مصفات فى الرياضيات، وتوفى بغرناطة سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥^(٦٤). كما نبغ العالم الاديب منصور الزواوى عالم الرياضيات فى غرناطة خلال النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى، وقد عاصره ابن رضوان الوداى آشى، الذى اهتم بدراسات الرياضيات والفلك، ألف أجوزة عن الفلك، وصنف رسالة عن الاسطرلاب، وتوفى ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦^(٦٥).

وهكذا إذا أردنا الخلاصة فيما يختص بالنشاط العلمى فى الاندلس فى العصر الاسلامى بجانبها حقائق لامراء فيها، أولاها أن الأثير المشرقى على الاندلس فى مجال الطب والصيدلة وبعض العلوم لا ينكره أحد حتى أن ازدهار علم الطب

(60) Rachl Arie: Op. Cit. P. 417.

(61) Rachl Arie: Op. Cit. P. 417.

(62) Millas Vallicrosa: Estudios Sober Azarquiel, Madrid, 1945 - 1950. Y Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, V., 1 - 2, 1957, Pp. 49 - 61, Rachl Arie: Ibid, PP. 417 - 418.

(63) Ibid, PP. 418.

(64) Ibid, PP. 419 - 420.

(65) Ibid, P. 420.

عند الاندلسيين انما يرجع الى مانقله الاطباء النصارى الى الاندلس من المشرق من كتب سواء بلغتها الأصلية أو ترجمات هذه الكتب أو ما ترجم منها إلى العربية، أو رحلات الاندلسيين إلى المشرق في طلب العلم، وكانت محصلة ذلك كله بروز علماء أجلاء في الاندلس منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ذاع صيتهم في الآفاق وقدموا للحضارة هناك عناصر هامة أسهمت في احتلال ذلك القطر مكانه العظيم كمركز من مراكز الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى.

وثانى هذه الحقائق التى يمكن أن نخرج بها ومن دراسة هذا الموضوع ان جميع الاطباء الذين برعوا في الاندلس كانوا أيضا صيادلة كتبوا في الاعشاب والأدوية، أى أنهم شخضوا الداء ووصفوا الدواء بل وصنعوه بأيديهم من واقع معرفتهم بالاعشاب ودراستهم لها، ولهذا تلازم الطب والصيدلة وتواكبا في تلك الحضارة وقدا مظهرها من أعظم مظاهر الازدهار العلمى فى تلك البلاد، وكتب معظم الاطباء كتباً فى الادوية ووصفوا النباتات وفوائدها الطبية وذاعت شهرة بعضهم فى اتحاد اوربا والغرب، واطبقت شهرتهم الآفاق.

وثالث هذه الحقائق أن علم الفلك انتقل الى الاندلس أيضا فى عصر الخلافة أى منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فأنشئت مدارس الفلك والرياضة وكتبت الشروح على كتب الفلك، ولما تكالبت الحن انتقل بعض علماء هذا العلم إلى شرق الأندلس وطليطه وغرناطه، فازدهر العلم ليسواكب مظاهر الحضارة الاندلسية فى ذلك الوقت وذاعت شهرت علماء الفلك هناك فى كافة الانحاء.

البحث الخامس

ملاحظات حول ألبسة المدجنين في اسبانيا

المدجنون هم جماعات المسلمين الذين عاشوا في حماية الممالك المسيحية في أسبانيا بعد أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الايبيرية في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وما يليه إلى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م . وكان يطلق أيضا عليهم " المعاهدون " أو " المعاقدون " ، إلا أن اللفظ الذي شاع واستخدم للدلالة عليهم هو لفظ الدجن (١) .

والمعروف أن هذه الجماعات الاسلامية قامت بدور فعال مؤثر في البيئة المسيحية الاسبانية ، ومثلت صورة حية للإسلام والمجتمع الاسلامي بنظمه وتقاليده وعاداته بعد زوال الهيمنة السياسية والعسكرية للمسلمين في أسبانيا وإن بقيت آثارها الروحية والمادية .

والدراس لموضوع المدجنين بصفة عامة يلاحظ تأثيرهم في مختلف نواحي الحياة الاسبانية فقد أبقى عليهم ملوك اسبانيا المسيحية واستخدموهم في ممالكهم إدراكا منهم بأهمية هذه الجماعات وبراعتهم في الفنون والصناعات في الوقت الذي حافظت فيه هذه الجماعات على عروبتها وتقاليدها فبقيت آثارها ماثلة للعيان لاسيما في مجال العمران .

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على ألبسة المدجنين في اسبانيا من خلال الاجابة على بعض التساؤلات ، فهل احتفظ المدجنون باللبستهم الاسلامية أم تأثروا باللبسة المسيحية ، وما مدى تأثير الالبسة الاسلامية في الزي الاسباني المسيحي .

(١) ورد لفظ الدجن في لسان العرب (مادة دجن) ، دجن بالمكان يدجن دجونا : أقام به وألفه فهو داجن ، ورد هذا اللفظ في نص لابن الخطيب حيث يقول عند حديثه عن الوزير المغربي عمر ابن عبد الله : " وهو على القلم بهوى الناس إليه على فرضه رجلا من مدجنة الأشبونة " . انظر : نفاضة الجراب في علالة الأغتراب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضا لطفى عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٦٩ ، ص ١٦٥ .

وقبل البدء في هذه الدراسة ينبغي أن ننوه بالدراسات العديدة عن تاريخ الزي الاسلامي في اسبانيا ، فقد وضع العلامة رينهارت دوزي منذ ما يقرب من قرن ونصف قاموسه المفصل عن الزي عند العرب متضمنا الزي الاندلسي ^(٢) ، كما قدم كل من أجواو بلاي ^(٣) وليفي بروفنسال ^(٤) وصفا للزي الاندلسي في عصر الخلافة الأموية بقرطبة . وخصص مارسيه ^(٥) بعض صفحات عن الزي الاندلسي في بحث عن الزي الاسلامي في الجزائر ، وما كتبه ريكارد ^(٦) عن مصطلحات الزي الاسباني الموريسكي ، وخوان مارتينث ^(٧) عن زي الموريسكيين ، وجوين ^(٨) في بحثها بعنوان وثائق عن زي المسلمين في اسبانيا . والدراسة التي أعدتها راشيل أريا ^(٩) عن زي مسلمي قشتالة في القرن الثالث عشر، وكذا بحثها عن زي مسلمي اسبانيا في عهد دولة بني نصر ^(١٠) . فضلا عما ورد عن الزي في

Dozy (R.) : Dictionnaire détaillé des noms de vêtement chez les Arabes , (٢)
Amsterdam , 1845 .

Aguado Bloye (P.): Manuel de Historia de España , Tomo I , Espasa - Calpe (٣)
S.A. 1947, P. 471 .

lévi-provençal (E.): Histoire de l'Espagne musulmane, T.III , Paris, 1953. p. 442 (٤)

Harçais (G.) : le costume musulman d'Alger Paris , 1930 (٥)

Ricard (R.) : Recherches sur le vocabulaire de vêtement hispano- (٦)
mauresque, Bulletin hispanique, t.L III , 1951 pp . 131 - 156 .

juan Martinez Ruiz: la indumentaria de las morisios segun perez de Hita y los de (٧)
la Alhambra cuaserns de la Alhamnra , 3, Granada MCMLXVII .

Jauin (J.) : Documentos sur le costume des musulmans d'Espagne , Revue (٨)
Africane , 1934 .

(٩) يرجع الفضل إلى راشيل أريا في التعريف بمخطوط ألعاب الشطرنج حيث كتبت مقالا في

عدد ثمان صفحات ، والمخطوط محفوظ بمكتبة " دير الاسكوريال باسبانيا ، ويتكون من ٩٧

لوحة مكتوبة بخط كوفي وتحمل رقم T-I-6 : انظر: Arié (R.) : le costume de Musalmans

de castille au XIII siècle d'apres les miniatures du libro del Ajedrez , Melanges de la

casa de velazques , Tomo II , 1966 , Paris , pp. 59-66.

Arié (R.) : Quelques remarque sur le costume des musulmans d'Espagne au (١٠)

temps des Nasrides , Arabica , T. XII , 1965, fasc. 3, pp. 244 - 261

الشعر العربي في بحث هنري بيرس^(١١) عن الشعر الاندلسي والبحث الذي أعدته
رويث عن زى وزينة المرأة المسلمة في جبالا^(١٢) ، وعن الأحذية كتب أوليفر أسين
عن القرق^(١٣) ، وباجلى عن الأحذية التقليدية الجزائرية^(١٤) .

ولدراسة الألبسة أهمية كبيرة في تاريخ الحضارة عموما فهي من الأدلة على
المستوى الذي وصلت إليه الحضارة المادية ، وعلى الطبقات الاجتماعية ، وتمايزها ،
والثروة وقدرها ، كما تدل على رقى الصناعات المحلية وازدهار التجارة ، وكذلك على
مستوى الاسعار ومستوى المعيشة ، وهي تدل أيضا على الأنواق
وتطورها^(١٥) .

ارتبطت الألبسة في الاندلس بالانسان ولازمته في كل أدوار حياته ،
وكانت تختلف من صقع إلى آخر باختلاف ظروف البيئة والمناخ ، كذلك
تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية في المجتمع الاندلسي ، فاقسمت ألبسة
الطبقة الراقية بالآبهة والفخامة من حيث الجودة و الزخرفة في حين غلب مظهر
البساطة على ثياب العامة

Pérès (H.) : la poésie Andalouse en arabe classique au xi siècle , Paris , (١١)
1953, PP.316-321 .

Albarracin de Martinez Ruiz : Vestido y adorno de la mujer musulmana de (١٢)
Yebala (Marruecos), Madrid , 1964 , pp. 22-29 .

Oliver Asin (J.) Quercus en la Espana musulmana , Al-Andalus , vol , xxlv , (١٣)
fasc, 1 , 1959 . pp. 125-181 .

Quahiba Ba Ghli : chaussures traditionnelles Algeriennes , Alger , 1977 . (١٤)

(١٥) صالح أحمد العلي : الألبسة العربية في القرن الأول الهجري دراسة أولية ، مسئل من
المجلد الثالث عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٦٦ ، ص ٢

وابتداء من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى أخذت التقاليد البغدادية تترك بصماتها على ألبسة الطبقة الراقية فى الأندلس إذ تدفقت مستلزمات انشاء دور الطراز البغدادية على حواضر الأندلس مع التجار المشاركة الوافدين إلى الأندلس ، فضلا عما أدخله المغنى زرياب من نظم مستحدثة فى الآزياء فقد أشار عليهم بلبس الملابس فى أوقاتها المناسبة من حيث اللون أو الخفة والثقيل ، فالشتاء يحتاج إلى المعاطف الصوفية أو الجلدية والملابس الفاتحة اللون ، بينما تستعمل الملابس الخفيفة الزاهية الألوان فى الصيف والربيع (١٦) .

كان هذا التوجيه الإيجابى نحو القائق فى الأردية باعثا على إقبال الأندلسيين على تطوير ألبستهم ، وقد ساعد على ذلك توفر الحرير الطبيعى والديباج والحل الموشية فى قرطبة وبيجانة والمرية ، واشتغال هذه المدن بصناعته (١٧) ، ومن الواضح أن صناعة الحرير تطورت فى عصر دولة المرابطين تطورا تشهد به

(١٦) أنظر : المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد) : نفخ الطيب من غصن أندلس الرطيب ، الجزء الرابع ، تحقيق الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ١٢٤ ؛ أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٢-٢٤٣ (١٧) الحميرى (أبى عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، تحقيق الأستاذ ليثى بروقنسال ، القاهرة . ١٩٣٧ ، ص ٣٨ ؛ ياقوت الحموى (شهاب الدين ابن عبد الملك) : معجم البلدان ، الطبعة الاولى ، المجلد الخامس ، القاهرة ١٣٢٣ هـ / ٩٠٦ م ص ١١٩ ، وانظر أيضا :

El sayed Abdel Aziz Salem : Algunos aspectos del florecimiento económico de Almeria Aslamica , durante el periodo de los Taifas y de Almoravides , Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid , Vol.xx , Madrid , 1979 - 1980 ; P.21

النصوص التاريخية (١٨) ، وتسجل القطع التي وصلت إلينا من عصر الموحدين بتقديم صناعة النسيج وغلبة التأثيرات المشرقية مصرية وإيرانية فارسية ، وقد ترتب على ذلك أن اتخذت النساء الحلل الموشية ملاحف وأردية مرصعة بصفوف الجواهر وتفننت النساء في صباغتها بالألوان الزاهية ومختلف أنواع الزخارف (١٩) ، ونستدل من النقوش الأدمية المحفورة على علب العاج الأندلسية في عصر الطوائف على أن أفراد الطبقة الراقية كانوا يرتدون جبابا فضفاضة تدور بأكمائها أشرطة مزخرفة ، أما الرؤوس فحاسرة ، ولكن شعورهم كانت تنسدل على أصداعهم وجباهم لافرق في ذلك بين الرجال والنساء ، وللنساء ثياب فضفاضة أشبه بالملاحف مشقوقة من الامام يحزمونها بزنانير (٢٠) .

وهكذا كانت صناعة الوشي أو الحلل الموشية تتمتع بمكانة هامة في الأندلس وفي إسبانيا المسيحية بالذات ، يدل على ذلك بقايا المنسوجات الإسلامية المصنوعة في قرطبة ومريسية والمرية في عصر الموحدين والتي عثر عليها في مقابر المسيحيين في إسبانيا مثل أكفان دون رودريجو خيمينيث دي رادا ، والامير دون فيليب وزوجته ، ومثل أنسجة كاتدرائية لارده ، وكان أعيان قشتالة وأراغون يجلبون من الأندلس

(١٨) الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، تحقيق دي غويه وبوزي ، ليدن ، ١٨٦٤ ، ص ١٩٧ ، يشير الإدريسي إلى أن طرز الحرير وأنواع المنسوجات الحريرية بلغت في المرية خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ثمانمائة نول ، وشملت أنواع المنسوجات الحريرية : الحلل الموشية والديباج والسقلاطون والاصبهاشي والجرجاني والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر .
(١٩) Lévi-Provençal : España musulmana , en Historia de España , dirigida por Ramon Menéndez Pidal , Tercera edición , Espasa Calpe , 1973 , P. 278 .

(٢٠) السيد عبد العزيز سالم : صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة على علب العاج ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد التاسع عشر ، مايو ١٩٧٦-١٩٧٨ ، ص ٨٠-٨١ .

أقمشة لثيابهم (٢١) ، وفي عصر بنى نصر تقدمت صناعة المنسوجات الحريرية في
الاندلس وتعددت مراكز صنعها ، فاشتهرت مالقة والمرية وأندرش وفنيانه ودلاية
وغرناطة بهذه الصناعة ، وعن تقدم صناعة الحرير في غرناطة يقول ابن الخطيب :
" وكفى بالحرير الذى فضلت به فخرا وقية ، وغلة شريفة " ، وفائدة عظيمة ، تمثاره
منها البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية " (٢٢)
، وكانت هذه المنسوجات الاندلسية مما يهادى به سلاطين غرناطة ملوك
المسيحية (٢٣) ، ففي رسالة بعث بها السلطان محمد الخامس فى ٢٠ مايو
١٤١٨ م إلى الملك الارغونى ألفونسو الخامس ، يعدد من الهدايا القيمة التى بعث
بها إليه : جبة موشاه ، جلبابا من الحرير ، دراعة ، برنس ، قلانس موشاة بالحرير
وملوطة موشاه بالذهب (٢٤) . وكثير ما كان الامراء الأسباب يتشبهون فى أزيائهم
بالمسلمين مثل روى ديات دى روخاس قائد انتقيره الذى كان يؤثر ارتداء الثياب
الاسلامية (٢٥) .

والواقع أن البسة المدجنين لم يطرأ عليها تغير كبير فى القرن السابع الهجرى/
الثالث عشر الميلادى وما يليه ، فمن خلال بعض المنمنمات التى وردت فى

(٢١) Gomez Moreno : El pantéon Real de la Huelgas de Burgos , Madrid , 1946 , P. 81. Marques de Lozoya : Historia del arte hispanico , T . I, P. 269.

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الاندلس ، مؤسسة
شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٠ .

(٢٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، تحقيق الاستاذ
محمد عبد الله غنان ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٥ .

(٢٣) Torres balbas : Ars Hispanaie , T . Iv . Madrid 1949 . P . 198 ؛

وانظر أيضا : السيد عبد العزيز : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٢٤) Jimenz soler : la carona de Aragan y Granada, en el Boletin de la Real
Academia de Buenas letras de Barcelona , III - Iv , 1905 - 1908 , PP . 340-341 .

(٢٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٢ .

مخطوطة ألعاب الشطرنج^(٢٦) ، يمكننا التعرف على ألبسة المدجنين ، ففي اللوحة رقم ١ يظهر جماعة من المدجنين ، وعلى يمين اللوحة حول رفعة الشطرنج أحد المدجنين يرتدى جبة ذات لون أبيض وعباءة خضراء ، أما منافسه الجالس على يسار اللوحة والذي يبدو أنه يستشير شخصا آخر في قوانين لعبة الشطرنج فإنه يرتدى جبة ذات ألوان برتقالية ووردية .

كما يظهر في اللوحة رقم ٢ إثنان من المدجنين يمارسون لعبة الشطرنج وهم يرتدون الجبة ويضعون طيلسانا^(٢٧) رقيقا ذا لون أبيض .

والمعروف أن الطبقة الراقية من المدجنين كانوا يرتدون الجبة وعباءة فضفاضة بإكمام طويلة ، والتي كانت مستخدمة منذ عصر الإمارة الأموية بالاندلس وتوضح لنا المصادر العربية أن هذه الألبسة قد صنعت في الاندلس من أقمشة فاخرة ذات ألوان زاهية^(٢٨) .

أما طبقة العامة من المدجنين فكانوا يرتدون زيا أكثر تواضعا كان يتمثل في جبة من الصوف أو القطن في الحواضر ، أما في الأرياف فقد كانوا يرتدون معطفا قصيرا من الصوف وفقا للآراء القشتالية السائدة آنذاك ، كما يلبسون

Arié (R) : Le costume des musulmans de Castilla , P . 60 .

(٢٦)

(٢٧) عن الجبة ، انظر :

Dozy : Vérement , pp. 107-117 ;

lévi- provençal : Esp . Mus .t. III , p.425

وعن الطيلسان ، انظر :

Dozy : op . Cit , pp . 278-280 ' .

Léve - provençal : op . cit , p . 429 .

(٢٨) انظر : المقرئ : نفخ الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، ص ٢٢٤ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ :

Léve - provençal : la description del Al- Andalus - Andalus , Vol , xvIII , 1953.

p.65' Salem : Algunos aspectos del Florecimiento económico de Almeria , pp

20 - 21 .

البرنس (٢٩) في رحلاتهم ، وهو كما يقول ابن منظور " كل ثوب رأسه منه ملتزقه
، دراعة أوجبة " (٣٠) .

ويظهر في اللوحة رقم ٣ أحد شيوخ المدجنين يجلس على يمين اللوحة يرتدى
طبليانا أمام رقعة الشطرنج يتبارى مع شخص مسيحي ، ويبدو أن المدجنين زمن
ألفونسو العاشر قد فضلوا ارتداء الطيلسان إقتداء بإخوانهم المسلمين في مملكة
بنى نصر (٣١) .

وكانت العباة السائدة في اسبانيا المسيحية هي الملوطة Marlota ، وهي عبارة
عن رداء " فوقاني " صدار يشبه الجلباب بغير أكمام ، وكانت مزودة أحيانا بغطاء
للرأس ، فتذكر الوثائق أن ملوطة من الديباج صنعت في قشتاله عام ١٤٨٥ م لابي
عبد الله بن الأحمر آخر ملوك بنى نصر (٣٢) . كما جاء في وثيقة قسمة تركه رقم
٩٢ مؤرخه في ١ جمادى الثانيه عام ٩٠٠ هـ / ٧ فبراير ١٤٩٥ م لفظ ملوطة
ملف Marlota de pano (٣٣) ، وقد شاع ارتداء الملوطة في اسبانيا بين جماعات
المدجنين والمستعربين (٣٤) .

أما فيما يتعلق بكسوة الاقدام والسيقان ، فكانت جوارب ذات ألوان زاهية (٣٥)

(٢٩) عن البرنس ، انظر :

Dozy : Vêtement , pp. 73-80 ;

Lévi- provençal : Esp . Mus . T. II , p.428 ' .

Marçais : le costume musulmans d'Alger, pp. 17-19 .

(٣٠) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٢٨ .

Arié: op . cit , p . 63 .

(٣١)

Cuentas de Gonzalo de Baeza : Tesorero de Isabel la catòlica, T.I, (1477-1491) . (٣٢)

Madrid , 1951, éd . A . de la Torre , p . 88'

(٣٣) في ، وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى الخامس عشر من الميلادى ، حققه

وقدم له لويس سيكودى لوثينا ، معهد الدراسات الاسلاميه ، مدريد . ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م

ص ١٤٢ - ١٤٤ من النص العربى ، ومن ١٤٤ - ١٤٧ من الترجمة الاسبانية .

Juan Martinez Ruiz : la indumentaria de los Moriscos , pp . 55-124 . (٣٤)

Lévi - provençal : Esp . Mus . T . III , P.424 . (٣٥)

لكسوة الساق حتى أعلى الركبتين ثم ينتقلون نعلا من الجلد مبطنة باللباد في فصل الشتاء (٣٦) ، في حين ينتقلون نعلا غير مرتفعة بدون كعب ، كانت تترك رقة القدم مكشوفة وتسمى سباط (٣٧) لوحة رقم ٦ ، أو يتخذون نعلا من الخشب بأحزمة من الجلد (قبقاب) (٣٨) ، لوحة رقم ٧ ، أو من القنب أو الحلفاء مزودة بمشبك وتعرف بالقرق (٣٩) لوحة رقم ٨ في فصل الصيف ، ففي اللوحة رقم ٣ يظهر فيها المدجنون وهم ينتقلون أمداسا سوداء مقدمتها مدببة ، حيث أن الأوامر الاشبيلية الصادرة في عام ١٢٥٢ م قد حرمت عليهم ارتداء الامداس البيضاء أو المذهبة (٤٠) ، لذلك اضطر المدجنون إلى مسايرة الوضع السائد في قشتالة (٤١) .

أما فيما يتعلق بغطاء الرأس عند المدجنين ، فنستدل مما أوردته المصادر العربية أن الرجال في شرق الأندلس كانوا يتركون رؤوسهم مكشوفة ، وفي ذلك

(٣٦) انظر :

Los documentos arabes inédit sus la vie sociale et économique en Occident musulman au Moyen-Age , Publiés par Lévi - Provençal , Le caire , 1955 , p. 73 .

Dozy : Suppl , T.I , P. 25

(٣٧)

(٣٨) عن القبقاب انظر :

Dazy : Suppl . t.II, P.303

Ouaniba Baghli : chaussures traditionnelles

Algeriennes , P . 43 .

(٣٩) عن القرق ، انظر :

Oliver Asin (J.) : Quercus en la Espana musulmana , P. 59 , N°3 .

Fernandez y González : Estado social y politico de los Mudejares de castilla , (٤٠)

Madrid , 1866 , p . 127 .

(٤١) عن الامداس التي عثر عليها في القبور الملكية في دير أوليجاس (Burgos) Manastère

de las Huelgas والتي ترجع إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي

مثلت هذا الشكل المديب الذي أصبح الاستخدام الشائع في قشتالة في القرن السابع

الهجري / الثالث عشر الميلادي ، انظر :

Puiggari (J) : Estudios de indumentaria Espanala , concreta y compareta

Barcelona , 1890 , P . 29 .

يقول ابن سعيد المغربي : " وأما زى أهل الاندلس فالغالب عليهم ترك العمام ،
لا سيما فى شرق الاندلس ... وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ، ولقد رأيت عزيز بن
خطاب أكبر عالم بمروسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان وإليه الإشارة ، وقد
خطب له بالملك فى تلك الجهة ، وهو حاسر الرأس وشبيه قد غلب على سواد شعره
، وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو غرب ،
وابن هود الذى ملك الاندلس فى عصرنا رأيت فى جميع أحواله ببلاد الاندلس وهو
بون عمامه (٤٢) . كذلك كان ارتداء العمامة نادرا فى مملكة بنى نصر فى عهد
الامير محمد الأول الذى كان يذهب وجنوده حاسرى الرؤوس (٤٣) ، وإن كان
ارتداء العمامة قد أصبح مظهرا رئيسيا لرجال القضاء والفقهاء والعلماء ، والأقلية
منهم كان يغطيها بكوفية من الكتان أو شاشية من اللباد (٤٤) . ثم تطورت العمامة
فأصبحت تغطى الرأس فقط إذ أصبحت تشبه القبعة لوحه رقم ١ ، وكانت تتميز
بطاقيه ذات لون غامق بشكل مسحوب ظاهر من قطعة القماش البيضاء التى كانت
تغطى الرأس . أما العمامة التقليدية فكانت ترخى على الخدين وتدور حول الرقبة
وتتسدل على الكتفين وهذا ما يظهر فى اللوحة رقم ٥ التى يظهر فيها المحارب
المسلم وهو جالس فى خيمة ويتمنطق بزناىر يثبت فيه سيف ويلعب الشطرنج مع
فارسي مسيحي .

(٤٢) فى ، المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ، وقارن مذكرته

Arié : le costume musulmans , p . 64

(٤٣) فى ، المقرئ : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٣ .

(٤٤) الشاشية وهى الطاقية التى توضع فوق الرأس ويلف حولها قطعة من القماش لتكون بهذه
الطريقة العمامة ، انظر

Dozy : vêtemant , p . 240 .

أما عن ألبسة السيدات المدجنات فتستدل من بعض لوحات مخطوط ألعاب الشطرنج (٤٥) ، السيدة المدجنة مرتدية جبة متواضعة وردية ، ورأسها مغطى بخمار شاش رقيق ينسدل على الوجه فيغطيه .

وكانت السيدات ينتعلن أمداسا مديبة ذات لون أسود تشابه أمداس الرجال ، ويظهر في اللوحة رقم ٤ مجموعة من سيدات بلاط ألفونسو العاشر يرتدين جبابا فضفاضة من الحرير الرمادي أو الوردى بإقالتها وأكمامها مزينة بشرائط ، وقميص من الشاش الشفاف المطرز بخيوط من الذهب ، والوجه سافر ، والشعر مربوط بشريط بسيط " وقاية " أو مغطى بمنديل مسرقل ينسدل على الجبهة بطرف مذهب أو مفضض ، ولفافة تدور حول الرأس تثبت بها طرحه فضفاضة تسمى المقنعة طرفها ينزل بفرنشة سوداء على أكتاف العازقة على العود .

ويستدل من النقوش المتأخرة من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أن السيدات المدجنات كن يرتدين قبعات مستديرة أشبه بالقلانس ينسدل من تحتها على الكتفين ، وإن كانت بعضهن يظهرن حاسرات الرؤوس (٤٦) .

ومن كتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا إسبانيا خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، يمكننا أن نتعرف على ألبسة السيدات المدجنات ، فقد لاحظ الرحالة التشيكي البارون ليون دي روز ميثال الذي زار إسبانيا عام ١٤٦٦ ، ونزل في أحد قصور مدينة بورجس (Burgos) ضيفا على أحد نبلائها ، أن سيدات وآنسات هذا القصر يرتديات ألبستهن وفقا للزى

(٤٥) لوحة رقم ٣٨ يمين ، وانظر أيضا :

lévi - provençal : Esp. Mus .t. III , p.424 .

(٤٦) السيد عبد العزيز سالم : صور من المجتمع الاندلسي ص ٨١ .

الاسلامي (٤٧) . كما لاحظ الرحالة الالماني جيروونومو مونزر Jerònimo Munzer الذي زار غرناطة عام ١٤٩٤ م أن ملابس السيدات المسلمات كانت تتكون من قميص أبيض من الكتان أو القطن أو الحرير وسروال مسترسل به طيات ، ويلبسن فوقهما رداء من قماش أبيض من الكتان ، فوشاح من لون أبيض يغطي الرأس والجسم (٤٨) . أما الرحالة الالماني جوهان لانج Johanne Lange الذي زار غرناطة عام ١٥٢٦ فقط لاحظ أن سيدات وأنسات المدينة كن يرتدين سراويل فضفاضة ويغطين أرجلهن بجوارب سميكة كثيرة الطيات ، ويرتدين فوقه رداء لعله ملوطه (٤٩) . ونستنتج مما ذكره الرحالة الايطالي أندريه نافا جيرو Andrea Navagero الذي زار غرناطة عام ١٥٢٦ م أن السيدات المسلمات كن يلبسن قمصانا وسراويل من قماش مكبوس فوقها معطف قصير مطرز هو وأكمامه بالحرير يغطيه عباءة بيضاء طويلة من القماش ، كما لاحظ أن السيدات المسلمات من الطبقة الراقية كانت ياقات قمصانهن موشاة بزخارف من الذهب ، وكانت العباءة أيضا مكسوة بزخارف هندسية بخيوط من الذهب ، كما يضعن فوق رؤوسهن قبعات سوداء ، أما غطاء الساق والقدمين فكن يلبسن جوارب مجمدة تجعل الركبة ضخمة جدا ، ويتعلن بأمداس مطرزة بالحرير (٥٠) .

Fabie (A.B) : viajes por Espana de Jorge de ringhen , de Baron leon. de (٤٧) Rosmihal de Blanta de Fransisco Guiccordini y de Andres Navagero , Madrid , 1877 , P . 157 ' .

أحمد الطوخي :مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٥٦ .

. Arié (R) : Acerca del traje musulman en Espana desde La caída de Granada (٤٨) hasta la expulsión de los Moriscos , en , Revista del Enstituto De Estudios Islamicos en Madrid Vol X III . Madrid , 1965-1966 . PP . 106-107 .

Ibid , P.110,N^o1 . (٤٩)

Viaje a Espana del Magnifico senor Navagero (1524 - 1526), Trad . Alonso (٥٠) Gamo , Valencia , 1951 , PP . 73-74 ' .

Arie : op . Cit , PP . 109 -110 ' .

أحمد الطوخي : غرناطة الاسلامية في نظر الرحالة الاجانب ، مجلة أوراق ، العدد الرابع ، مدريد ، ١٩٨١ ، ص ١٤٢ .

أما عن أدوات الزينة للسيدات المدجنات ، فيذكر جوثالث بالنتيا أن السيدات المدجنات كن يتزين بعقود وبأشفاف ودمالج وخواتم لوحة ٤ . وتشير الوثائق أن أدوات الزينة كانت من الذهب الخالص عند الطبقة الراقية ، ومن الفضة عند طبقة العامة (٥١) ، وهذا ليس بغريب على السيدات المسلمات ، فيصف ابن الخطيب مبالغة السيدات المسلمات الغرناطيات في التزين بالأصباغ والذهب والديباج حتى وصلوا إلى حد التماجن في أشكال الحلى إلى غاية بعيدة (٥٢) . ولقد بلغ اتقان المدجنين في صناعة الصاغة درجة عالية من المهارة حتى أن ألفونسو العاشر استعان ببعضهم ، وقد احتفظت الوثائق المعاصرة بأسماء ثلاثة منهم هم : Mahomat . Abrahem , Hamet (٥٣) .

وعلى الرغم من ذلك فإن السيدات المدجنات لم يكن يتمتعن بحرية كاملة في ارتداء ما يحلو لهن ، فنستنتج مما ذكرته المصادر الأسبانية أنه كان محظورا عليهن إرتداء الألبسة المطرزة حول الرقبة بخيوط ذهبية أو فضية أو حريرية حتى عهد ألفونسو العاشر ، ففي الكتابات الأرشييفية المملأة عام ١٢٥٢ م منح هذا الملك السيدات المدجنات حرية ارتداء أقمشة ذات ألوان بيضاء أو حمراء أو خضراء ، وكذلك ارتداء أردية مبطنه بالفرو وأمداس بيضاء ومذهبة ، ولم تضاف اجتماعات شريش Jerez عام ١٢٦٨ م سوى السماح للسيدات المدجنات بارتداء فرو القاقم والأقمشة ذات الألوان القرمزية أو البرتقالية ، فضلا عن حرية استخدام الاساور الذهبية (٥٤) .

(٥١) Gonzalez Palencia: los Mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid 1930 , t.I , P. 387 y t. III , P . 283 .

Ruiz : vestido y adorno de la mujer musulmana , PP. 128-129 .

(٥٢) اللحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق الاستاذ محي الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٢٩ ؛ احمد الطوخى : مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة ص ٥٧

(٥٣) Ballesteres y Baretta : Le Joyeres moros de Alfonso El sabio , Al-Andalus , (٥٣) Vol , VII , 1942 , Fasc 2 , PP . 475 - 477 .

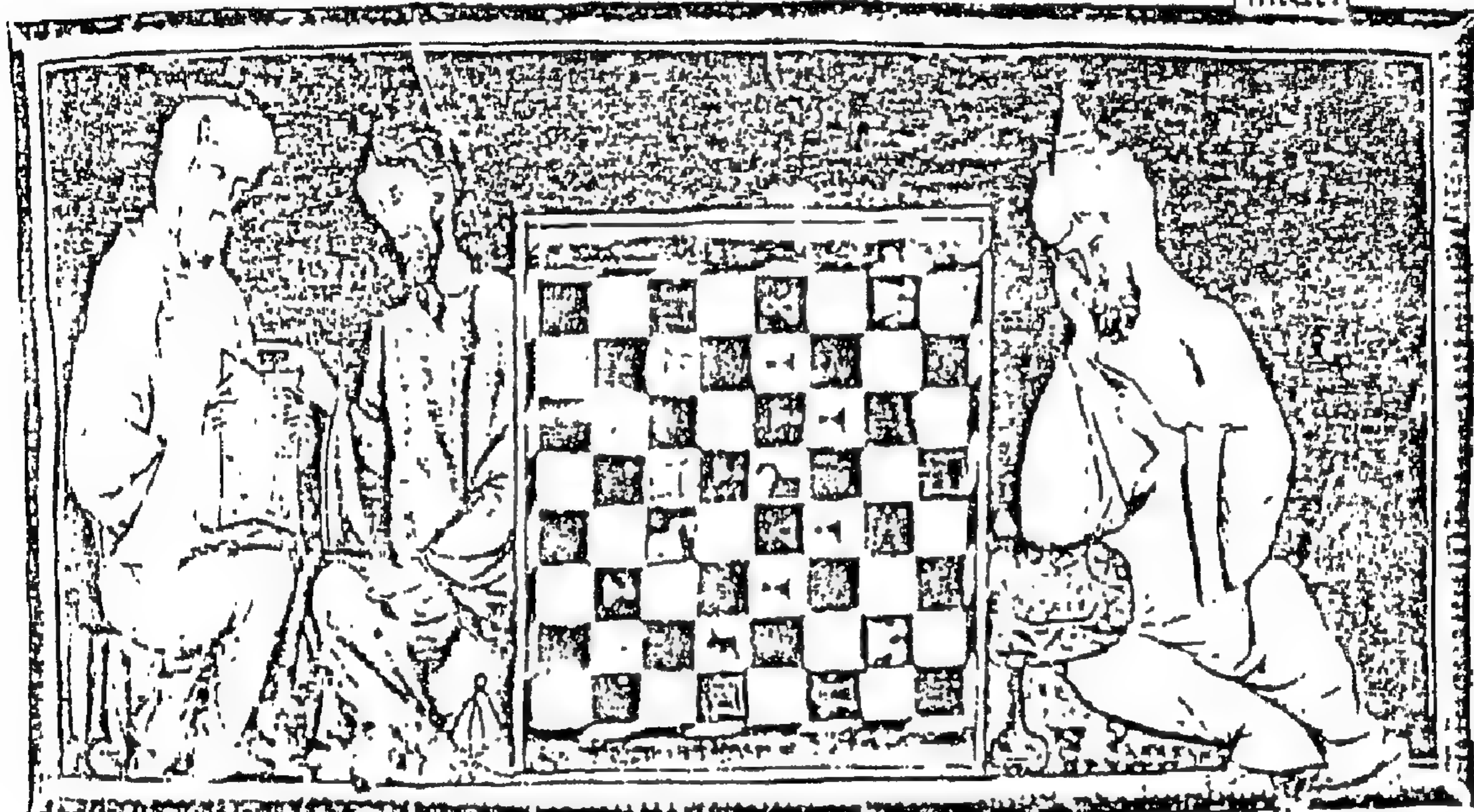
Eernandez y Gonzalez : op . Cit . P . 127 .

(٥٤)

PLANCHE I

este es un juego de el millo pero al
vianco: a entre el rey blanco en la
segunda casa de lo millo. El vi. m.
este es la via que es el roque pieto e
la casa del millo lance a entre el

neg: al rey blanco. es el rey pero in tra al
pino mego rito el via es el uno de los ro
que blanco e casa del rey pero e e casa el
calle pero. E este es el depar mero
este mego: este es la figura del enuola
melo.

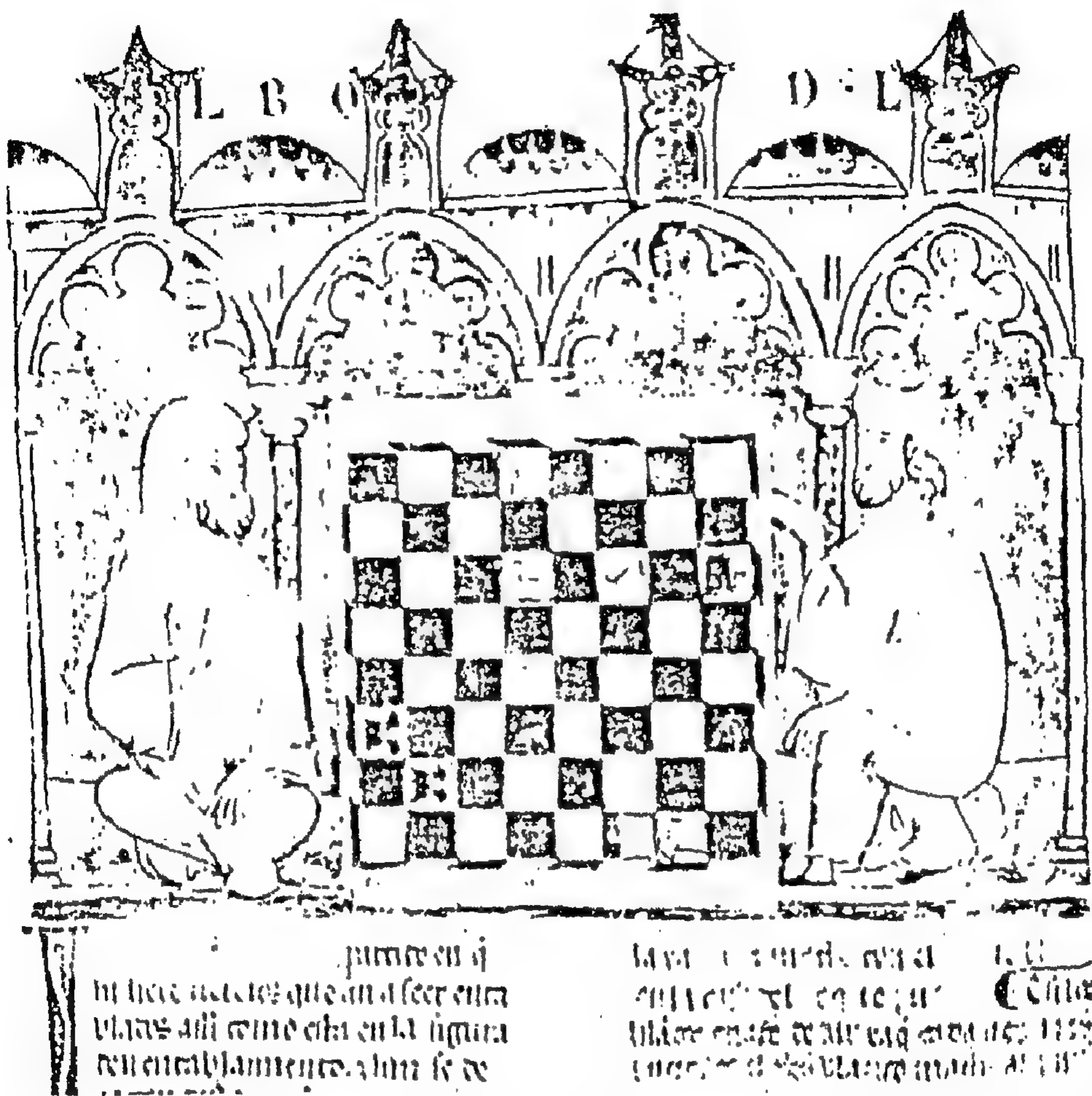


Este es uno mego reputado en el
viii. de los q. an a la casa blanda
asi como este en la figura del en
cubamero. an se de jugar asi.
De blanco megan pino

no lo sepieten alotar. El pino me
go dar la via con el rey blanco a este e
la segunda casa del alfu pieto. pino
en la segunda casa del ro. pino e en la
a ro. me e la casa de su alf.

لوحة رقم (١)

(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٤٤)



Miniatures du *Libro del Ajedrez* (Bibliothèque du Monastère de l'Escurial).

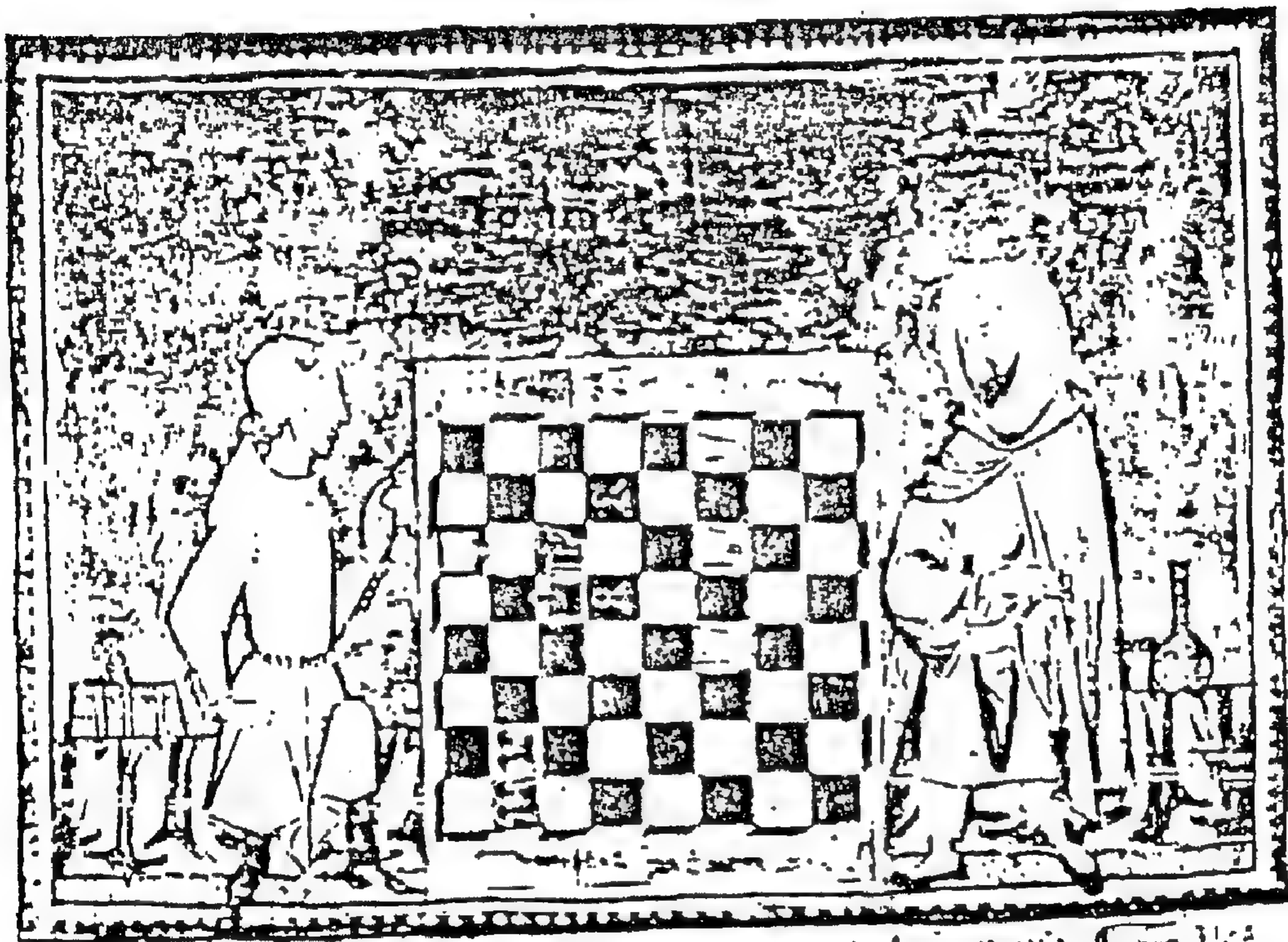
لوحة رقم (٢)

(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٤٤)

PLANCHE II

L'UO

DCL

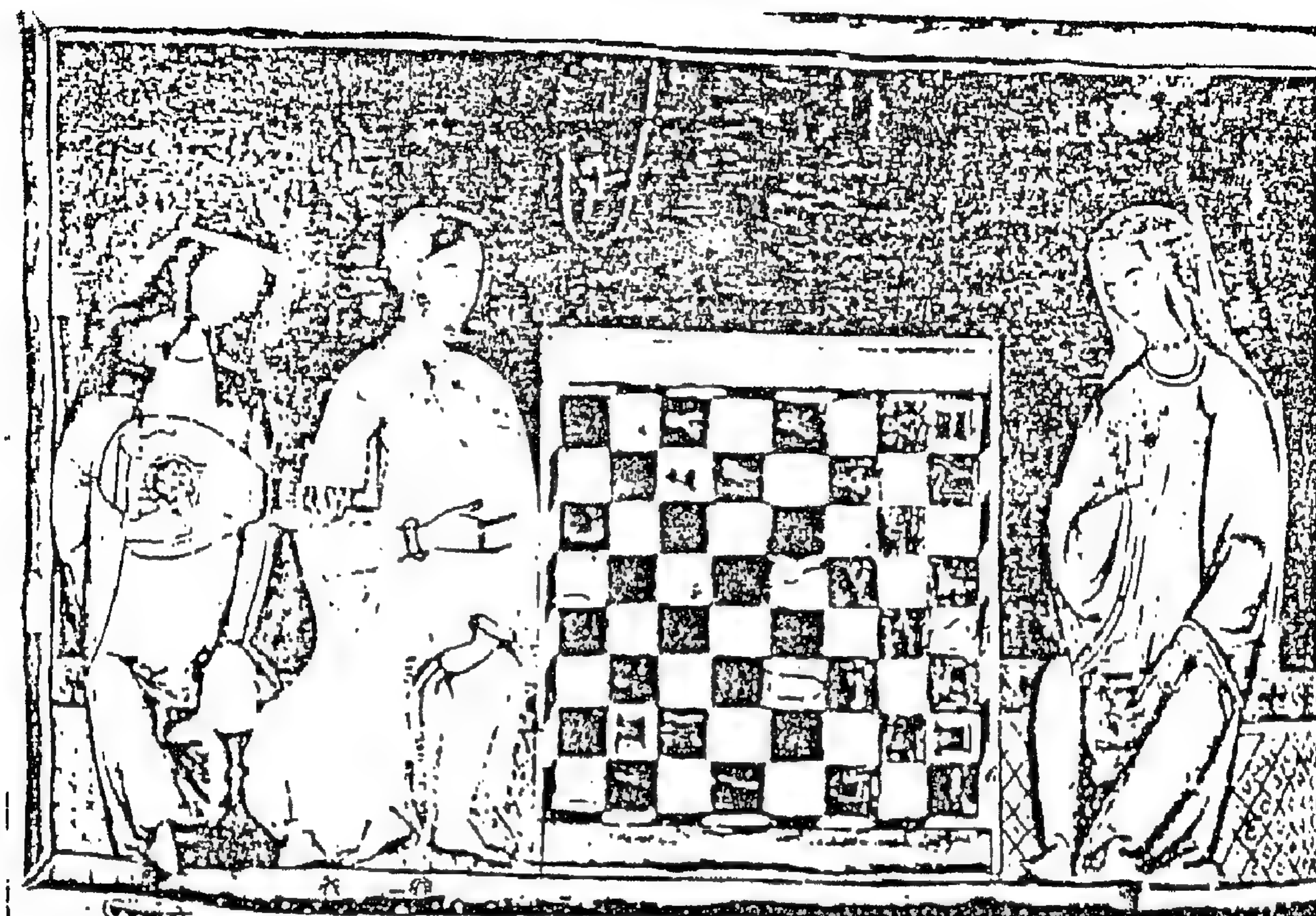


Ute et mo uige depueto en que
la exenue neltres quelan a
ser enablates all como citan en

de en la la teta alla. Ute et mo
blan de l'ga en poutre mltu mltu
a ser poutre en la teta alla

لوحة رقم (٣)

(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٤٤)



Este es el juego de ajedrez en que
 juegan los reyes que an a ser en blacos así co
 mo en el de la casa de los reyes que an a ser en
 blancos.

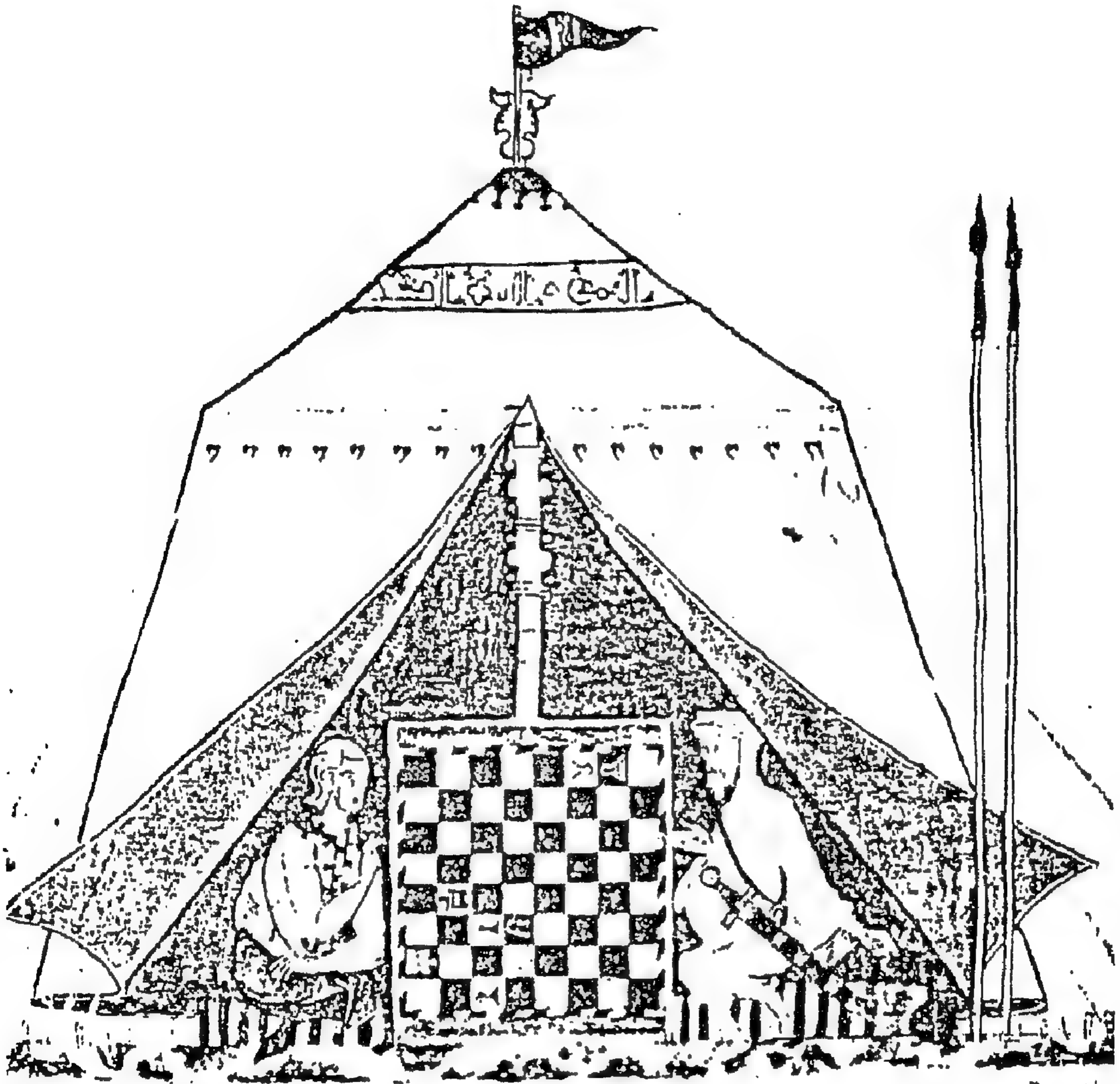
Este juego en la segunda casa de los reyes
 juegan. El quarto juego de la casa de
 los reyes que an a ser en blancos en la

Miniatures du *Libro del Ajedrez* (Bib. de la Reine du Monastère de l'Escurial).
 d. Fol. v. verso.

Vol. 12

لوحة رقم (٤)

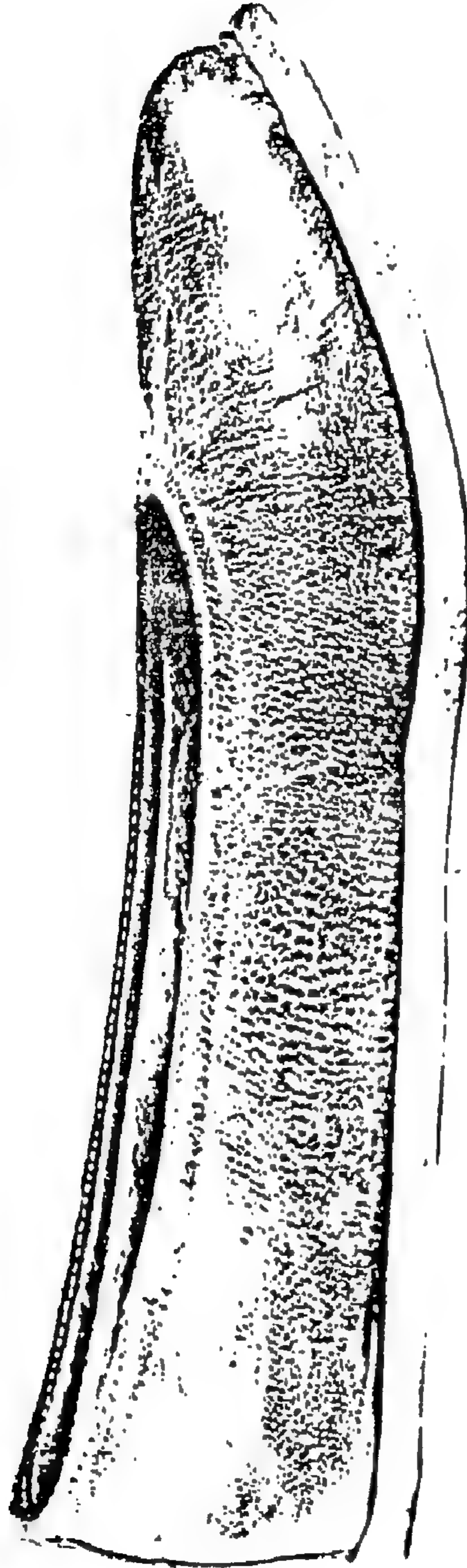
(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ١٨)



Miniature du *Libro del Ajedrez* (Bibliothèque du Monastère de l'Escurial.)
Fol. 61 recto.

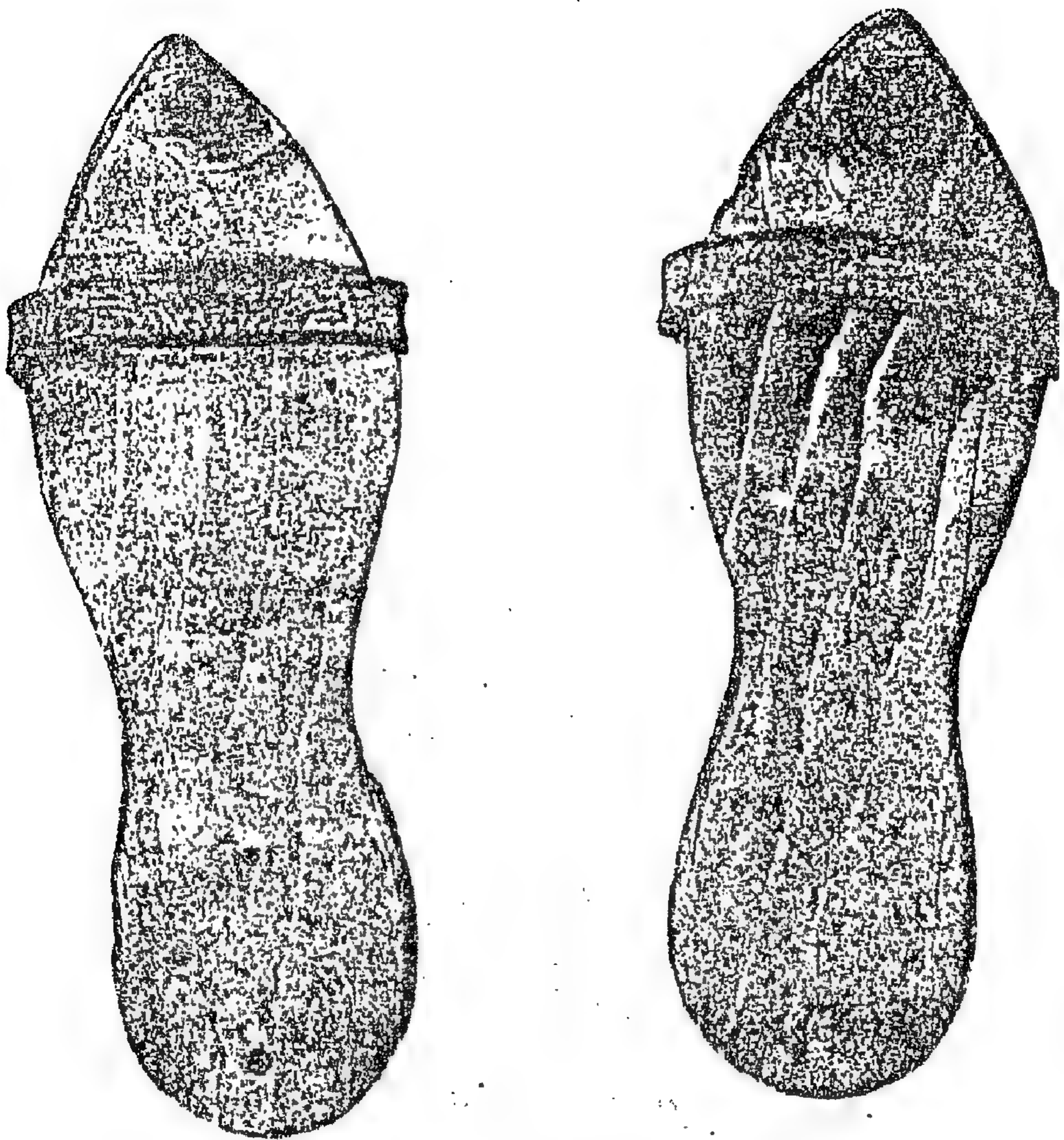
لوحة رقم (٥)

(عن مخطوطة ألعاب الشطرنج لوحة رقم ٦٤)



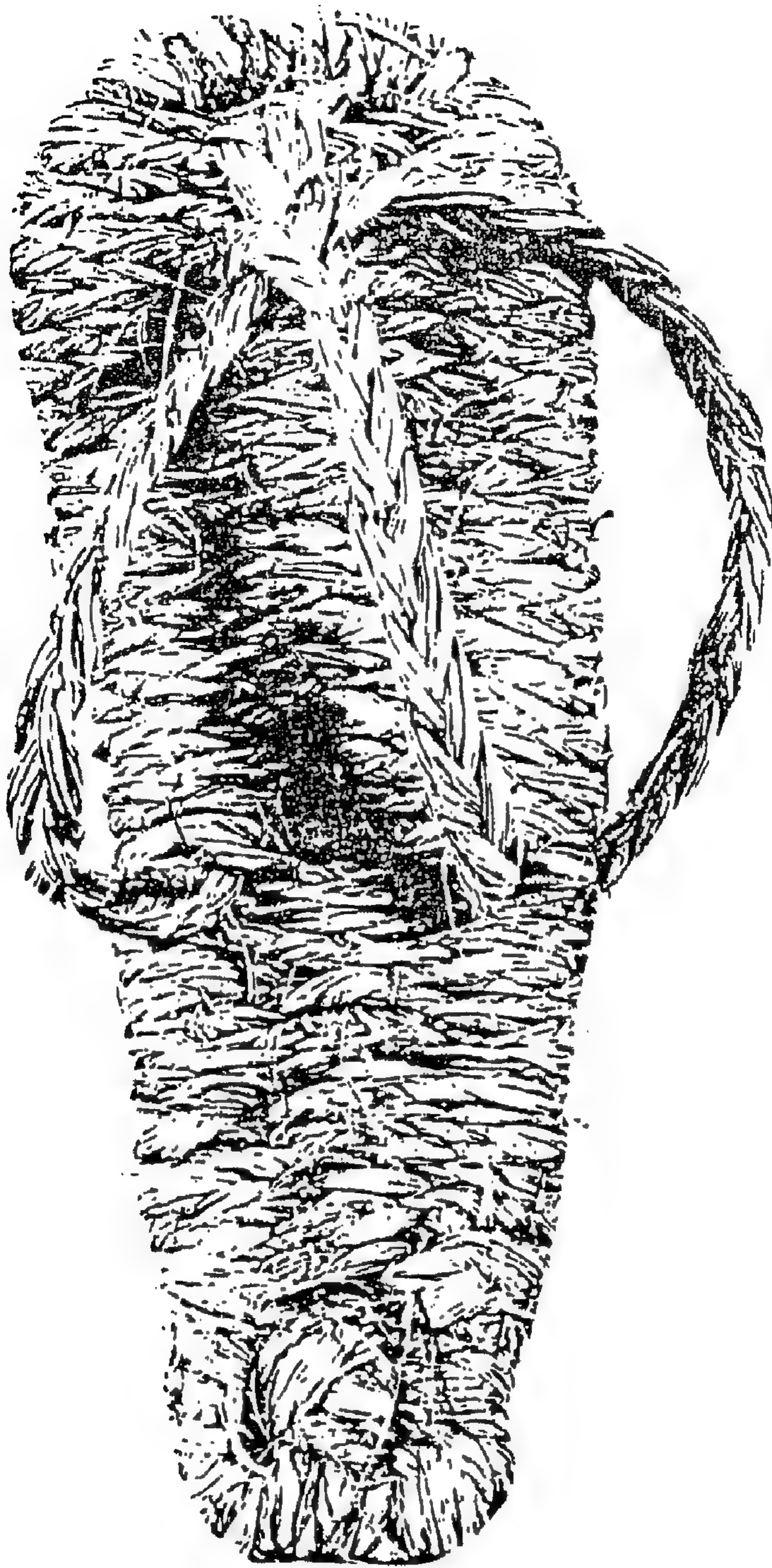
Pl. XI. — Çobbat

لوحة رقم (٦)
(عن كتاب الأحذية التقليدية الجزائرية)



Pl. XVI. — Kab-Kab Plat

لوحة رقم (٧)
(عن كتاب الأحذية التقليدية الجزائرية)



Pl. XXII. — Naïl d'Alfa.

لوحة رقم (٨)

(عن كتاب الأحذية التقليدية الجزائرية)

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
١٩	القسم الأول : دراسات فى التاريخ السياسى للاندلس
	البحث الأول : مغيث الرومى وبنوه : دورهم السياسى
١١	والحضارى فى المغرب والاندلس .
	البحث الثانى : حول السفارات الاندلسية إلى دول أوربا
٥٧	١٣٨ - ٣٦٦ هـ / ٧٥٥ - ٧٩٦ م .
١١١	البحث الثالث : قضاة ثوار فى الاندلس
	البحث الرابع : أضواء على العلاقات الحفصية الأروغونية
١٥٧	٦٢٨ - ٦٨٤ هـ / ١٢٣٠ - ١٢٨٥ م .
	البحث الخامس : غزوة البيازنة والقطلان لجزيرتى يابسة وميورقة
١٩١	الاسلاميتين ٥٠٨ - ٥٠٩ هـ / ١١١٤ - ١١١٦ م .
	البحث السادس : الحملة النصرانية على مدينة المرية الاسلامية
	وسيادة القشتاليين عليها ٥٤٢ - ٥٢٢ هـ /
٢٢٩	١١٤٧ - ١١٥٧ م .
٢٦٥	القسم الثانى : دراسات فى الحضارة الاندلسية
	البحث الأول : التأثيرات الشامية فى حضارة الاندلس على
	الامير عبد الرحمن الداخل ١٢٨ هـ
٢٦٧	١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م .
	البحث الثانى : قضاة الجماعة بالاندلس فى عصر الامارة
	الاموية ١٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م .
٢٨٥	
٣٢٣	البحث الثالث : أبو عبيد البكرى والبكريون فى ولبة وشلطين .
٣٥٧	البحث الرابع : أضواء على النشاط العلمى فى الاندلس .
٣٧٥	البحث الخامس : ملاحظات حول ألبس المدجنين فى اسبانيا .

